

عصفور النار..
دراسة تحليلية

لماذا أسامة أنور عكاشة؟

من السهل جدا أن يطرح هذا السؤال، ومن السهل جدا أن نرد بإجابة تحمل السؤال العكسي: ولماذا لا يكون أسامة أنور عكاشة؟ ولكنني سأفضل أن أطرح سؤالاً آخر: ومن يكون غير أسامة أنور عكاشة؟

أسامة أنور عكاشة هو بحق أحد أهم رواد كتابة الدراما التلفزيونية في مصر والعالم العربي.. لم يكن من الجيل الأول نعم، ولكنه من الجيل الذي أرسى القواعد الصلبة لهذا الفن، وجعل له شكله المميز. وقد ارتبط اسم أسامة أنور عكاشة بالدراما التلفزيونية رغم كونه كاتباً للقصة والرواية والمسرحية والسيناريو السينمائي والمقال أيضاً.. كتب أسامة أنور عكاشة كل هذا، ولكنك حين تذكر اسمه، فإن نوعاً واحداً من كل هذه الأنواع الأدبية سيقفز إلى رأسك، وهو الدراما التلفزيونية.

ربما هذا ما جعل عكاشة نفسه يقول: "لا يوجد كاتب يمكن أن يبدع في جميع المجالات بالقدر نفسه من النجاح. لكل مبدع مجال يمكن أن يبدع فيه، ويستطيع من خلاله أن يحقق نجاحاً لا يمكن أن يحققه في مجال آخر. خذ مثلاً على ذلك الكاتب الكبير نجيب محفوظ فهو كاتب رواية لا يشق له غبار، وهو من أهم من أسهموا في كتابة وتأسيس الرواية العربية، وقد كتب حوالي ٤٠ سيناريو للسينما، ومع ذلك فمجال تفوقه الأساسي هو فن الرواية. كذلك الحال مع المرحوم الدكتور يوسف إدريس الذي أبدع في مجال القصة القصيرة، وهكذا يمكن أن نقول إن لكل كاتب مجالاً خاصاً يتميز فيه، ومجالات أخرى يسهم فيها، والتفوق في مجال لا يمنع الكاتب من المساهمة في مجالات أخرى، وبالتالي فإن مجال إسهامي الأكبر هو التلفزيون، وهذا لا

يمنعني من الكتابة للسينما والمسرح“^{٣٧}.

إن هذه الكلمات التي قالها عكاشة ليست دليلاً فقط على تميزه الأكبر في كتابة الدراما التلفزيونية واعترافه هو نفسه بذلك، وإنما تعبر كذلك عن وعي واضح باختلاف تقنيات الكتابة التلفزيونية عن غيرها من سائر أنواع الكتابة الأدبية الأخرى. إن كاتب القصة والرواية والمسرحية والسيناريو السينمائي والدراما التلفزيونية يدرك جيداً أن لكل من هذه الأنواع خصوصيتها، ويعرف جيداً أن أهم ما يميزه كان هذا النوع تحديداً.. ذلك النوع الذي أعطاه عكاشة كثيراً ليؤسس شكلاً مميزاً له، فرد بإعطائه الشهرة والنجاح والتميز.

نعم حققت الدراما التلفزيونية نجاحاً منذ بدايتها في مطلع الستينيات، ولكنه النجاح المرتكن على شغف جماهيري بهذا الجهاز الجديد الذي اقتحم البيوت المصرية.. إنه الشغف الذي جعل المصريين يلتفون حول هذا الجهاز لقضاء وقت ممتع يخرجهم من متاعب الحياة ومشاغلها.. لا يمكن بالطبع أن تكون هذه قاعدة عامة، ولكنها تمثل السواد الأعظم والأغلب الأعم. ومن ثم فإن أسامة أنور عكاشة كان بمثابة نقطة التحول في مسار الدراما التلفزيونية.. لقد تحول بها من حال إلى حال.. من حال التسلية والمتعة وتقضية وقت الفراغ، من خلال بعض الأعمال الدرامية القائمة على الإثارة مثل المسلسلات البوليسية، وعلى رأسها مثلاً مسلسل “القط الأسود”^{٣٨}. أو من خلال أعمال اجتماعية كوميدية مثل “عادات وتقاليد”^{٣٩} و “فرصة

٣٧ حوار صحفي أجراه الصحفي أشرف شهاب مع الكاتب أسامة أنور عكاشة، ونشر في «فلسطين» تحت عنوان «أسامة أنور عكاشة: الواقع أغنى من خيال أي مؤلف» في ٨ يناير عام ٢٠٠٥. منشور على موقع «ديوان العرب» على شبكة الإنترنت، وهو موقع لمجلة ثقافية وأدبية وفكرية تأسس عام ١٩٩٨. www.diwanaalarab.com

diwanalarab.com

٣٨ مسلسل «القط الأسود» مسلسل بوليسي من تأليف محمد المازني وإخراج عادل صادق. إنتاج ١٩٦٤.

٣٩ مسلسل «عادات وتقاليد» من تأليف عبد الله بركات وإخراج حمادة عبد الوهاب. إنتاج ١٩٧٢.

العمر“^{٤٠} أو حتى أعمال مست القلب والوجدان بما فيها من مواقف إنسانية تثير مشاعر المتلقي مثل ”أبنائي الأعزاء شكرا“^{٤١}. أقول إن عكاشة حول المسار من ذلك إلى خطاب جديد يرصد أزمت المجتمع الحقيقية، ويقدم شخصياته التي يراها المتلقي في كل مكان حوله، ملبسا إياها ثوبا جديدا.. لم يكتفِ عكاشة بهذا، فقد خاطب العقل مع الوجدان والقلب.. طرح النقد والأسئلة والقضايا، وإلى جانب ذلك كله لم ينسَ التسلية والمتعة.

لقد استمرت الفترة الأولى للدراما التلفزيونية طوال الستينيات والسبعينيات، وهي الفترة ذاتها التي قدم فيها عكاشة نفسه أول أعماله الدرامية.. ولكن البداية الحققة لتغيير المسار كانت في النصف الأول من الثمانينيات من خلال مسلسل ”الشهد والدموع“^{٤٢} ذلك المسلسل الذي حقق نجاحا غير مسبوق في هذا الوقت، وهو ما جعل الكثيرين يعدونه نقطة التحول الحقيقية في تاريخ الدراما التلفزيونية العربية.

لم يكن غريبا أن يقول عكاشة نفسه: ”كل ما يمكنني قوله إن الناس بدأت بعد مسلسل ”الشهد والدموع“ تتساءل عن اسم الكاتب. أصبحوا يبحثون عن اسم الكاتب مثلما يبحثون عن اسم الممثل. وأنا أحب أن يهتم الناس بالمؤلف، وأن يفهموا القيمة الحقيقية لإبداعه.. القيمة التي تجعل من النص الذي يكتبه أساسا لكل ما يشاهدونه فيما بعد على الشاشة“^{٤٣}.

ومن جديد تضيء لنا كلمات عكاشة سبيلا إلى بعض الأفكار التي

٤٠ مسلسل «فرصة العمر» من تأليف لينين الرملي وإخراج أحمد بدر الدين. إنتاج ١٩٧٦.

٤١ مسلسل «أبنائي الأعزاء شكرا» من تأليف عصام الجمبلاطي وإخراج محمد فاضل. إنتاج ١٩٧٩.

٤٢ مسلسل الشهد والدموع من تأليف أسامة أنور عكاشة وإخراج إسماعيل عبد الحافظ، وقد قدم في جزأين، أولهما إنتاج ١٩٨٥، والثاني إنتاج ١٩٨٥.

٤٣ حوار صحفي أجراه الصحفي أشرف شهاب مع الكاتب أسامة أنور عكاشة. مصدر سابق.

تمثل أهمية كبيرة.. يؤكد عكاشة في كلماته تلك أن النص هو الأساس في الدراما التلفزيونية، وعلى الجميع (يتحدث هنا عن المشاهد أو المتلقي، ولكن من باب أولى أن يكون الناقد كذلك) أن يلتفت إلى ذلك، وأن يلتفتوا كذلك إلى القيمة الحقيقية لإبداعه. ورغم كلمات عكاشة هذه، فإن المدقق سيعي شيئا بالغ الأهمية وهي أن النص المكتوب في الحقيقة يمثل شيئا غير الذي يقدم على الشاشة في نهاية المطاف.. نعم هو أساسه ولكنه غيره في ذات الوقت. وهذا يلقي بنا إلى مشكلة كبيرة، وهي من أين لنا بالنص الأول، ونحن من نحاول التركيز -تلبية لما رآه عكاشة نفسه- على ذلك النص؟ ولعلنا نلتمس في كلمات عكاشة نفسه أيضا سبيلا للإجابة عن هذا السؤال.

يقول عكاشة في رد على سؤال هل تتصور أن من يشاهد عملا جيدا يمكن أن يعود لقراءته: "لا نستبعد ذلك لا سيما وأن من يكتب يضع نصب عينيه دائما أنه يؤسس كما قلت لأدب الدراما التلفزيونية.. ودعني أذكرك أننا جميعا استمتعنا بقراءة مسرح شكسبير وغيره قبل أن نشاهده.. استمتعنا بقراءته رغم أنه كتب خصيصا للمسرح.. دعني أضف أنني أطمع أيضا في أن يقرأه من لم تتح له فرصة مشاهدته، وبالنسبة للقارئ المتخصص أيضا يمكن له أيضا مقارنة العمل المكتوب بما عرض على الشاشة، ولا تهمل أيضا في حساباتك الراغبين في تعلم كتابة السيناريو من الشباب.. يمكنهم التدريب والاستفادة أيضا"^{٤٤}.

يلخص عكاشة في هذه الكلمات أهمية نشر نص / أدب الدراما التلفزيونية في أربع نقاط رئيسية، وهي:

١ - الاستمتاع بالقراءة.

٤٤ حوار صحفي أجراه أحمد هاشم مع الكاتب أسامة أنور عكاشة ونشر بمجلة الفن المعاصر - أكاديمية الفنون تحت عنوان «أسامة أنور عكاشة حول الأدب الدرامي وقضايا الواقع»، وهو منشور على موقع أكاديمية الفنون على موقع الإنترنت www.egyptartsacademy.kenanaonline.com

٢- أن يقرأه من لم تتح له فرصة المشاهدة.

٣- أن يتمكن القارئ المتخصص من المقارنة بين العمل المكتوب وما قدم على الشاشة.

٤- أن يتدرب كتاب السيناريو الجدد على الكتابة ويستفيدوا من هذه الأعمال المطبوعة.

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك شيئا يمكننا أن نستشفه من كلمات عكاشة، وإن لم يذكره صراحة، وهو أن يقوم الدارس بدراسة هذا النوع من الأدب.. أدب الدراما التليفزيونية في ذاته، محددًا سماته وخصائصه وما يميزه عن سائر الأنواع الأدبية الأخرى.

ولنعد إلى سؤالنا الذي كنا قد طرحناه، وهو من أين لنا أن نصل لذلك النص الأدبي، وهو النص الذي لم يطبع، ولم يتح للقارئ ولا للناقد ولا للدارس ولا لكاتب السيناريو الشاب؟ من أين لنا به؟ وفي هذا يقول عكاشة: "الأمر يحتاج إلى ناشر متحمس وجريء وهذا ما لا يتوفر"^{٤٥}.

أمام هذا لم يكن أمامنا في دراستنا لهذا النوع من الأدب سوى أن نعود إلى الصورة التي قدم بها العمل على شاشة التليفزيون، محاولين التركيز على النص ذاته دون الانجذاب إلى بقية العناصر التي تكمل الصورة النهائية.. سنحاول التركيز على أساس الدراما التليفزيونية.. على النص ذاته.. نعم قد تفلت منا كلمة عن المخرج أو كلمة عن موسيقي أو شاعر، لكن جل دراستنا ستكون متركزة على النص.. النص فقط.

ولن يفوتنا أبدا كلمة ذكرها عكاشة في ذلك النص الذي وقفنا عنده منذ قليل.. لقد تحدث عن ما أسماه هو نفسه بأدب الدراما التليفزيونية.. لقد كان واعيا بذلك إذن.. لم يكن واعيا فقط بل كان

٤٥ حوار صحفي أجراه أحمد هاشم مع الكاتب أسامة أنور عكاشة. مصدر سابق.

ساعيا إليه منذ البداية، ومرسخا له.. يقول عكاشة في هذا الصدد أيضا: "مع صدور المجموعة القصصية الأولى والثانية لم يكتب عنها سوى كلمات قليلة متناثرة هنا وهناك، ولاحظت أنه بعد وأثناء عرض العمل الأول في التلفزيون تناولته أقلام كثيرة، وقد كتبت فيه أعمدة لبعض كبار الكتاب مشيرة إلى نجاحه وجودته.. هناك فقط أدركت مدى خطورة وتأثير العمل التلفزيوني.. ومن هنا تولدت فكرة مشروع.. كان المشروع هو تأسيس ما يمكن تسميته بأدب الدراما التلفزيونية.. ومع الوعي بمدى انتشار الأمية لدينا فلم لا يشارك من لا يقرأ ولا يكتب في الاطلاع على الأعمال الأدبية من خلال المشاهدة؟ ومن هنا كان الحرص الشديد على اختيار الجملة التلفزيونية، بحيث تكون جملة راقية دون تعقيد تصل في رقيها أو تقترب من اللغة الشعرية، وهذا ما حرصت عليه طوال رحلتي مع الكتابة التلفزيونية"^{٤٦}.

لقد كان أدب الدراما التلفزيونية هو مشروعه الذي سعى إليه منذ البداية.. كان يعرف أننا بصدد عمل أدبي له سمات خاصة وخصوصية تجعله متفردا عن كل الأنواع الأدبية التي تقوم على القص كالقصة والرواية والمسرحية والسيناريو السينمائي.. كان واعيا بهذا ساعيا إليه، ومن حقه الآن أن يجد من يقف لدراسة ذلك النص من المنظور ذاته.. من منظور الأدب، ومن حقنا نحن كذلك أن نرصد مدى قدرته على تأصيل هذا النوع من الأدب.. أدب الدراما التلفزيونية.

ويقدم لنا عكاشة من خلال كلماته تلك أولى خصائصه التي سعى إليها هو نفسه واعترف بها.. إنها الجملة التي تقترب من اللغة الشعرية. عكاشة الذي وصف بأنه كاتب واقعي كان يسعى دوما إلى لغة أقرب إلى الشعرية!! وهل ثمة تعارض بين الأمرين؟ لقد اتهم عكاشة كثيرا بأن جملة ربما ترتفع عن مستوى شخصياته التي

٤٦ حوار صحفي أجراه أحمد هاشم مع الكاتب أسامة أنور عكاشة. مصدر سابق.

يكتبها.. يمكننا أن نقول الآن نعم، كان يفعل ذلك عامدا.. إن عكاشة لم يكن ناقلا لما يحدث في الواقع، فالنقل لا فن فيه ولا إبداع.. كان يلتقط الشخصية من الواقع ليدخلها داخل النسيج الأدبي، ذلك النسيج الذي لن يكون الواقع في ذاته أبدا.. لن تكون إلا تلك الشخصية التي خلقها المبدع داخل نصه الأدبي الدرامي منطقا إياها بلغة أدبية خاصة متفردة عن لغة الواقع مهما اقتربت منه أو جسدت قضاياه.. إنه الأدب وخصوصيته وتفرده.

وما دمنا نتحدث عن واقعية عكاشة، فلا بد أن نعرف ما قاله هو بصدد هذا الأمر.. يقول عكاشة: "أفكاري من واقع الحياة، وأشخاصي هم الناس العاديون الذين نراهم يوميا في الشارع. في إحدى المرات سألني أحد القراء من أين أنتقي أسماء شخصياتي قلت له أنتقيها من الشارع. أنا لا أخترع أسماء ولا أخترع شخصيات أو أحداث. أنا أنهل من الواقع والواقع أغنى من خيال أي مؤلف. وهكذا فالهموم التي أ طرحها في أعمالي هي هموم شعبي، والطموحات هي طموحات شعبي. أنا مرتبط بالناس وبآمالهم وآلامهم وواقعهم. وخيالي يرتبط بالواقع الذي ألمسه كل يوم. خيالي وأفكاري لا ينفصلان عن الواقع. ولن أقبل في يوم من الأيام أو أسمح لنفسي بأن أفكر في غير آلام وآمال شعبي والناس الذين أرتبط بهم"^{٤٧}.

وربما تدفع هذه الكلمات البعض للقول بأن فيها تعارضا بينها وما تحدثنا عنه سابقا من أن شخصيات عكاشة مأخوذة من الواقع ولكنها ليست هي ذاتها.. الحقيقة أنه لا يوجد تعارض أبدا.. إن المدقق في كلمات عكاشة سيجد ثنائية واضحة.. الواقع والخيال.. نعم هو ينهل من الواقع كما يقول، ولكنه في النهاية يملك خياله الخاص.. نعم خياله لا ينفصل عن الواقع، ولكنه موجود، وليس هو الواقع نفسه بطبيعة الأمر.. الأمر أشبه بفعل إرادي من عكاشة ينتقي من

٤٧ حوار صحفي أجراه الصحفي أشرف شهاب مع الكاتب أسامة أنور عاكشة. مصدر سابق.

خلاله شخصياته من الواقع ثم يعرضها على خياله وأفكاره لتمر من خلاهما وتخرج منهما محملة بالكثير والكثير، فتصير غير ما كانت.. تصبح شخصية جديدة جذورها الواقع، ولكنها لها طبيعتها الخاصة والمميزة التي تعود إلى خيال خالقها.

ولننظر إلى إجابة أخرى لعكاشة تحمل في طياتها تمثيلا لما نريد أن نقوله.. كان السؤال عن الشخصية المصرية.. هويتها وتكوينها.. وأنها كانت دائما نصب أعين عكاشة، ولكن مع ملاحظة اختلاف التكوين لتلك الشخصية من عمل لآخر. وجاءت الإجابة كالتالي: "في مسلسل أرابيسك كانت هناك مرحلة الحيرة والتساؤل حول الانتماء.. وأحيلك إلى وقوف "حسن أرابيسك" في نهاية المسلسل..... يقف حسن متسائلا: "أنا مين؟" وأنا شخصا معجب بتشبيه الدكتور "جمال حمدان" لمصر بالمعدة من حيث قدرتها على الهضم والامتصاص.. والحادث بالفعل أن مصر هضمت وامتصت واستوعبت كل من دخل إليها.. تأثرت به؟ نعم.. ولكن بقدر، وأثرت هي في الجميع تأثيرا كبيرا إلى حد تمصر الكثير منهم، وحينما نساfer نجد بعض الخواجات يكاد يكي من شدة الحنين إلى مصر.. أريد أن أصل إلى أن الشخصية في حقيقتها هي مزيج من كل هؤلاء مع ملاحظة أنها كانت تأخذ بقدر ما تريد فقط لتظل مصريتها في النهاية هي الغالبة والمتسيدة"^{٤٨}.

ربما لا يلتفت البعض إلى مقصدنا من اختيار هذه الكلمات التي قالها عكاشة.. إن عكاشة هنا حين تحدث عن شخصية من شخصياته الواقعية التي نراها في الشارع المصري، وهي شخصية حسن أرابيسك، لم يتحدث مطلقا عن ذلك الشخص الذي نراه في الشارع ولا حتى تلك الشخصية التي كتبها هو.. إنه تحدث عن أفكاره هو.. عما يؤمن به ويعتقده.. عما يريد تقديمه.. الشخصية مأخوذة من الواقع نعم.. القضية من الواقع وإليه نعم.. ولكنها في النهاية ملك لخياله

٤٨ حوار صحفي أجراه أحمد هاشم مع الكاتب أسامة أنور عكاشة. مصدر سابق.

هو.. تُحْمَلُ بأفكاره هو ورؤاه هو ومعتقداته هو، ولكن ذلك يجب أن يكون متسقا مع الشخصية وأهدافها وتاريخها وملاحظها في الوقت ذاته.. هذه هي الدراما التلفزيونية عند عكاشة، أو لنقل إن هذا هو الأدب عموما من منظوره.

كان كل ما قلناه سببا لاختيارنا عكاشة ليكون مثالا ونموذجا لأولى دراساتنا للدراما التلفزيونية وخصائصها التي تميزها باعتبارها أدبا. أقول إنها أولى دراساتنا لأن أدب الدراما التلفزيونية عامة وأدب الدراما التلفزيونية عند عكاشة خاصة تستحق الكثير والكثير من الدراسات، التي سنسعى لأن نقوم بعدد منها فيما هو قادم، إن كان في العمر بقية.

وقبل أن نتقل إلى العمل الذي اخترناه ليكون مجال الدراسة نترككم مع كلمات قليلة لعكاشة يعرف بها هو نفسه مسيرته الأدبية وكيفية انتقاله للدراما التلفزيونية. يقول عكاشة: "بدأت الكتابة بشكل عام مع منتصف الستينيات من القرن الماضي، وصدرت مجموعتي القصصية الأولى "خارج الدنيا" عام ١٩٦٧، وعادة القراءة في العالم العربي ليست منتشرة لأسباب كثيرة. أهمها انتشار الأمية. والمثقفون هم الذين يقومون بالقراءة لبعضهم البعض. ما حدث أن الصديق "سليمان فياض" حدثني عن رغبته في تحويل إحدى قصص هذه المجموعة إلى سهرة تلفزيونية فرحبت بذلك، وقامت بإخراجها "علوية زكي" عام ١٩٦٨، ثم حدثني كرم النجار عن قصة أخرى من نفس المجموعة وكانت من إخراج الراحل "فخر الدين صلاح" عام ١٩٦٩. وقد لاقت السهرتان نجاحا ملحوظا، سافرت بعدها إلى الكويت من أجل لقمة العيش، وقد فشلت في ذلك وعدت خالي الوفاض من الناحية المادية، فوجدت "فخر الدين صلاح" يبحث عني، ويخبرني أنهم في التلفزيون يريدون أن أكتب لهم أعمالا تلفزيونية.. والحقيقة لم أكن أدري شيئا عن كتابة السيناريو، ولم أقرأ سيناريو من قبل وأخبرته بذلك.. وكان الحل أن أمدني الرجل بالعديد

من السيناريوهات المكتوبة لقراءتها..... وكتبت سباعية "الإنسان والحقيقة" عام ١٩٧٦ حيث كانت السباعية والسهرة هما الرائيحتان في ذلك الحين.. وكان الإخراج لفخر الدين صلاح.. ثم كان مسلسل "الحصار" من إخراجة أيضا.. وتوالى المسلسلات بعد ذلك"٤٩.

هكذا بدأت الرحلة صدفه.. تحول درامي يشبه ما يقدمه لنا عكاشة في أعماله الأدبية التي شاهدها وسنظل نشاهدها.. تحول في مسيرة الرجل، الذي سافر باحثا عن لقمة العيش، دفع به لاقحام أدب الدراما التلفزيونية لنجد أنفسنا أمام رصيد ضخيم يستحق الدراسة، وما "عصفور النار" إلا مثالا ونموذجا لهذا الرصيد، وهذا النوع الأدبي الذي جعله عكاشة مشروعاً له.

٤٩ حوار صحفي أجراه أحمد هاشم مع الكاتب أسامة أنور عكاشة. مصدر سابق.

لماذا «عصفور النار»؟

حين تبحث عن إجابة لمثل هذا السؤال، فإنك قد تفر من حقيقة يجب أن تكون واضحة وجلية عند اختيارك نصا ما لتحليله.. ربما تهرب من القول بأنه يعجبك.. قد ترى في ذلك عيبا.. قد تنكر ذلك تحت دعوى الموضوعية والحياد وتحري الدقة، وكأنك تدخل على مختبر علمي لتحليل خلية ما.. الأمر ليس كذلك أبدا وأنت تتناول بالدرس والتحليل نصا أدبيا.. إن الناقد والدارس حين يتناول نصا بالدراسة فإن ذلك يعني انحياز ما لذلك النص، ولكن ذلك في الوقت ذاته لا يعني غياب الموضوعية، فالموضوعية في الدراسات الأدبية لا تتعارض مع الإعجاب.. إنك تعجب أولا بالنص فتقبل عليه محاولا كشف أسرارهِ وخصائصهِ. ولا يعني الناقد الانجرار إلى النصوص السيئة -رغم احتمالية حدوث ذلك- لذكر سوءاتها وعيوبها وكيفية الابتعاد عنها لعدم صنع مثيلها.. ليس هذا هو دور الناقد الحقيقي.. إن الحركات النقدية الكبرى تكون مرتبطة بالنصوص الجيدة وليس النصوص الرديئة. من أجل ذلك كله فلن أستطيع أن أكذب أو أتجمل.. سأقول صراحة إن أول سبب لاختيار «عصفور النار» لأن يكون موضوع أولى دراساتي لأدب الدراما التلفزيونية هو إعجابي به.. نعم إنني معجب بهذا العمل، وسيكون الوصول إلى أسباب إعجابي به ضمن أهدافي التي سأحاول الوصول إليها خلال الدراسة.

ليس هذا هو السبب الوحيد بالطبع، فهناك أسباب أخرى، منها أن «عصفور النار» ينتمي إلى فترة النضج عند أسامة أنور عكاشة التي بدأت عام ١٩٨٣ بـ «الشهد والدموع»، فقد قدم هذا العمل عام ١٩٨٧، ومن ثم فهو واحد من المسلسلات التي أرست نجومية عكاشة من

ناحية، وأرست التطور الذي حدث في أدب الدراما التلفزيونية على يديه من جهة أخرى.

وقد يسأل سائل: ولماذا لا يكون "الشهد والدموع" نفسه الذي اعتبره الكثيرون وعلى رأسهم عكاشة نفسه نقطة التحول الحقيقية في مساره ومسار الدراما التلفزيونية بشكل عام، وستأتي الإجابة بأن "الشهد والدموع" كان من مسلسلات الأجزاء، فقد قُدم على جزأين، وقد رأينا أن تكون البداية من خلال عمل درامي متكامل لم يزد عدد حلقاته على خمسة عشر حلقة، وفي الوقت ذاته لا تقل لتصل إلى سبوعية.. إن اختيارنا كان منصبا على المسلسل متوسط الطول، حتى تتمكن من دراسته حلقة حلقة ومشهدا مشهدا لنخلص في النهاية للسمات الرئيسة التي تميز هذا النوع من الأدب، وتميز كتابة أسامة أنور عكاشة.

ونذهب إلى موضوع "عصفور النار".. إنه السعي وراء العدل.. الحرية.. الحق.. محاربة الاستبداد والظلم والعبودية.. إنه السعي وراء عدد من القيم الإنسانية، ومن ثم فإنه موضوع إنساني بامتياز.. من السهل علينا ونحن نرصد ذلك المسلسل أن نقول إنه كان بمثابة انتقاد لفترة زمنية محددة، ولتكن مرحلة عبد الناصر.. ولكن ماذا عن ناصرية عكاشة المعروفة؟ ربما يكون المسلسل إعادة نظر لهذه المرحلة، فكثير من الناصريين فعلوا ذلك. ولماذا لا يكون انتقادا لمرحلة السادات خصوصا في ظل وقوفه أمام التيارات الناصرية بقوة، والاستعانة بالتيارات الإسلامية لمحاربتها والوقوف أمامها؟ ربما.. ربما كان أيضا انتقادا لمرحلة مبارك نفسه التي ظهر فيها المسلسل، وإن كان مبارك في هذا الوقت لم يكن قد وصل إلى ما يجعلنا نسمُّه بهذا الاستبداد.. ربما يكون خيارا من هذه الخيارات الثلاثة، وربما يكون جميعها.. أقول إنه من السهل القول بذلك، وأن نبداً في ترديد هذه الكلمات حتى تصبح حقيقة راسخة، يبنى عليها فيما بعد. وسيجرنا

ذلك بالطبع إلى القول بأن عكاشة قد اختار أن يكون العمدة هو رمز الاستبداد ليهرب من سطوة رقابة السلطة الموجودة في وقت عرض المسلسل وتمريره دون تدخل منها، أو أنه استخدم حيلة القناع المعتادة التي يلبس المؤلف من خلالها شخصياته أقنعة لشخصيات أخرى. ولكنني في الحقيقة أرى أنه من الظلم الكبير أن نجري وراء البحث عن اختزال "عصفور النار" في حقبة ما أو شخصية بعينها.. إن "عصفور النار" يمثل مناهضة الظلم والاستبداد، والبحث عن الحرية والعدل والحق والحقيقة.. يمثل البحث عن قيم الحق والخير والجمال.. يمثل ذلك كله في كل مكان وزمان، ليس في مصر فقط، ولكن في كل بقعة عاشت أو تعيش أو ستعيش في مثل هذه الظروف.. إنه صرخة إلى ضمير الإنسانية كلها.. صرخة بأن يجتمع الناس للوقوف في وجه الاستبداد، دون خوف من رفع الصوت بكلمة الحق.

لماذا اختار عكاشة إذن أن يكون مكان عمله الأدبي تلك القرية في محافظة كفر الشيخ، وأن يكون عمدة هذه القرية هو رمز الحاكم المستبد؟ لقد كان من السهل على عكاشة أن تدور قصته في أحراش إفريقيا، أو في أمريكا الجنوبية، أو في ألمانيا تحت إمرة هتلر، أو في القرون الوسطى مثلاً، ولكن من قال إن عكاشة مشغول بهذا المكان أو ذاك؟ إنه مشغول بتراب هذا الوطن.. نعم يعرض مبادئ إنسانية عامة لكنها تنطلق من عمق هذا الوطن وأهله وناسه، ناهيك عن رغبته في التأثير على عامة المشاهدين، وإيصال كلمته إليهم.

لقد اختار عكاشة أن تدور أحداث "عصفور النار" في تلك القرية المصرية التي نراها في كل مكان بمصر.. إنها الحلوانية التي يمكن أن تكون في كفر الشيخ كما كان في المسلسل، أو في أقصى الصعيد، أو أدناه.. إنها القرية المصرية بكل تفاصيلها.. نراها هنا وهناك بشخوصها وأحداثها.. اختار عكاشة أن ينطلق من أعماق القرية المصرية ليقدم قيمة أخلاقية إنسانية تمس كل إنسان يتفاعل مع هذه القيم في كل

مكان بالعالم. اختار شخوصا نراها في كل مكان حتى يصدقها ذلك المتلقي/ المشاهد العادي الذي شغل به عكاشة كثيرا وجعله هدفا يسعى إليه حين تحدث عن عدم انتشار الأدب المكتوب.

وابتداء من الاسم نلمح ذلك التأثير الشعبي عند عكاشة.. إنه "عصفور النار" برمزيتة الشعبية؛ حيث يتطاير ممسكا عود القش المشتعل لينقله من هنا إلى هناك، مشعلا النار في كل مكان يذهب إليه.. ولكن هل تستطيع أن تجزم بأن عكاشة لم يفكر إلا في ذلك؟ إن هذا أول ما يتبادر إلى الذهن نعم، وهو الذي ذكره في الأحداث صراحة، ولكن ألا يوجد في الأعماق تأثيرات أخرى لثقافات أثرت في عكاشة وتكوينه باعترافه هو؟ إنها تلك الأسطورة في الأدب الشعبي الروسي التي تتحدث عن ذلك الأمير الشاب الذي ينساق وراء عصفور النار، ويتحول ذلك العصفور الذي كان مسخرا لاجتذابه إلى مساعد له على التخلص من سحر قاشتشاي الذي يحول الأمراء إلى كتلة من الأحجار.. كان عصفور النار مساعدا للأمير البطل على التخلص من السحر، فهل كان لعصفورنا دور آخر غير ذلك؟ ألم يكن دور عصفورنا هو المساعدة على التخلص من سحر الظلم والاستبداد؟ ومن أسطورة عصفور النار إلى أسطورة العنقاء.. تقول الأسطورة إن طائر العنقاء عند موته يحترق ذاتيا، ثم يتحول إلى رماد، ليخرج من الرماد طائر عنقاء جديد.. إنه الحريق الذي يجدد الحياة.. يخرج الشباب من الهرم، والحياة من الموت.. ولم تكن النار في "عصفور النار" إلا بهذا المعنى.. احترقت الحلوانية لكي تولد من جديد.. احترقت لتُظهر وتُبنى من جديد.. تبنى على أسس شابة راسخة متطهرة مما كانت فيه.

وعندما نعرف أن البعض يرى أن "عصفور النار هو رمز أخلاقي وجهادي لوقفة الحسين الشجاعة في أرض كربلاء، وعلى ضفاف نهر الفرات قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، تلك الوقفة البطولية

التي وقفها في أرض العراق أمام الانحراف والطغيان الذي تلا عصر الخلافة الراشدة، فجاء مع أهله وذويه حاملا دمه الزكي بيده الشريفة ومضحيا بأغلى ما عنده من أجل الدفاع عن مبادئ الدين الحنيف وفي مقدمتها الشورى ومبادئ الحق والعدل والخير^{٥٠}. يصبح لتسمية بطلنا بالحسيني^{٥١} مغزى ومعنى جديداً.. إنه الفداء والتضحية.. إنه العائد من بعيد مقدما نفسه فداء لأهله وناسه وأرضه وقيمته ومبادئه.

لعب عكاشة على ثيمة العائد من بعد الغيبة التي تجلت في عشرات الأعمال الإبداعية.. إنه الحسيني الذي يكتشف مع وفاة أمه أن والده قد قتل، وأنه ترك له حقاً في قريته وأوصى بأن يذهب إلى هناك من أجل الحصول عليه.. كان الحسيني إذن هو المحرك الذي يدفع الحدث.. هو الحجر الذي ألقي في المياه الراكدة فحرکها.. غير اتجاه حركة الأحداث.. جاء وهو يعرف مصيره المحتوم.. إنه الموت بسبب ذلك المرض الذي أصابه وهو صغير.. كان يعرف أنه سيموت حتماً، ولكنه يقدم الفداء والتضحية بنفسه من أجل أن يصل الجميع إلى الحق والحقيقة.

لقد غاص عكاشة من الخطوة الأولى، وهي اختيار اسم العمل، داخل التراث الشعبي لثقافات عدة، بحيث نستطيع القول في النهاية إنه نتاج لتلك الثقافة الشعبية الإنسانية.. ينهل منها ما يريد، ويقدم قيمها التي أصبحت جزءاً من كيانه فجعلها جزءاً من كيانه أدبه الدرامي.

وما دما قد ذهبنا إلى الدلالات التي يعطيها اختيار اسم الحسيني، فإننا سنكون مجذوبين إلى تقصي الأساء داخل العمل، فالحقيقة أنها تشي بمعان مختلفة يشير إليها ويؤكد لها أسامة أنور عكاشة نفسه..

٥٠ علاء الدين المدرس. حكايات عصفور النار من وحي الفلوجة والنحف وحلبجة. ص ١. دار المأمون بغداد. ٢٠٠٥.

٥١ قام بدور "الحسيني" الفنان عبد الله محمود.

والحقيقة أيضا أننا نستطيع أن نلمح ذلك في جل أعمال عكاشة وليس في عصفور النار فقط، بحيث يمكننا القول إنها سمة من سماته. من ينسى مثلا أنيسة الأنيسة في "ليالي الحلمية"^{٥٢}، وهي التي حرمت من أن يكون لها طفل، لكنها ظلت أنيسة لأطفال الجميع؟ ومن ينسى توفيق الذي ظل يحاول أن يوفق بين الجميع، وزينهم زينة الحلمية وفتوتها، وقمر التي كانت قمراله، ونازك المحملة بكل الجمال والفتنة، وغيرهم؟ ومن ينسى فضة المعداوي في "الراية البيضاء"^{٥٣} بما تعكسه من قيم استبدالية بغضة يحكمها المال، في مقابل مفيد الذي يحاول أن يفيد كل من حوله بقيمه الاستبدالية القائمة على الحق والجمال؟ الأمثلة كثيرة عند عكاشة، وها هو هنا يلعب على ذلك الوتر بقوة مرسخا تقنية ارتبطت بكثير من أعماله.

ولنبداً بالحلوانية.. اسم القرية التي شهدت أحداث نصنا الأدبي.. إنها تلك القرية الحلوة التي كانت في مخيلة حورية بطلة قصتنا ورفاقها دوماً، وحتى في مخيلة صقر البطل المضاد.. ظلت في أعينهم حلوة حتى اشتعلت بها النار لتطهرها فتعود كما كانت حلوة.. ولا يخفى أن الاسم يطلق على مصر بأكملها، ارتبط بها في الذهنية الشعبية.. ألم يكن "الي بنى مصر كان في الأصل حلواني؟" إنه الحلوانية دوماً.. اختيار الاسم إذن ربما يعطي مدلولاته، ليتجاوز المكان تلك القرية الصغيرة منسحباً على الحلوانية الكبيرة مصر. وما دمنا نتحدث عن المكان، فلا بد من إشارة سريعة إلى الزمان.. لم يحدد عكاشة في عمله زماناً محدداً.. فقط عندنا خط زمني.. خط يربط بين ماضٍ بعيد وحاضر يُجذب إلى مستقبل، وإن سار عكاشة على هذا الخط ذهاباً وإياباً دون الالتزام بالخط المستقيم السائر من الماضي نحو المستقبل.. لكن متى تقع أحداث قصتنا تحديداً؟ لن تجد إجابة، لينضم المكان إلى الزمان في

٥٢ «ليالي الحلمية» مسلسل من تأليف أنور عكاشة وإخراج إسماعيل عبد الحافظ. قدم في خمسة أجزاء أنتجت في مع نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات.

٥٣ مسلسل «الراية البيضاء» من تأليف أسامة أنور عكاشة وإخراج محمد فاضل. إنتاج ١٩٨٨.

تعميم يبدو مقصودا من عكاشة.. فقريتنا أية قرية في أي زمان.. إنها قصة تدور في كل مكان في كل زمان.

ومن المكان نعود إلى الشخصيات لنجد في مواجهة الحسيني وحورية العمدة.. إنه البطل المضاد.. إنه صقر^{٥٤}.. الصقر في مقابل العصفور.. الصقر بما فيه من قوة وحدة بصر ينقض دوما على فريسته.. يخلق في السماء منتظرا لحظة الانقضاء. وليس هذا فقط.. إن كلمة "صقر" من مادة "ص ق ر" ويقول "الغني" فيها: "صقرت الشمس: اشتد حرها.... وصقر الولد: شتمه بغير حق. وصقر الولد بالعصا: ضربه بها على رأسه. وصقر به الأرض: صرعه. وصقر النار: أوقدها... وصَقَر اسم من أسماء جهنم لغة في سقر"^{٥٥}. وأمام كل هذه المعاني نقف عاجزين أمام السؤال: أكان يدرك عكاشة نفسه كل هذا؟ أكان متعمدا ذلك كله عند اختيار الاسم؟ الإجابة بالنسبة لي دوما هي: ليس المهم إن كان متعمدا أم لا فهذا سؤال إجابته لا يعلمها أحد.. المهم أنه حدث ولو لم يكن عمدا.. لقد صَقَرَت الشمس على القرية كلها، وصَقَر العمدة الحسيني وآخرين أي شتمهم، وصَقَرهم جميعا بعصاه الغليظة السنباطي، وصَقَر بأخيه وآخرين الأرض أي صرعهم، ثم صَقَر النار وجعلها تشتعل في كل مكان.. لقد فتح باب صقر على القرية كلها.

إنه من قتل أخاه العمدة تحت دعوى الحفاظ على الأرض وقانون القرية وعرفها، سرق المنصب والأرض.. أسكت القرية كلها وقهرها وسيطر على أرضها.. ومع اقترابنا من النهاية نكتشف أنه لم يكن يوما مدافعا عن أرض بلدته أو نظامها.. كان أول البائعين المفرطين في الأرض.. لم يفعل كل ما فعل إلا من أجل المال والجاه والسلطان.

رسم عكاشة الشخصية بامتياز.. إنه البطل المضاد الممتلئ بالقوة

٥٤ قام بدور الأخوين "صقر" و"صادق" الفنان محمود مرسى

٥٥ انظر مادة «ص ق ر» في «الغني».

والجبروت والدهاء، ولكنه في الوقت ذاته يحمل نقطة ضعف وحيدة.. إنها حورية ابنة أخيه.. لقد رباها وأحبها وهو من قتل أباه.. كان صقر إنسانا رغم كل شيء.. كان ظالما نعم.. جبارا نعم، ولكنه إنسان يحب ويعشق ويبحث عن صداقة ويحلم بأن يكون ابنه قادرا على استكمال الطريق من بعده.. كان يخاف أيضا.. يخاف من ذلك الكابوس الذي ظل يطارده في اليقظة والنام.. لا يخاف فقط ولكن يندم ويتألم، ثم يطلب السماح قبل نهايته.

ومن صقر إلى حورية^{٥٦}.. وحورية في معجم اللغة العربية المعاصر: "فتاة أسطورية بالغة الحسن تترأى في البحار والغابات والأنهار.. وهي امرأة حسناء بيضاء ناعمة... كأنها من حوريات الجنة. وهي حشرة في طور ما بعد البيضة في الحشرات الناقصة التحول"^{٥٧}. نعم كانت حورية حسناء القرية وزيتها.. كانت أشبه بحوريات الجنة.. كانت مثل فتيات القصص الأسطورية، لكنها كانت ناقصة التحول.. كانت تحتاج إلى أن تعرف وتفهم، وحين عرفت وفهمت ووصلت إلى الحقيقة نادى بالحق، فأكمل تحولها.. صارت أسطورة نعم، ولكن ليس في جمالها فقط، وإنما في دفاعها عن قيم الحق والحقيقة وسعيها للوصول إليها.

كانت حورية تلك الفتاة التي يفتح قلبها بالحب.. حب مروان الذي سكن القلب والوجدان.. لم تكن تحلم إلا بذلك اليوم الذي تنتقل فيه إلى بيت زوجها.. ترى العالم كله جميلا طيبا.. تتمتع بحب الناس واحترامهم، فهي زينة القرية وبنت عمدها السابق وابنة أخي عمدها الحالي وابنته التي أولاها رعايته واهتمامه.. كانت حورية كل ذلك، ولكنها كانت كذلك الفتاة العنيدة التي ورثت العند من أبيها وعمها. ويحدث التحول في الشخصية شيئا فشيئا.. إنه التحول

٥٦ قامت بدور "حورية" الفنانة فردوس عبد الحميد

٥٧ انظر مادة «ح و ر» في معجم اللغة العربية المعاصر.

التدريجي.. التحول المبني على المعرفة، فمع كل معرفة جديدة يزداد التحول.. كانت البداية مع عودة الحسيني لتبدأ رحلة البحث عن الحقيقة، ومع المعرفة تصبح حورية العنيدة ندا لصقر المهيب.. تقف أمامه.. تحاربه.. تحرك القرية كلها نحو الحق والحقيقة.. تصبح هي قائدة الثورة.. ورغم كل ذلك، ولأن لها قلباً فقد ظلت تحب عمها للنهاية.. كرهت العمدة الذي قتل أباهما وأحبت عمها "أبا صقر" الذي رباها بعد موت أبيها.

أما العمدة سيسبان^{٥٨} أو سسبان كما يناديها الجميع، فقد كان لاختيار اسمها دلالة أيضاً.. يقول معجم اللغة العربية المعاصر: "سيسبان: نبات معمر من فصيلة القرنيات الفراشية، أنواعه عديدة مهدها البلاد الاستوائية، معظمها بري طبي، وبعضها زراعي تزييني أو صناعي"^{٥٩}.. نعم كانت سيسبان شجرة معمرة تحاول أن تظل على الجميع.. كانت الأخت الكبرى "ست إخوانها" التي أحبت أخاها القليل، وحزنت لموته وضمته في أحضانها محتفظة بشبابه التي حملت دمائه طيلة العمر، ورعت ابنته التي فقدت أمها وأباهما صغيرة.. وهي التي أحبت أخاها القاتل وأغلقت باب خزانها على سره.. كانت تحاول الحفاظ على تماسك الحلوانية دوماً.. اختارت الصمت من أجل هذا وظلت تحاول إغلاق أبواب الماضي على أسرارها دون جدوى، إلى أن أتى الوقت فتكلمت، وانضمت إلى الساعين عن الحق والحقيقة.

كانت هذه هي سيسبان التي بدت وكأنها تحمل على كتفها حملاً لا يطيقه أحد.. حمل الماضي كله حملته على كتفها صابرة محافظة على السر، آملة في خلاص من مصير محتوم، رأتها بعينها وسعت للابتعاد عنه.

أما صادق فهو العمدة القديم الذي قتله أخوه من أجل الحق

٥٨ قامت بدور "سسبان" الفنانة أمينة رزق.

٥٩ انظر مادة "سيس" في معجم اللغة العربية المعاصر.

والحقيقة.. آمن بهما ودافع عنهما.. حاول قدر استطاعته أن يوصل رسالته للجميع.. صدق في الدعوة لرسالته.. كانت رسالته هي الحرية.. الحرية أولا فيما تملك.. في أرضك.. أنت الأدرى بها.. الأكثر خوفا عليها وحبا لها.. ستحافظ عليها وستصونها.. ومع حقك في أرضك لك الحق أن تتكلم.. لا يمكن لأحد أن يسكتك ما دمت تعلي صوتك بالحق.. كانت هذه مبادئ صادق وأفكاره التي تحمل نتيجتها في النهاية.

كان صادق صادقا ولكنهم لم يصدقوه.. اتهموه بالجنون وأشاعوا ذلك في كل مكان.. فرض عليه صقر الإقامة الجبرية مستعينا بقطاع الطريق ورجال الليل، وعندما واجه صادق ذلك كله جاءت النهاية.. رصاصة طائشة تشق الليل وتسكن قلبه ليتوقف تاركا مواصلة الرحلة لابنته حورية، وابنه الحسيني الذي لم يكن يعلم بأمره أحد إلا الأخت سسبان.. كان الحسيني مقيما مع أمه في القاهرة.. وحين كبر وعرف بأمر أبيه عاد ليكمل المسيرة.. عاد حاملا راية أبيه.

ونذهب من صادق إلى صالح^{٦٠} وولديه رشاد^{٦١} وصباح^{٦٢}.. كان صالح هو الصديق الصالح لصديق الحلواني.. أحب أخته الصغرى لكن سسبان التي كانت تحبه ومعها صقر الذي يكرهه رفضا زواجه من أختها الصغيرة فماتت الأخت كمدا.. قصة درامية هاشمية لكنها أعطت بعدا لشخصيتي سسبان وصالح أفاد منه عكاشة، فسسبان تحب صالح ولكنها لا تنسى له أنه فضل أختها الصغرى عليها، وصالح لا يكرهها ولكنه لم ينس لها أنها حرمتها من حبيبته وهو ما كان سببا في موتها.

كان صالح صالحا كما قلنا.. دافع عن الحق شابا مع صادق

٦٠ قام بدور "صالح" الفنان نبيل الدسوقي.

٦١ قام بدور "رشاد" الفنان إبراهيم يسري.

٦٢ قامت بدور "صباح" الفنانة دینار.

وفريقه، ولكنه مع مقتل صادق سكت.. لم يعترف لصقر بالعمودية نعم، ولكنه سكت عن الحقيقة وهو العالم بها.. قال إنه سكت لغياب الدليل، ومع قدوم الدليل والراية والإشارة تكلم صالح.. تكلم متأخرا لكنه تكلم في النهاية.

أما رشاد فهو صاحب الرشد والعقل.. كان المرشد للحسيني والدليل في عودته للحلوانية، وكان المرشد لحرورية حاملا نور المعرفة لها.. إنه الشاب المتعلم الصحفي الذي يتمرد على قوانين القرية وأعرافها الظالمة.. حاول أن يقف أمام صقر، ولكنه فشل مكبلا بالحاجة.. هزمته الحاجة، ولكنه ظل يحمل أفكاره الباحثة عن المعرفة، ونقلها إلى حرورية فأمنت بها وسعت إلى تحقيقها.

ونأتي لصباح.. نور الصباح الذي يملأ القرية.. لم يتورع صقر أن يطعن شرفها كذبا لتهب حرورية ونساء القرية جميعا.. دافعن عنها وأعدن لها كرامتها.. من أجلها قامت أول مظاهرة عرفتها القرية.. أحبها الحسيني وأحبته.. كان يراها الصباح الذي يشرق أمامه ويسعى إليه.. الحلم الذي يراوده لكنه يعرف أنه لن يصل إليه ولن يحققه.. كانت قصة حب كلاسيكية توضع إلى جوار قصص الحب التي تعرف أن النجاح لن يكملها.. ستظل تبكي على الحبيين اللذين لم تجمع بينهما الأقدار.. إنها الثيمة التي لعب عليها كثيرا أسامة أنور عكاشة.. لم يقم بذلك فقط في "عصفور النار".. وهل هناك من ينسى علي وزهرة في "ليالي الحلمية"، وقصة حبهما التي صارت مضربا للمثل عند كل من تابعوها؟ والأمثلة على ذلك كثيرة منها أمل وهشام في "الراية البيضاء" وسامح وهند في "الحب وأشياء وأخرى"^{٦٣} ومحسن وليلى في "رحلة أبو العلا البشري"^{٦٤}.. كلها قصص تلعب على الوتر نفسه.

٦٣ مسلسل «الحب وأشياء أخرى» من تأليف أسامة أنور عكاشة وإخراج إنعام محمد علي. إنتاج ١٩٨٦.

٦٤ مسلسل «رحلة أبو العلا البشري» من تأليف أسامة أنور عكاشة وإخراج محمد فاضل. قدم في جزأين أحدهما إنتاج ١٩٨٦، والثاني إنتاج ١٩٩٦.

ومن بيت الحناوي ننتقل إلى أهل القرية.. ها هو ميلم^{٦٥} جامع "البرايز الفضة".. يستهين به الجميع، ويرونه بلا قيمة، وهو العالم ببواطن الأمور.. يرى ما لا يراه الكل ويشر به.. تتعدد نبوءاته وهو من يعرف الحق والحقيقة.. يصرخ بأعلى صوته مرددا الحقيقة، فيرونه مجذوبا.. هكذا يرون كل من يردد الحقيقة ويسعى إلى الحق.. ولأن كل شخصية لها تاريخ، فلم يكن غريبا أن يتضح لنا مع اقترابنا من النهاية أن ميلم لم يكن إلا ابنا لذلك الرجل الذي اشترى الأرض من صقر منذ زمن.. باع له صقر الأرض فخاف أن يفضح أمره فكان القتل مصيره.. عاش ميلم طوال هذه الفترة عارفا بالحقيقة مناديا بها متنبئا بحدوثها وفي قلبه يحمل هدفا آخر وهو الانتقام.. الانتقام من ذلك القاتل.

كان ميلم تنويعا على شخصية مجذوب القرية أو عبيطها التي استخدمت في عديد من الأعمال الدرامية.. إنه من يراه الكل مجذوبا وهو المجذوب نعم، ولكن لليقين.. إنه العاقل الأكبر في مجتمع يحكمه الظالمون ويرضخ فيه المستبعدون المستضعفون الراضخون الفاقدون حريتهم.. كان ميلم هذه الشخصية التي تحمل اليقين في قلبها وتسير إليه به.

أما وطنية^{٦٦} زوجة عزازي^{٦٧}، فقد حملت من اسمها ذلك الوطن المستضعف المستباح.. إنها الفتاة الفقيرة زوجة القهوجي ومساعدته في الحصول على لقمة العيش.. يستبيحها الجميع، ويرونها المطعم لهم جميعا.. تنضم لفريق الباحثين عن الحق، وتكلم وهي الضعيفة التي لا ظهر لها فيسكتونها بهتك عرضها.. يغتصبها السبائطي رجل الأمن والأمان.. تنتهك الوطنية على يد مثل هؤلاء.. وينتفض عزازي

٦٥ قام بدور "ميلم" الفنان محمد متولي.

٦٦ قامت بدور "وطنية" الفنانة نغم.

٦٧ قام بدور "عزازي" الفنان أحمد صيام.

المغلوب على أمره ليتقم لها.. يذهب إلى السنباطي محاولاً قتله.. يطلق عليه الرصاص، ولكنه لم يمت. وهل يموت مثل هؤلاء في أرض تغتصب الوطنية فيها وتنتهك؟

أما يوسف العفي^{٦٨} فيحمل من اسمه النصفين، فهو الصديق الذي لم يكذب يوماً.. صديق صادق وصالح الذي حمل معها الأمانة شاباً، ولكنه ترك القرية الصامت أهلها واعتزلها بعد موت صادق.. سكت منتظراً ظهور الإشارة.. عاش حياة الزهاد والمتصوفة في مكان ناء.. حرم على نفسه القرية وأهلها ما داموا لا ينطقون بالحق.. ترك ماله وأهله لاجئاً إلى ذلك المكان البعيد، وهناك تكشف له الحجب.. يمثل مع ميلم فريق المتنبيين العارفين.. يلعب به عكاشة على ثيمة المعلم العارف ببواطن الأمور.. يأتيه الحسيني طالب المعرفة.. يرشده إلى الطريق.. عليه أن يخبر حورية وستبلغ هي الرسالة للجميع.. قالها له يوسف العفي، ثم أكدها لحورية.. نذر الصمت إلى أن يأتي اليوم الذي يعلو فيه أول لسان بطلب الحق.. نذر ذلك ونفذه ليعود إلى القرية ثانياً مكملًا مسيرة الحق والحقيقة.. رأى النار التي تاكل القرية قبل اشتعالها فنادى محذراً منها، ولكن أحداً لم يستجب.

ولم يكن يوسف الصديق فقط.. كان عفياً.. كان قويا بلسانه وبيديه.. وقف أمام صقر ورجله السنباطي بعد مقتل صادق.. ضرب السنباطي ضربة بعصاه تركت له علامة في وجهه لم يمحها الزمن.. كان يوسف صديقاً عفياً.. كان ملتقط شرارة النور والتنبيه بها.. كان من أمسك بالإشارة ووجهها نحو طريقها، حتى تحققت النبوءة.

ومن العفي نذهب إلى مروان^{٦٩}.. اسمه يحمل المروءة.. قيلت له في أحداث المسلسل أكثر من مرة.. كان ظاهر المروءة حيناً، وغابت عنه حيناً آخر حين غلبه ضعفه.. كان يحمل جيناتها داخل قلبه المحب

٦٨ قام بدور "يوسف العفي" الفنان عبد الغني ناصر.

٦٩ قام بدور "مروان" الفنان محمود الجندى.

لحورية.. أحب حورية ابنة عمه وهو ابن صقر المهيب.. كان يخشى والده ويحبه.. يخشى الوقوف أمامه ويحمل في قلبه له تقديرا وحباً كبيرين.. لم يكن يطيق أن يصدق ما صدقه الجميع.. كان من داخله ينفيه لفقدانه القدرة على مواجهته.. كان كالمحب في الحواذيت نعم، ولكنه الذي يجبن عن المواجهة.. كان مقسوما نصفين طوال الوقت.. لم يحسم أمره إلا في النهاية حين قتلت أمه وعرف أن أباه وقف أيضا وراء ذلك.. انحاز وقتها للحق والحقيقة، ولكنه لم ينزع حب أبيه من قلبه حتى النهاية.. ظل وفيا له رغم كل شيء مستعداً أن يغادر القرية كلها ليكون إلى جانبه.. في البداية أعلن رغبته في الشيء ذاته مع حورية، وفي النهاية عرضه على أبيه، وشتان بين الأمرين.. شتان بين محب يريد الهرب بمحبوبته على ظهر حصان ومحب لوالده يود لو هرب به من مصيره المحتوم.. كلاهما معنيان يحملان المروءة يا مروان.

ومنه إلى أمه آمنة^{٧٠}.. حملت أيضا من معنى اسمها الكثير، فقد ظلت آمنة على السر لفترة طويلة.. لم تفعل ذلك مختارة بل مجبرة.. إنها العمياء الخرساء التي لا ترى ولا تتكلم.. فقدت البصر والنطق يوم الحادثة.. لم تتحمل ذلك.. ورث منها ابنها مروان الضعف ذاته وعدم القدرة على التحمل.. لم تتحمل هي ففقدت البصر والنطق، ولم يتحمل هو ففضل الهروب، إلى أن تكلمت هي، فقتلت ليتكلم هو.

إنها شخصية العمياء التي لا ترى بعينها ل ترى كل ما يحدث بصيرتها.. تعرف ما يحيط بها.. تحمل الحب لابنها وحبيبته حورية، وتحمل الكره لأبيه صقر قاتل أخيه.. وهي الخرساء التي لا تتكلم، ولكنها تكشف ما تريد بإشارات.. تحاول أن تفتح خزائن أسرارها غير مرة ولكن دون جدوى إلى أن يشتعل الحريق فتتكلم، ولأنها يجب أن تظل صامته فقد ألقيت في النيران لتكون وقودا لنار القرية التي ستطهرها حتما.

٧٠ قام بدور "آمنة" الفنانة نادية رفيق.

ثم نجد شخصية حشاد^{٧١}.. صيغة المبالغة من الفعل حشد.. إنه من يحشد الناس ضد الحق.. هذه هي وظيفته عند السنباطي.. زرعه وسط الناس ليكون صديقا مروان ينقل أخباره إليه، ويحشد الناس ضد الحسيني وحرورية ورشاد.. يخدم مصلحة السلطة أيا كانت.. يوسوس تارة ويتلصص تارة أخرى.. ينقل الأخبار للسلطة مرة، وينقلها منها بأمرها لمن تريد مرة ثانية.. هو الخائن لكل القيم الإنسانية النبيلة.. حين طُلب ليقود آمنة أم صديقه مروان من البيت وقت الحريق ويسلمها إلى عزب الذي يليقها وقودا للنيران لم يتردد.. فعلها بدم بارد وذهب ليقدم التعازي بعدها.. حين كشفته وطنية وأزاحت عنه الستار نقل الخبر للسنباطي فلم يجد عقابا لها إلا هتك عرضها. كان هذا هو الحشاد ضد الحق في أحط صورته.

كانت هذه هي الشخصيات التي وضع لها عكاشة اسما يحمل كثيرا من سماتها.. تجد الاسم دالا على ما تحمله الشخصية من أفكار.. ثيمة أخرى من الثيمات التي بدت واضحة عند عكاشة.. يستخدمها ليقرب الشخصية من المتلقي، يجعلها اسما على مسمى. ولم يكتف عكاشة بذلك، بل رسخه خلال العمل على السنة أبطاله.. كانت هناك إشارة دائمة إلى علاقة الاسم بالمسمى.. الدال بالمدلول.

نعم كانت هذه هي الشخصيات التي حملت اسما يعكس ما تحمله من ملامح، ولكنها ليست كل الشخصيات التي يقدمها عكاشة في نصه الدرامي.. عكاشة يقدم لنا شخصيات لا تقل أهمية عن الشخصيات التي تحدثنا عنها، فهناك السنباطي^{٧٢} شيخ الخفر.. إنه يد الظالم وعصاه الغليظة التي يضرب بها دوما.. راعي القانون في الحلوانية، ولكنه قانونه الظالم وقانون عمدته الذي لا يقل ظلما.. لا يتورع عن الإقدام على أي شيء مهما كان في سبيل تحقيق أهدافه.. كان اليد التي

٧١ قام بدور "حشاد" الفنان أحمد البدري.

٧٢ قام بدور "حمزة السنباطي" الفنان أنور إسماعيل.

قتلت العمدة صادق، وهو اليد التي ضربت القرية كلها، وهو الذي اغتصب وطنية الحلوانية الفتاة المسكينة التي لا تجد من يحميها.. كان دوما وراء كل شر في هذه القرية.

لم يكن السنباطي كل ذلك فقط، ولكنه كان الطامع في السلطة ذاتها.. كان المتلصص على ولي نعمته نفسه.. كان مثالا لتلك السلطة الفاسدة وما يدور في أروقتها.. الكل يسعى من أجل مصلحته هو.. يحارب من أجل ذلك.. وحين يقترب العمدة من السقوط لا يتردد في أن يمسك بندقيته ليضربه في مقتل.. يقتله كما قتل أخاه ليجلس على كرسيه بعد موته.. لم يتردد في أن يفعل ذلك ولكن سسبان من جهة والشرطة من جهة أخرى منعه من الوصول إلى مبتغاه.

وعلى الطرف الثاني من السلطة كان الدمرداش^{٧٣} شيخ البلد.. ثعلب السلطة الماكر، وعقل العمدة الذي يلجأ إليه وقت الحاجة.. يشترك مع السنباطي في فرض الأتاوة على من يريد.. يتفرغ لجلسات السهر والمجون.. ينتظر ما يقدمه له أيوب الخضري تاجر الأعراض.. وفي الوقت ذاته يبدو حريصا كل الحرص على ضرب السنباطي تحت الحزام كلما سمحت له الفرصة.. يحاول التملق للعمدة قدر ما يستطيع.. يسعى للوصول إلى كل ما تصل إليه يده من منافع.

ومن عقل السلطة وثعلبها يتم التحول عند النهاية.. عندما يكاد العمدة يسقط يقفز الدمرداش إلى السفينة مع الفارين.. يحاول الفرار تاركا العمدة في مأزقه.. يحاول الهرب من المصير المنتظر.. يجمع كل ما حصده طوال هذه السنوات هاربا به إلى ملاذ آمن في مكان بعيد عن القرية وأهلها الثائرين. أما عزب^{٧٤} ابن الذئاب وتربيتها، فهو جلاد السلطة.. ذلك السادي الذي يبحث عن الدم أينما كان.. لا يمنعه شيء من التهام ضحيته.. يبدو شغوبا بالوصول إلى الضحية

٧٣ قام بدور "الدمرداش" الفنان علي الغندور.

٧٤ قام بدور "عزب" الفنان محمد ناجي.

وراء الضحية.. ترسم السعادة على وجهه وهو ينتظر تلك الفريسة أو تلك.. كان المشهد الذي قاد فيه آمنة المسكينة العمياء الخرساء ليلقيها وسط ألسنة النيران معبرا عن كل سمات هذه الشخصية الوحشية.. ظل طوال الوقت سوطا في يد السنباطي، ينفذ ما يطلبه منه، ولو كان التلصص على العمدة ذاته، وعند محاولة قتل السنباطي يجلسه صقر مكان السنباطي نفسه، ولكن الكرسي كان كبيرا عليه.. إنه يملك اليد دون العقل.. لم يكن يعرف إلا القوة أما العقل فلا يملك منه شيئا.

وفي مقابل عزب كان الخفير سلماوي^{٧٥} الذي ظل خادما للسلطة أينما كانت.. كان خادما للعمدة القديم صادق، ثم خادما للعمدة الجديد صقر.. كان ينفذ ما يطلب منه، ولكنه في النهاية كان يملك قلبا.. ذلك القلب الذي دفعه في النهاية لمساعدة الحسيني على الهرب من قبضة صقر.. وقد تحمل نتيجة هذه الفعلة.. نال العقاب كاملا من السلطة ورجالها.

ونذهب إلى أيوب الخضري.. ذلك الورم السرطاني الذي حل على القرية ليأكل خيراتها.. أحد أفراد جوقه السلطة وسلطانها.. تاجر الأعراض وسمسارها.. في الظاهر هو التاجر الذي يبيع لأهل القرية سلعهم الاستهلاكية، وهو الذي يفتح محله لرواد جلسات الأنس ليلا.. هو من يأتي بالراقصات لإحياء الليالي الملاح.. يضع عينه على ذلك المقهى الصغير الذي يعد مصدر الدخل لعزازي وزوجته وطنية.. يستأسد بالسلطة ليقتنص منهما المقهى، يحوله إلى كازينو ليجذب زبائن الليل المعتادين.. كان هو من عرف العمدة على درية.. إنها الراقصة التي أسقطت العمدة من عرشه أمامها ليتزوجها بعيدا عن القرية مخفيا السر الذي ربما يهزه أمام القرية وأهلها.. ومع اقتراب سقوط العمدة كان الخضري من الفارين.. أو من الذين حاولوا الفرار.

٧٥ قام بدور "سلماوي" الفنان عبد الله عبد العزيز.

وكانت درية^{٧٦} الفاتنة درة في عين العمدة.. تزوجها سرا وأقامت في المركز بعيدا عن القرية وأهلها.. لا يجب أن يعرف أهل القرية أن عمدتهم قد تزوج من تلك الراقصة التي أحضرها أيوب الخضري لإحياء ليلة من ليالي الحلوانية.. تقبل هي بأن تكون زوجة العمدة سرا لتعيش في ذلك الهناء الذي يوفره لها.. تصبح الصديقة التي يفر إليها العمدة وقت الحاجة.. يلتمس عندها الراحة وتلتمس فيه الحماية.. وكانت الحماية تعني القوة والمال.. تطلب منه أن تنجب لكنه يرفض، فهو لا يريد لمروان منازعا على الحكم، ومع انقلابه على مروان يطلب منها الولد.. تطلب أن تكون إلى جواره، وحين يقترب من السقوط تقفز إلى سفينة الجبناء أيضا وتعود إلى رجلها القديم أيوب الخضري لتفر معه.. كان العقاب قاسيا من صقر.. لم يكن ليقبل بالخيانة.. ولكن ماذا كان ينتظر من تلك الدرية التي لم تكن درة يوما؟ إنه الاسم الذي يحمل نقيضه.. حيرنا عكاشة بلعبه بأساء شخصياته ومفارقاته التي يصنعها.

ونذهب إلى شاهين^{٧٧} وابنه عمر^{٧٨}.. شاهين الأب شريك الصحبة المدافعة عن الحق والحقيقة في الماضي.. أضعف أعضاء الصحبة التي ضمت صادق وصالح والعفي.. فضل الصمت طوعية بعد موت صادق.. ظل أضعف حلقات المقاومة، ولكن ابنه كان على النقيض.. كان عمر رمزا للشباب الذين قرروا أن يغيروا وجه القرية الحزين.. أن يغيروا وجهها الصامت.. أن يتكلموا ويدفعوا القرية كلها لأن تتكلم.. كان عنصرا من عناصر الشباب الذين كانوا وقود الثورة ومحركها للأمام.

أما الشيخ وهبة، فهو رجل الدين الذي تطوع ليكون إماما

٧٦ قامت بدور "درية" الفنانة جلييلة محمود.

٧٧ قام بدور "شاهين" الفنان أحمد أبو عبيدة.

٧٨ قام بدور "عمر" الفنان وائل نور.

للمسجد.. رأى الحقيقة في الماضي وسكت عنها.. تذرّع بأنه لا يملك إلا أضعف الإيمان.. ظل رجل الدين مطيعاً لأولي الأمر مهما زاد ظلمهم.. ظل وهبة خائفاً من بطش السلطة.. ظل مستأنساً لها، وكيف لا وقد غمرته بالعطايا؟ ألم تعينه مأذونا للقرية ومن وظيفته تلك زادت ثروته؟ ولكنه رغم ذلك ومع اقتراب ظهور نور الحق والحقيقة يتحول وهبة تدريجياً.. يقدم المساعدة للحسيني وحورية.. كان من أنقذ الحسيني وآواه يوم أن أكلت النار الحلوانية بأسرها.. انحاز للقرية وأهلها وانضم لركب الثائرين.. كان انضماماً متأخراً ولكنه كان حاسماً في النهاية.

كانت هذه أهم الشخصيات التي ضمها "عصفور النار".. نصنا الأدبي الذي قدم إلى جوار شخصياتنا تلك عدداً من الشخصيات الأخرى التي كانت محركاً للأحداث رغم غياب بعضها بالجدد أحيانا وحضور بعضها النادر حيناً آخر.

كان أحوال حورية مثالا على تلك الشخصيات التي لم تظهر في الأحداث ظهوراً فيزيقياً، ولكنها ظلت محركاً للأحداث طوال النص.. وجهت لهم تهمة اغتصاب أرض أم حورية، فإذا بهم يرسلون لحورية ذهب أمها يوم زفافها، فتصر على حضورهم حفل الزفاف ويكون ذلك عائقاً دون إتمامه.. تُوجّه لهم تهمة قتل أبي حورية، فإذا بها تصر على الوصول إليهم لمواجهةهم والوصول إلى الحقيقة.. أرسلت إليهم رشاد الذي يأتي ومعه دليل براءتهم، فتتحرك الأحداث ثانية إلى الأمام.. تحدد حورية طريقاً جديداً للوصول إلى الحقيقة.

وإلى جانب أحوال حورية نجد "الفرنواني".. كلمة السر التي ظهرت في الحلقة الأخيرة، دافعة الدراما إلى منعطف جديد كاشفة عن أبعاد كانت خافية علينا من البداية.. إنه الفرنواني والد ميلم الذي كان سبباً في كل ما حدث في الحلوانية!

أما أم الحسيني فتعد مثالا على الشخصيات التي تظهر نادرا من خلال مشاهد "فلاش باك" فقط.. تظهر الأم آتية من الماضي.. إنها من فجرت الحدث الرئيس في نصنا الدرامي.. إنها من عرفت الحسيني بوصية أبيه.. تلك الوصية التي دفعته للعودة، رافعا راية الحق والحقيقة.. كانت الأم إذن محرك الأحداث كلها.. إنها من أهدت الحلوانية كلها الحسيني.

كانت هذه شخصيات "عصفور النار".. كان عكاشة حريصا كل الحرص على أن تكون كل شخصية من شخصياته بطلية في ذاتها.. هذه ميزة رئيسة في عكاشة.. كل شخصية مليئة بالتفاصيل والملاح التي يجب أن يظل المتلقي / المشاهد مترقبا لها لكي يفهم ذلك النص الدرامي الذي يطالعه.. كل شخصية لها أهدافها ودوافعها التي تحركها.. تلك الدوافع التي تنشئ الصراع وتدفعه إلى الأمام، وصولا إلى حل العقدة في النهاية.

وأثناء هذا الصراع يقدم لنا عكاشة الحبكة وراء الأخرى.. مع كل حلقة حبكة تحمل مفاجأة محملة بعدد من الأسئلة.. صدمة جديدة مع كل حلقة لتظل تحت تأثيرها لا تكاد تفيق منها حتى تأتي إليك الحلقة التالية بحبكة وصدمة جديدتين.. هذه هي الدراما التلفزيونية عند أسامة أنور عكاشة.

قدم لنا عكاشة في "عصفور النار" صراعا محتدما ومباراة شرسة طرفاها فريقان يضم أولهما الحسيني وحمورية وأبهما، ويزيد فريقهما يوما بعد يوم بانضمام كل من رشاد وصباح والحناوي والعفي وميلم ووطنية وعزازي وشاهين وعمر ووهبة، وحتى سسبان ومروان. ويضم ثانيهما العمدة والسنباطي والدمرداش وعزب وحشاد وبقية جوقة السلطة.

ووسط هذه المباراة الدائرة بين الفريقين تدور مباريات أخرى

لا يقل صراعها قوة بين أعضاء كل فريق.. نعم كان كل مشهد من مشاهد "عصفور النار" محملاً بصراع بين طرفي المشهد أيا كان انتماءهما، وإلى أي فريق ينضمان.. كان عكاشة حريصاً على ذلك دوماً.

مباراة كبرى إذن وعلى هامشها مباريات ربما تكون أصغر ولكنها لا تقل قوة.. ولهذا فلم نجد مفراً من التصدي للمباراة الكبرى كاملة، غير متغالبين المباريات الصغرى.. أخذنا على عاتقنا أن نتتبع نصنا مشهداً مشهداً.. نحاول مع كل مشهد أن نعرف سمات الدراما التليفزيونية، وخصائص كاتبها الأبرز في العالم العربي أسامة أنور عكاشة.

(1)

بداية الحكاية.. سؤال يتبعه سؤال

«وكانت بداية الحكاية»..

هكذا صدر أسامة أنور عكاشة حكايته أو مسلسله "عصفور النار" .. إنها العتبة الأولى من عتبات النص، وهو ما يعني وعيا لافتا منه بفسوخ عنصر الحكى في الدراما التليفزيونية، واعتباره العنصر الرئيس في ذلك الفن.

ورغم فسوخ ذلك العنصر كما أشرنا، فإن عكاشة يخرج على تسلسل الزمن المعتاد في الحكى (الماضي — الحاضر — المستقبل)، فتختلط الأزمنة الثلاثة منذ اللحظة الأولى.. يبدأ "عصفور النار" بمشهد من الماضي يجمع الأخوين صادق وصقر، ذلك الحوار الذي يوضح الموقفين المتناقضين من البداية، ذلك الصراع الحتمي في الدراما، الذي يحرك الأحداث ويدفعها دفعا.. الصراع يتضح إذن منذ نقطة البداية، ويأخذ الحوار في الكشف عن ذلك الصراع.. صراع بين صادق العمدة الذي يرى حقوق العامة من الناس، ويحمل على عاتقه الدفاع عنهم، ليعيد إليهم أرضهم، كاسرا "سلو البلد" وعادات قرية الحلوانية، مؤكدا أن الحر هو من يعرف الحفاظ على الحق، في مقابل صقر الذي لا تحركه إلا شهوة السلطة والطمع في الجاه، لابساً قناع المحافظ على الأرض، مدعياً أن الأرض عرض -وهو أول من باع- لا أحد يملك الحرية فيها، مهددا العمدة تهديدا صريحا (الي يمد يده عشان يغير سلو البلد لازم صوابه تتحرق).. رؤيتان متصارعتان من البداية تكشفان عن صراع سيستمر عبر زمن طويل يمتد إلى المستقبل، مرورا بالحاضر.

ومن الماضي ينتقل عكاشة بسرعة خاطفة إلى زمن آخر لتظهر تلك الفتاة التي تنطلق في دروب القرية محذرة أهلها من النار التي ستحرق القرية بأسرها، باحثة عن ذلك الذي تنادي عليه طالبة من أهل القرية أن يدلوها على مكانه إن كانوا يعرفون.. وقتها لن تعرف الزمن.. لن تعرف إن كنا مازلنا في ذلك الماضي البعيد الذي لا ندرك أنه ماض حتى الآن، أم أننا انتقلنا إلى زمن آخر.. هل النار التي حذر منها صقر قد بدأت لتحرق أصابع صادق أم أنها نار أخرى اشتعلت لسبب آخر؟ وقتها ستطرح على نفسك أسئلة عدة: من هذه الفتاة، ومن الذي تنادي عليه، وما علاقتها بالعمدة وشقيقه؟ ومن الذي أشعل النيران؟

وتتوقف الأسئلة فجأة مع ظهور أغنية المسلسل معلنة أننا لم نبدأ بعد.. إننا أمام عتبة جديدة من عتبات النص، وفي نهايتها، ومع نهاية (التر) تأتي إلينا إشارة جديدة/ عتبة جديدة من عكاشة/ فاضل^{٧٩}، لنجد هاتين الكلمتين أمامنا على الشاشة: "وكانت البداية..!!" عندنا بدايتان إذن.. بداية مشتعلة تظهر لنا الصراع منذ اللحظة الأولى، تلتها نار مشتعلة لم نستطع كشف أسبابها وظروفها المحيطة، ثم بداية أخرى نراها أمامنا الآن.. أيهما إذن هي البداية الحقيقية؟

ومن اللحظة الأولى لتلك البداية الجديدة نكتشف أننا بالتأكيد أمام زمن مختلف، وصورة مختلفة بعيدة عن تلك النيران المشتعلة والظلمة الحالكة.. نجد أنفسنا أمام تلك الضحكات المتعالية من تلك الفتاة التي كانت منذ لحظات تشق سكون الليل محذرة أهلها من الحريق.. ضحكات تلف المكان مع تلك الموسيقى الرقيقة التي تغلف المشهد^{٨٠}، ترد عليها ضحكات ذلك الشاب الذي يطارد الفتاة وسط الحقول، لتتكشف لنا قصة الحب التي تجمع أولاد العم.. هكذا أعلن عكاشة،

٧٩ محمد فاضل. مخرج المسلسل.

٨٠ الموسيقى لعمار الشريعي.

من خلال الحوار الذي يتبادلانه، حيث تناديه هي بـ "ابن عمي"، ويناديه هو بـ "بنت عمي". ومن خلال ذلك الحوار يرسم لنا عكاشة أولى ملامح شخصياته، فحورية التي يحمل اسمها دلالاته الواضحة، وكأنها ليست من أهل هذه الدنيا، هي دائما التي تجري في الأمام، لتقود المشهد، بينما يحاول مروان، بما في اسمه من معنى المروءة، أن يلحق بها، وأن يسير على خطاها، مسلما لها، محاولا إرضاءها بكل السبل.

ورغم تلك الملامح التي رسمها لنا عكاشة، فإن أسئلة ما زالت مطروحة أمامنا: من حورية؟ ومن مروان؟ وكيف تبدل حال حورية من فتاة بائسة (في المستقبل الذي لا نعرف حتى الآن أنه مستقبل) تصرخ في أهل قريتها محذرة من النار، إلى فتاة سعيدة (في الحاضر الذي لم نتأكد بعد من كونه حاضرا) تلهو مع حبيبها وابن عمها في حقول القرية؟ وما علاقة كل ذلك المشهد الذي نراه الآن بالمشهد الذي بدأت به الحكاية كما قال عكاشة، ودار في الماضي (الذي لم ندرك أنه ماضٍ للآن)؟

ومع المشهد التالي مباشرة نجد إجابة عن بعض تلك الأسئلة.. نحن بالفعل أمام زمن جديد.. زمن بدا فيه صقر أكبر بعشرين عاما على الأقل.. كنا في الماضي إذن، والآن نحن إزاء زمن جديد مختلف، تنادي فيه حورية صقر بـ "أبا صقر".. صقر إذن هو عمها، ومروان هو ابنه.. وتبدو خلال المشهد العلاقة التي تجمع حورية بعمها "أبا صقر"، فهو في نظرها الأب، وهي في نظره البنت المدللة التي يحاول إدخال السعادة على قلبها دوما. أين ذهب أبوها إذن؟ أين صادق؟ وما الذي غير الحال إلى ما أصبحنا عليه الآن؟ صقر لم يفعل ما هدد به إذن، فليس من المعقول أن ترى حورية فيه الأب، وهو من وقف ضد أبيها.. هكذا يفكر المتلقي، وهو يرى ذلك المشهد شاخصا أمام عينيه.

ويبدو عكاشة دوماً كأنه يعتمد إثارة الأسئلة في رأس المتلقي، فليس دوره فقط المشاهدة، وإنما أعمال العقل، والاستغراق في العمل ليكون جزءاً منه يبحث وراء التفاصيل ويعي كل أطراف العمل الدرامي، ويسهم في بنائه شيئاً فشيئاً..

وسريعاً ومع مشهد جديد نجد إجابات لبعض الأسئلة ونطرح أمامنا أخرى، فهنا هي حورية ومروان يدخلاننا في صراع من نوع آخر، فمروان يعلن غيرته على حوريتها حتى من أبيه صقر، الذي لا يرد لابنة أخيه طلباً، بل إنه يغار عليها من عمته "سببان" و"عساكر" و"صباح" ومن غرفتها التي تسكن بها.. إنه ذلك الفتى الحالم أن يكون كالشاطر حسن في الحوادث ليأخذ حوريتها على حصانه.. لا يفكر في أي شيء سوى أن يكون بجوار فتاته، حتى وإن كان في بيت صغير خارج الحلوانية.

يبدو مروان مختلفاً كثيراً عن أبيه صقر، فهو لا يملك تلك القامة المشوقة التي يملكها أبوه، ولا تلك الهيئة المهيبة التي تبث رعباً في النفوس، ولا يملك طمعاً في جاه أو سلطان.

أما حورية فتبدو متمسكة بالحلوانية، بل تعلن تمسكها بالإقامة بـ"المنزل" بجوار "آبا صقر"، فهي لا تستطيع مفارقتها.. إنها تبدو قطعة منه.. إنها ابنته التي لم ينجبها.

ومن جديد تطرح الأسئلة.. إن كانت سببان هي العمّة، فمن عساكر وصباح؟ وأين الأب صادق؟ وأين أم حورية؟ وكيف تكون حورية مرتبطة بصقر إلى هذه الدرجة، وهو من وقف في وجه أبيها في الماضي؟ كلها أسئلة مازالت مطروحة وستظل.

وتظهر لنا "سببان" للمرة الأولى.. وجه صارم وشخصية مهيبة، تبدو كالجليل الشامخ الذي لا يهتز، تهتز لوجودها أوصال مروان الذي يبدو أمامها وكأنه الطفل الصغير الذي ارتكب جرماً ويخشى

العقاب.. وتكون سسبان سببا في الإسراع بزفاف حورية على مروان ابن العمدة خوفا من "كلام أهل البلد".. هنا فقط تظهر إجابة عن سؤال كان قد طرح.. لقد أصبح صقر العمدة إذن.. لقد ذهب صادق دون رجعة، ولكن كيف ذهب؟ هل مات؟ هل خرج ولم يعد؟ هل وهل وهل.. والإجابة تظل غير واضحة، وإن كانت صورة الماضي التي لاحت لنا تشير إلى ما أصاب العمدة، أو من كان العمدة وقتها.

ويستجيب العمدة صقر لطلب سسبان، ويسرع في إتمام الزواج الذي يحول القرية كلها إلى عرس كبير.. ويطير الخبر في كل مكان.. زفاف حورية ومروان سيكون الجمعة المقبلة.. هنا تظهر لنا شخصية جديدة.. صالح الحناوي.. "أبا صالح"، كما تناديه حورية، ذلك الرجل الذي يقدم لها ذهب أمها مؤكدا أن أخوالها الذين يراهم "ناس طبيين وصحاب واجب" قد حرصوا على تقديمه لها يوم عرسها.. هنا تبدو المفاجأة على وجه حورية، فأخوالها لا يحبونها كما سمعت، فكيف يفعلون ذلك؟ هنا تؤكد حورية أن الواجب يحتم دعوتهم على الزفاف، وينتهي المشهد -أو يبدأ مشهد جديد- مع انطلاق رصاصة من فوهة البندقية.. إنها رصاصة الابتهاج بالعرس، ولكنها في الوقت ذاته جرس إنذار ونذير للحلوانية كلها، فشيء ما يلوح في الأفق.. شيء ما سيحول مسار حياة هذه القرية بأسرها!!

وينتهي المشهد كذلك حاملا لنا عددا جديدا من الأسئلة.. إنه أسامة أنور عكاشة الذي يقدم مع كل مشهد إجابة عن سؤال لي طرح غيره الكثير، فتظل عيناك مفتوحتين أمام هذا العالم الذي يطل عليك من هذه الشاشة.. ستجد نفسك تتساءل: من أخوالها هؤلاء؟ لماذا يقولون عنهم إنهم لا يحبونها، بينما يراهم صالح الحناوي غير ذلك؟ ومن أوصل لحورية هذا الكلام عن أخوالها؟ وما موقف "أبا صالح" من "أبا صقر"؟ وهل سيوافق صقر على دعوة أخوال حورية الذين لم يدخلوا الحلوانية للاطمئنان على بنت أختهم يوما؟ أسئلة وأسئلة

وأسئلة.. وسنظل نبحث عن الإجابة.

رغم كل ذلك تنتشر الأفراح والاحتفالات في ربوع القرية.. الغناء يعلو هنا وهناك.. شباب القرية يحتفلون بمروان ويزفونه في شوارع القرية، والبنات يتنافسن على الرقص احتفالا بحورية الحلوانية.. وهنا تبدو براعة الرباعي عكاشة وفاضل وحجاب والشريعي، الذين يؤكدون أننا أمام عمل مصري بامتياز، فذلك السيناريو الذي يقدمه عكاشة، ومفردات الصورة التي يقدمها فاضل، وكلمات الأغاني لسيد حجاب مع موسيقى عمار الشريعي، كل ذلك يدفعنا دفعا داخل قلب تلك القرية المصرية فنصبح جزءا لا ينفصل عنها، فهي نموذج لكل قرية من قرى مصر، ونجد أنفسنا أمام طقس من طقوس الفرجة الشعبية "ليلة الحنة" التي نراها في كل قرى المحروسة.

ووسط كل هذه الاحتفالية الكبيرة والأضواء التي تغلف القرية والغناء الذي يعلو في كل مكان، كان هناك شيء آخر يحدث في الظلام.. شيء آخر يجرنا إلى ذلك الماضي الذي ما زال لغزا محملا بعدد لا حصر له من الأسئلة.. كانت العمدة سسبان في بيت مظلم ليس فيه من نور إلا ذلك البصيص الخارج من "لمبة الجاز" والمسلط على صورة للعمدة القديم صادق؛ حيث تحدثه مؤكدة له أنها قد أدت الأمانة بتربية حورية ولم يتبق سوى ليلة لتزف إلى مروان ابن عمها، فقد جمع بينهما الحب "وربنا ولّف قلوبهم"، داعية بأن يكون هذا أول الفرح وليس آخره، وأن يتمتع بالجنة ونعيمها!!

ويعود ضجيج الاحتفال من جديد.. إننا أمام عالين بينهما صراع محتدم.. ماض بعيد يحمل من الأسرار الكثير ويشدنا إلى غياهب وظلمات لا نرى فيها إلا الخطر يحيط بنا من كل جانب، وحاضر يؤمل النفس بمستقبل ربما تغلفه السعادة والسرور والاحتفالات! وتعود سسبان من عالمها الغامض إلى بيتها لتوقف الرقص والغناء،

فـ“عشنا وشفنا العروسة بتغني وترقص في حنتها”.. اختلاف كبير بين سسبان التي كانت ضعيفة منذ لحظات في حديثها مع صادق القادم من العالم الآخر أو من الماضي البعيد، وسسبان الصارمة إلى حد يحسبه الجل قسوة وغلظة.. اختلاف كبير يجسد ذلك الصراع الكبير في قلب سسبان وعقلها، ذلك الصراع الذي نحاول تلمسه والكشف عنه لحظة بعد لحظة.

وفي الوقت الذي تتساءل فيه عساكر الخادمة العجوز عن سبب غضب سسبان تكشف لنا حورية عن السبب الرئيس، وهو دعوتها لأخوالها لحضور الزفاف.. العممة ليست راضية إذن عن ذلك.. هل هي إذن من أوصلت لحورية أنهم لا يحبونها؟ هل هي من غرست ذلك في قلبها؟ ما موقفها إذن من صالح الخناوي وحديثه عنهم؟ أسئلة جديدة تحيط بنا، ويحاصرنا عكاشة بها.

ويتنقل الحوار بين سسبان وعساكر، لتؤكد الأولى أن حورية “من صغرها ورأسها ناشفة”، فهي من انقطعت عن الطعام في سن الحادية عشرة لمنعها من اللعب مع البنات في الجرن.. وتكشف لنا سسبان عن سر جديد وملح من ملامح شخصية حورية، فهي لم ترث “نشفان الدماغ” من أبيها، ولا من أمها كما ترى عساكر، ولكنها “زي عمها”.. لم ترث حورية أباهما، وإنما هي العنيدة القوية مثل صقر العم الذي يهابه الجميع.

على الجانب الآخر ووسط احتفالات الشباب بمروان يظهر ذلك الـ“ميلم” الذي يبدو أن الجميع ينظرون إليه على أنه ذلك المجدوب الذي لا يؤخذ على كلامه، ولا يشغلون بالهم بما يقول.. إنه “عبيط القرية” إذن.. ذلك العبيط الذي يصلح للسخرية منه والتندر عليه ليس إلا، ولكن الحقيقة أنه مالك خزائن الأسرار، وفتح أبواب الماضي، وكاشف حجب المستقبل.. إنها الشخصية النمطية التي قدمت في كثير من الأعمال الدرامية تطالعنا هنا لتحمل لنا أسئلة جديدة؛ من هذا

الـ“ميلم”؟ وما الأمان الذي يطلبه من سسبان، وما هذا الذي يعرفه هو وتعرفه هي ”سسبان يا سسبان.. ادينا الأمان.. إنت عارفة وأنا عارف.. والزمن دار؟“ وما الذي نسيه الكبار ويتذكره الزمان؟ هل هي مجرد كلمات تخرج من مجذوب لا يملك من أمر عقله شيئاً، أم أنها خزائن الماضي التي لا يعرف عنها أحد شيئاً؟

ومع المشهد التالي يتكشف لنا لماذا غضبت سسبان عندما دعت حورية أخوالها.. لقد طلقوا أمها من أبيها وكانوا سببا في وفاتها وحرمانها منها طوال العمر.. هكذا أعلنتها سسبان في وجه حورية، بل إنها أكدت لها أنهم سرقوا حقها في أرض أمها، وأجبروا الأم على كتابة الأرض لهم بيعا وشراء. كان هذا هو السر إذن في ذلك العداء. ولكن لماذا يبدو رأي صالح الحناوي مخالفا لذلك؟ لماذا قال إن صقر هددهم ومنعهم من دخول الحلوانية، ومن سيدخلها منهم فإنه سيعود منها محمولا إلى مصيره الأخير؟ ولماذا أعادوا ذهب الأم لحورية بعد كل هذه السنوات؟ أيرد السارق شيئاً سرقه بعد كل هذا العمر؟ كلها أسئلة طرحتها حورية ونحن معها ولم نجد لها إجابة شافية عند سسبان، فتصر على الوصول إلى إجابة بسؤال أخوالها، وهو ما يشعل الصراع.. سسبان تؤكد أنهم لن يأتوا وإن أتوا فإنهم سوف يطردون قبل دخول الحلوانية، فصقر لا ينسى، والأهم أنه لا يسامح.. لا يسامح أبدا..

هنا يقدم لنا عكاشة ملمحا جديدا من شخصية صقر على لسان أخته العارفة به حق المعرفة، فصقر لا يعرف هذه المصطلحات.. لا يعرف النسيان.. لا يعرف المسامحة والغفران والصفح.. كلها مصطلحات ربما تعني عنده الضعف والخذلان والهوان، ولذلك لا يعرفها، ولا يقبل بها. القوة.. والقوة فقط هي الشيء الذي يعرفه صقر.

على الجانب الآخر يتأكد لنا بالدليل القاطع أن حورية قد ورثت

العند من صقر، فهذا هي تصر على عدم وضع الحناء قبل أن يأتي لها صقر ذاته ليؤكد لها أنه سيسمح بحضور أهلها وقبولهم ضيوفا مدعويين على زفافها.. ولكن هل يقبل صقر ذلك، وهو من هو؟ هل يضعف أمام عناد حورية؟ هل يفتح أبواب الماضي لنطل منها على ما حدث، ونعرف إجابة عن كل الأسئلة التي طرحت؟

وتنقل سسبان ما حدث لمروان، الذي يتعاطف مع حورية، ولكن هل يستطيع هو أن يقول ذلك لأبيه صقر؟ يبدو مروان برقته وعيشه في عالم الأحلام والحواديت أضعف من تحمل مثل هذا الأمر.. أيقف أمام صقر بهيبته وقوته وسلطانه وجبروته طالبا الموافقة على شروط حورية، والمثول أمامها صاغرا ضامنا لها الأمان لأخوالها؟ يبدو الأمر شديد الصعوبة على الفتى مروان، الذي يرى في مواجهة حورية الحل الأسهل، فربما يستطيع إقناعها بالعدول عن رأيها.

ولكن كيف يقابل مروان حورية، وهذه ليلة "الحنة"؟ التقاليد والأعراف لا تسمح للعروسين باللقاء في هذا اليوم؟ إن ذلك نذير شؤم.. هكذا تؤكد سسبان، ولكن هل هناك شؤم أكبر من فتح أبواب الماضي على مصراعيها؟ إنه الخطر الذي لا يمكنهم مجرد التفكير في إمكانية حدوثه.. إن كان هناك شؤم فهذا هو الشؤم الأكبر.. وأمام ذلك لا تملك سسبان سوى الموافقة، ولكن إذا كان ولا بد من لقاء، فليكن في السر دون أن يلتفت إليه أحد، فالتقاليد لا بد أن تصان وتحفظ، رغم أنها ليست قانونا كما قال مروان.

ترى سسبان رغم موافقتها على اللقاء أن مروان لن يستطيع تغيير شيء، ويرى مروان العكس.. ترى سسبان أن حورية "راسها ناشفة"، ويرى مروان أن هذا ليس معه هو.. ترى سسبان أن حورية أقوى منه ودائما "مستقوية عليه"، ويرى مروان أنها تحبه.. ترى سسبان أن الكلام عن الحب ضعف وخذلان، ويراه مروان مصدرا للفخر والزهو بنفسه.. وأخيرا ترى سسبان أن هناك مصدرا ما للقلق،

ويرى مروان أن الأمر قد حسم، ولا يتبقى سوى ساعات ويجمع الحبيين بيت واحد.

إنه الصراع الذي يحرص عليه عكاشة في كل مشهد من مشاهده.. صراع على مستوى الحوار بين سسبان ومروان؛ حيث يتبنى كل منهما رأيا يخالف الآخر، محاولا إثباته، من خلال الحوار الذي يبدو مباراة بينهما، يحاول كل منهما الفوز فيها لإثبات وجهة نظره.. وصراع دائم يأخذ عكاشة المتلقي إليه، مضيئا جديدا من الأسئلة في الرؤوس، فلماذا تبدو سسبان قلقة إلى هذا الحد؟ ومن أي شيء تقلق؟ هل فقط من قدوم الأحوال وكشف سر ما؟ وما دام عندها يقين في عدم قدومهم فمن أي شيء تخاف؟ ما الذي يمكن أن يعكر صفو الزواج ويهدد إتمامه؟

إنه الخوف الذي يكرسه عكاشة من خلال كلمات مجذوبه ميلم الذي يرفع صوته بالنداء، مؤكدا أنه "هيدفع يا سسبان"!! من الذي سيدفع؟ وماذا سيدفع؟ ولمن سيدفع؟ أسئلة جديدة نجد أنفسنا أمامها ونحن نبحث عن إجابة لأسئلتنا السابقة.. الإجابة لن تكون بالتأكيد أن من سيدفع هو حشاد صديق مروان الذي يدخل في خلاف مع ميلم، كاشفا عن صراع متوقع بين فريقين يمثلها ميلم من ناحية وحشاد من ناحية أخرى.. لن يكون الدافع حشاد بالطبع، فميلم يرفع صوته مجددا بأن "آن الأوان يا سسبان".. الدافع شخص آخر، والمدفوع شيء أكبر من البريزة الفضة التي يحرص على أخذها ميلم من الجميع، أما المدفوع له فغير معلوم.. علمه فقط ربما يكون عند سسبان وميلم!

وفي الوقت الذي يرى فيه مروان في كلمات ميلم "آن الأوان يا سسبان" فألا حسنا يشي بقرب إتمام المراد وجمع الحبيين، تطعن الكلمات سسبان، لتطلب من مروان إسكاته، فكلماته نذير شؤم جديد يوضع إلى جوار نذير الشؤم الذي حذرت منه قبل ذلك، وهو لقاء

العروسين.. ويستمر ميلم في الصراخ: "قل لها يا مروان.. قل لها أن الأوان.. قل لها.. بلاش يا مروان.. بلاش..!!"

وتكسر حورية كل الأعراف، وتطلب من سسبان أن تتركها مع مروان.. الطلب كبير وشديد الصعوبة على سسبان وهي المحافظة على الأعراف والتقاليد، ولكن الخوف أكبر.. لهذا لم تجد سسبان إلا الخروج، لعل في ذلك أملا في الهروب من مواجهة ذلك الخطر القادم. ويتجدد الصراع عبر الحوار ثانية.. الصراع القائم في كل مشهد من مشاهد عكاشة.. ويدور الصراع هذه المرة بين حورية ومروان. الحبيبان يتصارعان، فمروان يريد الانتصار وإقناع حورية بالعدول عن موقفها وإصرارها على أخذ التعهد من العمدة بعدم المساس بأخوالها، وحورية لا تعرف سوى الانتصار أيضا بأن تصل إلى مأربها وطلبها.. يحاول مروان بكل السبل، متوددا، ومستعظفا، ومستميلا، وراجيا، ولكن حورية تظل وازعة "العقدة في المنشار" على حد قول مروان الذي يعدها بأن يصنع زفة لأخوالها تستقبلهم عند مقدمهم، ولكن هيهات أمام حورية العنيدة.. تنتصر حورية إذن، وهل يعرف مثلها الهزيمة، وهي ابنة صقر والوارثة الشرعية له في القوة والصلابة والعند؟

ويتنقل بنا عكاشة إلى بيت العمدة لنراه واقفا وسط رجاله وعلى رأسهم حمزة السنباطي الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة في البلد.. هكذا نعرف من العمدة عندما يسأل عن مروان فيجيبه بأنه في الزفة مع أصدقائه، فيقول العمدة إنها المرة الأولى التي يعرف فيها شيئا قبل حمزة، فالزفة عادت ولم يأت مروان بعد.. كلمات قليلة يقدمها لنا عكاشة لكنها تكشف الكثير، فنحن الآن أمام ذراع القوة للعمدة صقر.. مسئول الأمن في القرية، أو لنقل البصاص الأعظم، واليد التي تبطش.

وبكلمات قليلة كذلك يكشف لنا عكاشة عن صراع يبدو تاريخيا محتدما بين العمدة صقر وصالح الحناوي؛ حيث يسأل العمدة أحد رجاله عنه، وتكون الإجابة أنه مريض، فيعاجل العمدة بالقول مهددا: "معلش.. مش وقته".. هذه الكلمات القليلة تؤكد أننا أمام صراع جديد بطله صقر من ناحية، وصالح من ناحية أخرى، بما يحمل اسمهما من دلالات تلح على المتلقي في كل لحظة.

ويأتي مروان إلى أبيه واضعا أمامه طلب حورية.. كل المؤشرات تؤكد أننا أمام عاصفة قادمة.. غضب عارم في انتظارنا جميعا.. غضب سيكون مصدره ذلك الصقر الذي لا يعرف صفحا ولا غفرانا كما صورته أخته، ولا يعرف هواة كما بدا من خوف ابنه مروان، ولكن عكاشة يفاجئنا بغير ذلك.. هكذا هي لعبة الدراما؛ فأنت لن تتوقع أبدا ما يمكن حدوثه.. لا بد من كسر المتوقع وإلا فقدت الرغبة في المشاهدة والمتابعة.. ستظل دائما أسير المفارقة التي تمنعك من توقع ما يمكن أن يحدث فتظل بأعين مفتوحة وقلب وعقل منصتين.

يفاجئنا عكاشة إذن بموقف مغاير من صقر.. صقرٌ وديعٌ هو.. صقر يحب ابنة أخيه ويرأها ابنته التي ربأها ولا يرد لها طلبا يوما.. سيذهب إليها بنفسه، وقد كان عازما على ذلك من قبل حتى أن تطلب.. وحين يسارع مروان بعرض الموضوع الآخر، وهو دعوة الأخوال، يؤكد له صقر أنه سيتحدث مع حورية في ذلك، مؤكدا أنهما يعرفان كيف يتفاهمان معا.. وكيف لا وهي الابنة؟! وكيف لا وهو الوحيد الذي يفهمها؟!

بدا لنا جليا الآن أن عكاشة قد حرص من اللحظة الأولى على أن يظهر نقطة الضعف الوحيدة في صقر.. إن ذلك المارد الذي يهابه الجميع ويخشونه لديه أيضا نقطة ضعف.. نعم.. إنها حبه لحورية.. ربما لا يعرف صقر النسيان، ولا الغفران، ولكنه يعرف الحب.. حب حورية ابنة أخيه التي أحبها حتى أكثر من ابنه نفسه.. وها هي

حورية تنتصر في أول صراع بينهما.. حورية تطلب القدوم من العمدة، وهو من هو، ويلبي صقر الطلب ويذهب مليا النداء.. معركة صغيرة هي ولكنها تكشف الكثير عما يمكن أن يكون قادما من صراعات.

ومن جديد يظهر السنباطي مفتحا بيت العمدة سسبان الذي يضج بالبنات اللاتي يرقصن ويغنين ابتهاجا بحورية الحلوانية، معلنا قدوم العمدة.. تصرف يكشف الكثير، فمثل هذا السنباطي لا يعرف حرمة لبيت حتى وإن كان بيت أخت سيده، تلك السيدة التي لا تقل قوة وهيبة عن سيد الحلوانية وعمدتها.. تصرف تقابله سسبان بتوبيخ يكشف عن عدااء مستتر وكره واضح منها لهذا السنباطي الوضيع، وأمام هذا لم يجد رغم وضاعته إلا الاعتذار صاغرا لسيده وأخت سيده.

وتتشبي حورية بالانتصار.. تبدو سعيدة بمقدم عمها نزولا على رغبتها.. هكذا تكشف لصديقتها صباح، مؤكدة أنه عمها ووالدها الذي رباها، وأنه لا يرد لها طلبا، وتؤكد ذلك صباح حين تشير إلى أن العمدة الذي يهز الحلوانية بأسرها يبدو شخصا آخر أمام حورية.. تتأكد نقطة الضعف إذن ويتأكد إدراك الجميع لها، ويتأكد كذلك حب الجميع لحورية، مروان وصقر والقرية بأسرها، كما تؤكد صباح، التي نكتشف سريعا أنها ابنة صالح الحناوي، حين يسألها العمدة عنه وعن سبب غيابه عن الحضور لمباركة العرس. وتؤكد صباح مرضه، وأنه في انتظار الطبيب فيطلب العمدة منها أن يمر الطبيب عليه لدفع أجره، كما يؤكد لها أنه سيزور والدها غدا للاطمئنان عليه.. تصرف منطقي من عمدة يحمل القرية كلها على كتفيه، ويعرف الأصول، ولكن هل يبدو منطقيا بين رجلين بدا الصراع بينهما بلا حدود؟ إنه التصرف الذي يحمل رسالة من العمدة إلى صالح، فأنا المسئول عن هذه القرية ويجب أن تعرف أنت ذلك، وما أنت إلا أسير إحساناتنا.

ويبدأ الصراع ثانية.. صراع الشبيهين.. الحبيين.. العم وابنة أخيه.. الوالد والابنة.. صراع بين رؤيتين مضادتين مغلفتين بعند لا حدود له.. بين حورية الراغبة في حضور أخوالها والترحيب بهم، وصقر المؤكد أنهم لن يأتوا أبدا، وإن أتوا فسوف يكون عنده ألف سبب لقطع أرجلهم قبل أن يصلوا.. وتطلب حورية سبيًا من الألف، ولكن العمدة يطلب منها ألا تفتح هذا البئر.. إنه بئر الماضي الذي يخشاه جميع من عاشوه ولا يريدون السقوط فيه.. وللحظة واحدة يخرج الصقر الحقيقي من جلباب العمدة، فيمسك بذراعي حورية بكل قسوة مؤكدة أن دمها ولحمها فقط في الحلوانية.. لحظة كاشفة يقدمها لنا عكاشة تكشف لنا عما خلف ذلك القناع الذي يرتديه صقر، وفي الوقت ذاته تؤكد نقطة الضعف التي أشرنا إليها سابقا، فسرعان ما يعود صقر إلى ضعفه أمام حب حورية، فيطيب خاطرها، وهو الذي لم يكن بغرضه يوما إغضاها.

رغم ذلك لم يعلن صقر سببا واحدا من الألف التي يملكها لموقفه مع أخوال حورية.. إنها أسباب لن تستطيع حورية حملها.. أسباب ثقيلة على اللسان كما يؤكد لها.. وأمام إلحاح حورية وعندها يوافق صقر على قدومهم ولكن بشرط أن يتم الحساب بعد ذلك.. ولكن أي حساب؟ ماذا يريد منهم؟ وماذا فعلوا؟ وما سبب كل ذلك؟ وما الذي يخيف العمدة من مقدمهم؟ أسئلة كثيرة تطرحها حورية ونجد أنفسنا نردها معها، ولكننا لا نجد إجابة من صقر إلا الاعتراض على أنه من الممكن أن يخاف.. صقر لا يخاف إذن.. صفة أخرى تنضم إلى الصفات التي عرفناها عنه.. لا يعرف النسيان.. لا يعرف الصفح والغفران.. لا يعرف الخوف.. ولكنه يعرف الحب.. حب حورية على الأقل، وربما حب صادق.. صادق الذي يتذكره الآن مطالبا ابنته أن تقرأ له الفاتحة وتذكره في ذلك اليوم، وأن تطلب من الله أن يشرح قلبها لزوجها وحياتها الجديدة.. انتصار مؤقت إذن للعمدة، فقد أنهى

المعركة الصغيرة هذه لصالحه.. اقتنعت حورية أو سكنت على الأقل
عن طلبها، وبدأت الاستعداد للزفاف.. وبدأت "الحنة".

ومع الحنة يكون الغناء.. ولكن أي غناء هذا؟

- يا قمر يا غائب..

عن ناسك سنين..

وقلوب الحبايب..

عليك ملهوفين..

- يا حنة يا حنة..

يا فرحة ومحنة..

شوق الروح سحرنا..

وحنى الإيدين..

غناء حزين.. صرخات نداء على ذلك الغائب الذي عاد، ونداء
من العائد على حورية الحلوانية.. من ذلك الشاب النحيل الذي أتى
متخفياً في ظلمات الليل لينزل الحلوانية.. من ذلك الذي الغريب الذي
عاد؟ كلمات تحمل الكثير من سيد حجاب ولحن يضيف إلى دلالات
الكلمات دلالات أخرى، لتطرح أسئلة جديدة: من هذا؟ ما علاقته
بكل ما يحدث؟ ما علاقته بحورية ولماذا نسمع صوتها يناديه؟ لماذا
أتى في هذا الوقت من الليل؟ لماذا اختار أن يأتي في هذه الليلة تحديداً؟
أسئلة جديدة تنتظر الإجابة..

إنها شخصية الغريب، أو الذي نظنه غريباً، فينزل القرية ليغير
حالتها ويبدلها.. ثممة استخدمت كذلك في أعمال عديدة يقدمها لنا
هنا عكاشة برؤيته الخاصة ومذاقه الخاص.. ويبقى السؤال الأكبر:
من الغريب؟ ولكنه ليس غريباً.. كيف يكون غريباً والأغنية تقول

على لسانه:

وبعودة يا ناسنا..

أفراحنا وونسنا..

من ساسانا لراسنا..

دوبنا الحنان..

ليس غريبا إذن.. إنه العائد من الغربة.. ولكن أي غربة هذه، وما سببها؟ أسرار كثير تنتظر الكشف.

لم يكن واحدا.. كان العائد يتحدث مع آخر أمام بيت حورية.. يكتشف أن هذا يوم "الحنة"، ويطلب الآخر منه الانتظار للصباح، ولكنه يقول له بأن النهار سيكشفهما، وفي النهاية يمشيان بعيدا والآخر يؤكد للعائد أنهما سيجدان حلا!!

كل مشهد بسؤال جديد، بل يحمل عددا من الأسئلة.. من ذلك الآخر؟ هل هو من أبناء القرية؟ ما علاقته بالعائد هذا؟ ما الذي يريدانه من بيت حورية/ وما الذي يخافان أن يكشفه النهار؟

وفي اللحظة التي يذهبان فيها نرى خفيرين يأتيان إلى المكان نفسه، حيث يتساءل أحدهما عن سر تلك الحركة، بينما يؤكد الآخر أنها خيالات فقط، فيعود الأول للتساؤل هل يكون ذلك هو المارد؟ فيجيبه الثاني بأن المارد لا يجرو على الخروج والعمدة قريب منهما، مؤكدا أن هذا لو حدث فستكون ليلة سوداء، فترد "أم قويق" ليؤكد الأول أن صوتها فيه الرد.. إنه نذير الشؤم.. ولكن الثاني يؤكد أنه صوت الكروان، ولا شؤم في ذلك أبدا..

تفصيلات صغيرة مأخوذة من التراث الشعبي يقدمها لنا عكاشة، ولكنها مضمرة برؤيته الخاصة.. خادمة الدراما التي يقدمها، فهي حكايات المارد تطل علينا، ولكن أي مارد هذا الذي يستطيع أن

يظهر وصقر موجود؟ إن المارد يتضاءل أمام العمدة وسلطانه وقوته وجبروته. وها هي "أم قويق" بصوتها الذي ينظر إليه على أنه نذير الشؤم، ولكن صوتها هنا غير متفق عليه، فصوت أم قويق هنا يختلط بصوت الكروان، ويظهر صراع جديد غريب من نوعه.. أنحن أمام كروان أم أمام أم قويق؟! أنذير شؤم هذا أم هو بشير خير؟

وتحسم سسبان الموقف؛ حيث تسمعه صوت بوم.. إنه نذير الشؤم إذن.. نذير جديد ينضم إلى النذيرين السابقين؛ لقاء العروسين يوم "الحنة" وكلمات ميلم المجذوب العالم ببواطن الأمور.. تسمع سسبان وحدها الصوت، بينما لم يسمعه العمدة.. وكيف يسمعه العمدة وهو لا يعرف الخوف؟!

ويبدأ عكاشة في كشف الجديد من خلال الحوار بين العمدة وأخته.. الحديث عن المهر.. ١٠ أفدنة ستكتب باسم حورية مهرا لها.. هكذا يعلن العمدة، ولكن سسبان تسأل عن حق حورية في ميراثها.. هنا فقط ندرك أن العمدة قد وضع يده على الأرض.. أرض الحلوانية كلها.. ولكن في الوقت ذاته لا حق يضيع عند صقر!! هكذا يؤكد صقر، مؤكداً أن أرض الحلوانية كلها واحد ويجب أن تظل كذلك، وهذا هو "سلو" الحلوانية. ويذكر العمدة أخته بما حدث عندما حاول أخوهم صادق أن يتمرّد على ذلك. باب الماضي يفتح إذن، ولكن هل أغلق يوماً؟ إن سسبان تؤكد أنها لم تكن بحاجة لأن يذكرها بذلك في هذا اليوم، ليرد هو بأن ذلك لم ينسه أحد أبداً.

ومع المشهد التالي يعرفنا عكاشة بذلك الآخر الذي كان مع العائد ليلاً.. إنه رشاد بن صالح الحناوي.. يسأله أبوه عن ذلك الضيف/ العائد، لنجد إجابات مبهمة، فهو لا يعرفه إلا من أسبوع فقط، وهو من بحث عنه وطلب منه المجيء من أجل مصلحة في الحلوانية.. لم يصرح رشاد إلا بأن ضيفه جاء لمصلحة في بيت العمدة.

ويتنقل الحديث بعد ذلك بين صالح الحناوي وولده لزاوية أخرى، ليكشف لنا عكاشة أسباب الخلاف بين صقر وصالح، فرشاد يريد حقه في أرض أبيه.. يريد أن يشتري شقة في القاهرة ويتزوج هناك ليكون بجوار عمله كصحفي، تلك المهنة التي لم يكن العمدة يرغب فيها، ولم يكن يرغب حتى في أن يكمل رشاد تعليمه.. كل شيء إذن برأي العمدة، والمبرر أنه يحب القرية وأهلها ويريد الحفاظ عليها والقيام على مصالحها.. هكذا يدافع صالح عن العمدة، في الوقت الذي يعلو فيه صوت رشاد مطالبا بالحق. ولكن كيف يحصل على هذا الحق، وهنا "سلو" البلد أو "سلو" العمدة الذي يسيطر على كل أرض الحلوانية رغبة منه في الحفاظ عليها ككيان واحد.. يدافع صالح عن العمدة، ويقول إنه لم يتأخر يوما عن أحد من أبناء القرية، وهو يرحب بأن يعطي رشاد كل ما يريد من أموال، مثله مثل كل أبناء الحلوانية..

لا أريد أن أكون كالمسول وأنا أطالب بحقي.. هكذا يقول رشاد الذي وصف والده حديثه بأنه يشبه حديث صادق العمدة القديم.. ويُفتح باب الماضي مجددا بأسئلة من رشاد عن صادق وكيف كان، وهل كان له بيت في مصر، وكيف مات.... أسئلة كثيرة لم تجد الإجابة، فقد كان صادق يزور، ولكن زيارته طالت، حتى نفذ السهم.. هكذا يقول صالح مغلقا أبواب الماضي في وجه رشاد، عائدا للحديث عن مطالبه، ليؤكد له أن عليه الذهاب معه للعمدة لأخذ ما يريد من مال.. إنه الشرط الذي اشترطه العمدة.. أن يذهب رشاد بنفسه.. إنه فرض السطوة والسلطة على الجميع.. الجميع لا بد أن يطلب ليأخذ العطايا و"كله مسجل في الدفاتر"!

ويتنقل بنا عكاشة لنرى جانبا آخر من القرية.. ميلم يفترش الأرض في مقهى عزازي المتواضع وزوجته وطنية.. يستمر ميلم في أحاديثه المغمضة الكاشفة في الوقت ذاته، ليؤكد أنه لن يكون هناك

فرح، فمن اليوم لن يكون هناك أفراح في الحلوانية.. هل يكون ذلك نذير شؤم جديد؟ ما الذي يمكن أن يحدث؟ ما الذي يخبئه القدر ويراه ميلم؟

ويدخل المقهى عزب، أحد خفراء البلد، اليد الباطشة التي لا تتوانى عن الاعتداء على ميلم، سائلا إياه عن الذي زار البلد الليلة، ولا يجد إجابة منه، ولا يتوانى كذلك عن التحرش بوطنية الفتاة الفقيرة أمام زوجها عزازي الذي بدا قليل الحيلة أمام سطوة عزب الخفير ممثل السلطة، وحامي الأمن في ربوع الحلوانية!

يعرف عزب إذن أن هناك زائرا قد نزل القرية مع مقدم الليل.. ويعرف أن الزائر كان يحوم على منزل حورية مع رشاد، ولكنه لا يعرف من الزائر.. هكذا يصرح عزب للسنباطي شيخ الخفر، مؤكدا له أنه سيعرفه.. كما يؤكد له أن صالح الخناوي ليس مريضا كما ادعى.. البصاصون يعرفون كل شيء في القرية إذن، وسيسيطرون على كل شبر فيها..

ويتلقف السنباطي المعلومة ليتداول فيها مع الدمرداش شيخ البلد، فالزائر لا بد أن يكون من أخوال حورية فصالح على علاقة بهم، وهو من كان سبب زواج العمدة القديم في الماضي.. سر آخر يكشفه عكاشة، لتكشف لنا المعلومات شيئا فشيئا.. ولكن هل استجاب الأخوال حقاً لدعوة حورية؟ هل أتوا بالفعل؟ هل كانت عندهم الجراءة لفعل ذلك؟ ولكن هل يكون هذا الشاب الصغير منهم؟ كيف يكون ذلك؟

ونعود مجددا لبيت صالح الخناوي لنفاجأ بالحديث الدائر بين رشاد وصباح.. طلب غريب ذلك الذي يطلبه رشاد من أخته.. كيف يجروا على أن يطلب منها الذهاب إلى حورية وإبلاغها بأن شابا أتى من مصر يريد لقاءها؟ من يكون هذا الشخص، ولماذا يريد لها؟

ورغم ذلك تستجيب صباح لطلب أخيها بعد أن أعطاها أمانة لتعطيها حورية.

ولم تنتظر كثير النرى الأمانة، فسرعان ما نعرفها في المشهد التالي مباشرة حين تسلمها صباح حورية.. صورة صادق الحلواني يحمل طفلاً.. من هذا الطفل الذي يحمله العمدة القديم؟ وكيف وصلت الصورة إلى ذلك الزائر الغريب؟ وماذا يريد منها؟ ومن أين يعرفها؟ كلها أسئلة تطرحها حورية، وأمام إلحاح الرغبة في الوصول إلى إجابة لها ولنا لا تجد سوى الخروج سرا للذهاب إلى بيت صالح الحناوي محاولة الوصول إلى إجابة.

وتصل حورية إلى بيت الحناوي لتجد المفاجأة في انتظارها.. الشاب الأسمر النحيل العائد ليلاً.. العائد من المدينة أو ربما من الماضي ليس إلا الحسيني.. الحسيني صادق الحلواني.. شقيق حورية!!

وتنتهي الحلقة الأولى من "عصفور النار" مع نزول تلك الالفة على الشاشة "ويستمر الحريق..". تركنا عكاشة ونحن نسأل وسنظل.. السؤال وراء السؤال طوال مشاهد حلقة الأولى، ثم السؤال الأكبر مع نهايتها.. كيف يكون الحسيني شقيق حورية وهي لا تعرف ذلك؟ أين كان؟ وما سبب عودته في هذه الليلة تحديداً؟ ولماذا عاد متستراً بالليل؟ ولماذا يخبر حورية بأمره في السر؟ لماذا لم يذهب إلى عمه العمدة أو إلى عمته سسبان؟ أسئلة كثيرة تلح على المتلقي / المشاهد ليظل مشغولاً بها يوماً كاملاً انتظاراً لإجابة ربما تروي ظمأه في الحلقة التالية.

ومع نهاية الحلقة الأولى نعيد التأمل لنرى عكاشة قد عرض لنا شخصياته بيسر وسهولة ودون تكلف أو عناء.. كما حدد إلى حد كبير أطراف الصراع.. فهناك صالح ورشاد وصباح وميلم وعزازي ووطنية ممثلين لأهل القرية من ناحية، وهناك على الطرف الآخر

صقر والسنباطي والدمرداش وعزب ممثلين للسلطة والسطوة من ناحية أخرى.. وهناك الصراع الأهم بين الماضي من جهة ممثلا في الحسيني العائد، وسسبان العارفة به، وصقر الذي لا ينسأه، وميلم كاشف الحجب، والحناوي الذي يحاول إغلاق بابيه، وحاضر تعيشه حورية مجذوبة دون أن تدري للماضي، ومروان الحالم بمستقبل أجمل، وأهل القرية الراضون المستسلمون لذلك الزمن الذي يعيشونه.

لقد نجح عكاشة في حلقة الأولى في تقديم كل ذلك لتجد نفسك منغمسا مع أهل الحلوانية، جزءا منهم، تعيش حياتهم، وتعاني معاناتهم، وتتألم ألهمهم، وتطرح أسئلتهم التي لا تنقطع، وتحاول إطفاء نيرانهم، أو بالأحرى.. تشتعل معهم في حريقهم المستمر.

لا فرح بعد ذلك.. نبوءة تتحقق

مع بداية الحلقة الثانية يستمر عكاشة/ فاضل في جذبنا إلى المستقبل الذي لا نعرف أنه مستقبل.. إنها النيران التي تحاصر الحلوانية من كل مكان، وها هي حورية تحاول جاهدة البحث عنه.. من هو؟ إنها تناديه.. يمنعها الأحبة صباح ورشاد وأبوهما من الصعود إلى السطح للبحث عنه، فقد أكلت النيران كل مكان، ولو كان هنا لظهر!!

تظهر سسبان منادية على حورية وعساكر.. مازالت النار تحاصر القرية كلها.. في الوقت ذاته يظهر عزب مؤكدا للسنباطي أن النار ما زالت بعيدة عن الدار وبإمكانهم حمايتها.. ولكن أي دار هذه؟ الإجابة ليست واضحة لنا.. ويفاجئنا السنباطي بقوله: "سيبها تولع يا ولا.. المهم ماحدث يدخل البلد ولا يخرج منها غير أما تصفصف خالص".. لماذا كل هذا؟ ومن جديد نسأل أنفسنا من أشعل النار إذن؟ وما الهدف من ذلك؟

ويظهر أخيرا صقر جالسا في منزله هادئا متحدثا مع الدمرداش.. الريح هي سبب انتشار الحريق.. ولكن: "لقيوه ولا لسه؟".. هكذا يسأل العمدة؟ من هذا الذي يبحثون عنه؟ من ذلك المطارد من الجميع؟ من الذي تبحث عنه حورية، ويبحث عنه العمدة في الوقت ذاته؟ حورية تريد إنقاذه، ولكن هل يريد العمدة ذلك أيضا أم أن السبب مختلف؟

ونعود لحورية لنجدها ما زالت تبحث عنه في كل مكان.. ويعلو صوت ميلم، وهو العالم ببواطن الأمور، مؤكدا أنه طار.. تسأله حورية عنه، فيؤكد أنه ليس موجودا في القرية كلها، وأنه رآه يغادرها

ولكن لم يستطع اللحاق به، ويسرع ميلم مكملًا صياحه للجميع..
لقد طار العصفور.. طار بعد أن اشتعلت النيران في كل مكان.. وهنا..
تبدأ أغنية التتر معلنة أننا كنا في زمن آخر غير الزمن الذي انتهت
عنده الحلقة الأولى.. من جديد نجد أنفسنا أمام اللعبتين أنفسهما؛ لعبة
الزمن، ولعبة الأسئلة المتدافعة إلى الرأس لتدخلك إلى ذروة الأحداث
فتجد نفسك أسيرًا للشاشة عليك تجد إجابة عن أسئلتك.

وتستمر الحكاية.. هكذا يعلنها عكاشة/ فاضل مع بداية حلقتنا
الجديدة.. كان الذي رأيناه إذن خارج جسد حكايتنا.. كان حدثًا في
زمن آخر لم نعرفه حتى اللحظة ولم نكشف أسرار.. ومع بداية الحلقة
نبدأ رحلة الإجابة عن الأسئلة، وطرح أسئلة جديدة.. إنها اللعبة
التي يتقنها عكاشة في كل مشهد من مشاهده..

نبدأ من حيث انتهت الحلقة الأولى.. تطرح حورية السؤال الأكبر..
من هذا الذي يقول إنه أخوها؟ وكيف وهي وحيدة أمها وأبيها؟
وتأتي الإجابة من الحسيني.. إنه أخوها من أبيها.. الأب واحد نعم..
ولكن الأم مختلفة.. ورغم إحساسها بصدقه تعلن حورية حاجتها إلى
الدليل، ويقدم الحسيني شهادة ميلاده لحورية فتطالعها، وهي الفتاة
التي حصلت على الإعدادية.. تطالع حورية شهادة الميلاد وتؤكد
من صدق الحسيني.. الحسيني صادق عوف الحلواني.. هكذا يقول
الحسيني وهكذا تؤكد الأوراق.. إنه الأخ إذن.. إنه العائد لحضن
عائلته وأهله وناسه.. ولكن، لماذا غاب من البداية؟ ما سبب تلك
الغيبه؟ ما السر وراء ذلك؟

وتصل ملابس العروس الجديدة.. وتشتعل الزغاريد تنفيذا لرغبة
سببان التي تطالب الجميع بألا تتوقف الزغاريد حتى ينتهي الفرح..
وتستعد سببان للذهاب إلى بيت العمدة لاستقبال "الشوار".. مراسم
الفرح مستمرة رغم كل نذير شؤم مر علينا، ورغم تأكيد ميلم أنه لا
فرح اليوم ولا بعد ذلك في الحلوانية!!

ونعود مجددا إلى حورية التي تحاصر الحسيني بأسئلتها وأسئلتنا التي تدور في رأسها ورءوسنا معا.. لماذا غاب؟ لماذا لا يعرفه أحد من العائلة؟ أين كان؟ ولكن الحسيني لا يقدم لنا إلا إجابة واحدة، فقد كان مع أمه في مصر.. كان هناك كما كانت حورية هنا.. لم يكن يعرف مثلما كانت لا تعرف.. لم يعرف إلا أنه ابن تاجر كبير مات.. وعندما شعرت أمه بقرب أجلها صارحته بالحقيقة وطالبته بالعودة إلى حضن أهلها وناسه.. وفي رحلة خاطفة عبر الزمان والمكان، كاسرة لمسار الدراما التقليدية كعاداته، يسافر بنا عكاشة إلى مشهد يجمع الأم بالحسيني وهي طالبة بالعودة إلى أخته وعمه وعمته الذين لا تعرفهم هي.. طالبا أبوه بالألا يعود إلا بعد أن يكبر وإلا أكلوه.. طالبا بأن يعود إلى هناك عندما يكبر.. إلى الحلوانية..

وكعاداته يلقي لنا عكاشة سؤالا وهو يجيب عن سؤال سبقه.. عرفنا من هو الحسيني.. ولكن لماذا أخفاه الأب؟ ومن هؤلاء الذين كانوا سيأكلونه إن عاد صغيرا؟ وأين هم الآن؟ وكيف سيواجههم؟ أسئلة أخرى تطرح علينا وسنظل نبحث عن إجابة وسيظل سؤال يهاجمنا بعد سؤال.

ويلتقط رشاد الخيط ويحيننا عن أسئلة أخرى.. كيف التقى بالحسيني؟ كيف عرف حكايته؟ الإجابة أن الحسيني عرفه وهو الذي يعمل صحفيا بالقاهرة من خلال مجموعة من أصدقاء الجامعة دلوا الحسيني عليه مؤكدين له أنه إن كان لديه مأرب في الحلوانية فإن رشاد هو السبيل.. وذهب الحسيني إليه في الجريدة وقدم إليه الأوراق، وطلب منه المجيء إلى الحلوانية، لكن رشاد العارف بكيفية إدارة الأمور في قريته طلب منه الانتظار لتهيئة الأجواء لاستقبال العائد بعد غياب.. طلب رشاد ذلك من الحسيني ولكنه فاجأه بقدومه، فلم يستطع أن يأخذه إلى العمدة واتفقا على مقابلة حورية أولا.. هكذا يتضح لنا سبب مجيء الحسيني وحده، ودخوله البلد وحيدا.

وتشتعل الفرحة في قلب حورية.. لقد ظهر لها أخ ليلة عرسها.. رجل يحميها ويكون سنداً لها ومعيناً.. إن فيه روح أبيها الذي راح.. نظرتها نظرتة.. طلتها طلته.. إنه أخوها الذي عاد.. عاد يوم العرس ليكون العرس عرسين.. ولكن هل تكون الأمور هكذا؟ لقد حذر صادق من هؤلاء الذين سيأكلونه إن عاد.. هل تعرف حورية ذلك؟ هل تدركه؟ هل ترى الخطر الذي حذر منه الوالد؟ يحاصرنا عكاشة بالأسئلة من جديد ونحن نسمع تحذيرات رشاد من رغبة حورية في أن تأخذ أختها لتدور به في القرية متجهة إلى بيت العمدة زافة الخبر له.. يحذر رشاد من ذلك.. يعرف الصحفي المثقف الواعي أن السلطة لن تقبل مثل ذلك.. لن تقبل بخطر عاد من الماضي -رغم عدم معرفة رشاد به- في صورة الحسيني.. إطلالة الماضي ليست مضمونة بأسراره التي لا يعرفها أحد.. يستشعر رشاد كل ذلك، لكنه لم يستطع في النهاية منع حورية من تنفيذ قرارها، فلا أحد في الحلوانية يعرف الحق مثل أبيها صقر.. هكذا ترى حورية غير مستجيبة لتحذيرات رشاد.

وتنطلق حورية مع أخيها في شوارع القرية وحواريها ممسكة بيد أخيها في زفة غير الزفة التي كانوا ينتظرونها.. كانوا ينتظرونها وهي تزف إلى مروان، وها هي تمشي ممسكة يد ذلك الغريب الذي لا يعرفونه، لتعلو علامات الاستفهام والتعجب الوجوه والعيون.. من ذلك الغريب الذي تمشي حورية الحلوانية ممسكة يده؟! ما كل السعادة التي تملأ وجهيهما وهما ينطلقان في اتجاه بيت العمدة؟ ويعلو صوت الغناء داخل حورية فرحة وابتهاجا بالقمر الذي عاد..

ورجعت يا قمر..

من البلاد البعيدة..

رشرشت ضيك غمر..

قلوبنا ضحكت سعيدة..

يا دوارين في الهوا...

دقوا كفوفكم سوا..

راح اللي راح وانطوى..

هلت ليالي السمر..

هل راح ما راح حقا؟ هل هلت ليالي السمر كما تحلم حورية؟
أسئلة أخرى تبدو الإجابة عنها بالنفي، ولكن لماذا وكيف وإلى أين
ستسير بنا الأمور؟ ستظل أسئلة لا نعرف إجابتها.

وينطلق ميلم في القرية معلنا أن "الأمير ابن الأمير وصل.. الحبيب
ابن الحبيب وصل".. لن نتساءل حتى داخل عقولنا كيف عرف
ميلم ذلك، فقد عهدناه يعرف كل شيء، بينما يظل أهل القرية يرون
فيه عبيطهم ومتسولهم الذي يقتات من عطاياهم.. ولكن السؤال
الذي سي طرح نفسه هنا: هل سيقبل العمدة بعودة الأمير ابن الأمير؟
إن عودة الأمير تعني نزاعا على السلطة.. السلطة بين أمير القرية ابن
أميرها القديم، وأميرها الذي سيطر على الإمارة منذ زمن بعيد.. هل
يكون هذا هو الصراع المنتظر إذن؟ هل هذه هي العقدة التي يجرنا
إليها عكاشة؟

ولكن هل يلتفت أهل القرية إلى نداءات ميلم؟ هل سيدركون من
الأمير ابن الأمير الذي وصل؟ الإجابة لا، فهذا هم مازالوا يسخرون
منه، مؤكدين أن من وصل هو عفريته الذي يركبه دوما.. هكذا يرى
أهل القرية ميلم، ولا يرون فيه شيئا آخر.. نداءاته إذن لن تؤثر فيهم..
نبوءاته لن تحركهم.. لن يهزم حتى مطالبته لهم باستمرار الضحك
فلن يكون هناك ضحك بعد اليوم.. وبقدر عدم اهتمامهم به وعدم
التفاتهم إليه بقدر ما يلتفتون إلى حورية وهي تمشي بمسكة بيد أخيها،
متسائلين عن خروجها يوم عرسها، وعن ذلك الغريب الذي تمشي

ممسكة بيده في القرية.. السؤال إذن هو الذي يلفت الأنظار، والسؤال بداية الطريق إلى المعرفة.. وطريق المعرفة طريق الحق.. والوصول إلى الحق يعني طلب العدل.. وطلب العدل يعني الثورة.. كل هذه الأسئلة إذن ما هي إلا تحريض على الهدف الأسمى.. ولكن هل يدرك أهل القرية ذلك الآن؟ الإجابة بالطبع هي لا.. ولكنهم ربما يدركون يوما.

ويطير الخبر إلى سسبان في دار العمدة، فتخرج لتطل على ذلك الغريب القادم مع ابنة أخيها، ويدخل الأخوان الدار، ليجدا أنفسهما في مواجهة العمدة.. يحسبان أنهما سيزفان بشرى إليه. ومع النظرة الأولى من العمدة إلى عيني الحسيني يلوح الخطر في الأفق.. يرى ذلك الحلم/ الكابوس الذي يلوح له دوما.. ذلك الفارس الذي يمتطي جواده آتيا إليه من بعيد.. هل رأى العمدة في عيني الحسيني ذلك الفارس؟

ويهتز صقر من داخله، ولكنه لم يلبث أن يستعيد ثباته، مشككا في رواية الحسيني، مؤكدا أنه ليس إلا مجرد نصاب دفعه البعض في طريق حورية.. لم تشفع شهادة حورية وسعادتها.. لم تشفع صورة الحسيني مع والده.. لم تشفع شهادة الميلاد.. لم تشفع طلة عين الحسيني التي تشبه طلة عين حورية.. كل ذلك لم يشفع لهما عند العمدة.. أو لنقل إنه بات يعرف حق المعرفة أن الحسيني هو ابن صادق.. يدرك أنه الأمير ابن الأمير، ولهذا كان عليه أن ينكر.. فلا أمير غيره وهو المتوج على كرسي السلطة.. وأمام ذلك يأمر صقر زبانيته وعلى رأسهم السنباطي بسجن الحسيني.

ويأتي صوت الماضي عبر عقل سسبان.. تسمع سسبان صوت أخيها صادق الذي جاء من الماضي.. تستعيده سسبان لنسمعه معها وهو يوصيها بابتته حورية وابنه الحسيني.. الحقيقة تعرفها سسبان إذن، ولكنها سككت.. سككت في الماضي وما زالت تسكت إلى الآن.. هل ستنفذ الوصية؟ هل ستدافع عن الحسيني تنفيذا لوصية أخيها

صادق؟ هل ستنطق بالحق لتفتح أبواب الماضي، بما يحمله من نار مشتعلة ربما تحرق الجميع، أم ستسكت عن هذا الحق مغلقة تلك الأبواب رغبة في حماية الحاضر والمستقبل؟

وتختار سسبان السكوت.. تسمع بأذنيها إنكار صقر وتشكيكه في رواية الحسيني وشهادة ميلاده مؤكداً أن هذه لعبة من ألعاب أخوال حورية.. ورغم ثقة الحسيني في موقفه ومطالبته بإبلاغ الحكومة للتأكد من صحة شهادة الميلاد، فإن ذلك أيضاً لم يغير من الأمر شيئاً.. يصير العمدة على قراره، فهو الحكومة على حد قوله، ويحبس الحسيني وتساق حورية إلى بيت العمدة الساكنة استعداداً لحفل عرسها.

ويتنقل بنا عكاشة سريعاً إلى مروان المنشغل وسط أصدقائه باستعدادات الزفاف.. تعلقو ضحكات مروان الحالم بتحقيق الآمال والوصول إلى المستقبل الهانئ السعيد.. لا يعرف ما يحدث في القرية.. لا يعرف بذلك الزلزال الذي هز القرية كلها. ويأتيه الخبر، الذي لا خير فيه، على لسان ميلم الذي بدا كأنه يحرك الأحداث، ويدفعها دفعا لتحقيق نبوءته.. "لا فرح الليلة ولا بعد الليلة في الحلوانية"!

ونعود إلى العمدة ورجاله.. العمدة ساخط على الجميع وعلى رأسهم السنباطي، فكيف لهذا الحسيني أن يدخل القرية دون علمهم؟ ويبرر الدمرداش بأن ذلك ليس إلا مؤامرة من خارج القرية وليس من داخلها، ودور السنباطي يتوقف عند الداخل فقط.. هنا يكشف لنا عكاشة عن تفصيلة جديدة تبدو ذات مغزى، فالعمدة يتعجب من دفاع الدمرداش عن السنباطي، ليشير لنا عكاشة على هامش الحوار إلى أن صراعا دائماً داخل السلطة (الدمرداش / السنباطي)، فكلاهما يسعى إلى غرضه هو، لا يجمعهما سوى فرض السلطة وتحقيق المكاسب، والاستغلال بالسلطة الأكبر ممثلة في العمدة صقر الحلوانية، فهما في خدمته ومن أجل صالحه.

ويشتد غضب صقر.. ويطرح السؤال وراء السؤال.. كيف وصل الحسيني إلى البلد؟ ومتى وصل؟ ومن ساعده؟ وكيف وصل إلى بيت حورية؟ وكيف حدث اللقاء؟ كلها أسئلة يطرحها العمدة، ولا تجد رداً، ولكنه بالضرورة سيظل يبحث عن رد، مسخراً كل زبانيته للوصول إلى إجابة.

وتبدأ أولى الخطوات.. الحسيني في وجه قائد الزبانية السنباطي.. التحقيق بدأ، ومعه التعذيب.. هذه السلطة لا تعرف سوى ذلك.. هذه هي الوسائل المعتادة من كل سلطة مستبدة. يشرع السنباطي في استجواب الحسيني، الذي يطلب منه المثول أمام السلطة الشرعية ممثلة في النيابة للتأكد من روايته.. ولكن كيف هذا والعمدة والسنباطي ورجاله لا يعرفون قانوناً سوى القوة والسطوة؟ ويبدأ السنباطي في ممارسة مهامه.. يبدأ الضرب، ويسقط الحسيني مغشياً عليه.. فارسنا إذن لم يتحمل التعذيب ونحن ما زلنا في بداية الطريق، فهل سيصمد حتى نهايته؟ ومع سقوط الحسيني يعلو النواح:

خليك شاهد..

يا قمر الليل خليك شاهد..

وينتقل الصراع إلى بيت العمدة سسبان؛ حيث عادت حورية.. تستمر العمدة في تجهيز "شوار" العروس، هاربة من كل أسئلة حورية التي تحاصرهما، ليشدد الحصار عليها، فهي لم تفلت من حصار كلمات صادق بعد.. لا تجد رداً على أسئلة حورية عن إنكارهم لأخيها الحسيني.. وأمام إصرار حورية لم تجد إلا أن تؤكد أن العمدة رجل حكيم لا يمكن أن تخدعه مثل هذه الحيلة.. لا يمكن أن يصدق مثل هذا النصب. تنكر سسبان الحقيقة وهي العارفة بها.. إنه السكوت عن الحق ثانية.. السكوت عن الحق الذي يعلي صوت الظلم.

وتطالب حورية بالتحقيق إذا كانوا لا يصدقون أمر الحسيني، لكن

سببان تقول لها إن هذا سيكون بعد الزفاف.. إنهم مشغولون الآن بالزواج، وكل شيء سيكون بعد ذلك.. ولكن هل للعنيدة حورية وريثة أبيها صقر أن تستسلم بهذه السهولة؟ ترفض حورية ذلك، وتطالب بحضور أخيها حفل عرسها.. وتعلنها صريحة في وجه الجميع.. إذا لم يأت الحسيني فلن يكون هناك عرس.. تعلنها حورية مغلقة الباب عليها، مؤكدة تمرد لها على الجميع.. تمرد لها على السلطة. هل سيكون هذا بداية تحقيق النبوءة.. نبوءة ميلم.. ميلم الذي أكد أنه لا فرح في الحلوانية بعد الآن؟ هل هذا تفسير كل نذير شؤم جاء إلى سببان وشعرت به؟

وتدور شكوك سببان حول صباح الصديقة الوفية لحورية.. تضيق الخناق عليها وهي تسائلها هل رشاد هو من أتى بالحسيني من مصر؟ وفي الوقت ذاته ينتقل بنا عكاشة إلى بيت الخناوي ليدور رشاد مفزوعا بسبب غياب الحسيني، بينما يبدو الفزع على صالح لغياب صباح، فلا شك أنهم عرفوا منها الآن تفاصيل ما حدث.. الطوق يلتف حول الخناوي وأسرته إذن.. تتصاعد حدة الصراع بينه والعمدة.. هل سينسى له صقر فعلة ابنه تلك؟ الإجابة لا بالتأكيد، فصالح نفسه يعرف ماذا يمكن أن يفعل صقر عندما يغضب.. هكذا يؤكد لولده رشاد مبررا فزعه وخوفه على صباح. ولا ينتظر الخناوي كثيرا فسرعان ما يأتي مرسال العمدة له طالبا حضوره.

وتحدث المواجهة.. كلام معسول في البداية للسؤال عن الصحة والأحوال، لكنه يبدو كالرماد الذي يغطي النيران، التي تبحث عن فرصة للظهور مجددا والانقضاض على كل ما يقابلها.. وتبدأ النار في الظهور تدريجيا عندما يسأل العمدة عن رشاد وضيغه، ولا ينكر الخناوي شيئا، فلم يعد هناك ما ينكر، فقد كشف المستور، وهو يعرف حق المعرفة أن صقر ورجاله لا يفوتهم شاردة أو واردة في القرية بأسرها.. فقط يخفي الحلواني جزءا من الحقيقة، أو هكذا يحاول

حين يؤكد أن رشاد لم يكن يعرف سبب مجيء الحسيني الحقيقي إلى الحلوانية.. فقط كان يعرف أن لديه مأرباً ما هنا. لم يصدق العمدة بالطبع كلام الحناوي فقد عرف كل شيء.. عرف كيف تم إرسال صباح إلى حورية وكيف تم اللقاء.. التفاصيل كلها كانت عند العمدة.. السلطة تعرف كل شيء إذن، والبصاصون في كل مكان ينقلون كل شيء وأي شيء..

وتتجدد المناورة من صالح الذي يؤكد أن رشاد لو كان يعلم أن هذا سيغضب العمدة ما كان قد فعله.. إنها محاولة للهروب من غضب صقر الذي يعرفه حق المعرفة كما أكد لابنه منذ قليل. ويفاجئ العمدة الحناوي باتهام جديد، فكما كان رشاد مرسل الحسيني لحورية كان والده مرسل أخوالها لها.. ومن جديد يناور الحناوي، مؤكداً أنه لم يكن إلا مرسل خير بين حورية وأخوالها الذين هم أهلها رغم كل شيء. وقبل أن تشتعل نيران الغضب يأتي الخبر إلى العمدة.. لقد سقط الحسيني مغشياً عليه.. وأمام هذا لم يجد سوى إرساله للوحدة الصحية لمتابعة حالته، وإسعافه.. ومع ذلك لا يفوت العمدة أن يوجه الرسالة للحناوي وابنه، فالحلوانية لا يوجد فيها من يعرف "اللف والدوران"، والحلوانية كلها عائلة واحدة.. أرض واحدة.. مال واحد.. الأرض لا تتجزأ.. المال لا يقسم.. ومن يريد شيئاً فعليه أن يطلب وعليه هو أن يمنح، أما من يحاول اللف من وراء العمدة أو الوسوسة في أذن الآخرين فلن يصل لشيء.

رسالة واضحة من العمدة تحمل كل تفاصيل الصراع.. الصراع الذي بدأ منذ أكثر من عشرين عاماً بين صادق وصقر، بين من نادى بإعطاء الحقوق لأصحابها، ومن رآها حقاً له تحت ستار المحافظة عليها.. من زهد في الجاه والسلطة، ومن عاش حياته طالباً لها ساعياً إليها متبهاً بها.. كان هذا هو لب الصراع الذي اشتعل في الماضي ولم يكن يسمح صقر الآن بإحيائه مجدداً.. لقد اشتهت رائحة

الخطر آتية من بيت الحناوي، أو ربما اشتتمها آتية من الماضي عبر الحسيني.. وأمام هذا كان عليه أن يقوم بوأد الفتنة في المهدي، ولهذا أوصل الرسالة للحناوي الذي رضح صاغرا، بعد أن أعياه الزمن، فليس أمامه إلا أن يفعل ما طلب منه، وأن يبلغ رشاد بضرورة المشول أمام العمدة الذي يرى أن رشاد في خطر وعليه إنقاذه.. أي خطر هذا؟ وهل يكون العمدة هو المنقذ حقا؟ إنه خطر الدخول في النيران.. ولا سبيل إلى إنقاذه منها إلا بالسكوت والخضوع.. إنها حرب السلطة مع كل من يريد الوقوف أمامها رافعا صوت الحق.

ونذهب مجددا إلى بيت العمدة، لنرى مروان يطالب سسبان بلقاء حورية ليسمع منها ما حدث.. سسبان تؤكد أن نصابا ادعى أنه أخو حورية وقد كشفه العمدة وطرده.. تكذب سسبان إذن وتزور الحقائق التي تعرفها حق المعرفة.. تخون وصية أخيها صادق، أو ربما ترى في قولها هذا تنفيذا للوصية.. ربما ترى في ذلك حماية للحسيني من بطش العمدة، فمن هذا الذي يستطيع الوقوف أمام صقر؟ وما دام الأمر هكذا فعلى الحسيني الابتعاد تماما عن هذه المعركة حماية له.. ربما يكون ذلك هو الدافع عند سسبان.

ويطلب مروان من عمته أن يسمع الحكاية من حورية، فهي التي رأت وسمعت بأذنها.. أمام هذا تخرج الكلمات من فم سسبان كمن يهذي: "آن الأوان يا سسبان..... أو أن إيه.. الفرح ولا الحزن؟".. إنها تردد كلمات ميلم.. تؤكد الآن النبوءة، متذكرة نعيق اليوم مرة أخرى وكأنه كان الإشارة.. ومن جديد نتساءل: ما الذي آن أو أنه؟ وما دامت سسبان تعرف أنه آن الأوان فلماذا لا تكشف كل ما عندها؟ لماذا لا تفتح أبواب الماضي؟ إنه الخوف.. الخوف من اشتعال النيران.. تلك النيران التي تحرق الجميع.

وتدخل سسبان غرفتها لتفتح أبواب الماضي، فأبوابه لا تفتح إلا في غرفتها.. تفتح خزانة ملابسها لتخرج منها ذلك الجلباب الذي يحمل

آثار دماء.. دماء من هذه؟ ولماذا تحتفظ بذلك الجلباب؟ ولماذا تحتضنه الآن، وهي تردد اسم الحسيني؟ كل الإشارات تؤكد أن صادق العمدة القديم قد قتل.. هل كان القاتل أخاه؟ هل كانت قصة قابيل وهابيل مرة أخرى؟ هل أحرق صقر أصابع صادق كما هدده؟ وإن كان الأمر كذلك فلماذا سكنت سسبان ولم تدافع عن دم أخيها؟ لماذا رضيت بأن يجلس صقر على الكرسي الذي اغتصبه من صادق؟ وكيف نبت حب حورية في قلب صقر على هذا النحو؟ أهو التكفير عن الذنب الذي اقترفه؟ أيكون ذنبه هذا سبب خوفه من فتح أبواب الماضي؟ أيكون ذنبه هذا سبب إنكاره الحسيني خوفا من الانتقام؟ أسئلة جديدة يلح علينا بها عكاشة كعادته، وكعادتنا سنظل نبحث عن إجابة.

ويلتقي مروان بحورية ليستمتع منها، فتؤكد له أن الحسيني أخوها.. ويتساءل مروان عن سبب موقف أبيه إذا كان الأمر كذلك.. ولا يجد ردا عند حورية، فلا رد إلا عند العمدة، ولهذا لا مفر من الذهاب إليه. وعند ذلك تحمله حورية رسالة لتوصيلها إلى صقر: لا بد أن يخرج الحسيني من محبسه وأن يكون إلى جوارها وقت عقد القران، وإلا فلن يكون هناك زواج. ومن جديد تتأكد النبوءة.. لا فرح الليلة ولا بعدها في الحلوانية!!

ويقف مروان بين العنيدين؛ بين حورية وريثة أبيه، وصقر العنيد الأكبر.. يقف حائرا لا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل.. يوصل الرسالة لأبيه، فيشتعل غضبه مؤكدا أن الرد على حورية كان يجب أن يكون بالعصا.. من جديد تبدو هذه هي اللغة التي يعرفها العمدة صاحب السلطة والأمر والنهي، فلا أحد يمكنه فرض شروطه على صقر، وسيتم كل شيء في موعده ودون أن يشعر أحد.

ويخرج السؤال من مروان: "والحسيني؟" لتأتي الإجابة قاطعة من صقر: "مافيش حسيني".. هل أصبح ذلك واقعا أم أنه إشارة لما يمكن أن يحدث.. إشارة لمصير محتوم لن يتوانى العمدة عن تنفيذه إذا

لزم الأمر؟ أما أنها أمنية يتمناها العمدة، منكر ما هو واقع بالفعل؟ رغم ذلك يستجيب العمدة لطلب مروان الأخير، فهو يريد أن يرى الحسيني.. بهذا وعد حورية، وربما يكون في هذا ما يمنحها من تنفيذ ما هددت به.. ربما!!

ويبتقل بنا عكاشة إلى الوحدة الصحية ليكشف لنا الطبيب من خلال حديثه مع رشاد ما يعانيه الحسيني.. الحسيني مريض بمرض خطير، فالأقراص التي في جيبه تعالج ذلك المرض، وهي لازمة له دوماً.. لهذا لم يتحمل الحسيني ما فعله معه السنباطي.. إن قلبه الضعيف لم يحتمل، ولهذا سقط.. ولكن هل سيسقط الحسيني حقاً، أم أن في مقدّمه سقوط الجميع؟

ويؤكد رشاد للطبيب أنهم ضربوه، ولكن عكاشة يأبى إلا استغلال الموقف لتأكيد أن السكوت أصبح عادة وأن الصمت أصبح سنّة، فهذا هو الطبيب الغريب عن القرية الذي يحمل على كتفيه أمانة العلم قد منعه الخوف من الحديث، فهو لا يتحدث إلا عن توصيف الحالة الطبية متجاهلاً ما حدث من اعتداء يعرف أنه قد وقع بالفعل.. لقد وقع الاعتداء نعم، ولكنه اعتداء من العمدة ورجاله، إنه اعتداء رجال القانون، أو بالأحرى رجال السلطة، وما دام الأمر كذلك فإن اعتداء لم يحدث!!

ويأتي مروان إلى الوحدة ليرى الحسيني.. ومع أول نظرة منه يتذكر كلمات حورية، فطلة عينية تحمل الطلة نفسها التي يعرفها في عين حوريتها.. إنه الحسيني إذن.. الحسيني صادق عوف الحلواني.. يعلنها الحسيني مرة أخرى، وها هي تجد من يصدقها هذه المرة.. يصدقها مروان.. وكيف لا وهو يحمل في صدره ذلك القلب الحالم؟ "وازي هنكر شيء وهو حقيقي؟!" هذا ما نراه في أعين مروان، وهذا ما تردده الأغنية في الخلفية ليصبح الأمر واقعا لا جدال فيه.

ويطلب رشاد من مروان، وهما صديقا الدراسة رغم اختلافهما، أن يتدخل لإنقاذ الحسيني.. أن يبعده عن أيدي السنباطي ورجاله، فاستمراره في أيديهم يعني موته.. وتصل الرسالة إلى مروان، فالسنباطي ليس المقصود، فهو ليس إلا أداة في يد العمدة.. رشاد يطلب منه إذن أن يخلص الحسيني من يد أبيه.. أن يبعده عن الحلوانية وخطرها الذي يحيط به.. ولكن هل يستطيع مروان الرقيق الذي يحسبه البعض ضعيفا أن يقف أمام قوة أبيه وجبروته؟ وكيف يمكنه أن يلبي طلب رشاد؟ من أين تأتيه القدرة؟ ربما تأتيه إن عرف أن هذا سيكون سببا في سعادة حورية ورضاها عنه.. لهذا يركز رشاد على ذلك ويؤكد له.. ولكن كيف يرضي ذلك حورية وهي المصرة على حضور أخيها مراسم الزفاف؟ هنا يطمئنه رشاد مؤكدا أن الخبر سيصل إلى حورية عن طريق صباح، وستفهم كل شيء وستحمد له صنيعه.

وبشكل منطقي نتقل إلى صباح في بيت أبيها وهي تستعد لمغادرة المنزل لتنفيذ دورها في الخطة.. خطة هروب الحسيني التي لم نعرف تفاصيلها بعد، ولكن الخناوي يرفض خروج ابنته.. لقد أعلن صالح انسحابه من المعركة مبكرا، وها هو يصرخ في ابنته: "أحنا مالناش حشرة في الموضوع ده نهائي!!" هل سقط الخناوي سريعا أمام صقر؟ لا.. لم يكن السقوط سريعا، فهو سقوط له تاريخ.. لقد هزمه الزمن.. هزمه الخوف على ابنه رشاد وصباح.. ربما كان قادرا على المواجهة في الماضي مستمدا قوته من عزوته وإخوته وزوجته التي كانت تحمل مسئولية البيت والأبناء، ولكنه الآن فقد كل ذلك.. لا عزوة ولا إخوة ولا زوجة، ولم يعد أمامه سوى الحفاظ على ابنه بتجنيبها كل شر أو خطر وأن "يمشي بيهم جنب الحيط".

إنه المبرر الموجود دائما عند كل من يهزمه الزمن فيضعف أو يستسلم ليقف مكبل الأيدي أمام الظلم.. يسكت عن الحق لينضم إلى معشر الساكتين الصامتين المستضعفين المهزومين.. يهزمهم الخوف

دوما.. الخوف على لقمة العيش أحيانا.. على أنفسهم أحيانا أخرى.. وعلى ذويهم في أحيان.. ولكنه الخوف في كل الأحيان.. الخوف الذي تنجح السلطة الغاشمة في زرعه داخل القلوب.

وتعم الفرحة أرجاء القرية استعدادا لعرس ابن حاكمها وحوريته، ويتسابق الجميع للرقص، ويطلب ميلم -الذي لا يبدو عليه أي فرح- من وطنية أن تذهب لتوفي نذرهما وترقص، ولكنها تؤكد له أنها ستفعل بعد عقد القران، ليتتهز الفرصة مجددا مؤكدا أنه لن يكون هناك قران.. يكرر نبوءته إذن ويؤكددها، ولكن أهنأك من يستمع؟!

ونذهب إلى بيت العروس التي لم يصلها الخبر بعد.. لم يصلها خبر الهروب الكبير.. هروب الحسيني. تبدو حورية مستمرة في تمردتها، فهي لن ترتدي ثوب الزفاف.. هكذا تؤكد وسط محاولات مستميتة من عساكر مطالبة بذلك.. ما زالت حورية على موقفها. لن يتم زفاف إلا والحسيني إلى جوارها.

في الغرفة الأخرى، غرفة سسبان، الغرفة التي تفتح فيها أبواب الماضي.. كان العمدة يتحدث مع أخته، يطالبها بأن تذهب لتجبر حورية على الانصياع للأوامر وإتمام الزواج.. وتخرج سسبان عن صمتها، وتحتد على العمدة، مؤكدة أنه العمدة في كل مكان إلى أن يخطو بقدميه دارها.. هنا يتحول إلى صقر أخي صادق.. هل تجرده سسبان من السلطة؟ ألا تعترف بأحقته بها؟ أترى من هو أحق بها منه؟ أسئلة جديدة تدور في رأس المتلقي ويحتاج إجابة عنها.

وتنزل الكلمات على صقر لتصيبه بالدهشة، فتؤكد له أنه "آن الأوان".. ويتساءل صقر ونحن معه: "أوان إيه؟" إنه السؤال الذي تحمل إجابته إجابة لكل الأسئلة.. وهنا تشير سسبان إلى الحلم الذي يؤرقه.. الحلم الذي قصه عليها قبل ذلك.. إنه الحلم الذي رآته في عينيه حين وقعتا على الحسيني.. الحلم الذي رأيناه نحن أيضا..

ذلك الفارس الذي ينطلق في ربوع الحلوانية.. الفارس المنتظر ليخلص القرية كلها مما هي فيه.. لقد نطقت سسبان.. شقت جدار الصمت.. نطقت الآن بالقليل ولكن ربما كان هذا إيذانا بالنطق بالكثير فيما هو آت.

ويصل المأذون ويستعد الجميع لإتمام الزفاف، وتذهب سسبان إلى حورية محاولة إقناعها بارتداء ثوب الزفاف، ولكن هيهات، فحورية العنيدة تتأبى وتصر على تنفيذ عهدها مع أبيها.. ولكن أي عهد ذلك وهي التي كانت في سن الطفولة وقت وفاة صادق؟ إنها ترى أنه ترك لها أخا هو من سيحميها ويزوجها.. وتؤكد سسبان في المقابل أن العمدة هو كبير العائلة وكبير القرية وهو من سيزوجها. لقد عادت سسبان للصمت.. لم تستمر في إعلاء كلمة الحق.. قالتها فقط في الغرف المغلقة.. غرفتها التي لا تفتح أبواب الماضي إلا فيها.. ولكن لم يحن الوقت بعد لإعلانها عالية في كل مكان.. وها هي تصمت أمام حورية التي استحلفتها: "احلفي يا عمة إني ماليش إخوات".. ولم تنطق سسبان.. لم تنف.. ولم تؤكد.. اكتفت فقط بقولها: "ماقدرش أحلف يا حورية".. هكذا فضلت سسبان ولكن الرسالة وصلت إلى حورية، فالسكوت يعني أن الحسيني أخوها حقا ولا جدال في ذلك، ولا شك.

وتستعطفها سسبان مذكرة إياها بكل ليلة سهرت فيها إلى جوارها، طالبة منها أن ترتدي ثوب الزفاف، وأمام هذا الاستعطف ترضخ حورية.. ولكن هل ترضخ حقا؟ نعم سترتدي ثوب الزفاف إرضاء لعمتها ولكن هل يعني ذلك أنها قد تراجعت عن موقفها؟ وهل تراجع وريثة العند عن موقفها بهذه السهولة؟ وهل تُفسد نبوءة ميلم وتوافق على عقد القران؟ وهل تُفسد نبوءة من هم على شاكلة ميلم؟!!

وتعلو الزغاريد المكان.. ويهم المأذون بعقد القران، طالبا أن يأتي

أحد بتوكيل العروس.. ويطلب صقر من الحناوي أن يذهب ليأتي بالتوكيل.. لقد اختار صقر الحناوي ليقوم بالمهمة، فالحناوي أحد كبار القرية رغم كل شيء، كما أن اختياره يعني الكثير بالنسبة لصقر، فكأنه يضعه في مأزق لا يمكنه الفكك منه بهذا الاختيار، فحورية سترسخ بالتأكيد، وهل هناك من لا يرضخ أمام العمدة؟ ورضوخها أمام الحناوي بالذات سيغلق كل باب لأية محاولة بعد ذلك.

ويذهب الحناوي إلى حورية ليأتي بالتوكيل، وفي الوقت ذاته يظهر ميلم مرددا كلماته التي يسمعها الجميع ولا يعيها أحد منهم.. يُظهره عكاشة في هذه اللحظة الحاسمة لذكرنا بالنبوءة.. هل تسقط نبوءة ميلم؟ نحن على بعد ثوان من ذلك.. أم تصمد النبوءة وتحقق في اللحظات الأخيرة؟

وتأتي إجابة السؤال من الحناوي سريعا.. فالعروس لم توكل أحدا.. فهي "عاصية ع الجوازة مش عايزاها".. ويستمر الحريق.. نقرأ هاتين الكلمتين على الشاشة معلتين نهاية الحلقة، ومعهما تتأكد نبوءة ميلم التي أعلنها مرارا وتكرارا، ولم يشعر بإمكانية حدوثها إلا سسبان التي فضلت إنكارها.

لقد استخدم عكاشة كل مفردات الحكايات الشعبية للتمهيد لما حدث، فنعيق البوم من ناحية، ونبوءة المجدوب من ناحية أخرى، وأخيرا الغريب/ العائد الذي يقلب كل الأحوال رأسا على عقب.. إنها دراما بنكهة حواديت الجدة التي تربينا عليها ونشأنا على تفاصيلها.. دراما مصرية تشعر بأنها تحاصر في كل قرى مصر.. تراها في كل آن وفي كل مكان، ولهذا فهي ليست غريبة عنك، ولست غريبا عنها.

(٣)

الشخشيخة واليد.. وبصا صو السلطة

وتأتي البداية كالعادة من النيران.. تلك النيران المشتعلة التي تحيط
بالقرية من كل جانب.. تلك النيران التي اشتعلت في زمن لا نعرفه..
زمن نتظره في أية لحظة.. إنه المستقبل الذي يطل علينا مع بداية
كل حلقة لنرى المصير الذي ينتظره الجميع. يبدو رشاد وهو ينادي
عزازي ليشاركه في إنقاذ أطفال القرية.. ويظهر عزازي ووطنية
وصباح وحورية.. الكل يشارك في عملية الإنقاذ.. مشهد يذكرنا
بقول أمل دنقل:

كان شباب المدينة..

يلجمون جواد المياه الجموح..

ينقلون المياه على الكتفين..

ويستبقون الزمن..

يبتنون سدود الحجارة..

علهم ينقذون مهاد الصبا والحضارة..

علهم ينقذون الوطن^{٨١}!!

لا فارق بين النار والطوفان، فكلاهما يعني الدمار.. الدمار الذي
ينتظر القرية، بينما يحاول أبنائها حمايتها وإنقاذها.

ويعلو دعاء شيخ المسجد وهبة، فليس هناك من يستطيع رد القضاء

٨١ أمل دنقل. مقابلة خاصة مع ابن نوح. الأعمال الكاملة لأمل دنقل. ص ٣٩٣. مكتبة مدبولي.
الطبعة الثالثة. ١٩٨٧.

غير الله.. ويأتينا صوت الحناوي طالبا من أهل القرية الخروج منها، ليكونوا في مأمن من النار.. في الوقت ذاته يعلو صوت ميلم قائلا: "نار الحق متحرّقش".. ميلم كعادته يرى ما لا يراه الجميع.. يكشف كل الحجب، ويصل إلى عين الحقيقة.. عندها تبدأ أغنية البداية، لنعود إلى النقطة التي توقفنا عندها في حكايتنا، وتستمر الحكاية.

أعلنها الحناوي أمام الناس.. حورية لن توكل أحدا.. حورية "عاصية على الجوازة".. هل يرضي ذلك العمدة؟ إنها الإهانة التي لم يكن ليتظرها يوما.. لم يكن غريبا أن يعنف العمدة الحناوي، مؤكدا أن هذا ليس وقت الحساب. وحتى يهرب من الورطة أمام المدعويين يصف الحناوي بأنه قد أصابه الكبر، فصار ضعيف السمع غير واع بما يحدث.. من يكون البديل إذن؟ لا بد من "راجل صاحي" كما يقول العمدة.. ليس هناك إلا الدمرداش شيخ البلد، إنه الخيار الأمثل الذي سيَجبر الجميع -وعلى رأسهم المأذون- على تصديقه.. وهل هناك من يُكذّب شيخ البلد؟

وتظل حورية على عنادها.. تعلنها في وجه الدمرداش مرة أخرى، ولكن سسبان تتدخل أمرة الدمرداش بالذهاب وإبلاغ الجميع بأن حورية قد وكلت عمها العمدة، ويطيع الدمرداش الأمر.. وتستشهد حورية بالسيدات المدعوات من أهل القرية، ولكن هيهات، فما هن إلا "أهلنا وبناتنا" كما تقول سسبان.. إنهن مثل الجميع.. لا يسمعن ولا يتكلمن إلا بما يرضي العمدة وسلطته حتى وإن كان الأمر مخالفا للشرع.. وتعلو الزغاريد من جديد.

ويهم الشيخ وهبة بعقد القران، ولكن المفاجأة تأتي عن طريق مروان هذه المرة، حيث يطلب من الشيخ وهبة أن يسمع بنفسه من حورية.. كانت المفاجأة مدوية فارتبك العمدة قليلا، لكنه يتمالك نفسه سريعا ليؤكد صحة موقف مروان، ويصطحب الشيخ إلى غرفة حورية التي تصر على موقفها؛ إما أن يحضر الحسيني وإما أن

يُفضى الفرح.. وأمام هذا يطلب العمدة من وهبة الشيخ أن ينتظره بالخارج، ويبدأ الصراع بين العمدة وابنة أخيه.. هل تريد أن تفضح الجميع؟ هكذا يردد العمدة، ولكن حورية تؤكد أنها لا تريد إلا الحق والأصول.. تريد حضور أخيها.. وتحاول سسبان أن تنهي الأزمة فتقترح إتمام عقد القران ثم تأجيل الزفاف لوقت آخر، ولكن العنيدة حورية لا ترضخ لذلك أبدا.

وفي الخارج كان الشيخ وهبة يستنجد بمروان.. يطلب منه الغوث.. العروس لم توافق على الزواج، وهو يخشى من أن يجبره العمدة على عقد القران دون موافقتها، وهو ما يعني مخالفة شرع الله.. إنه الشيخ الضعيف الذي يرضخ أمام الظلم، والذي يختلف عما رأيناه في ذلك الزمان المنتظر.. يرضخ هنا حتى فيما يخالف شرع الله.. ولكن مروان يطالبه بألا يفعل ما يخالف الشرع.. لقد عقد مروان النية على شيء إذن.. وسنعرفه بعد قليل.

وندخل إلى الغرفة مجددا، ويحدث ما توقعه وهبة، فهي هو العمدة يعلنها عالية.. صقر لا يترجى أحدا.. صقر يأمر فيطاع.. يأمر وعلى الجميع أن ينفذ.. ويخرج صقر مناديا على وهبة.. يسأل حورية عن وكيلها، فيرد صقر: "وكلتني أنا".. لم ترد حورية، والسكوت عندهم علامة الرضا، ويخرجان لإتمام الزواج.. وتستمر حورية في العصيان صارخة: "لا.. لا.. لا".. وتحاول الخروج لإسماع الجميع صرخاتها، فتمنعها سسبان.. ترفع صوتها لإسماع الجميع بـ "لا.. لا.. لا" ولكن سسبان تطلب من الفتيات إعلاء أصوات الطبل والغناء حتى لا يصل الصوت إلى أحد.. إنه الحصار يضرب على حورية من كل مكان.. ظلت تعلنها عالية: "لا.. لا.. لا". ولكنها "لا" حبيسة الجدران المغلقة.

وتأتي المفاجأة المنتظرة من مروان.. "الي مش رايدني مايلز منيش".. هكذا قال مروان.. قالها تنفيذا لمطلب حبيبته ومأربها.. لم يقلها مروان

غضبًا، ولكن قالها حبًا.. وأمام ذلك لم يجد العمدة إلا أن يصرف المدعويين ومعهم رجاله.. انفضّ السامر.. لن تتزوج حورية مروان أو غير مروان.. ثوب الزفاف الذي خلعتة اليوم لن ترتديه ثانية.. هكذا أصدر العمدة فرماناته.. ولكن أليست هذه نبوءة ميلم بكل تفاصيلها؟ نعم، فليس هناك فرح اليوم، ولن يكون هناك فرح بعد اليوم في الحلوانية.. النبوءة تتحقق ويبد العمدة نفسه الآن!!

وتستمر فرمانات، ولكنها تأتي هذه المرة من السنباطي، فليذهب كل إلى حال سبيله.. لا كلام ولا حديث فيما حدث اليوم.. لن يسمح بأن تكون حكاية ابن سيده وابنة أخيه على لسان أهل القرية.. لقد أصدر السنباطي فرمان، ليؤكد الدمر دأش بطريقة الثعالب، فلم يحدث شيء من الأساس ليتكلم عنه أهل الحلوانية.. إنهم أذكاء بما يكفي، ومن ثم فهم يدركون أن شيئًا لم يحدث مطلقًا.. هكذا تكون لعبة السلطة.. يد تضرب ويد تربت على الكتف وكلاهما لهما المأرب ذاته والهدف نفسه.. إنه القمع، ولكن بصور مختلفة.

وننتقل إلى مقهى عزازي لنجد ميلم مؤكدا للجميع أنه صاحب النبوءة.. لقد قالها ولكن أحدا لم يستمع لما قاله.. إن الله لا يريد أن تغطي الفرحة مجددا على ما تمت تغطيته من قبل.. هكذا يقول ميلم، مقدما لنا عددا من الإشارات الجديدة المحملة بعدد من الأسئلة كالعادة، فما الذي تمت تغطيته؟ وكيف للفرح أن يغطيها؟ وهل سيكشف ذلك الآن؟ وتبدأ الألسنة بالحديث، فهذا يرى أن حورية من رفضت، وهذا يرى مروان من غدر.. وذلك يرى أن الجديد كان في هذا الغريب الذي انطلقت به حورية في طرقات القرية في وضح النهار.. هنا يهتف ميلم معلنا أنه الحسيني أخو حورية وابن عمدتهم صادق الحلواني الذي لم يعودوا يتذكروه.. كلهم يعرفون ولكنهم لا يتكلمون.. داء الصمت والسكوت أصاب الجميع.

ويظهر عزب مذكرا بأن السنباطي أمر بالسكوت.. لا حديث

ولا كلام.. ويسكت الجميع تحت تهديد عزب.. وأمام الصمت يعلو صوت ميلم، مطالباً إياهم بالسكوت ما داموا يأكلون ويشربون ويلعبون.. الكلام ليس بحاجة إلى لسان فقط، ولكنه يحتاج إلى قلب يرفرف ودم فائر في العروق لا يطوله ثلج الخوف.. هكذا يؤكد ميلم، قبل أن يترك المكان معلماً صوته أكثر وأكثر، بأن من حبسوه طار.. طار منهم.

وينكل عزب بعزازي فيأمر بالقبض عليه، كما يأمر وطنية بالذهاب إلى شيخ الخفر.. إنه الإرهاب للجميع، ولكن هل يحتاج أهل القرية إلى إرهاب جديد؟ لم يعودوا في حاجة إلى ذلك فالخوف يملأ قلوبهم ويرون في الصمت سبيلهم للنجاة.

وتأتي لحظة العتاب من سسبان لحورية بعد أن انطفأت أنوار الفرح.. سسبان ترى أن ما فعلته حورية لن يمر، فلم يسبق أن حدث ذلك في الحلوانية، وحورية تؤكد أنها لم تفعل شيئاً، وما فعلته هو أبسط حقوقها، فكيف لها أن تفرح وأخوها في كرب في سجنه؟ وتعود سسبان للكذب، متسائلة: "هو أي حد يطب على البلد في غفلة ويقول إنه ابن صادق الحلواني يبقى أخوك؟".. سؤال يحمل الإنكار، وهي تعرف أنها غير صادقة فيه.. عادت سسبان للسكوت بل الكذب..

وبقدر ما كانت حورية تشعر بالتعب كان مروان كذلك.. يحمل الهم على عاتقه.. يظهر الحزن على ملامحه.. يحاول صديقه حشاد أن يخرج منه هذه الحالة التي يمر بها، ولكن دون جدوى.. يحاول أن يعرف منه سبب ما فعل، فيؤكد مروان أنه حقق لها رغبتها.. إنه يرتدي دوماً ثوب الفارس الآتي من الحواديت ليرضي حبيبته، حتى وإن وصل الأمر إلى التضحية بنفسه.. لقد ضحى بالزواج بها من أجل إرضائها.. كما أخرج الحسيني من محبسه إرضاء لها أيضاً.

ويطير الخبر أخيراً، وبعد فوات الأوان، إلى حورية عن طريق ميلم.. يزف الخبر إليها فينزل برداً وسلاماً عليها وعلى سسبان أيضاً.. وتبدو الفرحة على وجه العمدة، فيلفت ذلك نظر حورية.. هل سعدت سسبان مثلها لهروبه؟ هل سبب سعادتها هو ذاته سبب سعادة سسبان؟ لقد سعدت حورية من أجل أخيها.. أما سسبان، فقد سعدت لأنها تريد أن يخرج من الحلوانية بلا رجعة لتغلق على الماضي كل الأبواب.. السبب مختلف إذن والسعادة واحدة.

سعدت حورية بهروب أخيها، ولكن سعادة أخرى كانت في انتظارها.. مروان هو من ساعده على الهروب.. لقد فعل ذلك مروان من أجلها.. وتتمنى حورية لو كانت علمت بذلك قبل أن تفعل ما فعلت.. لقد أثبت لها مروان حبه، معرضاً نفسه لغضب صقر، وباله من غضب سيكون كبيراً لو علم ذلك، فقد تمرد مروان عليه مرتين في ليلة واحدة، الأولى برفض الزواج من حورية والثانية بمساعدة الحسيني على الهرب، فهل يغفر له ذلك؟

وننتقل إلى بيت العمدة، لنرى الدمرداش يحاول تطيب خاطره، ولكن كيف؟ إن ما حدث لن يداوى أبداً، ولن تطيب جراحه.. يحاول الدمرداش أن يؤكد للعمدة أن العروسين سيجمعان في النهاية، وأن كل ما حدث إلا "وزة شيطان"، وسيتهي الأمر.. أما كلام الناس فلا خوف منه، فلا أحد يستطيع الحديث في القرية كلها في حضرة السنباطي ورجاله.. هكذا يؤكد الدمرداش متناسياً أن أهل القرية قد ألفوا السكوت وتعودوه، وأنهم لم يعودوا في حاجة للسنباطي ليسكتهم.

ويؤكد العمدة أنه ليس مشغولاً بالفرح الذي انفصّ، ولا بكلام الناس.. إن كل ما يشغله هو الحسيني.. غراب البين على حد وصفه.. ما زال صقر مشغولاً بباب الماضي الذي فُتح فجأة أمامه جالبا خطراً اعتقد أنه زال للأبد. وتأتي المفاجأة الصارخة للعمدة.. لقد ذهب الحسيني.. هرب من السنباطي ورجاله..

ومن جديد يوضح لنا عكاشة ما يحدث في دروب السلطة من صراعات، فالدمرداش يستغل الفرصة ليوجه للسنباطي طعنة عند العمدة الذي اشتعل غضبه، بعد أن نزل الخبر عليه كالصاعقة.. يستغل الدمرداش ذلك ليؤكد للعمدة أن أمر القرية وأمنها مسؤولية السنباطي.. ويزداد غضب العمدة على السنباطي، اليد التي تضرب، والذي يراه قد كبر ولم يعد كما كان، وعلى الدمرداش ذاته، العقل المدبر، الذي استكان ولم يعد كما كان هو أيضا.. كلاهما تعلم الراحة ونسي العمل ولم يعودا ينفعان بعد أن "عيشتهم طريت.. وهدوهم نعمت.. ولحمهم ربرب"..

تفصيلا أخرى يكشفها لنا عكاشة، فصقر لا يركن فقط لرجليه السنباطي والدمرداش، فهو يعرف كل شيء عنها.. يعرف كل تفاصيل حياتيها. للعمدة بصاصوه إذن حتى على رجاله المقربين.. هكذا تكون السلطة المستبدة.. لا تأمن لأحد، وتراقب الجميع مهما كانوا.. لا تغفل عنهم يوما، وإنما تراقب وتنتظر.. تنتظر هذا اليوم.. يوم الامتحان الذي أخذت تستعد له منذ زمن بعيد.

أي امتحان هذا الذي يشير إليه العمدة؟ إنه الحسيني.. هكذا يصرح العمدة، ليتساءل الدمرداش مستنكرا: وهل هذا هو الامتحان حقا؟ ليعاجله العمدة بالسؤال هو الآخر: وماذا عن شهادة الميلاد؟ يبدو العمدة متأكدا إذن من رواية الحسيني.. ليس عنده ذرة شك في صدقه ولكنه ما زال يكابر.. وتأتي الإجابة من الدمرداش بأن شهادة الميلاد مزورة.. ولكن هل يصدق الدمرداش ذلك؟ كان هذا هو السؤال الذي سألته العمدة.. وكانت الإجابة من الدمرداش: "مش مهم أنا.. المهم كل اللي عايزينهم يصدقوا!!"

ويقدم لنا عكاشة درسا جديدا في الاستبداد من خلال رد صقر: "أهي دي الخيبة بعينها.. ماحدث هيصق إلا إذا كنت إنت مصدق".. لا بد أن يصدق هو الكذبة ليصدقها الجميع. يخرج المستبد على العامة

وهو يكذب الكذبة تلو الأخرى، وهو يعرف أن أحدا لن يصدقه إلا إذا صدق هو نفسه.. وأمام هذا لم يجد الدمرداش إلا أن يؤكد أنه يصدق.. يصدق الكذبة التي رددوها جميعا.. الحسيني ليس ابن صادق، وتلك الشهادة التي أتى بها مزورة.

ويأمر العمدة الدمرداش بالبحث عن السنباطي، فلديه أوامر جديدة يريد أن ينفذها.. أوامر تخص الحسيني الهارب. ويتنقل بنا عكاشة إلى بيت السنباطي الذي استدعى وطنية، التي تقبل يديه ليترك لها زوجها عزازي.. فهو الزوج والعزوة والأهل.. ولكن ما المقابل؟ وهل تملك وطنية ما تعطيه مقابلا لذلك؟ تملك وطنية العرض والشرف.. تملك ما يطمع فيه السنباطي، الذي لم يكتفِ باستحلال أموال الناس وأراضيهم.. لم يكتفِ بالظلم والقهر وإسكات الناس.. لم يكتفِ بكل هذا، فما زال عنده ما يريد أخذه من هذه المسكينة الفقيرة التي تعيش بلا سند، ولكنها تعيش بشرفها الذي يجعلها تهزمه هذه المرة بقولها: "إنت زي أبويا يا سي حمزة".. تعكر صفوه، فيطردها من البيت مؤجلا ما يريد لموعد آخر يكون المزاج فيه رائقا.

ولا يترك الدمرداش الذي يدخل على السنباطي الفرصة، فيرمي بعض الكلمات التي تؤكد فهمه لما يريد السنباطي من وطنية.. كلاهما يفهم الآخر.. كلاهما يعرف كيف يفكر الآخر وماذا يريد.. كلاهما يكره الآخر رغم كونهما في فريق واحد، فمثلهما لا يعرف الحب.. يعرف الكره فقط.

ويلوم الدمرداش السنباطي على نقل أخباره للعمدة، ويتكشف الصراع بينهما.. صراع تحت الرماد.. كلاهما يتجسس على الآخر.. كلاهما يريد التقرب من السلطة على حساب الآخر.. كلاهما يريد الإطاحة بالآخر.. ومع تلويح السنباطي بفتح الدفاتر القديمة والحساب على ما مضى ينسحب الدمرداش من المعركة، فـ"ماfish بين الخيرين حساب"، خصوصا وأن هناك حسابا آخر في انتظار السنباطي!!

ونذهب للحساب.. السنباطي في حضرة العمدة.. كيف دخل الحسيني القرية؟ دخلها مع رشاد الحناوي.. دون أن تشعرُوا؟ كان الانشغال عنهما بمن كنا ننتظرهم من أخوال حورية.. ألم أوصيك بابن الحناوي؟ ألم أمرك بإخباري فور دخوله القرية؟ كانت المعلومات تقول إنه لن يأتي إلا بعد شهر.. وها هو أتى، ألا يعني ذلك أنه قد خدعك؟ والآن السؤال الأهم: كيف هرب الحسيني بعد أن أمسكتم به؟

كان هذا هو الحوار الدائر بين العمدة ويده التي يضرب بها.. وعند ذلك السؤال عن هرب الحسيني يتردد السنباطي في الإجابة، فالإجابة قد تغضب العمدة، ولكنه في النهاية لا يملك إلا أن يتكلم.. يتكلم أخيراً ويخبر العمدة بأن من هرب الحسيني هو مروان.. مروان بن صقر. وينزل الخبر على صقر كالصاعقة.

ومع نهاية كل مشهد يستدعي الحوار المشهد التالي، ومشهدنا التالي لا بد أن يكون طرفه مروان.. مروان الذي نراه لا يزال في بيت حشاد صديقه.. حشاد الذي يردد كلام العمدة ورجاله، فكيف لمروان أن يفعل فعلته تلك وهو يعرف أن العمدة هو من حبس الحسيني؟ كيف يقف مع أخوال حورية ضد أبيه؟ كيف ينساق مع حورية ويصدق أن هذا العائد الغريب أخوها؟ هكذا يسأل حشاد مروان.. وتأتي الإجابة من مروان واثقة، فرشاد الحناوي لا يكذب.. تأتي الإجابة مفاجئة لحشاد الذي يبدأ في الوسوسة لمروان، مؤكداً أن رشاد هو من يُعصي أباه على العمدة.. هو الذي يقف وراء كل ذلك.. امتلاً غروراً وكبراً بعد أن أصبح صحفياً، وأصبح يرى نفسه أفضل من الجميع.

وسوسة حشاد تعطي إشارة إلى أنه لم يكن يوماً الصديق الوفي لمروان، فحديثه هذا ليس إلا حديث العمدة ورجاله.. إنهم يزرعون البصاوين في كل مكان ومع الجميع، حتى وإن كان مروان بن صقر

ذاته.. يتأكد لنا ذلك حين نضع ما استتجنه إلى جوار موقف ميلم الدائم من حشاد، فالصرع والعراك محتدم بينهما على طول الخط.

في الوقت ذاته تجدد نفسك متسائلا: كيف لهذا الشاب النقي ذي القلب الساذج أن يكون ابن صقر؟ كيف يكون ذلك الشاب الذي يحمل من الطيبة والسذاجة ما يعادل المروءة أن يكون ابنا لهذا الذي لا يجعل القرية تنام إلا بأمره؟ سؤال رددناه ويبدو أننا سنظل نرده كثيرًا، فهو جزء من الصراع الكبير الذي يصنعه عكاشة.. صراع بين العمدة صقر والعمدة "إلي جاي" على حد وصف حشاد.

ويتأكد ما أشرنا إليه وتوقعناه في المشهد التالي، فهي هو العمدة يأمر السنباطي بأن يراقب ابنه مروان في كل مكان.. لا يتركه ليل نهار.. ويرد السنباطي بأن هذا حادث منذ فترة.. السنباطي بالفعل وضع عينه على مروان منذ فترة.. حتى ابن العمدة لم يسلم من البصاين المتتبعين، والحجة أن العمدة اختاره ليكون عينه التي يرى بها وعقله الذي يفكر به.. لا يتوقف دوره عند حراسة العمدة وحمايته فهذا الدور يليق بأي أحد آخر.. كما أن دوره كذلك هو حماية مروان، فهو ابن العمدة والعمدة القادم بعد عمر طويل.

كانت هذه هي الحجة التي قدمها السنباطي للعمدة، ولأنها جاءت في الوقت المناسب فقد قبلها صقر.. كل شيء مقبول ما دام في خدمته وخدمة أغراضه. رغم ذلك لم يفوت صقر الفرصة ليعطي السنباطي الدرس ذاته الذي أعطاه للدمرداش.. لقد تبدلت أحوال السنباطي فلم يعد كما كان.. لم يعد يعرف كل ما يحدث في الحوانية كما كان.. لقد انشغل عن أداء واجبه.. لم يكن يعتمد على رجاله في جمع المعلومات بل كان يتقدمهم، ولكنه لم يعد كذلك الآن.

إنها الرسالة ذاتها.. العمدة يعرف كل شيء.. يعرف الأموال التي يكتنزها السنباطي.. يعرف الأرض التي اشتراها في الحامول.. يعرف ما

يخطط له.. بل يعرف كذلك تحرشه بوطنية وإعجابه بها.. كل شيء يعرفه العمدة.. خطوات الجميع محسوبة ومعروفة. ويدرك السنباطي أن الدمرداش وراء كل هذا، ولكن العمدة يؤكد أن الدمرداش يعتقد كذلك أن السنباطي هو من يوقع بينه وبين العمدة. للعمدة مصادره الأخرى إذن.. والكل يتجسس على الكل، وينقل أخبار الكل.. والكل في يد رجل واحد هو صقر الحلوانية.. إنها الحرب الدائرة داخل بلاط السلطة.. الكل يحارب الكل، والكل في خدمة الحاكم.

وتخرج الكلمة من فم صقر عالية.. لا بد أن تستيقظوا فقد عاد ابن صادق الحلواني ودق الأبواب.. أبواب الماضي.. ولكن الرد أتى سريعا من السنباطي: "صادق الحلواني مالوش ولاد يا عمدة".. كان رد السنباطي أكثر حسما.. إنه التلميذ النجيب الذي يكذب الكذبة ويصدقها.. الحسيني نصاب.. وشهادة الميلاد مزورة. كان هذا ما أكد السنباطي بل زاد قائلا: "وقر بعضمة لسانه".. ويفاجئ الرد العمدة، فيواصل السنباطي مؤكدا أنه اعترف قبل أن يفقد وعيه.. اعترف بأنه نصاب وأن رشاد هو من حرضه على ذلك.

ولأن العمدة هو صاحب الدرس، فقد صدق الكذبة، وهو يعرفها حق المعرفة.. لقد أراحته، وجاءت على هواه. كان عليه أن يصدقها ليصدقها الجميع كما أكد هو.. وتنفرج أساريره مؤكدا أنه يرى السنباطي القديم.. السنباطي الذي كان في الماضي.. فإذا كانت أبواب الماضي قد فتحت فعليه أن يستعين بكل أوراقه التي فاز بها في ذلك الماضي، وعلى رأسها حمزة السنباطي.

"الشخشيخة ولا الإيد الي ماسكاها".. كان هذا هو السؤال الذي طرحه العمدة.. للوهلة الأولى قد تختار اليد (رشاد) الذي تمسك بالشخشيخة (الحسيني)، فهي الأهم وهي المحرك لكل شيء، ولكن السنباطي والعمدة لا يكون لهما مثل هذا الرأي، فاليد إن قطعت سقطت الشخشيخة منها وستجد يدا أخرى تمسك بها وتحركها

ثانية.. أما الشخصيسة فإذا دمرت فلن تجد اليد -أي يد- ما تمسك به.. الخيار إذن هو الحسيني.. الحسيني هو المطلوب.. ولكن ليس وحده، فمروان أيضا أصبح مطلوباً.

وتأتي المواجهة بين العمدة وابنه.. ويجد مروان نفسه أمام غضب العمدة.. يحاول أن يبرر موقفه من عدم إتمام الزفاف.. لم يكن يعرف أن الخبر قد طار إلى أبيه، وأن التهمة أصبحت أكبر.. لقد عرف صقر أن مروان هو الذي نفذ عملية الهروب الكبير.. على مروان إذن أن يتحمل نار الغضب، فيحاول أن يؤكد لوالده أنه فعل ذلك لا رغبة في إغضابه ولا طلباً لمعصيته، ولكنه أراد أن يبعد الحسيني عن البلدة كلها لينتهي الأمر بعد أن وجد حورية متعلقة به.. ويرى مروان صديقه رشاد من تهمة التحريض على مخطط الهروب، ولكن هيهات، فالعمدة يعرف كل شيء.. وهنا يكون الرد قاسياً.. صفة من صقر على وجه ابنه.. صفة لم يتوقعها مروان أبداً.. ولكنها صفة الغضب.. غضب من صقر على ولده مروان ابن آمنة كما يناديه.. مروان الذي يرى أنه ليس رجلاً، ولا يستحق أن يكون ابناً له يحمل اسمه.

بل مروان بن صقر.. هكذا يصرخ مروان، ولكن العمدة يتأدى في الإهانة.. يحاول أن يكسر مروان ليعيده إلى حظيرته، ويظل طوع بئانه.. يريد أن يكون ابن صقر.. يهابه الجميع ويخافونه، ويكون فرعاً جديداً في شجرة الحلوانية الثابتة التي لا تهتز.

وننتقل إلى الشخصيسة واليد كما أطلق عليهما صقر.. الحسيني ورشاد.. يبدو رشاد متعجباً من رغبة الحسيني في البقاء في الحلوانية، يحاول أن يشبه عن ذلك وأن يقنعه بالعودة إلى مصر، ولكن المحاولة تفشل.. عكاشة إذن يريد لنا أن نتأكد مجدداً -ونحن العارفون بهذا- أن ما قاله السنباطي وعمدته مجرد كذبة صدقوها هم، فلا الحسيني شخصيسة، ولا رشاد هو اليد التي تحركها.. ويصر الحسيني على البقاء رغم كل شيء، فليس له أهل في أي مكان إلا في الحلوانية.. لقد

جاء باحثا عن أخته وعن حقه.

ويطلب رشاد من الحسيني اتخاذ الإجراءات القانونية لأخذ الحق، ولكن الحسيني أكد له أنه يخشى من أن يقول العمدة إن أباه لم يتزوج من أمه، خصوصا أنه ليس لديه من الأوراق ما يثبت هذا الزواج.. لقد اختار الحسيني الحل الصعب لأن الطريق الآخر مخوف بخطر إهانة الأم والقدح في شرفها وعفتها.. كما يؤكد كذلك أن طريق القضايا والمحاكم طويل، ولن يسكت العمدة طوال ذلك الوقت.. وحتى إن حكمت له المحكمة، فمن سيُمكنه من الأرض؟ كلا الطريقين صعب إذن ولا محالة من المواجهة.

ويحيلنا ذلك الحوار إلى ركن جديد من أركان السلطة، وهو القضاء.. يبدو عكاشة وكأنه يشير إشارة سريعة إلى بطل القضاء.. بطء العدل.. والعدالة البطيئة كالظلم.. كلاهما نتيجته واحدة.. إشارة سريعة ولكنها لا تخلو أبدا من معنى.

ويستمر الشخصيشة، الذي نكتشف أنه اليد أيضا، في عناده، وهو الصغير ذو الواحد والعشرين عاما.. عناد يجعله أكبر بكثير من عدد سنوات عمره.. وكيف لا وهو أخو العنيدة وارثة العند.. حورية التي يراها سنده في معركته؟! يراها رشاد البنت التي تربت في حضن عمها، ويراهما الحسيني بائة رجل.. يخشى عليها رشاد من الحمل، ويرى الحسيني أن الحمل جملهما معا.

وتأكيدا لأن الحسيني هو الشخصيشة واليد في الآن ذاته، ينتهي دور رشاد مؤقتا؛ حيث يجب عليه أن يعود إلى القاهرة، فعمله يحتم عليه ذلك، بينما يظل الحسيني في المركز، بعيدا عن الحلوانية وقريبا منها كما يقول.

ويواصل عكاشة صراعاته التي يقدمها في كل مشهد، فمفهوم الصراع عنده ليس الصراع التقليدي بين فريقين يمثلان قوى الشر

والخير.. مثل هذا الصراع موجود بالطبع، ولكن كل مشهد يحمل صراعا آخر بين شخصياته حتى وإن انتميا إلى الفريق نفسه (الحسيني ورشاد هنا مثلا).. إنه الصراع الذي يجعل المتلقي مجذوبا دوما للمشاهدة، لا يستطيع أن يترك الشاشة ولو للحظة، حاملا كل أشكال التوتر الممكنة التي تربطه بتلك الحكاية التي صار جزءا منها.

ونذهب إلى حورية التي غابت عنا فترة، لنجدها مع صباح التي تتساءل عن سبب ما فعلته ما دامت حزينه على مروان.. لم تكن حورية وقتها تعرف بأنه هرب الحسيني.. كانت تلك إجابتها، معلنة خوفها من أن يفهمها خطأ.. وكعادتها تعرض صباح أن تكون المرسال.. إنها المرسال الدائم.. كانت المرسال من رشاد والحسيني إلى حورية في المرة الأولى، وكانت مرسال مروان ورشاد إلى حورية في المرة الثانية ولكن أباهما منعها من إتمام المهمة.. كان هذا بمثابة العقبة التي غيرت مسار الحدث.. وها هي تعرض أن تكون مرسال حورية مروان.. إنها مرسال الخير دوما.

وترفض حورية أن تكون صباح المرسال، فهي تريد اللقاء لتفهم مروان كل ما دار في عقلها.. لتوضح له الصورة. وتتفق الصديقتان على أن يكون اللقاء في بيت الحناوي، وأن تجد صباح طريقة لجمع الحبيين اللذين فرق بينهما ما حدث. هنا تدخل سسبان الغرفة وتؤنب صباح مجددا، بل تطردها أيضا، فتدافع عنها حورية، ولكن صباح تفضل الانصراف، فقد تأخرت على أبيها.

وهنا كان لا بد أن تنتقل إلى بيت الحناوي.. لقد أصبحت تلك هي الطريقة التي يربط بها عكاشة المشاهد بعضها ببعض.. فكل مشهد يؤدي إلى المشهد الذي يليه في تسلسل يبدو سلسا ومنطقيا.

وفي بيت الحناوي يعنف الأب ابنته.. لقد وصل قلقه إلى مداه بعد تأخرها وفعله ابنه رشاد.. يؤكد لها أن حورية لن تستطيع حمايتهم

من غضبة العمدة.. إنه الغضب الذي يخشاه الحناوي دوماً ويحذر الجميع منه.. لقد رآه في الماضي حتماً ولهذا يدركه ويخشاه في الوقت ذاته.

تأتي فكرة الماضي في الرأس فيؤكددها عكاشة في التو واللحظة.. يستدعي ذلك الماضي البعيد، لنسمع صوت العمدة وهو يقول: "أنا ما حدث يقول لي لا يا صالح يا حناوي" .. هكذا نسمع العمدة، ونرى الحناوي وقد صار أصغر بعشرين عاماً على الأقل.. نراه في مواجهة العمدة، واقفاً أمامه معلماً كلمة "لا"، ولكن "كلام العمدة أو أمري حناوي" .. ولكن الحناوي يستمر في المواجهة: "العمدة؟ الله يرحمه بقى" .. كلمة تحمل عدم الاعتراف بالعمدة الجديد.. بل يواصل مواجهته، فلا اعتراف بالعمدة الجديد حتى نعرف من قتل العمدة القديم.. وحين يمد صقر يده للمعاهدة على رأي واحد وكلمة واحدة، على أن يكون هو العمدة وأن يكون الحناوي شيخ البلد، يرفض الحناوي معلناً أنه من طريق وصقر من طريق.

كان الحناوي في الماضي يستطيع أن يقولها.. كان يقول "لا" عالية.. ولكن العمدة وقتها "ما كانش لسه اتفرعن" .. ولكن الرد يأتي من صباح..: "قالوا الفرعون إيه فرعنك؟ قال ما لقتش حد يردي" .. ويدق الباب دقات عالية معلنة عن قدوم عزازي ووطنية.. عزازي يطارد وطنية، ووطنية تلوذ ببيت الحناوي وابنته صباح.. ويتساءل الحناوي عن السبب فتؤكد له وطنية أنها لم تفعل شيئاً وأن زوجها "ظنّان" .. إنها قلة الحيلة.. يعرف عزازي جيداً أن السلطة تتحرش بزوجه.. تارة عزب، وتارة السباطي.. ولأنه لا يستطيع التصدي لهما يقرر التصدي لزوجه الضعيفة المستكينة.. هكذا تفعل بنا السلطة.. تأكل الضعيف، فلا يجد ما يفعله سوى أن يأكل من هو أضعف. ويتصدى الحناوي لعزازي، ويمنعه من الاعتداء على زوجته الضعيفة، وطنية المعتدى عليها من الجميع.

وتستدعي وطنية في عقل المشاهد/ المتلقي صورة السلطة والمتحرشين السنباطي وعزب، فلا نفاجاً بهما -على طريقة عكاشة- في المشهد التالي، وقد اجتمع الاثنان.. السنباطي يطلب من عزب تنفيذ مهمة لا يقوم بها إلا هو.. لا يصرح بها السنباطي فـ"الحيطان لها ودان"، ولكننا نفهم أن المهمة تتطلب تتبع أحدهم.. ولكن من المتبع؟ لا نعرف إجابة، ولكن لا شيء مستغرب فالجميع هنا عرضة لأعين البصاين.. الكل يتجسس على الكل في أروقة السلطة.

ونعود لبيت الحناوي.. عزازي يفسر سبب غضبته.. لقد قبضوا عليه ثم أخرجوه ليعود إلى بيته، فلم يجد وطنية.. ظل ينتظر إلى أن أتت بصحبة أحد رجال السنباطي.. لقد لعب الشك برأسه، فقرر أن يخرج غضبته فيها.. وتقسم وطنية، وهي الصادقة، أن شيئاً لم يحدث، وأنها بريئة من هذه الظنون التي تساور زوجها.. ويلتفت الحناوي إلى هدف السنباطي من كل ما حدث، فلا غرض لديه سوى إشعال فتيل الشك بين الزوجين.. ولكن رأي الحناوي لا يجد صده عند العزازي الذي يرى نفسه أقل من أن يخطط له شيخ الخفر، مقيماً له وزناً.. وتتفض وطنية مسائلة زوجها: وإذا أراد السنباطي أن يأخذها منه، فهل سيسمح بذلك؟ وتأتي الإجابة التي تكشف المهانة التي سقط فيها عزازي وقلة حيلته.. إنه لن يستطيع أن يقف أمام شيخ البلد.. لم ينته الأمر عند الصمت والسكوت فقط، فقد رخصت الأعراض أيضاً عند الضعفاء.. وصل الضعف إلى مداه، ولم يعد هناك قدرة على المقاومة حتى من أجل الشرف والعرض!

ويتكشف الموقف أمام الجميع.. وتعلي وطنية صرخاتها مهاجمة زوجها، فلم يكن اعتداؤه عليها نخوة أو غيرة، وإنما كان "بيفش غله في ولية ضعيفة عشان يبري ذمته".. مرة ثانية الضعيف يأكل من هو أضعف.. هذه هي الحقيقة التي يرسخها أسامة أنور عكاشة.

وتترك وطنية بيت الحناوي معلنة أن هذا فراق بينها وبينه، ويأمر

الحناوي عزازي بأن يذهب خلفها، فالمسكينة ليس لديها أحد غيره، وهي بحاجة لأن تشعر بأن هناك من سيحميها ويدافع عنها.. وأمام كلمات الحناوي ينطلق عزازي وراء وطنيته.. ويطرح الحناوي السؤال ذاته: "آدي الي بقينا فيه.. مش عارفين هو الي عمله فينا ولا احنا الي عملناه في نفسينا؟".. إنهم من فرعنوه إذن كما قالت صباح.

ويستدعي الضمير في كلمة "عمله" صورة العمدة، فنجدته شاخصاً أمامنا في المشهد التالي مستعداً للخروج من المنزل.. وهناك تكون المفاجأة.. نكتشف المهمة التي أوكلها السنباطي لعزب.. إنها مهمة التجسس على العمدة ذاته.. ولكن أي مفاجأة في ذلك؟ ألم ندرك بعد أن الكل يتلصص على الكل ويتجسس عليه.. إن عالم السلطة هو عالم البصاوين.. وإن كان العمدة يتتبع خطوات رجاله بل يتتبع خطوات ابنه ذاته، فلا غرابة في أن يجد من يتتبعه ويتجسس عليه.

وينطلق عزب خلف سيارة العمدة بدراجته البخارية، قبل أن نراه أمامنا وقد عاد بالخبر اليقين إلى السنباطي.. يبلغه بما رآه.. لا يكاد السنباطي يصدق ما قاله عزب.. ولكن ماذا قال؟ هذا ما لا نعرفه، ولا يكشفه لنا عكاشة.. إنه يعود إلى طرح الأسئلة من جديد.. أين كان العمدة؟ ماذا رأى عزب؟ وما الذي يدعو إلى كل هذا التعجب من السنباطي؟

وتنتهي الليلة ليأتي الصباح بموعد الحبيين مروان وحوريته.. ويتعاطبان عتاب المحبين.. إنه الحب الذي يرفرف على رويهما رغم كل شيء.. ويطلب مروان من حورية أن يفهم.. أن تعطيه إجابة لكل الأسئلة التي تدور في رأسه.. في المقابل تؤكد حورية أنها كانت تتوقع منه أن يفهم كل شيء دون أن يحتاج إلى سماعها. لقد حاول مروان ذلك ولكن دون جدوى.. لأنه لا يحبها لم يفهمها كما تقول حورية؟ أم لأنه ضعيف.. أضعف من أن يواجه أباه؟

ويتنفض مروان مؤكدا أنه لم يكن ضعيفا يوما، والدليل هو ما فعل.. لقد وقف أمام أبيه رافضا إتمام الزواج.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يقف فيها في وجهه.. ولكنه لن يستطيع الوقوف أمامه في كل شيء، فصقر ليس رجلا عاديا.. إنه العقل والحكمة والقوة، وقد قال إن الحسيني نصاب.. مازال مروان يصدق أباه إذن.. يكذب الحسيني ويكذب تأكيد حورية.

وترد حورية بكل قوة، مؤكدة أن الحسيني أخوها وأنها ستخبر كل من في القرية بذلك.. ويأتي الرد الغريب من مروان.. إنه يصدقها ولكنه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يكذب أباه! مفارقة عجيبة ولكنها تكشف ما في قلب مروان.. في قلبه حب يحمله لأبيه من جهة ولحورية من جهة أخرى.. إنها مفارقة تكشف عن تلك الحيرة التي تحاصره.

وتواصل حورية الضغط على مروان.. كانت تعتقد أنه سيكون أول من يقف إلى جانبها.. كانت تنتظر منه الشيء ذاته الذي انتظرته وطنية من عزازي.. كانت تنتظر منه أن يقول للظلم لا.. وإن كان عزازي لا يقوى على مواجهة الظلم وهو يدركه جيدا، فإن مروان لم يدرك بعد الظلم أو لا يريد إدراكه، فهذا هو يقول: "أبويا مش ظالم يا حورية" ..

ولا تستسلم حورية، فتسأل: "أمال اللي بيعمله مع الحسيني ده إيه؟ مش قسوة؟ والقسوة إيه مش ظلم؟" .. ويبدأ مروان في الدفاع عن أبيه، مذكرا حورية بحنانه وعطفه ومعاملته الطيبة لها.. يذكرها بأبوتها.. أكان قاسيا عليها؟ الإجابة: لا لم يكن قاسيا عليها ولا على مروان.. ولكن!! لم يكن صقر يوما كذلك مع الناس.. ناس القرية وأهلها.. وتطرح حورية السؤال: أيجونه أم يخافون منه؟ ويرتبك مروان أمام السؤال، ويحاول الهروب منه.. رغم ذلك تأتي حورية بالإجابة: "متهيألي إنهم بيعبوه.. لكن كمان بيخافوا منه!"

لم تصل حورية إلى يقين إذن.. ولكن مروان يتتهز الفرصة.. فرصة جديدة تلوح لديه لحسم الصراع.. ألم نقل إن الصراع دائر دوماً في كل مشاهد عكاشة، حتى وإن كانت بين الحبيين؟ يتتهز مروان الفرصة ليؤكد أن هذا هو الطبيعي فلا بد أن يحترمه الجميع كما يحبونه.. وترد حورية بأن الاحترام شيء والخوف شيء آخر.. وتستشهد بنفسها.. إنها تحبه وتحترمه لكنها لا تخاف منه.. هذا هو السبب إذن.. هذا يفسر كيف استطاعت حورية مواجهة صقر.. الخوف لم يدخل قلبها.. الخوف الذي أسكت الجميع لم يزرها يوماً.. زار الجميع وظهر الرعب في عيونهم.. الكل يخاف حتى مروان ذاته.. هكذا تعلنها حورية، ليدافع مروان عن نفسه محاولاً نفي ذلك.. وترد حورية بالحكمة: "الحب ما يطلعش من خوف.. الخوف بيتولد من الكره.. والكره بيتولد من الظلم!"

لقد كرهه صقر الحسيني من اللحظة الأولى، فلم يصدق.. كرهه فظلم.. ومن يظلم مرة يظلم مائة مرة، ومن يظلم شخصاً يظلم بلداً بأسرها.. هكذا تقول حورية لتضع مروان في المأزق، فلم يعد هناك ما يستطيع قوله.. ولا يملك إلا أن يحاول تهدئتها، لتدخل عليهما العمة منكرة عليه ذلك.. كيف يرجوها بعد فعلتها؟ لا يستمر الحريق..

تنتهي حلقتنا الثالثة إذن مؤكدة ملامح الحكيم عند أسامة أنور عكاشة، فمشهد يسلم المشهد، وسؤال يتبع السؤال.. وإشارات عميقة تتخطى عالم القرية لنعمها على كل مكان يسود فيه الظلم والاستبداد.. وصراع دائر بين الجميع.. صراع بين القوى المتعارضة من ناحية، وصراع بين أطراف المشهد الواحد مهما كانت انتماءاتهم لأي فريق.. هذه هي طريقة عكاشة التي نلتبسها في كل مشهد من مشاهد حكايته التي ستواصل، وحريقه الذي سيستمر.

الأعيرة الطائشة.. وقرية الصامتين

كالعادة وقبل بداية حلقتنا نجد أنفسنا أمام ذلك الحريق الذي يحاصر القرية في ذلك الزمان الذي لا نعرفه.. ما زال شباب القرية يحاولون السيطرة على الحريق، بينما يظهر الخصري أحد المتفعين من السلطة، وهو يقف مناديا الجميع للاشتراك في إطفائه.. ويظهر ميلم موجها كلامه إليه: "مش هتقدروا تحرقوها".. يعرف ميلم من أشعل الحريق.. يعرف ذلك جيدا، ويعرف أنه لن يستطيع، فقد أخرجت حورية الغربان من أعشاشها.

ويتنقل بنا عكاشة إلى بيت العمدة.. يبدو العمدة غاضبا وسط رجاله.. لقد استغل اللصوص الفرصة وأخذوا يسرقون ما يجدونه أمامهم.. ويبرر السبناطي ذلك بأن الخفر مشغولون بالحريق وأنهم سيأتون بكل سارق بعد انتهاء الحريق. ويأتي الرد قاسيا من العمدة بأنهم فشلوا في الإتيان بمن يبحثون عنه.. ما زال البحث مستمرا إذن عن ذلك المجهول الذي لا نعرفه.. هل هو الحسيني؟ هل اختفى بعد هروبه على يد مروان وما زالوا يبحثون عنه إلى هذا الوقت الذي لا نعرفه؟ ويؤكد السبناطي أنه لن يذهب بعيدا، فالنار ستلسعه بالتأكيد، وسيضطر للظهور، وإلا فستكون قد أكلته وقضت عليه.

ويكشف لنا عكاشة عن ذلك الذي يبحث عنه الجميع.. ها هي حورية تنادي على الحسيني.. الحسيني هو المقصود إذن.. ولكن حورية تعرف أنه هرب وأنه بعيد عن القرية.. لقد عاد إذن مجددا، ولكنه ما زال بعيدا عن أيدي العمدة ورجاله.. متى عاد؟ وكيف؟ وأين هو؟ كلها أسئلة تضاف إلى عديد الأسئلة التي نبحت لها عن إجابة.

وتعلن حورية خوفها على الحسيني.. تشعر بأنه قد ضاع.. وتحاول صباح طمأننتها مؤكدة أنه سيظهر حتما بعد أن تخمد النيران.. النيران التي تأكل كل شيء في الحلوانية، ومع ازدياد اشتعالها تتساءل عن الذي أشعلها.. هل هو العمدة ورجاله كما يشير ميلم؟ أم أنها الريح كما يقول العمدة؟ أم أنها حورية التي تلتف حولها سيدات القرية وهن يتهمنها بذلك؟ حورية التي تحاول إخماد النيران هي التي أشعلتها؟ كيف يكون ذلك؟ وأمام هذا الهجوم لا تجد حورية إلا أن تطلب منهن تأجيل الحساب لبعده انتهاء الأزمة.. وتحاول صباح ومعها وطنية الدفاع عن حورية ولكن محاولتهما تذهب هباء.

ووسط التوتر الذي يحيط بك مع كل لقطة هنا وهناك، وفجأة ينقطع خط الحكى لتجد نفسك أمام أغنية التتر فتلتقط أنفاسك متهيئا لاستكمال الحكاية التي ستستمر كالعادة من حيث توقفت في الحلقة السابقة.

تدخل سسبان على حورية ومروان، وهما جالسان في بيت الحناوي.. تلومهما على فعلتهما.. يفهمان أنها تقصد بفعلتهما هذا اللقاء بعيدا عن أعينها في بيتها، ولكنها كانت تقصد إفساد الزفاف.. الفعلة التي لن ينساها العمدة.. الفعلة التي أشعلت نيران غضبه.. إنها الفضيحة التي ضربت الحلوانية في مقتل.. لقد ضاع كل شيء في ليلة.. ضاع الود والأمان بين ليلة وضحاها.. ولم يعد بالإمكان إعادته من جديد.

ويظهر مروان الحالم.. مروان يرى أن شيئا لم يحدث، وأن الأمر بسيط إلى أبعد مدى.. فبوسعهم البحث عن الحسيني وإحضاره وتصفيه الأجواء، ثم يقام العرس، وتعود الأفراح ثانية. وتصدمه سسبان بالسؤال: أقلت هذا للعمدة؟ ويأتي الرد من مروان: "أقول له يا عمة.. وتؤكد حورية ذلك.. تطلبها من مروان.. تطلب منه أن يذهب للعمدة ويطلب منه التحقيق في أمر الحسيني والتأكد من صحة كلامه، وأنه ابن صادق الحلواني وأخوها.. ولكن هل يحتاج

صقر إلى تحقيق؟ هل يحتاج لأن يستوثق من صدق الحسيني؟ إنه يعرف أنه صادق، وابن صادق.. ولكن يبدو أن الحبيين ما زالوا لا يدركان ذلك.. ما زالوا غارقين في أحلامهما الوردية.. لم يعرفا بعد كنه هذا العالم الذي يعيشان فيه.. العالم الذي لا يعترف إلا بالقوة والظلم والعدوان!!

تؤكد حورية أنه إذا حقق في الأمر فسيؤكد أن الحسيني أخوها.. ولكن المفاجأة تأتي من سسبان.. تفاجئنا بالتأكيد بأن هذا لن يحدث.. لن يستطيع صقر فعل ذلك.. ولكن لماذا؟ كان هذا هو السؤال الذي خرج من مروان وحورية، ونحن معهما.. ولكنها في النهاية لم تجب.. وتنتهي الحوار، فهذا ليس المكان ولا الزمان المناسبين للحديث. ومع انصراف مروان يؤكد لحورية أنه سيفعل لها كل ما تريد، بينما تلقي حورية سؤالها من جديد على سسبان؛ لماذا تتفق مع رأي العمدة رغم كونها متأكدة من صدق الحسيني؟ وكالعادة تواصل سسبان الصمت.. منذ متى كانت تتكلم خارج غرفتها.. غرفتها المظلة على الماضي؟

وينتقل بنا عكاشة إلى مروان مجددا بصحبة حشاد.. الصديق البصاص.. يخبره برغبته في السفر إلى القاهرة واصطحابه معه.. ويسأله حشاد عن سبب السفر فيؤكد له مروان رغبته في الوصول إلى الحسيني.. يحاول المحب إرضاء حبيبته بكل الصور، ومع حسن طوبته يظل مروان واقعا في فخ حشاد.. حشاد الذي لن يقبل أن يفعل ذلك دون الرجوع إل أسياده.. لم يكن غريبا إذن أن يبدأ في ترهيب مروان من هذه الفكرة، فماذا يقول للعمدة؟ كيف سيفسر له رغبته في السفر؟ وإن وافق على سفره فسيرسل معه خفيرا لحراسته كالعادة.. ويبدو مروان متمردا على ذلك، فإلى متى سيظل محتاجا لحراسة وحماية؟ إلى متى يحدث ذلك وقد أصبح رجلا؟ ويعود حشاد إلى محاولات التبرير، فالعمدة يخاف على مروان ويحميه، لا سيما وعنده

من الأعداء المتربصين الكثير، كما أنه -أي مروان- هو العمدة المقبل بعد عمر طويل.. إنها تلك الجملة التي يرددها الجميع، وكأنهم يحاولون صنع صورة جديدة من صقر.. ينفخونها في مروان فيضمنون بهذا استقرار حياتهم كما هي.. وتصيب الجملة مروان في مقتل، فهو لا يرى في نفسه شيئا من العمدة.. هكذا يصرح لحشاد الذي يؤكد أن العمدة لا يتشابهون بالضرورة، وخير دليل على ذلك هو العمدة القديم صادق الحلواني الذي كان مختلفا عن أخيه العمدة الحالي في كل شيء، ولكنه كان محبوبا من الجميع.

هكذا يؤكد حشاد، ولكن الرد يأتي صادما من مروان، الذي يفاجئنا بالسؤال: "ونهايته كانت إيه؟" .. ماذا كانت نهايته؟ ليس أمامه اختيار إذن، فإما أن يكون مثل أبيه، أو أن تكون نهايته مثل نهاية عمه.. ولكن ما النهاية تلك التي يخشاها مروان؟ ويرتبك حشاد وهو يجيب قائلا بأنهما كانا صغارا عندما حدث ما حدث.. كانا نسمعان أنه مات بعيار طائش..

ويتذكر مروان الحادث.. كان صغيرا وقتها يلعب هو وحورية وآخرون قريبا من المكان الذي قتل فيه.. سمع العيار الذي قتل به عمه.. كان عيارا واحدا منفردا جاء بعد طلقات الخفر ابتهاجا بالفرح الذي كان يقام في هذه الليلة.. حين سمع صوت هذا العيار شعر بالخوف.. قال له الأصدقاء إنه مثل سابقه ما هو إلا للاحتفال بالعرس.. لكنه كان مختلفا.. كان مروان يشعر بأنه قد أصيب في صدره.. لم يصب بالعيار بالطبع، ولكنه أصيب بشيء مبهم لا يعرفه.. ربما الحزن.. ربما الخوف.. ربما القلق.. ربما كل ذلك.. وجرى مروان إلى المكان الذي قتل فيه عمه.. كانت العمة سسبان تضع التراب على رأسها باكية مولولة لفقد أخيها صادق.. ويبحث مروان الصغير عن حورية ليجدها في حضن أبيه وقد غسلت دموعه شعرها.. كان صقر يبكي على صادق.. كانت المرة الأولى التي يرى فيها دموعه، وكانت

أيضا المرة الأخيرة.. لقد حزن صقر على صادق إذن.. كانت هذه هي القصة في عين مروان الوديع الذي كان طفلا وقتها فكان أكثر وداعة.. لكنها في الوقت ذاته وعلى أية حال كانت صورة من الماضي الذي لا نعرفه.. صورة مخالفة لما توقعناه وأشارت إليه القرائن.. ولكن يبدو أن ذلك كله يعود إلى العين التي رأت.. إنها عين مروان الوديع. وينتهي حشاد الحديث في الماضي محاولا إغلاق أبوابه، فلن يتحمل هو أن يكون سببا في فتحها.. ويعود بنا للحديث عن سفر مروان، الذي يؤكد أنها الحكاية ذاتها.. ولم يفهم حشاد ما يقصد مروان الذي يطلب منه التجهيز للسفر.. ويغادر مروان بيت حشاد ذاهبا إلى العمدة.

ونذهب إلى بيت العمدة.. ولكن العمدة ليس موجودا.. غادر القرية أمس، متتبعا من عزب، إلى مكان لم نعرفه بعد.. كان شيخ البلد يحل محل العمدة في السلطة مؤقتا.. ويخبره شيخ البلد بأن العمدة سيعود غدا فلديه مأمورية يقوم بها، وقد اتصل به ليخبره بذلك.. ويسأل مروان عن مكانه؛ حيث يستطيع المرور عليه في الطريق.. ولكن شيخ البلد لا يعطيه إجابة، فالإجابة ليست عنده.. الإجابة كانت عند السنباطي.. ولكن لم لا؟ ربما كانت عند الدمرداش أيضا.. ولكنه في النهاية لم يقدمها لمروان.. بل يبادر هو بالسؤال عن سبب رغبة مروان في السفر، واستعجاله في ذلك.. ويرد مروان بالمثل، فلم يقدم إجابة هو الآخر!!

ويؤكد الدمرداش أنه سيضطر لمنع مروان من السفر، ليس بصفته شيخ البلد، ولكن بوصفه العمدة في غياب العمدة صقر.. ولكن مروان لا يعبأ بهذا الكلام، ويؤكد أنه سيسافر، غير منتظر ذلك الخفير الذي أراد الدمرداش أن يرسله معه.

ويكشف لنا عكاشة السر الذي عرفه عزب وأخبر السنباطي

به.. العمدة في بيت امرأة شابة.. سيقضي معها الليلة.. تطلب منه أن يحكي لها سبب ضيقه، الذي كان سببا في مجيئه إليها وقضاء الليلة معها.. إنه لا يفعل ذلك إلا إذا كان شاعرا بالضيق.. إنها الملاذ الذي يلجأ إليه إذن لينسى من خلاله القرية وما يحدث فيها.. ولكنه الملاذ الذي يلجأ إليه للتفكير وليس الحكى!!

وتدعوه درية - هذا هو اسمها - للتفكير بصوت عال لتفكر معه أيضا حتى يصلا إلى حل.. إنها الوحيدة الذي تصبره على ما يحدث.. وتؤكد له درية - التي لم تعرف علاقتها بعد بصقر - أنها خادمتها، ولكن العمدة ليس في حاجة لخدم.. إنه يحتاج فقط لمن يفهمه.. هكذا يؤكد صقر، مشيرا إلى أنها فقط من يفهمه.. تفهمه بنظرة.. تسمع ما يريد أن يقول، وتقول ما يريد أن يسمع.

هنا تؤكد درية أنها لن تستطيع أن تسمعه ما تريد هي.. إنها تريد أن تكون إلى جواره دائما.. لكن العمدة يرفض ذلك، فذهاهما معه إلى القرية يعني أحد أمرين؛ إما أن تكون واحدة من أهل القرية الذين مل وجودهم، ويهرب إليها منهم، وإما أن تظل كما هي فتصبح غريبة وسطهم، وسيكروهونها، ولن تكون سعيدة وقتها.. يريد لها أن تظل هكذا مهربه وملجأه الذي يلجأ إليه دوما، وها هي تبدي رضاها بذلك، فهي راضية ما دام هو راضيا.

وينتهي المشهد دون أن نعرف إجابة عن سؤالنا.. من درية هذه؟ من هذه التي يهرب إليها صقر؟ أهى زوجته أم مجرد عشيقة؟ وهنا يضيء سؤال لم نكن قد التفتنا إليه مسبقا.. أين زوجة صقر وأم مروان؟ أمات أم أنه طلقها مثلاً؟ ما زال معين الأسرار ممتلئا بالكثير.. وما زالت الأسئلة تطرح وما زلنا نبحث عن إجابات.

يعرف أسامة أنور عكاشة ما سيدور في ذهن المتلقي جيدا.. يضع الأسئلة أمامه متعمدا، ليمهد للإجابة عنها. وتأتي الإجابة من خلال

المشهد التالي، فيها هو مروان يدخل تلك الغرفة المغلقة، على تلك السيدة التي ترتدي البياض وقد بان عليها الكبير.. إنها أمه.. أم مروان على قيد الحياة إذن.. وأين هي؟ إنها في منزل العمدة.. جاءها مروان مودعا قبل السفر.. لم تمت ولم يطلقها العمدة.. لماذا لم يكن لها دور حتى الآن؟ لماذا تبدو بعيدة عن الصورة؟ ما موقفها من كل ما يحدث؟ أهى جزء من الماضي أغلق عليه الباب، أم أنها مفردة من مفردات الحاضر الذي صنعه صقر؟ وكعاداته يجيب عكاشة عن سؤال واحد لي طرح لنا أسئلة عدة.. إنها حرفته التي ألفناها وعرفنا أنها سر الدراما عنده.

وتأتي إجابات أخرى سريعة.. مروان يتحدث عن أخي حورية الذي سيسافر للبحث عنه، وبمجرد أن يبدأ مروان بالحديث يأتي الرد بهزة من رأس الأم.. إنها تؤكد صدق رواية الحسيني.. ولكن لماذا لا تتكلم؟ لماذا تكتفي بهزة من رأسها؟ أفضّل الصمت وهي تعرف الحقيقة مثل سسبان، أم ستنطق وتقول كل شيء؟

وتتابع الأسئلة من مروان؛ هل تعرفين أن اسمه الحسيني؟ الإجابة تأتي أيضا بهزة من الرأس، ولكنها لا هذه المرة.. تجيب الأم بهزة من رأسها دوما.. ويبقى الصمت هو المسيطر.

ويحكي مروان لأمه ما حدث، وتظل الإجابة هي الصمت.. ورغم الحيرة التي نرى فيها مروان، ورغم أنه جاء لسؤالها عن رأيها في قرار السفر، فإنه لا يجد إجابة تشفي غليله، فيقبل يديها ويرحل.. لم نسمع كلمة من الأم.. لم يصدر عنها أي صوت.. إنه الصمت.. الصمت اللعين الذي يسيطر على الجميع.. جميع من في القرية صامتون.. الكل يخاف فتح أبواب الماضي.. يخشون الكلام!

ومن صامته تنتقل إلى صامته أخرى.. من أم مروان نذهب إلى سسبان التي تستعد للخروج، بينما تحاول حورية إقناعها بأن تسمح

لها بالذهاب إلى صباح لتطيب خاطرها- فقد أهانتها سسبان مرتين؛ الأولى بطردها ليلة الزفاف الذي لم يتم، والأخرى في بيت الحناوي ساعة لقاء حورية ومروان.. ولم توافق سسبان على ذلك، فتطلب حورية منها الخروج معها.. ولكن إلى أين؟ إلى أي مكان ستذهب إليه.. هكذا تؤكد حورية لسسبان، ولكن العمدة تبدو رافضة متكئة على ذكر المكان الذي ستذهب إليه.. إنه المكان الذي تذهب إليه كل جمعة دون أن تخبر أحدا.. سر جديد يا عكاشة.. لا ينتهي مشهد دون سؤال أو سر!

إنه باب الماضي.. إنه المكان ذاته الذي ذهبت إليه ليلة مجيء الحسيني.. بيت خال من الناس، وغرفة نوم تقوم بتخيرها.. وعلى الحائط نرى صورة صادق الحلواني.. تواجهه سسبان التي لا تعرف الحديث مع الماضي إلا في الغرف المغلقة كالعادة.. لا تعرف ماذا تفعل.. كانت تتمنى أن يتزوج مروان حورية لإغلاق الجرح القديم، ولكن الحسيني جاء قبل أن يتم الفرح.. جاء قبل الموعد!

وتتذكر مجددا وصيته.. تتذكر حديثه عن حورية والحسيني.. فتؤكد أنها تعرف وتتذكر جيدا.. تتذكر ولكنها لا تستطيع.. دمعها لم يحف طول العمر، ولكنها رغم ذلك لا تستطيع.. لماذا لا تستطيع سسبان؟ لماذا لا تتكلم إلا في هذا المكان؟ أما الآن للصمت أن ينتهي؟ أما الآن للأبواب أن تفتح؟!

ونذهب إلى مقر الحكم، لنجد شيخ البلد الذي يحل محل العمدة جالسا مع شيخ خفره السنباطي.. الدمرداش يتعجب من غياب صقر، فهذه هي المرة الأولى التي يغيب فيها هكذا.. على الناحية الأخرى يبدو السنباطي أكثر هدوءا، فهو العالم بمكان العمدة وماذا يفعل، وغدا سيعود العمدة ولن يكون الدمرداش العمدة وقتها.. حتى في مثل هذه الجلسات التي تبدو دون صراع لا يتخلل عكاشة عن صراعه بين شخصياته.. السنباطي لا يكف عن توجيه سياط كلماته

للمرداش، حتى وإن بدا ذلك في ظاهر الأمر على سبيل الدعابة. ويسأل الدمرداش شيخ الخفر عن وجهة العمدة، فيؤكد له عدم معرفته، ولكن الدمرداش يبدو غير مصدق ذلك.. أروقة السلطة تعرف أن الكل مراقب وأن البصائين لا يتركون أحدا دون معرفة كل شيء عنه، حتى لو كان العمدة ذاته.. ويظهر غيظ الدمرداش مهددا السنباطي: "مسيرك هتيجي تحت ضربي"، ولكن السنباطي يسخر منه مؤكدا أنه خلع كل أضراره منذ زمن.. شيخ الخفر يفوز إذن في ذلك الصراع بين قوى السلطة، فلا يجد الدمرداش سوى الانسحاب.

ويدخل عزب ممسكا بميلم.. ماذا فعل ميلم لكي يقبض عليه من ذلك العزب الشرس؟ التهمة أنه كان يحوم حول بيت العمدة سسبان.. وهل هذه تهمة؟ ولا يسكت ميلم، فهو الوحيد الذي لا يسكت، ولكنه الوحيد الذي لا يفهمه الجميع أو الذي لا يريدون أن يفهموه.. لا يسكت ميلم فيكيل السباب لعزب.. لا يخاف منه فقد نسي الخوف منذ زمن بعيد لا نعرفه.. اثنان لا يخافان في هذه القرية إذن.. حورية وميلم.. ومن لا يعرف الخوف لا يعرف السكوت.

يقف ميلم في وجه عزب الذي رضع من لبن الذئاب صغيرا.. هكذا يقول له ميلم ليستشيط عزب غضبا ويبدأ في ضرب ميلم بكل عنف.. كلاب السلطة يحاولون إسكات الصوت الباقي في القرية، حتى وإن كان الجميع لا يفهمونه.. ويتدخل السنباطي لمنع عزب من مواصلة الاعتداء على ميلم.. ويؤكد ميلم أنه سيدعو على عزب عند مقام الحلواني.. ويؤكد عزب أنه سيعود مرة ثانية ليحوم حول بيت سسبان.

ويتساءل السنباطي: وماذا في هذا؟ إن ميلم يجب أن يبلغ الرسالة.. أي رسالة تلك؟ وهل يقبل ميلم صوت القرية الباقي أن يكون مرسل شيخ الخفر؟ وإلى هذا الحد يعرف السنباطي قيمة ميلم، أم أنه فقط يود الاستفادة من ذلك المجذوب الذي يمكنه نقل الكلام من

هنا لهنالك؟ ولكن السنباطي لم يبلغ أية رسالة لميلم.. فقط يحذره من أن تراه سسبان وهو يوصل الرسالة.

ليست الرسالة من السنباطي، وإنما كانت من آخر.. رسالة ستصل إلى بيت سسبان دون علمها.. وهل في بيت سسبان غير حورية.. حورية هي من ستستلم الرسالة.. ولكن من المرسل؟ أهو الحسيني أم مروان؟ وإذا كانت الرسالة لحورية، فلماذا يكون السنباطي حريصا على أن تصلها؟ كيف يكون ذلك من مصلحته؟ هكذا تكون السلطة الغاشمة.. هكذا يكون البصاصون.. يعرفون كل شيء، ويستخدمون كل شيء يرونه في مصلحتهم، وإن بدا في الظاهر أنه غير مفيد.. لن نعرف بالطبع السبب الذي في رأس السنباطي، ولكنه بالطبع جزء من مؤامرة مستمرة تجاه القرية وأهلها الطيبين.

وينطلق ميلم ولكنه قبل أن يغادر يعود ثانية لصب اللعنات على عزب، الذي يريد الفتك به ولكن السنباطي يتدخل، وينصرف ميلم، ليتركهما، فيسأل السنباطي عن مروان وحشاد وسفرهما.. ويؤكد عزب أنهما سافرا.. أ تكون هذه هي الرسالة التي أراد السنباطي أن تطير إلى حورية؟ ربما.. ولكن ما الاستفادة التي ستعود عليه من ذلك؟ هل يريد تحريك شيء ما لكشف شيء أكبر؟ كلها أسئلة لن نجد إجابة عنها إلا في الوقت الذي يريده عكاشة.

ويذهب ميلم إلى حورية.. إنها المقصودة بالرسالة كما توقعنا.. يحاول الوصول إليها ولكن عساكر تمنعه فهي في غرفتها مريضة.. ويصر ميلم على اللقاء ويبدأ في رفع صوته.. وهل يملك غيره؟ وتسمعه حورية وتستجيب لندائه.. وتطلب من عساكر إحضار "بريزة فضة" لميلم.. إنه طلبه المعتاد.. لقد فهمت حورية أن ميلم قد أتى برسالة ما.. وكانت الرسالة المتوقعة، فقد سافر مروان إلى مصر ولن يأتي إلا ومعه الحسيني.. كانت هذه هي الرسالة التي أدخلت السرور على قلب حورية.. ولكن الأسئلة ستظل مطروحة؛ فلماذا أراد السنباطي أن

تصل إلى حورية؟ وما الفائدة من ذلك؟

وينصرف ميلم بعد أن أخذ "البريزة الفضة" رافضاً "الجنيه" الذي همت حورية بأن تحضره له.. وتخبر حورية عساكر بما فعله مروان.. تنتفض عساكر عند سماع الخبر، ولكن حورية تؤكد أنها المرة الأولى التي تجد فيها مروان عند حسن ظنها.. بل أكبر منه أيضاً.. وأمام هذه الفرحة الطاغية التي تدخل قلب حورية لا تجد إلا الغناء متذكراً لحظات السعادة التي جمعتها بحبيبها مروان.

وتذهب حورية إلى الصامته الثانية.. أم مروان.. تزف لها فرحتها.. تتمنى لو كان مروان هكذا دوماً.. تتساءل عن الشيء الذي يقيد أحياناً.. ويأتي الرد من الأم.. لكنه رد بالإشارة أيضاً.. هنا فقط نكتشف أن الأم خرساء.. لقد فقدت النطق.. لم تكن صامته بإرادتها إذن.. إنها الصامته التي تريد الحديث.. تريد الكشف.. هكذا نرى الصامتتين على النقيض.. الأولى سسبان تعرف كل شيء ولكنها تفضل السكوت.. تراه الخيار الأفضل.. تسكت عن الحق برغبتها.. والثانية أم مروان تعرفه كذلك وتريد البوح به، ولكنها لا تستطيع.. لم تعد قادرة على النطق.. لم تعد قادرة على ذلك في قرية الصامتين.

كانت إجابتها عن سؤال حورية أن من يقيد مروان هو والده صقر.. هكذا نفهم من إشارتها.. وتتوالى أسئلة حورية.. تسألها عن والدها صادق؟ صادق الذي خطب أم مروان لصقر.. هل حزنتم عليه؟ وتنتفض السيدة، فهي حورية تفتح أبواب الماضي.. تراه بأعينها.. ولا تتوقف حورية عن فتحه رغم عدم حصولها على أية إجابة.. وتتواصل الأسئلة، ألم يكن علينا أن نفرح عندما نعرف أن صادق لديه ولد من صلبه؟ ويظهر الخوف في عين أم مروان.. تريد أن تنطق ولكنها لا تستطيع.. تكتفي بإشارة على رقبتها تعني القتل.. ولكن من هؤلاء الذين سيقتلونهم؟ كان هذا هو السؤال الأخير، ولكنه كان غيره بلا إجابة.. كل الأسئلة في هذه القرية لا تجد إجابة..

وكيف تجد إجابة في معشر الصامتين؟!

وننتقل إلى القاهرة لنرى مروان في ضيافة رشاد.. لقد ذهب إليه طالبا معرفة الحقيقة والوصول إلى الحسيني.. البحث عن الحقيقة هو بداية الطريق.. ويعاجله رشاد بالسؤال: أتريد أن تعرف الحقيقة حقا، أم تريد إرضاء حورية فقط؟ ويتعجب مروان من السؤال.. ويفسره رشاد.. من يريد أن يعرف الحقيقة من أجلها هي في ذاتها فسيظل يدافع عنها حتى النهاية، أما من يريد معرفة الحقيقة من أجل غيره فلن يستفيد منها شيئا، ولن يقف معها. على مروان أن يحدد موقفه الآن.. أهو الباحث عن الحقيقة أم الباحث عن إرضاء حورية فقط؟

ولم يفهم مروان الرسالة.. رأى فيها محاولة للتفلسف عليه من رشاد، وهو الذي أكمل تعليمه.. إنها كلمات حشاد التي صبها في أذن مروان.. يبدو أنها قد سكتته وآمن بها وها هي تخرج الآن. ويؤكد رشاد أنه لم يقصد ذلك مطلقا: "أنا مش باتفلسف عليك يا ابن العمدة".. كان مروان يقف أمام والده مؤكدا أنه ابن صقر، والآن يغضب من مناداته بابن العمدة.. لقد رأى في مخاطبته بهذا اللقب إشارة من رشاد إلى شيء ما.. إنه ابن العمدة الذي لا يخرج عن طوعه أبدا.. ابن العمدة الذي سيكون في ركاب أبيه دوما.. ابن العمدة الذي لن يقف في وجه أبيه إن اقتضى الأمر.. كل هذا وصل إلى مروان فأبدى غضبه.. إنه يكرهها كما يقول.. إنه مروان بن صقر الحلواني.. ولكن أليس صقر هو العمدة؟ يكره مروان أن ينتسب للسلطة واللقب ولا يكره أن ينتسب لأبيه، وشتان بينهما في نظره.

ويعود الحديث للنقطة الأساسية.. الحسيني.. لقد أتى مروان من أجل لقاءه، ولكن ما الذي يضمن لرشاد أن مروان لم يأت للبحث عنه لحساب أبيه؟ ونزل الاتهام على مروان كالصاعقة، ويبرر له رشاد ذلك بأن الحسيني أصبح أمانة في عنقه.. ويؤكد له مروان أن الحسيني -لو صدق- سيكون ابن عمه، وهو الأولى به.. "لو صدق"..

هذه الكلمة وحدها كفيلة بهدم كل شيء.. لم يصدق مرون إذن.. ما زال الشك يساوره.. لم يطمئن بعد.

هكذا يقول رشاد متسائلا: كيف سيقنعك بصدقه؟ ماذا تريد منه أن يفعل؟ ويرد مرون بأنه يريد أن يرى منه أي شيء.. أي دليل أو برهان يثبت صدقه.. ويقصر رشاد المسافة على مرون فيخرج صورة من شهادة ميلاد الحسيني مؤكدا أن فيها أكبر دليل.. ويصر مرون على اللقاء فهو يريد رؤيته والحديث معه.. يريد الاطمئنان إلى الحقيقة.. يريد تصديقها!!

ويبدو هنا عكاشة وكأنه يشير إلى التناقض بين صقر ومرون، فالعمدة ورجاله، يكذبون الكذبة ويصدقونها حتى يصدقها الناس، ومرون يبحث عن الحقيقة، ولا يصدقها حتى الآن، فكيف له أن يدافع عنها ويصدقها الناس؟!

ويذهب رشاد ومرون للقاء الحسيني.. ويقتنع مرون بحديثه، فقد أصبح كل شيء واضحا.. ولكن ما الذي يستطيع أن يفعله مرون؟ هل يستطيع أن يتحدث مع العمدة؟ هل يستطيع أن يقنعه بإعلان ما يعرف أنه حقيقة أمام الناس؟ ويشفق رشاد على مرون، فالحسيني يطلب منه فوق طاقته، فلا أحد يستطيع إقناع العمدة بما لا يريد أن يقتنع به.

ما الحل إذن؟ الحل يأتي من الحسيني فهو يريد العودة إلى الحلوانية، ويؤكد مرون أن هذا سبب مجيئه، ويأتيه السؤال من الحسيني: "هتحميني؟" ويرد مرون مؤكدا بأن أحدا لا يستطيع المساس به.. ويكمل الحسيني: "مهما كان اللي هاعمله".. وتقلق الكلمة مرون، فيتساءل عما يمكن أن يفعله الحسيني.. ويكون الجواب القاطع.. إنها رحلة البحث عن الحقوق.. وهذا لن يعجب العمدة. ويتدخل رشاد ملقيا على مرون السؤال الصعب: هل يستطيع مواجهة أبيه؟ إنه

السؤال الذي يهز مروان من الداخل.

وتنفيذا لوعد الفارس الحالم الآتي من عالم الخواديت يلبي مروان طلب حورية.. يأتي بالحسيني إلى القرية.. يمشي مروان والحسيني ورشاد، ومعهم حشاد، في شوارع القرية كلها، فعلى الجميع أن يعرفوا أن الحسيني ابن عمه وفي حمايته.. نعم سيعرف الجميع يا مروان، ولكن ماذا عن صقر؟ هل ستستطيع مواجهته؟ هل سيسكت عن وقوفك أمامه لمرة جديدة؟ لقد عرفت الحديث يا مروان في قرية الصامتين، فهل سيصمت العمدة أمام ذلك؟

ويقود ميلم زفة العائدين، ناقلا الخبر في كل مكان.. الحسيني بن صادق ومروان بن صقر.. إنها ابنا العم.. ويعرف الجميع.. وتشق زغاريد النساء جدار الصمت.. هل ينزاح الصمت عن القرية؟ هل تكون البداية زغرودة تنطلق من حناجر النساء؟

ويطير الخبر إلى حورية، فتطير فرحاً به، فقد عاد أخوها الحسيني ولبى مروان حبيبها النداء، بينما ينزل الخبر كالصاعقة على سسبان الخائفة من رد فعل العمدة، مرددة: "ربنا يستر". إنها تعرف غضبه.. تعرف غضب صقر الحلواني وما يمكن أن يحدثه هذا الغضب.

ويصل الخبر إلى صقر الذي عاد من رحلته.. ويواجه السنباطي طالبا منه تفسيراً لما حدث.. السنباطي الذي كان يعرف وجهة مروان ولم يتحرك لمنع يؤكد أن النساء عندما سمعن ميلم ورأين مروان والحسيني يسيران في كل مكان فقدن عقلهن وأطلقن الزغاريد، ولما رأى الرجال ذلك اعتقدوا أن كل شيء بمباركة العمدة، وأتوا لتقديم التهنة إليه.. لم تكن إذن بداية التوقف عن الصمت.. فقط اعتقد أهل القرية أن كل شيء بمباركة من صقر.. لم يعرفوا لغة الكلام بعد.

ويغضب العمدة.. أين كنتم من كل هذا؟ يوجه حديثه لشيخ البلد وشيخ خفره، فيؤكد الدمرداش أنه كان جالسا في مكان السلطة، ولكنه

لم يعرف شيئاً مما حدث، بل إن السنباطي نفسه لم يكن يعرف شيئاً هو الآخر، وقد كان جالسا معه.. ويسأل العمدة كيف تركوا مروان يسافر، ويأتي الرد من الدمرداش بأنه حاول منعه ولكنه لم يستطع فأرسل معه خفيرا لحمايته.. ويهم السنباطي بالخروج لصرف الناس الآتين للتهنئة، ولكن العمدة يمنعه من ذلك.

كيف سيتصرف صقر في مثل هذه الورطة التي عاد من رحلته ليجد نفسه فيها؟ ويخرج صقر لملاقاة الناس.. حان وقت تطبيق الدرس.. صدق الكذبة ليصدقها الناس.. العمدة لديه ابن واحد، وصادق لديه ابنة واحدة، والمؤامرة من أحوال حورية الذين أرسلوا هذا الولد وزوروا له شهادة ميلاد استطاع بها أن يقنع حورية ومروان، ولكن المؤامرة انكشفت له، ولن يتركها تمر.. يريدون أن يفرقوا بين عائلة الحلواني.. تلك العائلة التي هي أصل القرية ومنشأها.. العائلة التي إن تفرقت فستنتهي الحلوانية كلها.. كانت هذه هي الكذبة التي صدقها صقر، وجعلها حقيقة واقعة أمام الجميع.. حقيقة مخيفة، ففي عدم تصديقها نهايتهم!!

ويستمر العمدة في عرض حقائقه/ أكاذيبه، فكيف يكون لصادق الحلواني ولد، وهو لا يعلم؟ كيف يكون ذلك وهو الذي لم يفارقه يوما؟ كيف يكون ذلك وقد كان خزانة أسرارهِ دوماً؟ ويستشهد العمدة بأكابر رجال القرية الصامتين.. هناك من سمع يوما بأن لصادق ولداً؟ أكان صادق "بتاع كلام من ده؟" وتأتي الإجابة الصامتة بهزة من الرءوس تعني لا.. كان صادق مثل السيف لا يصنع شيئاً في الخفاء، وإذا فعل يقول.. ويقولها لأهله قبل أي أحد آخر.

ويواصل صقر خطبته العصماء لمعشر الصامتين، موصلاً رسالته لهم، فالحلوانية أمانة في عنقه.. أرضها وناسها مسئوليتُهُ.. لن يسمح لأحد أن يزرع فيها الفرقة، ولن يسمح لأحد بأن يبث القلق في نفوس أهلها. خطبة طويلة من العمدة لم يقل فيها كلمة واحدة صادقة،

ولكن الجميع صدقوه.. صدقوه لأنه صدق نفسه.. وربما صدقوه لأنهم يريدون ذلك، أو لأنهم لا يملكون سواه.. أو لأنهم لا يجدون ما يقولون.. وهل يتكلم الصامتون؟!

وتأتي حورية بالحسيني إلى العمدة سسبان.. لم يوافق الحسيني على الذهاب مع مروان قبل أن يأتي للقاء عمته واستئذنها في الإقامة في بيت أبيه.. هكذا تقول حورية لعمتها التي تبدو مهمومة، يملأ القلق قلبها.. ويأتي الرد من سسبان: ”ما عرفوش“.. تنكره سسبان ولكن حورية تؤكد أنه أخوها وأنها عرفتة حق المعرفة، والأمـر ذاته يؤكده مروان.. بل يؤكد الحسيني ذاته أن سسبان أيضا عرفتة.. لماذا تنكره إذن وقد عرفتة قبل حتى أن تراه؟ ويقدم لها الحسيني أمارة أخرى، فيناديها بـ”ست إخوانها“.. إنه اسمها الحقيقي الذي لا يعرفه الكثيرون. الاسم الذي كتبت لأخيها رسالة تؤكد فيها غضبها من أم مروان لأنها تناديها به.. الصامتتان على خلاف من البداية إذن. ليس الخلاف فقط في سر الصمت وسببه، ولكن يبدو أن له جذورا أعمق.

ورغم الأمانة الكاشفة فإن سسبان تظل على عنادها وإنكارها له.. ويتدخل مروان هو الآخر، ولكنها لا تستجيب له، بل تحاول استمالة لها، فهو وحيد الحلوانية ووحيد أبيه، وهو من سيحمل هم الحلوانية بعد أبيه.. لماذا تفعل سسبان ذلك؟ لماذا تؤثر ابن صقر عن ابن صادق؟ كان هذا هو السؤال الذي طرحته حورية عليها.. ولكن سسبان تطلب منها السكوت، فما تفعله سيخرب البلد.. السكوت ثانية هو المطلوب.. تطلب من حورية أن تنضم إلى كتيبة الساكتين الصامتين.

ومن جديد يتدخل الحسيني مشيرا إلى حقه.. حقه في الأرض والأهل والعزوة.. حقه في مسقط رأس أبيه ومحل مدفنه.. وأمام كل هذا لا تجد سسبان سوى أن تهرب من كل الأسئلة: ”ما حدش يسألني عن حاجة“.. وتطلب منهم جميعا أن يتعدوا مصطحبين هذا المجنون

معهم.. ويرفع الحسيني كلمته عالية، فهو يقبل أن يكون مجنوناً في رأيها لكنه في النهاية الحسيني صادق عوف الحلواني، وقد أتى ليعرف حقيقة ما حدث لوالده.. الرغبة في الوصول إلى الحقيقة هي الهدف، وهي السبيل، ولكن كيف تصل إلى حقيقة وسط معشر الصامتين؟! ولأنها لا تستطيع أن تتكلم، تريد أن تسكت الجميع، فتطلب من الحسيني أن يترك القرية بأسرها، وستعطيه ما يريد من المال.. عرض من سسبان يحمل الكثير من المعاني، فهي لا تريد أن تسمح للماضي بأن يعود مهما كلفها الأمر.. لن تتكلم أبداً وستسكت الجميع مهما كان الثمن.. ولكن هل تستطيع ذلك مع العنيد أخي العنيدة؟ العنيد لا يريد شيئاً سوى مفتاح بيت أبيه.. يعرف الحسيني أن المفتاح سيكون اعترافاً من عمته به.. يعرف أنه سيضع العمدة في حرج بالغ أمام الجميع، فكيف لسسبان أن تعطي المفتاح لنصاب أو غريب؟ ولهذا لم يكن غريباً أن ترفض سسبان في البداية، ولكنها ترضخ في النهاية لعناد الحسيني وحورية.. تصعد لإحضار المفتاح، ورغم تحذيرات عساكر التي ترى أن "سلو البلد" هو أن يحدث كل شيء بإذن العمدة، فإن سسبان تقرر إعطاءهم المفتاح، مبررة ذلك بأنها لو أبلغت العمدة فسيفرض وسيطّيح بالجميع، أما إذا أعطتهم المفتاح فسيكون الأمر قد حدث بالفعل وانتهى الأمر، وقد رضخت أمام عناد حورية ومطالبتها بحقها.

وتعود مجدداً عساكر للتحذير من ذلك، فحتى الحقوق لا تؤخذ إلا بعلم العمدة وموافقة.. هذا هو "سلو البلد" الذي يمشي على الجميع.. ولكن هل يمشي كذلك على سسبان.. على "ست إخوانها"؟ الإجابة لا.. هكذا تقولها سسبان عالية.. إنه الإعلان الأول من سسبان أنها قادرة على الوقوف أمام أخيها صقر.. إنها قادرة إذن، فلماذا اختارت أن تكون من الصامتين؟

وتفتح حورية باب الماضي.. باب بيت أبيها.. تدخل إلى الماضي

بصحبة أخيها وحبييها.. تعلقو السعادة الوجوه وهم يطلون على
جدران الماضي.. يشعرون بنفَس الأحبة وذكريات الراحلين.. وتطير
حورية من السعادة فقد هل القمر على داره.

وعمار يا دارنا بالقمر..

وافتح لنا يا باب..

ويّا القمر يحلا السهر..

بوسي القدم يا أعتاب..

هكذا تغني حورية.. تعبر عن فرحتها وسعادتها بأخيها.. فرحتها
بفتح الأبواب المغلقة لسنوات.. فرحتها بكل ركن تذكّرت في البيت..
فرحتها بغرفة أبيها التي فتحت.. ولكن هل تدوم الفرحة؟ كيف
تدوم وصقر موجود؟ إنه التوجس خيفة من مستقبل لا يعرفه الجميع..
التوجس الذي يجعل المشاهد في حالة ترقب دائمة وكأنه يسأل دوما:
وماذا بعد؟!

ويحدث الأمر المتوقع.. الخبر يطير إلى العمدة قبل حتى أن يصل
الركب السعيد إلى بيت العمدة القديم.. ويأتي الرد السريع، فيرسل
زبانيته بقيادة عزب للقبض على الجميع والإتيان بهم إلى مقر الحكم..
يعود باب الماضي إلى الانغلاق خلف حورية التي تساق إلى بيت
سببان، والحسيني ومروان اللذين يُدفعان دفعا إلى العمدة.. العمدة
الذي لا يعبأ بأحد.. لا يشغل بكون هؤلاء ابنه وابني أخيه.. كل هذا
لا يشغله.. ما يشغله فقط هو السلطة والسطوة والسيطرة وقتل بذرة
التمرد التي أصبحت تنمو بقوة، وتكبر كل يوم.

ويكيل العمدة الاتهامات للحسيني.. إنه لص.. لص هجم
على بيت مغلق لسرقته، ولهذا سيكون ضيفا على رجال السبباطي
للصباح، ثم سيتم تسليمه للمركز، ثم للنياحة ثم للمحكمة، لينال
عقابه.. ما زال العمدة يكذب الكذبة ويصدقها.. وهنا يذكره الحسيني

بأنهم سيحققون معه وسيعرفون أنه الحسيني ابن صادق الحلواني وأن البيت الذي دخله هو بيت أبيه، وسيفرجون عنه لتبقى الفضيحة.. لقد لفق العمدة لابن أخيه قضية وحاول الزج به في السجن.. وستكون هذه بداية السؤال من الجميع.. والسؤال يعني بداية البحث عن الحقيقة.. والبحث عن الحقيقة هو طريق المعرفة، وبعد المعرفة تأتي الصرخة لتكسر الصمت.

الحسيني لا يعرف الخوف إذن.. ينضم الحسيني إلى الفريق الذي لم يعرف الخوف يوماً.. يواجه العمدة ثابتاً دون أن تهتز له شعرة من رأسه.. ولكن هل يتحمل ذلك كله بتلك البنية الضعيفة والقلب العليل؟

ورغم ما قاله الحسيني فإن العمدة يظل مصدقاً كذبه، فالحسيني نصاب، ولهذا يطلب من السنباطي أن يسلمه لعزب، ولكن عليه في الوقت ذاته أن يحترس حتى لا يسقط مثلاً سقط في المرة الماضية.. يريد العمدة بدء مسلسل التعذيب ثانية.. الوسيلة التي لا يعرف غيرها مع الذين لا يخافون.. يحاول كسرهم وزرع الخوف فيهم.. ولكن الحسيني يبدو غير الجميع، فهذا هو يردد وهو متجه إلى مصيره المحتوم: "إن شاء الله هاخذ حقي قبل ما أموت".. وهل سيموت الحسيني؟ وكيف سيصل إلى حقه، وهو الذي يزج به في قبو مغلق مع ذلك الجلاد السادي عزب؟ هل يمكن أن تقوم له قائمة بعد ذلك؟

ويسأل العمدة شيخ البلد عن رأيه.. يخبره شيخ البلد بأن المشكلة لم تعد في الحسيني، فقد أصبحت فيمن هم في الخارج.. فيمن كسروا حاجز الصمت وتكلموا.. فيمن لا يستطيع العمدة حبسهم وتعذيبهم.. كان شيخ البلد يقصد مروان وحورية، ولكن الرد يأتي قاطعاً من العمدة: "يبقى ما تعرفنيش يا دمر داش".. العمدة إذن يستطيع أن يحبس الجميع.. أن يسجن الكل.. لا عزيز عنده ولا حبيب.. السلطة لا تعرف إلا فرض السيطرة.. لا تعرف إلا فرض الصمت على الجميع،

مهما كانوا.

ويبدأ العمدة في التنفيذ.. يصدر صقر فرماناته.. حورية تجلس في بيت سسبان، ويوضع خفر على باب البيت يمنعونها من الخروج.. أما مروان فيبيت الليلة في ضيافة عزب مع الحسيني.. جاء القرار حاسماً وسريعاً من العمدة.

وندخل السجن معهما.. الحسيني يرى أنه ورط مروان معه، بينما يظل مروان غير مصدق ما حدث.. هل يحبسه أبوه؟ ما زال القلب الساذج لا يدرك معنى قسوة السلطة.. أما الحسيني فيعي كل شيء.. لن يصنعوا شيئاً لمروان.. سيجعلونه يرى فقط ما سيفعله عزب مع الحسيني.. هكذا يزرع الخوف في القلوب.. ويتعجب مروان من الحسيني.. كيف عرف كل ذلك، وهو في هذه السن الصغيرة؟ كيف له أن يدرك كل ذلك؟ ويؤكد مروان أنه رأى في عين الحسيني أثناء حديثه مع سسبان ما جعله يشعر بالخوف.. لقد رأى في عينه ناراً مشتعلة.. هنا يؤكد الحسيني لمروان أن هذا كل ما يملكه.. لا يملك إلا عينه ولسانه وعقله.. ربما في ذلك العوض عن السنوات التي ستضيع.. ويتساءل مروان معنا عن مقصد الحسيني بهذه السنوات الضائعة.. لكن الحسيني لا يقدم الإجابة الشافية.. يقول فقط إن هذا كلام من سيتوقف قلبه من الخوف.. ولكن هل يعرف الحسيني الخوف؟ هل يعرف الذين لا يعرفون السكوت معنى الخوف؟ هل سيتوقف القلب من الخوف أم من المرض الذي أصابه؟ هل الرحلة قصيرة إلى هذه الدرجة؟ أأتى الحسيني فقط ليشعل نيران الغضب؟ أأتى فقط ليفك عقدة الألسنة المربوطة؟

ويقدم لنا عكاشة إجابة سريعة في المشهد التالي الذي يجمع حورية وصباح.. لقد عرفت حورية حقيقة مرض الحسيني.. القلب لن يقف من الخوف إذن يا حسيني.. القلب ربما يقف لسبب آخر، لكنه ليس الخوف أبداً.. تخبرها صباح بذلك لتحاول إدراك ما يمكن إدراكه..

وتطلب حورية من سسبان الخروج.. سسبان التي لم تحرك ساكنا رغم سماعها كل شيء.. فقط تقول لها إن الباب مفتوح أمامها، ولكن هل تستطيع حورية الخروج؟ الخفر يجلسون أمام البيت ولن يسمحوا لها بذلك.. وتهم حورية بالخروج مؤكدة أنها ستفعل مهما كلفها الأمر، ولكن سسبان تمنعها.. وتحاول حورية استعطافها دون جدوى.

وتذهب صباح إلى والدها الحناوي الذي يعد واحدا من كتيبة الصامتين هو الآخر.. تطلب صباح منه العون، ولكنه يؤكد أنهم ليس لهم شأن بهذا الأمر.. تذكره بما قاله لهم رشاد عن مرض الحسيني.. ولكن الأب لا يعرف ماذا يفعل.. لقد ألف الصمت ولم يعد يعرف الكلام.. لقد أصبح الحناوي نفسه يتعجب من مواقفه.. هل أصبح كبيرا؟ هل أصبح عاجزا؟ الحقيقة في النهاية أنه أصبح صامتا، فقد كسر منذ زمن.

وتنفي صباح ذلك.. إن والدها لم يكسر ولكنه الخوف عليها وعلى أخيها.. وتحرك كلمات صباح الدماء في عروق أبيها فيتنفض ليهم بالخروج.. ولكن إلى أين؟

ونجد الرد في المشهد التالي.. الحناوي يحاول إقناع طبيب الوحدة الصامت أيضا بالتدخل لإنقاذ الحسيني.. إنه وحده الذي يعرف أن حياته مهددة بالخطر، وأن سكوته يعني مشاركته في القتل.. ويرفض الطبيب في البداية فلا علاقة له بالقرية ومشاكل أهلها.. إنه يؤدي دوره فقط.. وينفعل الحناوي لتقاعس الطبيب عن دوره الإنساني، ويؤكد أنه سيعمل كل ما يستطيع من أجل تشريده.. وأمام هذا التهديد الواضح لا يجد الطبيب على ما يبدو سوى الاستجابة.

لم يمتلك صالح رغم كل شيء الشجاعة لمواجهة العمدة.. كانت محاولته من خلال الطبيب، ولم يستطع الطبيب القيام بالمواجهة أيضا إلا تحت التهديد والوعيد.. أما حورية فكانت غير الجميع.. هي القادرة

على التدخل السريع.. لقد ذهبت إلى العمدة.. تحاول بكل ما ملكت من وسائل أن تدافع عن أخيها.. تستحلفه.. تقبل يديه.. ترجوه.. تفعل كل شيء من أجل إقناعه.. يؤكد لها أن مروان معه.. فتقول له إن مروان لا خوف عليه.. فيسألها عن سبب خوفها على الحسيني.. فتخبره بمرضه الشديد.. قلبه لن يتحمل.. قلبه عليل.. ورغم عدم اهتمامه كثيرا يأمرها بالعودة إلى المنزل، ويطمئنها مؤكداً أنه سيكون بخير.

وتأتي لحظة العتاب.. العمدة يحب حورية ولكنه لا يسمح -وهو من لا يعرف الغفران- في اللعب من ورائه.. لا يقبل أبداً بمخالفة أوامره.. وتحاول حورية نفي التهمة عنها، فلم تكن تعرف أنها حين تدخل بيت أبيها تحتاج إلى إذن.. ولكن العمدة يقول لها إن كل شيء بإذن.. إنه المتحكم في كل شيء.. الأمر الناهي الذي لا يرد أمره أحد.

وتعلن حورية توبتها ويسامحها العمدة هذه المرة.. إنه يعرف الغفران إذن.. ولكن ذلك فقط مع حورية.. وتتمسك حورية بطلبها وهو الإفراج عن الحسيني فيطلب منها تركه الليلة.. ولكنها لا تستطيع.. لقد أعلنت توبتها من أجله هو.. ضعفت للحظة من أجله.. قررت أن تكون من الصامتين ولو مؤقتاً من أجله.. وإن لم تصحبه فستدور في كل مكان في القرية لتنادي بعلو صوتها عليه.. الصمت لم يكن خياراً دائماً لحورية.. إنه الخيار المؤقت من أجل الإفراج عن أخيها.

ويأتي التدخل من طبيب الوحدة.. يهم بإخباره عن حالة الحسيني، ولكن العمدة لم يعطه الفرصة، فعلى كل واحد أن يؤدي دوره فقط، والطبيب دوره هناك في الوحدة الصحية.. لكن الطبيب يؤكد أنه يقوم بدوره.. الحسيني مريض بالقلب ومروان يعرف ذلك، وأي عنف معه سيكون معناه القتل.. وأمام كلام الطبيب واستعطاف حورية لا يجد صقر سوى إلغاء فرماناته السابقة.

ونعود إلى غرفة الحجز.. عزب يبدو منتشيا بفريسته التي سينقض عليها ويجهز لذلك، بينما يحاول مروان منعه مهددا إياه بأنه سيلغ النيابة عنه وسيشهد ضده، ولكن عزب لا يعرف إلا كلمة واحدة: "أنا عبد المأمور".. إنه مجرد آلة لا عقل لها.. آلة تتحرك بالـ"ريموت كنترول".. هكذا يراه الحسيني.. ويهم الحسيني ببدء فاصل التعذيب الذي ينتظره على أحر من الجمر، ولكن مروان يحاول التصدي له.. وتؤكد الآلة السادية أن مروان هنا ما هو إلا حبيس هو الآخر، وليس ابن العمدة.. هذا يعني أنه يمكنه أن يفعل به ما يريد.. وفي هذه اللحظة تهاجم الأزمة الحسيني فيطلب تناول الدواء.. ويستجيب عزب فالحكوم عليه بالإعدام من حقه أن يطلب الطلب الأخير.

ويصل فرمان العمدة الجديد عبر السبائطي.. العمدة يقرر إطلاق سراحهما.. الخبر ينزل على عزب كالصاعقة.. لن يهنأ بفريسته التي كان يجهز نفسه لها.. أفسد العمدة ليلته التي كان يمني النفس بها.. ويؤكدها الحسيني بكلماته، لقد ضاعت على عزب سهرة ممتعة.. عكاشة يقدم لنا جزءا أصيلا من السلطة الغاشمة.. إنها لا تستطيع أبدا أن توجد وأن تتحكم دون عزب.. إنها تحتاج إلى هذا الجلال السادي المتعطش للتعذيب.. تحتاج دوما ذلك الذي رضع من لبن الذئاب!!

ويخرج مروان والحسيني.. يخرجان ليجدا ذلك الظلام الدامس يحيط بهما من كل جانب.. تتعلق اليد باليد.. وفجأة يدوي صوت الرصاصة.. ومعها صوت مروان متألما ليرد الحسيني عليه مناديا: "مروان".. لقد أصيب مروان إذن.. ولكن من ضربه؟ من الذي أطلق الرصاص؟ هل هو عيار طائش أيضا؟ الأعيرة الطائشة كثيرة في هذه القرية.. الأعيرة الطائشة تحيط بالجميع.. يمكنها أن تصيب الكل.. في الماضي وفي الحاضر.. وربما في المستقبل.. ليستمر الحريق..

وتنتهي حلقتنا الرابعة وقد قدم فيها عكاشة فاصلا من التفاصيل

التي تتسم بها السلطة الغاشمة.. دروس يقدمها العمدة وينفذها..
وقوة لا يقف أمامها أحد مهما كان.. وعناصر لا يمكن الاستغناء عنها
لتكتمل الصورة، عناصر تمثل الأيدي التي تضرب بها هذه السلطة..
وخوف يزرع في كل القلوب.. هكذا تملك السلطة أدواتها لتحكم
السيطرة على الجميع، وتجعل الكل كتيبة من الصامتين.

شعلة الحديث.. وناهش الأعراض وصائنها

ومن جديد نعود للسؤال ذاته.. ما هذا الزمن الذي نجد أنفسنا فيه مع بداية كل حلقة؟ إنه الزمان الذي يشتعل فيه الحريق.. زمان آخر يتكلم فيه الجميع.. ليس زمان الصامتين.. نجد أنفسنا أمام الحاجة آمنة أم مروان.. تحاول أن تتكلم.. تحاول مرة بعد مرة.. تنجح أخيراً.. تريد مروان.. تناديه بكل قوتها.. تدق الأبواب المغلقة.. تريد هم أن يذهبوا بها إليه.. يسمعها البصاصون المحيطون بالكل.. تنادي بكل قوتها: "عمك يا مروان.. افتح يا صقر.. أخوك يا صقر.. ارجع يا صادق".. لقد تكلمت آمنة.. فتحت أبواب الماضي بكل قوة.. صرخت بأعلى صوتها.. ولكن كيف يعود صادق؟ ولماذا تقول "أخوك يا صقر"؟ سنعرف الإجابة حتماً فقد نطقت آمنة ولن تعود للسكوت ثانية.

ويصل الخبر إلى صقر.. حوله زبائنه كالعادة.. تظهر الصدمة على العمدة وهو يخبر السنباطي بأن أم مروان قد نطقت.. سيتجرأ الكل على الحديث بعد أن نطقت الخرساء.. وتفهم من إشارات العمدة وكلمات السنباطي لعزب أن مؤامرة ما تحاك.. يأتي ذكر حشاد.. ويظهر حشاد بالفعل ممسكاً بيد أم مروان صديقه.. ما زالت تنادي ابنها، وها هو يعدها بالذهاب إليه.. ويقودها حشاد وسط دروب القرية المشتعلة.. ويسلمها إلى عزب الذي يؤكد أن مروان في هذا البيت.. يفتح الباب ويدفعها داخله ثم يغلق الباب.. يلقيها وسط النيران.. تسكت مجدداً ولكن دون عودة للحديث مرة أخرى.. تسكت للأبد.. فمن ينطق لا بد أن يموت.. هذا هو قانون السلطة.. وترى حورية المشهد كله..

ويراه آخرون.. ولكنهم لا يستطيعون التدخل وسط الحريق.

ويظهر السنباطي مطالباً رجاله بإرسال إشارة إلى البندر لإرسال قوات الإطفاء.. إشارة متأخرة كثيراً، فقد أكلت النار القرية كلها.. وتصل قوات الإطفاء لكن بعد فوات الأوان.. مروان يتساءل عن السبب في تأخير الإبلاغ.. ما زال مروان يحمل القلب الساذج ذاته.. ويبدى خوفه من أن تصل النار إلى "المنزل".. إلى مقر الحكم.. ولكن رشاد يوضح له أن مقر الحكم بعيد عن النيران.. وهل تجرؤ التيران على الوصول إلى مقر السلطة والسلطان؟!

وننتقل إلى حورية وصباح الواقفتين على أطلال القرية.. لقد أكلت النيران البيوت جميعها.. حولت القرية إلى دمار.. دمرتها نار الظلم والطغيان.. النار القديمة التي اشتعلت منذ زمن ورآها الجميع لكنهم سكتوا وأهملوها.. حورية ترى أن ذلك ربما يكون دافعاً لأن يعاد البناء من جديد، فالنيران كما تحرق تطهر.. والحلوانية يجب أن تبنى "على نظافة".. يقدم لنا عكاشة هذه الفكرة، فبلاد الظلم ليست في حاجة إلى ترميم أو ترقيع.. لا حل سوى الهدم.. الهدم والهدم والهدم.. هدم الفساد حتى النهاية، ثم إعادة البناء.. ولكنه بناء لا يهدم ثانية، يزينه العدل ولا يلوثه الظلم.. إنها الثورة التي تطيح بكل شيء لتعيد بناء مجتمع طاهر نظيف يقوم على العدل والحق والحرية.

ولكن متى يحدث ذلك؟ نفكر في هذا السؤال ونحن نردد أغنية التتر التي تبدأ معلنة استمرار الحكاية.. حكايتنا التي توقفت عند العيار الطائش الذي أصاب مروان.. يقوم العمدة من نومه مفزوعاً على ذلك الخبر.. يوقظه السنباطي.. ضارب العيار الطائش أحد رجال السنباطي.. لم يكن القرار من العمدة هذه المرة.. كان من السنباطي وكان المقصود هو الحسيني، ولكن العيار طاش في الظلام ليصيب ابن العمدة.. العمدة الذي يتوعد الجميع فداءً لمروان، الذي يرقد الآن في الوحدة، وأن السنباطي يؤكد أن الجميع فداءً لمروان، الذي يرقد الآن في الوحدة، وأن

الطبيب يستخرج له الرصاصة وسيكون بصحة جيدة.

وفي الوحدة كان الدمرداش يواصل كذب السلطة.. كان يكيل الاتهامات إلى الحسيني.. يتهمة بأنه من أطلق النيران على مروان.. ولكن الحسيني ينفي ذلك فلم يكن معه سلاح، وقد كان في محبسه مع مروان، وبمجرد حدوثها حدث ما حدث.. ويستمر الدمرداش في أكاذيبه، فليس بالضرورة أن يكون الحسيني من ضرب مروان بنفسه، ولكنه يعرف من ضربه.. من يقفون وراء الحسيني هم من أطلقوا النار على مروان. وهنا يكشف الحسيني الستار.. يتحدث وهو الذي لا يعرف الصمت.. ف"العملية منكم فيكم وده اللي هاقوله قدام البوليس والنيابة".. ويواصل الدمرداش مسيرته متوعدا الحسيني.

ويصل العمدة ليسأل عن ابنه مروان الذي كان الطبيب يستخرج له الرصاصة.. يجد الحسيني أمامه، فيوجه الحديث إليه: "جيت وجبت الخراب في رجليك؟".. يسأله العمدة عن سبب عودته إلى القرية.. ويحجب الحسيني بأنه عاد إلى بلده وأهله وناسه.. ويرد العمدة بأن هذه ليست قريته ولا هو عمه.. فيعاجله الحسيني بالسؤال: "إنت هتفضل مش مصدقني لإمتى؟".. لن يصدقه أبدا.. هكذا يؤكد العمدة.. ويتدخل شيخ البلد معلنا أنه سيتحفظ على الحسيني، قائلاً إنهم سيواصلون التحقيق معه، حتى يعرفوا من خلفه.. مازالوا يواصلون اللعبة.. يكذبون الكذبة ويصدقونها.. ولكن العمدة يأمرهم بعدم التدخل وأنه سيتولى الأمر كله هذه المرة.. ويطلب من الحسيني الانصراف على أن يأتيه في الصباح.. ولكن الحسيني يرفض الانصراف قبل أن يطمئن على مروان.. ويظهر الطبيب معلنا أنه بحاجة إلى دماء.

ومن الطبيب ينتقل بنا عكاشة إلى ميلم، الذي يسير في دروب القرية مردداً: "طاش العيار".. نعم.. إنه العيار الطائش نفسه.. قتل العمدة القديم منذ زمن، وها هو يصيب ابن العمدة اليوم.. أعيرة طائشة أشعلت النار.. وتستمر النيران في الاشتعال. وتصل كلمات ميلم

إلى مسامع سسبان.. وتوقظ حورية من نومها.. الكل ينتفض على كلمات ميلم وصرخاته التي تدوي في كل مكان.. يدور في الشوارع وهو يندق على طبلته وكأنه المسحراق.. ولم لا؟ ألا يريد إيقاظ الجميع من غفوتهم التي طالت؟ ألا يريد منهم الاستيقاظ والتنبه؟ ألا يريد منهم أن يتوقفوا عن النوم؟

وتحاصر حورية سسبان بالأسئلة.. هل ضرب مروان بالنار؟ ماذا حدث له؟ من هؤلاء الذين أصابوه؟ ولكن سسبان لم يكن عندها إجابة.. إنها سمعت ميلم كما سمعته حورية.. لا أحد منهما يعرف ماذا حدث.. وتنطلق حورية في اتجاه الوحدة الصحية، بينما يواجه ميلم سسبان فاتحاً أبواب الماضي.. فقد طاش العيار ليصيب مروان كما أصاب عمه.. يطلب منها أن تضم مروان في حضنها كما فعلت مع أخيها من قبل.. ولا تتحمل سسبان ذلك فتطلب منه السكوت محاولة إغلاق الأبواب التي فتحها.. تطلب منه السكوت وإلا شردته وأخرجته من القرية كلها.. ولكن ميلم لا يعرف السكوت، ويذكرها بأنه من يشفق عليها ويحمل الحمل معها طوال هذه السنين التي مضت.. لقد أصبح العيار عيارين.. والعيار الثالث مختبئ في ماسورة سوداء يستعد للانطلاق في ليلة مظلمة.

وتطلب سسبان منه السكوت مرة ثانية.. ولكن هل ينفع السكوت؟ إلى متى ستظل الأفواه مغلقة بلا حديث.. كانت هذه كلمات ميلم الصادقة.. لقد ظل الجميع صامتين، ولكن إلى متى؟ لقد زحفت النيران على الجميع وستصل إلى الرؤوس.. يعلنها ميلم صريحة، فلو تحرك الكل بعد العيار الأول ما كنا سمعنا الثاني، ولو تحرك الكل الآن فلن نسمع الثالث.. يحرض ميلم ومن خلفه عكاشة على التحرك.. على التكلم والوقوف في وجه الظلم.. يحرض على الثورة.

وتحاول سسبان الهروب من كلمات ميلم: "أنا مش ناقصة جنانك

ده“.. ولكنه يرد قائلا: ”جناني أحسن لي من لسان مقطوع.. وعينين تشوف الحق وتغمض عليه“.. نعم يا سسبان.. لقد صدق ميلم فما ترونيه جنونا أفضل من الصمت.. أن يتكلم ويحسبه الجميع مجذوبا أفضل من أن يظل مثل غيره من سكان قرية الصامتين.

لقد رأى ميلم الليلة ما حدث في الماضي.. العيار الطائش من جديد.. كان موجهها لصدر الحسيني فأصاب ابن عمه.. هنا تدرك سسبان فقط أن المقصود كان الحسيني.. تعرف أن العيار الطائش الذي قتل أباه كان موجهها هذه المرة إليه.. إلى الحسيني.. الحسيني كان المقصود.. اليد التي أطلقت الرصاص كانت تقصده، والعين التي رأت الغدر لم تر غيره.. هنا تطلب منه سسبان فيما يشبه الهذيان أن يتركها.. ويلبي ميلم الطلب، بعد أن يؤكد لها أن السكوت لم يعد له مكان، وأنها إن سكنت فسيتكلم هو.. ولكن ماذا سيقول ميلم أكثر مما قال؟ وهل سيسمعه أهل الحلوانية هذه المرة؟ وإن سمعوه فهل سيفهمونه؟ وإن فهموه فهل سيتركون الصمت؟ هل سيتكلمون؟

ونعود إلى الوحدة الصحية.. لا أحد يملك فصيلة دم مروان إلا الحسيني.. حتى والده لا يملك فصيلة الدم ذاتها.. الحسيني مريض وقد يعرضه ذلك لخطر بالغ.. ولكن لا حل سوى المخاطرة، خصوصا في ظل حرص الحسيني ذاته على إنقاذ مروان، وسط ذهول العمدة.. بدا الحسيني مضجعا بنفسه من أجل ابن عمه مروان.. ويدور الحديث داخل صقر، فهذا دليل جديد على صدق الحسيني، ولكن هل كان في حاجة لدليل؟ إنه يعرف الحقيقة من أول لحظة.. من أول نظرة في عينيه وهو يعرف أن الحسيني هو ابن أخيه.. ابن العمدة صادق عوف الحلواني.

وتصل حورية إلى الوحدة الصحية.. ويخبرها حشاد بأنهم سيأخذون دما من الحسيني.. تنتفض حورية فهي تعرف خطورة ذلك.. تخاف على أخيها قدر خوفها على حبيبها.. مستعدة هي للتضحية بذاتها

ولكنها لا تقبل أن تضحي بأخيها.. ويطمئنها الطبيب فقد أخذ جميع الاحتياطات اللازمة، كما أنه لا يعرف فصيلة دمها.. ويرد الحسيني نفسه مؤكدا لها أنه سيكون بخير.. كل الظروف كانت تحكم أن يجري دم الحسيني في عروق مروان.. وتصل سسبان وتحاول تهدئة حورية التي لا تستطيع تصور فكرة فقد أحدهما.. الحبيبان في خطر.

ويأتي الشيطان السنباطي ليصب وسوسته في أذن العمدة.. ماذا لو أخذ الطبيب كمية زائدة من دم الحسيني، فتكون نهايته ويتخلص منه الجميع.. وهنا يظهر الإنسان داخل صقر.. عكاشة رغم كل شيء يصنع شخوصه من لحم ودم، فهم بشر في النهاية.. ربما يكون الشر غالبا أو الخير، ولكنهم في النهاية بشر يحملون الخير والشر معا في آن واحد.. وها هو العمدة نراه واحدا من البشر.. يملك شعورا وأحاسيس وإن غلفتها القسوة والقوة. ويثور صقر على السنباطي.. ألهذه الدرجة وصلت نفسه السوداء؟ يتعجب صقر من سواد نفس تابعه ورجله.. ويبدأ العمدة في تذكره بأنه سبب كل ما حدث، فهو صاحب أمر العيار الطائش الذي خرج من بندقية أحد رجاله، ولكن هذا ليس وقت الحساب.

ويخرج الحسيني من غرفة العمليات.. الإرهاق يبدو عليه.. يسنده الخفر.. الخفر الذين كانوا يريدون قتله منذ وقت قليل هم من يقدمون له المساعدة الآن.. لقد انتصر دمه الذي جرى في عروق مروان عليهم، وها هو السنباطي يخبرهم بفرمان العمدة الجديد.. عليهم أن يقوموا بتوصيل الحسيني إلى بيت أبيه، وألا يتعرض أحدهم له بسوء.. سيدخل الحسيني بيت أبيه محاطا بالخفر.. خرج منه محاطا بهم مقبوضا عليه، ويعود إليه محميا بهم.. يعود بأمر العمدة هذه المرة.. ولكن ألن يفتح أبواب الماضي المغلقة؟

تبدأ رحلة فتح الأبواب مع الحسيني بتذكره كلمات والدته الأخيرة.. "روح يا حسيني.. افتح بيت أبوك الي عمري ما شفته

ولا دخلته.. نام على سرير.. وقول لهم أنا ابن صادق الحلواني.. عمدتكم الي ضيعت دم هدر.. لقد فعل.. قالها ورفع بها الصوت، وها هو الآن في بيت أبيه.. وسينام على سرير.. ولكن هل انتهت الرحلة؟ إنها فقط مجرد البداية.

ويدق باب بيت صادق الحلواني.. ويفتح ابنه الحسيني الباب.. مهمته فتح كل الأبواب.. كانت على الباب حورية.. ها هي الأخت تنضم إل أخيها في بيت أبيهما.. جاءت حورية للاطمئنان عليه في هذا الوقت المتأخر من الليل.. لم تستطع الانتظار إلى الصباح.. جاءت محضرة له الطعام، فهو في حاجة إليه بعد ما قدمه من دمائه إلى مروان قربانا للمحبة والأخوة..

وننتقل إلى بيت سسبان لنجدها بصحبة العمدة.. يسألها كيف تركت حورية تخرج في هذا الوقت من الليل؟ ولكنها لم تستطع منعها.. وهل هناك من يمنع العنيدة ورثة العنيد؟ وشعر صقر بأن الدائرة قد أغلقت عليه.. لم يعد يستطيع إنكار الحسيني بعد الآن.. لم يعد للكذبة مجال.. لم يعد يصدقها هو فكيف سيصدقها الناس؟ لن يستطيع تفسير وجود الحسيني في بيت أبيه.. لن يستطيع تفسير وجود حورية معه هناك.. وفوق كل ذلك لن يستطيع أن ينكر الدم الذي يجري في عروق ولده وكان سببا في إنقاذه.

وتؤكدها سسبان، فلم يغلبها عناد حورية هذه المرة.. ولكنها رأت أن معها الحق.. لم يكن مقبولا أن تترك أخيها دون طعام بعد كل ما حدث.. وتضعق الكلمة "أخوها" العمدة.. كان هذا هو الاعتراف الأول من سسبان.. ولكن هل سيخرج هذا الاعتراف إلى النور أم سيبقى حبيس الغرف المغلقة؟ لقد صدقت سسبان الحسيني كما يصدقها العمدة نفسه مهما حاول من إنكار.. كان الدليل الأول عند سسبان هو عينا صقر نفسه، فقد رأت فيهما التصديق وهو يأمر خفره باصطحاب الحسيني إلى بيت أبيه.. ويحاول العمدة التبرير بأن

هذا أقل واجب بعد إنقاذه مروان.. ولكن الكذبة لن تصدق هذه المرة، فلم يعد العمدة يصدقها.. لن يصدقها أحد.

انتهى الأمر بالنسبة لسسبان.. الحسين هو ابن أخيها صادق.. عاد إليهم بعد غياب.. ولهذا أعطته مفتاح بيت أبيه، فهذا حقه.. ولكن لن يكون هذا آخر الحقوق.. كان هذا ما أكده صقر.. إنه يخاف أن يجر الحق أخاه.. يطالب الحسيني بكل الحقوق، ووقتها سيتعلم الجميع الكلام.. سيتركون الصمت ويطالبون بالحقوق هم أيضا.. ولكن سسبان تعطي له أمل النجاة من تلك الهواجس التي تطارده، فما سرى على أهل القرية يسري عليه.. سيسري "سلو البلد" عليه.. لم يطلب أحد قبل ذلك حقا له، والعمدة لم يتأخر بعطاياه عن أحد منهم.. فلينضم الحسيني للصف إذن.. صف الصامتين عن الحقوق المنتظرين عطايا العمدة. ولكن هل يقبل الحسيني ذلك وهو من أتى حاملا شعلة الحديث؟

ونعود لبيت صادق.. حورية تقول للحسيني بأنها ستأمر بتوصيل الماء والكهرباء إلى البيت من الغد.. ويسأل الحسيني عن سبب ترتيب البيت.. كيف يكون نظيفا مرتبا بعد كل هذه السنوات؟ إنها عساكر.. كانت حريصة على ذلك من نفسها كما تقول حورية.. كانت تحبه كثيرا.. كان الجميع يحبونه.. كان كريما.. ولكنه كان عنيدا.. كان يسمع الناس ويشاورهم، ولكنه إن ملك الرأي فلا يغيره أبدا.. ليس هذا غريبا يا حورية.. يبدو أن العائلة كلها كذلك.. كلهم ورثوا العناد وأورثوه.

ويتسامر الأخوان ويتضحكان تحت سقف بيت أبيهما لأول مرة.. تطلب منه حورية بأن يعاهدها على البقاء معها دوما.. ويعاهدها الحسيني بأنه سيظل معها حتى الموت.. يشعر الحسيني بقرب الموعد ويشير إلى ذلك كثيرا.. لكن حورية تكره الموت.. تكره الفقد.. فقدت أباه وأُمها.. وفقدت أخاها الحسيني طيلة عمرهما.. كان هذا هو أول

لقاء وتريدته لقاء لا فقد بعده.. وتطلب حورية منه أن تعيش معه في بيت أبيهما، لكن الحسيني يرفض ذلك، فهو لا يخاف الوحدة ويعرف خدمة نفسه جيدا، كما أن العمة سسبان ستحزن إذا ما حدث ذلك، وأخيرا فإن حورية لن تستطيع الإقامة معه إلا بعد اعتراف العمدة به.. كان ذلك كلام الحسيني، لكن سببا آخر كان مسكوتا عنه.. كان هناك سبب آخر لا نعرفه.. ربما يكون حرصه على أن يكون وحيدا وهو يفتح الأبواب المغلقة.

ونذهب إلى بيت العمدة.. إلى تلك الغرفة المغلقة التي تقيم فيها الحاجة آمنة.. عرفت أم مروان بخبر إصابة ابنها.. يتساءل صقر كيف عرفت.. يطمئنهما عليه فقد أجرى له الطبيب عملية جراحية واستخرج منه الرصاصة. وتساءل آمنة عن الذي ضرب ابنها، فيرد العمدة فاتحا قلبه، فلا خوف من آمنة، وهي الصامتة الخرساء.. يؤكد لها أن السنباطي أراد أن يجامله بقتل الحسيني، فأمر أحد رجاله بذلك، ولكن العيار طاش وأصاب ابنهما مروان.. سيعاقبهم أشد عقاب.. كان سيعاقبهم أيضا لو أصاب العيار الحسيني، فهو لن يسمح لأحد بالتصرف دون أخذ الأمر منه.. كما أنه ليس بلطجيا أو قاطع طريق.. إنه عمدة هذه القرية، ومهمته خدمتها.. صحيح أنه يقسو أحيانا لكن ذلك من أجل الحلوانية كلها والحفاظ عليها.. يدخل العمدة في "مونولوج" طويل.. يتحدث مع نفسه دون خوف.. يحدثها بما يصدق أو يريد تصديقه.. هنا لا يخشى من أحد، فلا أحد هنا يمكنه أن يتكلم.

وتبدو آمنة غاضبة من العمدة.. لا تريد النظر إليه.. ويشعر هو بذلك.. يقول لها بأنه يعرف أنها لا تريد أن تراه.. ولكن كيف تراه؟ هنا يكشف لنا عكاشة عن شيء جديد، فآمنة الخرساء ذات الأعين المفتوحة كانت عمياء أيضا.. هي لا ترى ولا تتكلم.. وماذا بقي لها إذن غير الأذنين لتسمع بهما هذا الكلام الذي يقوله صقر؟ ويطلب

صقر منها أن تتحمله، فهو لا يبيت معها إلا مرة في الأسبوع.. إنه حق الله، وهو عادل، فهو لا يذهب كذلك إلى درية إلا مرة في الأسبوع.. هنا يكشف لنا أخيراً عن ماهية درية.. إنها زوجة العمدة في الخفاء.. تلك الزوجة التي تقيم في المدينة بعيداً عن أعين القرية كلها.. لم يرد أن يأتي بها إلى البيت احتراماً لآمنة.. هكذا يقول لها.. ولكن هل تصدقه هي؟ إنه لن يهتم بذلك، فهل يهتم صقر بمن لا ترى ولا تتكلم؟!!

ويأتي النداء إلى العمدة بأن السنباطي ومعه أبو الوفا -صاحب العيار الطائش- في انتظاره.. ويترك آمنة طالبا أن تدعو لنفسها بالرحمة.. لقد تقطعت كل أواصر العلاقة بينهما.. ويترك العمدة غرفتها لتنفيذ العقاب.. عقاب صاحب العيار الطائش.

ويجد العمدة السنباطي في انتظاره وحده.. أبو الوفا لم يكن المخطئ، فهو عبد المأمور والخطأ خطأ السنباطي.. هكذا أكد السنباطي ذاته للعمدة، الذي أكد معرفته بذلك.

ويدخل أبو الوفا راکعاً متوسلاً للعمدة طالبا منه السماح، ولكن هل يعرف العمدة الغفران؟ إنه لا يعرفه إلا مع حورية.. ولكن مع هذا الخفير لن يكون هناك رحمة.. يجب أن يكون عبرة للجميع.. ويبدأ التحقيق.. كيف أخطأ أبو الوفا.. الإجابة أنه اهتز بسبب مرور نمس بجوار قدميه.. وهل يخاف النمس من يمسه الذئب حياً من رقبته؟ كان هذا سؤال العمدة، وكانت هذه هي نوعية رجاله.. رجال لا يخافون الذئب.. ويؤكد أبو الوفا أنه لم يخف وإنما اهتز فقط.. ويعاجله العمدة بلطمة على وجهه طالبا منه الاعتراف على من دفعه على ارتكاب فعلته.. ما هذا يا صقر؟ أنت تعلم جيداً من دفعه.. تعلم أنه ينفذ أمر رجلك السنباطي.. ولكن يبدو أن كذبة قادمة في الطريق، وقد بدأ العمدة في تصديقها ليصدقها الجميع.. ويسأل صقر السنباطي عن عدد العمليات التي نفذها أبو الوفا في الظلام.. الإجابة

أن العمليات كثيرة.. يسأله عن نسبة الخطأ، فتأتي الإجابة أنها صفر.. لم يخطئ أبو الوفا أبدا.. هذا دليل إذن على أنه تعمد إصابة مروان.. إن العمدة يجمع الأدلة على كذبتة التي يريد بها أن تكون حقيقة، ولهذا يأمر بأن يسلم المتهم إلى عزب.. الجلاد المتعطش للدماء.

ويأخذ السنباطي رجله.. ويستعطفه أبو الوفا، فقد نفذ أوامره هو.. أخطأ نعم ولكنه لا يستحق مثل هذا العقاب.. لا يستحق أن يقدم وليمة لعزب.. لا يستحق ذلك وهو الخادم المطيع لهم دوما.. لم يعص أمرا ولم يرفض طلبا.. قضى عمره كله وسط الدم.. لم يعرف طعم النوم يوما.. ويغضب السنباطي من حديثه.. كان يأخذ مقابلا لكل ذلك.. وهو لا يحب أن يسمع مثل هذه النغمة ثانية.. لقد تكلم أبو الوفا، والسنباطي لم يتعود على الكلام.. عاش لا يعرف إلا الصمت.. ولهذا يحب أن يسكت أبو الوفا، ولن يسكت إلا على يدي عزب.. ويقدمه السنباطي وليمة له.

ويذهب بنا عكاشة إلى مقهى عزازي.. الدمرداش يدخل المقهى.. يتعجب عزازي من زيارته.. لم يكن من المعتاد جلوسه على مقهى عزازي.. كان دائم الجلوس عند أيوب الخضري.. ولكن الدمرداش جاء لسبب آخر.. يسأل عن وطنية، فيرد عزازي متسائلا عن السبب.. ويوضح له الدمرداش أنه يعرف أنها غاضبة منه وأن السنباطي يتعرض دوما لها، وأنه يريد لها أن تعمل في بيته خادمة لتساعد أهل داره ووقتها لن يستطيع أحد التعرض لها.. ولكن عزازي يرفض ذلك مؤكدا أن زوجته لا تخدم في البيوت، مؤكدا أنه ليس مثل أيوب الخضري في إشارة إلى أنه تاجر أعراض.. بل يصل الأمر بعزازي إلى طرد شيخ البلد من المقهى.. وأمام هذا يلقي شيخ البلد عليه السؤال: "إلا ماشوفتهاش في بيت شيخ الخفر؟".. إنه السؤال الذي ينهش قلب عزازي وينهش عرض وطنية.. كلهم يريدون نهش الفتاة الفقيرة البائسة.. هكذا تبدو وطنيتنا دوما..

الجميع يريد أن ينهشها!!

ويتدخل ميلم.. يأمره بالآ لا يسمع لشيخ البلد، فهو رجل بلا قيمة ولا يعرف شيئاً.. ولكن الشك يدخل قلب عزازي.. لا بد أن الدمرداش يعرف أنها هناك الآن.. في بيت السنباطي.. ولكن ميلم يؤكد له أنها ليست هناك.. "مش وطنية يا عزازي".. هكذا يقول ميلم.. نعم إنها ليست وطنية.. ليست هي من تبيع نفسها.. "مراتك بنت جدعة".. يكمل ميلم مشيراً إلى أن وطنية أقوى من الرجال، مبدياً حزنه لما وصل إليه الحال، فقد أصبح الرجال ضعافاً.. ويحذر ميلم عزازي من الذهاب إلى بيت السنباطي فهناك ستكون نهايته.. وينهش الشك عزازي ثانية.. هي هناك إذن؟ ومرة ثانية يؤكد له ميلم أنها ليست هناك.. يعرف ميلم مكانها.. وهل هناك ما لا يعرفه ميلم؟

ويكشف لنا عكاشة عن مكان وطنية.. كانت في بيت الحناوي.. تقيم مع ابنته صباح.. تبدو وطنية منكسرة حزينة، فهي في النهاية تحب عزازي وترى فيه ظهراً التي تستند إليه.. إنها أحلام البسطاء الذين يعيشون دون أهل ولا سند.. لم يفعل عزازي ما يجعل وطنية تشعر بذلك، ولكن ماذا تفعل وهي الوحيدة التي تعيش بلا أهل ولا عزوة ولا ظهر.. كان عزازي هو أهلها وعزوتها وظهرها.. وها هي تريد أن تعود إليه رغم كل شيء، ولكن صباح تحذرها من ذلك، فعودتها إليه تعني تثبيت التهمة عليها.. إنه لم يسأل عنها.. لم يبحث.. ذلك يعني أن الشك ما زال ينهش قلبه.. ما زال يحاصره، وعودتها إليه تعني ضياع حقها وللأبد. وأمام ذلك ترضخ وطنية، فهي لن تعود إلى عزازي، ولكنها في الوقت ذاته تريد أن يكون لها من يحميها.. يحميها من شيخ الخفر ورجاله.. يحميها حتى من عزازي نفسه.

وتلجأ وطنية إلى كبير الحلوانية.. تلجأ إلى العمدة.. تلجأ إلى ولي نعمة كل الذئاب التي تحرشت بها ربما تجده عنده الحماية.. ما زال البسطاء يرون فيه الحامي والمنقذ، وهو قائد آكلي الحقوق.. ما زالوا يرون

العيب فيمن حوله، أما هو فلا عيب فيه، وكأن من حوله هؤلاء أتوا من الفضاء.. وكأنه لم يخترهم.. وكأنهم لا يمثلونه ولا ينفذون سياساته ولا يارسون ما يريد لهم أن يمارسوه.. اغتصاب الأرض لا يقل عن اغتصاب العرض، ولكن "الغلبة" لا يفهمون، أو يفهمون ولكنهم لا يجدون سيلا سوى اللجوء إلى الأقوى في مواجهة القوي.

تلجأ وطنية إلى العمدة شاكية شيخ الخفر وزوجها عزازي.. ويستجيب العمدة ويعلمها للسبباطي، فمن اليوم أصبحت وطنية في حماه هو.. ويستدعي عزازي، ولكن مع عزازي يستدعي كل رجال القرية، كما يطلب من السبباطي أن يرسل خفيرا خاصا إلى الحناوي ليأتي به.. أكل هذا من أجل وطنية؟ كل هذا من أجل تلقين عزازي الدرس؟ أم أن هناك أمرا آخر يدبر بليل؟

ويذهب بنا عكاشة للاطمئنان على مروان.. ها هو قد أفاق من غيبوبته.. حورية والحسيني في زيارته.. لقد عرف مكانته عندهما.. تؤكد له حورية أنها مستعدة الآن لإتمام الزواج، فقد عاد الحسيني أخوها، وسيحضر الزفاف.. عاد الحسيني ليعيد الحياة لمروان.. هكذا يقول المحب الحالم، ولكن الحسيني يرى العكس، فلم يصب مروان إلا لأنه كان إلى جواره.. تصدم الحقيقة حورية ومروان، ولكن الحسيني يطلب منهما عدم الانشغال بالتفكير في هذا الأمر فكل شيء سيظهر والحقيقة ستكشف.. ويراها فلديه موعد مع العمدة.. أو مع عمه صقر كما يقول مروان.. ولكن الحسيني لن يقوها إلا إذا اعترف به كما اعترفا بها.. وينطلق الحسيني إلى هناك؛ حيث جمع العمدة أهل القرية كلهم من أجل وطنية!!

ويصل الحسيني إلى دار الحكم.. تفتح اليوم للناس.. يندس وسطهم في ركن بعيد ليشاهد ذلك العرض الذي سيقدمه العمدة.. ويبدأ العرض.. العمدة يوجه اللوم لعزازي، متسائلا عن سبب إغضابه زوجته وطنية، ويرد عزازي بأنها "وذة شيطان"، فيطلب منه العمدة

أن يطيب خاطرها وأن يعتذر لها أمام الجميع، ولكن عزازي يطلب معرفة المكان الذي كانت فيه، فيرد الحناوي بأنها كانت في بيته مع بنته.. ويغضب العمدة، فلماذا لم تلجأ إلى بيته هو؟ يغضب العمدة نعم، ولكنه في النهاية حماها من شيخ خفره وأعاد لها حقها أمام الجميع.. هكذا يكون العمدة حامي حمى القرية والمسئول عن أرضها وعرضها.

ويستوقف أيوب الخضري عزازي ووطنية قبل أن ينصرفا.. يتهمهما بأنهم يسرقان زبائنه ويحرضانهم عليه.. ولكن العمدة المحافظ على حقوق البسطاء يدافع عنهما، فزبائن الخضري غير زبائن عزازي وزوجته.. زبائن الخضري هم أعيان البلد، ويسهرون عنده ليل نهار.. زبائن عزازي إذن هم بسطاء القرية.. مقهى عزازي هو مقر "الغلاية" من أهل القرية.

ويعلن الحناوي تدمره من المجلس.. أفلاًجل عزازي ووطنية، ولأجل خلافهما مع الخضري جمعهم العمدة إلى مقر الحكم؟ يستشعر الحناوي أن أمرا جللا في الطريق، فليس من المعقول أن يكون هذا هو السبب الذي من أجله جمع العمدة أهل القرية.. ويرد العمدة؛ ولم لا؟ إن الحناوي يشيع في البلد أن العمدة لا يستشير أحدا، وها هو يجمع الجميع.. ولكن الحناوي يعود مجددا لإظهار اعتراضه، فهذه ليست جلسة استشارة وإنما "فرجة".. لقد جمعهم العمدة من أجل مشاهدة العرض الذي يريد تقديمه.. عرفها الحناوي كما عرفناها نحن من البداية، ولكنه لم يصبر للنهاية لمشاهدة العرض كاملا.

ويبدأ العرض الحقيقي.. لقد عرف العمدة من أطلق الرصاص على ابنه مروان.. ويدخل المتهم.. الخفير أبو الوفا.. صاحب العيار الطائش.. يدخل إلى العرض وعلامات سهرته مع عزب ظاهرة على وجهه.. لقد تم التحقيق معه وها هو يعلن اعترافاته أمام الجميع. ويبدأ أبو الوفا في إلقاء اعترافاته.. أبو الوفا هو من أطلق الرصاص

على مروان.. كان يقصده هو دون غيره.. كان مدفوعا على ذلك.. ولكن من الذي دفعه؟ من الذي طلب منه قتل مروان؟ إنه الحناوي.. ولكن لم؟ ما السبب الذي يدفع الحناوي لقتل مروان؟ وتأني الإجابة صاعقة.. تندفع الكلمات من صاحب العيار الطائش.. لقد وعد مروان ابنة الحناوي بالزواج، ولكنه أخذ منها ما أراد وتركها ليتزوج من حورية.. تنزل الكلمات مدوية فتصيب الحناوي في مقتل.. لقد هتك صائن الأعراض وحاميه عرضة وعرض ابنته.. حفظ عرض وطنية ونهش عرض صباح.. ولا يملك الحناوي إلا ترك العرض، الذي لم يكن إلا لنهش عرضه، والانصراف لاجئا إلى الله فهو حسبه ووكيله.

ولا يتوقف العرض.. يستمر صائن الأعراض وناهشها في عرضه مؤكدا أنه كان يستطيع أن يقدم الحناوي للمحاكمة، ولكن "سلو الحلوانية" هو تسوية الأمور داخلها.. ويسامح العمدة -الذي لا يعرف الغفران- في حقه وحق ابنه.. ويظهر صوت الشيخ وهبة: "إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا"، وأبو الوفا فاسق سيئ السمعة.. هنا يختم العمدة عرضه، فهو يوافق على كلام الشيخ وهبة، ويطلبه بالتبين.. يطلبه بالبحث عن الحقيقة.. وقبل ختام العرض يخرج الحسيني من الركن الذي كان يقف فيه.. يغادر المكان كله.. ولكن إلى أين؟

ويصل الخبر إلى حورية حبيبة مروان وصديقة صباح.. لم يتورع العمدة عن إصاق التهمة بابنه من أجل فضح صباح وإصاق العار بها.. ولكن كيف يفعل العمدة ذلك؟ كيف يسمح للفاسق صاحب العيار الطائش أن يقول ذلك؟ كيف سكنت عن ذلك ولم يقتل ذلك الخسيس؟ كلها أسئلة تخرج من فم حورية موجهة إياها لسببان الصامته.. ما زالت صامته هي.. وما زالت حورية تسأل.. لم تكتشف بعد من هو صائن الأعراض وناهشها.. حامي الأرض والعرض.. لم تعرف بعد كل هذا ورغم كل ما حدث!!

ونعود إلى دار الحكم.. العمدة مع السنباطي يسأل عنه.. هل وجدوه؟ ولكن من هو؟ لا نعرف.. لقد وجدوه نائما في غيط قمح.. من يكون هذا؟ ويأمر العمدة بإدخاله.. كان الحسيني.. لقد ترك العرض قبل نهايته لينام في غيط القمح.. شيء غريب من الحسيني.. لم يتحمل ما رآه، فلجأ إلى الأرض والسماء.. لجأ إلى مكان يستطيع التنفس فيه بعد أن كادت أنفاسه تتوقف..

ويبدأ التحقيق.. لماذا ترك المكان أثناء الحديث؟ والإجابة كما توقعنا، فلم يستطع تحمل ما رآه.. لقد دخل بيت الحناوي وعرف ابنه وابنته ولم ير فيهم إلا كل الخير.. ولكن ماذا يعرف الحسيني عن الحناوي وأهل بيته؟ ماذا يعرف عن الحلوانية وعمدتها؟ كان هذا رد العمدة.. ويأتي الرد من الحسيني بأن عنده النية لمعرفة ما لم يعرفه بعد.. ينوي البقاء في القرية إذن؟ ولماذا يتركها؟ يرد العمدة بأنه لا مكان له فيها.. ولكن السؤال يتجدد مع الحسيني: "وبيت أبويا؟".. فيرد صقرا: "واسع عليك.. ماتقدرش تملاه".. ويستمر الحوار بين صقرا وابن أخيه.. حوار يشبه مباراة الـ"بنج بونج".. صد ورد.. جمل قصيرة حاسمة من الطرفين.. كلاهما يريد توجيه الضربة الحاسمة.

ويحاول العمدة توجيه هذه الضربة مشيرا إلى أن الدم مقابل الدم.. إنه يحفظ له صنيعه مع مروان، وفي مقابل حياة مروان سيعطيه حياته.. يرى العمدة أنه واهب الحياة.. هكذا يكون كل حاكم ظالم يرى في نفسه أنه يحمي ويميت، بينما يرى أصحاب القلوب الطاهرة أن حياتهم ليست في يد أحد.. هكذا يرى الحسيني إذن.. وهكذا كان رده.. ومن هنا تأتي الضربة يا حسين.. الضربة التي تخرج العمدة عن شعوره وتفقد السيطرة على أعصابه، فتخرج منه الكلمة: "أنا نسيت إنك متعلم في البندر.. البندر اللي خسّر أبوك".. لقد نطقها بنفسه.. اعترف لأول مرة بأن الحسيني ابن صادق الحلواني.

ويقتنص الحسيني الفرصة طالبا منه إعلانها للجميع.. ويرد العمدة

أنه أعلنها بالفعل دون أن يشعر.. لقد قالها ليلة أن سمح له بدخول بيت أبيه.. وهل يدخل بيت صادق الحلواني ويبيت فيه إلا ابنه؟ ورغم ذلك يطلب صقر من الحسيني الرحيل.. ولكن ما السبب؟ ألم يعترف به؟ يبادر الحسيني بهذه الأسئلة ونحن معه.. ويأتي الرد من العمدة.. وبماذا ينفع هذا الاعتراف؟ ينفع في الحصول على الميراث؟ إنه سيعطيه كل حقه على أن يرحل.. يريد العمدة ما هو أهم إنه يريد إغلاق أبواب الماضي.. لا يريد أن يترك هذه الأبواب مفتوحة ليرى الماضي شاخصاً أمامه.

وتخرج الكلمة من الحسيني.. الكلمة التي تزلزل العمدة وتشعل غضبه.. يؤكد الحسيني رغبته في البقاء ومباشرة أرضه.. إنها الأرض.. تلك الكلمة التي لا يسمح العمدة لأحد بترديدها.. سيعطيه حقه ما لا ليرحل.. ولكن هل يعطيه حقه في أخته وبلده وأهله واسم أبيه ما لا أيضاً؟ هذا هو طلب الحسيني.. إنه يريد أن يكون الحسيني صادق عوف الحلواني ابن الحلوانية وأهلها.. هذا ما يريده ولن يقبل عنه بديلاً.. ويعلنها العمدة.. إن أراد البقاء فعليه أن يلتزم بقوانين الحلوانية ونظامها.. ويوافق الحسيني.. لكن العمدة يعاجله بالشرط.. الشرط الذي فرضه على الجميع وقبلوا به.. إنه السكوت.

ويقبل الحسيني الشرط.. ولكن هل يستطيع الحسيني صاحب شرارة كلمة الحق أن ينضم إلى قرية الصامتين؟ أن يكون واحداً من الذين يغمضون أعينهم عن كلمة الحق؟ أن يتوقف عن السؤال؟ ولا يستطيع الحسيني مع أول اختبار، فلديه شرط هو الآخر.. ويشعر الحسيني في الحديث عن الحناوي وابنته ولكن العمدة يقاطعه مؤكداً أنه قد خالف الشرط من البداية.. يعرف العمدة جيداً أن مثل الحسيني لا يطيق السكوت.. والكلام فقط هو ما يخيف العمدة ويهزه، ففيه كل الخطر.

ويتنقل بنا عكاشة إلى الحبيبين.. حورية في حضرة مروان.. تخبره

بهذه التهمة الباطلة التي أصابته ونالت من صباح.. يتنفذ الحالم من مكانه متناسيا إصابته وجرحه، فأمام هذا الجرح الذي أصاب الحناوي وابنته يتضاءل كل جرح.. ورغم كل شيء ما زال حسن الطوية يسيطر على الحبيين.. لم يستطيعا بعد إدراك الحقيقة.. رأى مروان النار التي بدأت شرارتها، ولكنه لم ير مشعل النيران.. ولكن ما العمل؟ أظلال هكذا دون أن يتدخلا لإنقاذ من انتهك عرضها، وبدأت الألسنة تلوك سيرتها؟ لقد أخذت الألسنة الصامتة تردد كذبا بلا نهاية..

كذب مالوش نهاية..

عار مالو هوش غاية..

دوارة الرحاية..

تطحن أي واحد..

وتدرك حورية ما يجب أن تفعل.. وتقنع عمته بأن تكون رفيقتها.. وتنطلق بصحبة سسبان في ربوع القرية متجهة إلى بيت الحناوي.. ويتقدمهما ميلم صوت الحق.. يردد الحقيقة دوما.. أبو الوفا كاذب وصباح بريئة شريفة عفيفة وحورية وسسبان في طريقهما لبيت الحناوي.. يحولها ميلم لزفة.. زفة تصل إلى مسامع الكل.. تسكت الألسنة الصامتة عن الحق التي لا تعرف الحديث إلا في الكذب.. وتصل حورية وسسبان إلى بيت الحناوي الذي بدا منكسرا.. تضم سسبان ابنة الحناوي في صدرها مناديه إياها بالطاهرة.. ولكن الحناوي يؤكد أن صوت العمدة أعلى من صوتها.. يعرف صالح أن صوت سسبان لا يخرج أبدا.. يعرف أنها الصامتة دوما.. يعرف أنها اختارت ذلك سبيلا.. ولكن الأمر اختلف الآن.. صحيح أن صوت العمدة ما زال أعلى ولكنها تكلمت.. جاءت لتؤكد مع حورية أن صباح أظهر من في الحلوانية.

ويصل الحسيني.. جاء قاصدا الحناوي في طلب ما.. تبرم سسبان

فهذا ليس وقت طلبات.. ولكن الحناوي يحتضن ابن صادق، متسائلا
عن طلبه، مؤكدا إجابته مهما كان غالبا.. ويفاجئنا الحسيني بطلبه..
لقد جاء طالبا الزواج من صباح!

جاء إلينا صائن الأعراض الحقيقي إذن.. هذا هو الحسيني الذي
يعرف معنى العرض.. يعرف كيف يصونه ولا ينهشه.. يعرف كيف
يعطي الحق لأهله.. يكشف أنه الفارس الذي جاء من بعيد حاملا
شعلة النار التي تظهر.. ويستمر الحريق.

لقد استطاع عكاشة أن يعتمد لعبة أساسية من ألعابه وحيله.. إنها
المفارقة التي تراها واضحة بين ما فعله صقر مع صباح، بل مع ابنه
ذاته، من ناحية، وما فعله الحسيني من ناحية أخرى.. إنها المفارقة
الكاشفة عن حقيقة المعركة.. إنها حرب بين عدد من القيم النبيلة
التي يؤمن بها الحسيني ويحاول نشرها نارا ونورا، ونقيضها مما يشيعه
العمدة في الحلوانية من ظلم وطغيان ونهش في الأرض والأعراض.

المسيرة.. شرارة ثورة

يتخلى عكاشة للمرة الأولى عن البداية التي عهدناها في الحلقات السابقة.. يتخلى عن مشهد النيران المشتعلة ومحاولات إطفائها، فقد خمدت النار في الحلقة الماضية.. أتت على كل شيء.. لم يعد هناك جديد يقال.. تبتقت فقط الأسئلة.. من أشعل الحريق؟ ولماذا؟ ما الزمن الذي تدور فيه هذه الأحداث؟ وسنتظر الإجابة عن كل ذلك فيما هو آت.

ونعود لحكايتنا التي توقفت عند ذلك العرض الذي قدمه الحسيني.. لقد طلب الزواج من صباح شريفة الحلوانية.. ويشكر الحناوي حورية وسسبان على موقفهما.. ويشكر الحسيني مؤكداً أن ابن صادق الحلواني لا بد أن يكون بمثل هذه الشهامة.. لا بد أن يكون من صائني الأعراض.. ويوجه حديثه إلى ابنته صباح طالبا رأيها.. تشكر صباح الحسيني أيضاً ولكنها لا تتزوج شفقة.. ويكمل الحسيني شهادته، فيهم بالقول بأنه يتشرف بذلك، وأنه لم يتقدم لها شفقة، ولكن الحناوي يسكتة قائلاً بأن رأيه من رأي ابنته، وأنه لن ينسى صنيعه ذلك أبداً، ومن اليوم سيكون له والد آخر في الحلوانية.

وتتدخل حورية، فهم لم يفعلوا ما يجب أن يفعل بعد.. وينقلنا عكاشة للفعل مباشرة.. تخرج صباح من منزلها متقدمة سسبان وحورية والحناوي والحسيني.. تنطلق المسيرة في القرية.. تعلو الزغاريد من النساء.. ويبدأ الكل في الانضمام إلى المسيرة.. مظاهرة احتجاجية تقودها حورية وصباح تطوف شوارع القرية.. بدأت شرارة الثورة، والبداية من المرأة.. إنها القادرة على تأجيج نيران ثورة الغضب على

ناهشي الأعراض.. ويعلو صوت وطنية بالغناء محتفية بشرارة الثورة
التي اشتعلت.. تغني مؤكدة طهارة وعفة صباح التي تتحول إلى رمز
لكل نساء الحلوانية.. تغني وطنية لنفسها.. ألم ينهش عرضها ناهشو
الأعراض كما فعلوا مع صباح.. تغني وطنية:

أنا لولية يا ولا..

أنا لولية..

أنا توبي طاهريا ولا..

والعين قوية..

وينضم الرجال للركب.. الجميع يشارك في مظاهرة الغضب.. قالها
مروان.. إنها بداية اشتعال النيران.. اشتعال الثورة.. وتصل أصوات
المظاهرة مصحوبة بالغناء إلى مسامع العمدة في مقر الحكم.. يسأل
العمدة عن ذلك الصوت.. فرح من هذا؟ ولكن العمدة لم يجد إجابة
عند السنباطي.. وتأتي الإجابة سريعة من المشاركين في المظاهرة.. لقد
وصلوا مقر الحكم، وعلى رأسهم حورية.

ويسأل العمدة حورية عن سر تواجدهم.. لقد أتوا جميعا لتقديم
شكوى.. يسألها عن الذي يتقدمون بالشكوى ضده.. ويأتي الرد من
حورية بأنهم أتوا ليقدموا شكوى ضد العمدة.. أتوا جميعا لـ"أبا صقر"
ليأخذ لهم حقهم من العمدة.. مازالت حورية ترى فيه أباهها الذي
رباهها واحتضنها.. تريده أن يقتص لهم من نصفه الثاني.. من ذلك
العمدة الذي ترك الكلاب تنهش عرض شريفة الحلوانية وصبحها
المنير صباح.. لم ينهش عرض صباح فقط، وإنما نهش عرض كل
بناتها ونسائها.. لم يستطع أحد قبل ذلك نهش عرض إحدى نساء
الحلوانية.. كان جميعهن في حماه.. وقد أتين إليه ليعيد إليهن حقهن..
يُردن حقهن من العمدة وثأرن من الخفير أبو الوفا.

ويأتي دور الرجال لكن حورية لن تتكلم عنهم.. ويطلب العمدة

من الحناوي أن يتكلم، ولكن الحناوي يرفض الحديث فلا كلام له مع صقر.. فيطلب من الشيخ وهبة الحديث مشيراً إلى أنه طلب منه التبيين والتحقيق في هذا الأمر وإعلان النتيجة للناس.. ويرد الحناوي موجهاً سؤاله إلى وهبة، فمنذ متى تُكشف الأعراض على التحقيق؟ ويرد الشيخ: "ولا ترموا المحصنات بالغيب".. لقد خالف أبو الوفا شرع الله ولا بد أن يقام عليه الحد.. وتطلب حورية مثوله أمامهم لتنفيذ الحد عليه.

ويطلب العمدة من السنباطي إحضار أبو الوفا، ولكن السنباطي الخبيث يرد بأنه قد رحل إلى النيابة للتحقيق معه وسيعاقب على فعلته.. ويرد الحناوي مفسداً كذبة السنباطي.. إن الحناوي متهم بأنه من طلب منه قتل مروان، وكان يجب أن يُرحل هو الآخر.. ويظهر صوت ثوري جديد.. إنه رشاد الذي يظهر فجأة مؤكداً كلام أبيه، فمن يرتكب جريمة يجب أن يعاقب.. ومن قال كلمة لا بد أن يحاسب عليها.. ولا بد للعمدة أن ينفذ القانون.

ويصرخ العمدة في الجميع.. إنه القانون في القرية ولا أحد له كلمة بعد كلمته.. ومن جديد تعود حورية للتأكيد أنهم لم يأتوا للعمدة وإنما لأبيها صقر.. أتوا لأبي البلد كلها. ويزيد انفعال العمدة فيأمر حورية بأخذ النساء والانصراف.. ويرفض النقاش ثانية في الأمر، فما أرادوه حدث.. الكل يعرف أن ابنة الحناوي شريفة وعفيفة.. ومن خاض في سيرتها سيأخذ جزاءه.. هكذا يحاول العمدة أن يصرف المظاهرة الأولى التي تخرج ضده.. ولكن هل يستطيع أن يمحو تأثيرها؟ لقد خرجت الكلمات لأول مرة من أفواه أهل القرية.. تكلموا أخيراً.. ومن يتكلم مرة لا يسكت أبداً..

وينصرف الجميع، ولا يتبقى إلا الحناوي وابنه رشاد بناءً على طلب العمدة.. وتلقى الأموال على المكتب أمامهم.. ها هو العمدة يغدق عطياه.. ضرب بيده اليسرى، وها هو يمنح باليمنى.. ولكن الحناوي

وولده لا يفهمان سبب المنح.. وهنا يتساءل العمدة، فإذا كانوا لا يفهمون، ولا يريدون أموالا، فلماذا كان حديثهم منذ فترة عن بيع الأرض؟

ويتكلم المفوه رشاد.. لقد أتى من القاهرة بعد معرفته بما حدث لصباح، ولكن من قال إنه لا يحتاج إلى المال؟ إنه في حاجة ماسة إليه، ولكنه لن يقبل أن يأخذه على سبيل الدين أو المنحة، وعند والده أرض لوباع منها فدانا واحدا فسيكفي طلبهم وزيادة.. وكالعادة ومع سماع العمدة كلمة البيع يشتعل غضبه.. لا يريد أن يسمعها ثانية.. أرض الحلوانية لا يباع منها.. أرض الحلوانية تزيد ولا تقل.. هذا هو القانون الذي فرضه صقر، ولا راد لقانونه.

ويأتي الرد من رشاد مجددا.. لن تباع الأرض لغريب، بل ستباع لأحد أبناء القرية.. ولكن مَنْ مِنْ أهل القرية يستطيع أن يشتري أرضا؟ من يستطيع أن يغضب العمدة؟ من يستطيع أن يخالف القانون الذي ورثه العمدة كما يقول، ويشتري أرضا لتوسيع ملكيته والاستقواء بها؟ لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك كله.

وينطق صالح: "كان يا عمدة".. لقد تغير الزمن.. كان هذا قانونهم ويجب أن يتغير.. يجب أن يكون هناك قانون جديد يناسب أهل الحلوانية الآن.. قانون يضعونه هم، ولا يفرض عليهم.. هذا هو ما يجب أن يكون "سلو البلد" الجديد.. إنه "رأي الناس" كما قال صادق الحلواني منذ زمن بعيد.. من ليس له كلمة في أرضه لا يستحقها.. ويرد العمدة: "الله يرحمه صادق كان هيزيع الأرض بحالها.. لكن ربنا ستر".

ويأس العمدة من صالح، فيتوجه إلى رشاد.. صالح يفكر في كلام الماضي الذي كان وما قاله صادق.. ذلك الكلام الذي لا معنى عنه.. كان غائبا عن الوعي آن ذاك، ولكنه عاد إلى عقله الآن.. هكذا يقول

العمدة لرشاد. ولكن هل يختلف كلام رشاد عن كلام العمدة القديم صادق؟ كيف وكلاهما سافر وتعلم وعرف وعاد مدركا معنى الحق؟ ويرد رشاد قائلا بأن أباه كان وما زال وسيظل واعيا.

ويبدأ العمدة في سرد تاريخ الحلوانية، فرشاد المتعلم لا يعرف هذا التاريخ.. لم يتعلمه، وقد آن الأوان لذلك الآن.. آن الأوان أن يعرف كل ما قاله عن قوانين الحلوانية وأعرافها، وأن يعرف أن أباه واحد من عائلة الحلواني، ومن ثم يجب أن يكون محافظا على قوانينها.. يجب أن يعرف كذلك أن جده عندما أراد أن يتزوج جدته جاء إلى عوف الحلواني طالبا المال اللازم للزواج.. لم يكن وقتها يتسول أو يستدين وإنما جاء ليأخذ دفعة من إيراد أرضه كما يفعل هو الآن، وكل قرش يقيد ويسجل في الدفاتر لحفظ الحقوق.. ولكن من يسجل الحسابات في الدفاتر؟ كان هذا هو السؤال الذي خرج من رشاد.

وجاءت الإجابة من صقر: "أنا".. ومن جديد يعود رشاد لتأكيد أن هذا النظام أصبح قديما ولم يعد ممكنا.. ولكن العمدة يتفعل ثانية مشيرا إلى أن هذا هو النظام الذي كان وسيظل دوما، ولا أحد يستطيع الخروج عليه.. ويرسل العمدة الرسالة إلى الحناوي وولده.. لقد رأيتم ماذا يمكن أن يحدث لمن يفكر في تغيير هذا النظام.. من يفكر في الخروج عليه لا يمان له عرض أو شرف ولا يعيش في أمان.. لقد وصلت الرسالة يا صقر.. وصلت رسالة التهديد والوعيد إلى الجميع.

ويستمر العمدة في ألعاب السلطة.. يضرب بيد ويربت بالأخرى.. ويبدأ بالتربيت، ملقيا السؤال على رشاد: إذا كان بإمكانه الحصول على المال الذي يريده بسهولة فلماذا يدفع أباه على بيع الأرض التي ستكون أرضه بعد وفاة أبيه؟ وتأتي الإجابة لا تلين: "المبدأ".. إنه الحق في أن يتصرف كل شخص في ماله وأرضه وحقه بحرية.. ويسخر صقر من كلمات رشاد، فمفهوم الحرية مختلف عنده.. الحرية أن تأكل ما تريد وتلبس ما تريد وتشرب ما تريد، لكنها ليست أن تحالف ما

اتفق عليه الكل.

ويحاول رشاد أن يرد مذكرا بالقانون، ولكن العمدة يقاطعه، فهو أيضا يتكلم بالقانون، مقدما إليه توكيلات أهل القرية كلهم.. تلك التوكيلات التي تعطيه الحق في التصرف في الأرض.. تلك التوكيلات التي تجدد لكل عمدة جديد. ويفاجئنا الحناوي بأحد أسرار الماضي.. إنه لم يحدد التوكيل.. إشارة جديدة إلى أن الحناوي لم يبايع العمدة.. لم يعترف بأنه الحاكم الجديد.. ولم ينسها العمدة الذي يعاجله بالسؤال: "لكن تقدر تبيع؟".. هنا لا يجد الحناوي ردا للسؤال الحاسم.. لم يجد إلا أن يأمر ابنه بأخذ الأموال.. لقد انتهت المعركة لصالح صقير.. انتصر صقير في النهاية، وأعطى الحناوي وولده المنحة.

كان الصراع طويلا.. قدمه لنا عكاشة عبر حوار طويل من الجانبين، في واحد من أطول المشاهد.. لقد استمر المشهد أكثر من ٦ دقائق كاملة على الشاشة.. لم تكن المعارك قبل ذلك بين العمدة وأهل القرية تطول إلى هذا الحد.. ولكن الصراع طال هذه المرة.. لقد جاء بعد أول مظاهرة ضد العمدة.. لقد اشتدت وتيرة الثورة والمقاومة. كان منطقيا إذن أن يطول الصراع والحوار هذه المرة.. صحيح أن الصراع قد حسم لصقير كما هي العادة.. ولكن هل يتغير كل شيء من أول مرة؟ هل تستطيع أول مظاهرة صنع الثورة؟ إن الأمر يأتي بالتدريج.. ما هذا إلا إرهاصات الثورة فقط.. الثورة التي تحتاج إلى جهد كبير لكي تشتعل ولا يستطيع أحد الوقوف أمامها. إنما ما زلنا في مرحلة الشرارة.. شرارة الثورة.

ويلوم رشاد والده على إجباره على قبول المال، ولكن الحناوي يؤكد له أنها لم يكن بإمكانهما إلا ذلك، فلن يقبل أحد أن يشتري أرضهما، وحتى إن قبل أحد فسيأخذها العمدة بحق الشفعة، وفي النهاية سيأخذون المال منه، فها هو المال بين يديه دون بيع أو شراء.. ويترك الحناوي رشاد وهو يعاني مرارة الهزيمة، وتتدخل حورية التي

كانت تستمع إلى حوارهما مع صباح.. تسأل رشاد عن سبب حزنه.. ألم يعطه عمها المال؟ المسألة ليست المال يا حورية.. إنها مسألة الحقوق، وقد هزم رشاد في أول جولة.. تحاول حورية أن تفهم.. إن البداية هي الفهم والمعرفة.. فلكي تصل إلى الحق لا بد أن تعرفه.

على الجانب الآخر لم يركن العمدة للانتصار في كل المعارك.. أخذ ثورة الغضب وأفسد أول مظاهرة ضده، ثم انتصر على رشاد ووالده وأرضخهما لسلطته وسطوته.. رغم ذلك لم يبدُ راضيا.. حان وقت الحساب مع السنباطي، فكيف لحورية وسسبان أن تخرجا من دارهما وتذهبا إلى بيت الحناوي ثم تحشدا هذه المظاهرة ضده؟ تلك المظاهرة الني دارت القرية كلها، وجمعت الكل، لتتحول إلى زفة.. كيف لهما أن تفعل ذلك دون علمه؟ كل ذلك يحدث والسنباطي ورجاله نائمون لا يحركون ساكنا ولا يفعلون شيئا.

ويبدو الشيطان حمزة السنباطي وكأنه الحمل الوديع، فهذه المرة الثانية التي يحمله العمدة خطأ ليس خطأه، وإنما هو خطأ يخص العمدة نفسه.. ينفع العمدة ولكن السنباطي يطلب منه أن يكمل حديثه.. كانت المرة الأولى عندما هرب مروان الحسيني.. لقد قام مروان بصرف الخفر وقتها فكيف لهم أن يعصوا أمر ابن عمدتهم؟ وفي الثانية رأوا حورية بصحبة سسبان التي يهاهما الجميع فلم يستطع الخفر فعل أي شيء، ولم يتصوروا أنها يمكن أن تفعل شيئا دون علم العمدة.

ويواصل السنباطي حديثه بأن العمدة لم يعد راضيا عنه، ويرى أن الاعتزال أهون عليه من ذلك.. ويرد العمدة مؤكدا أنه لا أحد يعتزل عنده.. وأنه الوحيد الذي يقرر ذلك، وإذا قرره فسيصل القرار إلى السنباطي ويكون عليه وقتها التنفيذ. إنها لعبة القط والفأر بين رجال الحكم والسلطة.. صراع خفي بين أطراف السلطة يكشفه لنا عكاشة.. لم تعد الأمور تحت السيطرة كما كانت.. بدأت السلطة

تهتز.. بدأت الخلافات تدب.. بدأ التهديد بالاستقالة والإقالة يظهر في دروبها، وكيف لا وقد اشتعلت شرارة الثورة.. تلك الشرارة التي ستزيد يوما بعد يوم؟

وننتقل ثانية إلى حورية ورشاد.. ما زالت تحاصره بأسئلتها.. ألم نقل إن الحصول على الحق يحتاج إلى معرفته أولا.. لن تقوم ثورة إلا إذا عرفت الحق، ولن تعرف الحق دون سؤال.. وها هي حورية تسأل وتساءل.. لماذا كان صالح الوحيد الذي لم يكتب توكيلا للعمدة؟ وتأني الإجابة من رشاد لفتح باب الأسئلة على مصراعيه.. لأن التوكيل لا يُصنع إلا للعمدة.. لم ير صالح الحناوي في صقر عمدة له، ولذلك لم يقدم له التوكيل.. لم يعترف به ولم يقر له بالولاية.. ولكن هل تفهم حورية ذلك؟ ويوضحها لها رشاد، فوالده لم يعترف بكون صقر العمدة.. ولكن لماذا؟ أكان الحناوي يريد المنصب له؟ ويؤكد رشاد أن والده لم يكن ساعيا لسلطة ولا منصب ولا جاه.. لم يسع يوما إليها ولم تسع إليه، بل إنه رفض أن يكون شيخا للبلد، كما أن الحكم في الحلوانية بالوراثة.

لماذا إذن؟ كان رأي الحناوي في ذلك الوقت أنه قبل إتمام البيعة يجب الإتيان بقاتل العمدة القديم ومحاسبته على فعلته.. إنها الفتنة التي دارت في الماضي، وجعلت الخلاف مفتوحا على أحقية الحاكم الجديد في كرسي الحكم.

وتتفرض حورية لكلمة القتل.. أي قتل؟ لقد كان عيارا طائشا في فرح به عشرات البنادق.. ومن جديد يؤكد رشاد أن والده كان يرى وجوب إجراء تحقيق في الأمر.. وفي هذه اللحظة يدخل الحناوي موقفا رشاد عن الحديث.. يعود الحناوي ليغلق أبواب الماضي.. ولكن أتغلق الأبواب، وقد اشتعلت الأسئلة في الرءوس؟ لقد حركت الأسئلة عقل حورية.. أصبحت تلهث وراء المعرفة ولن تتوقف عن السؤال إلا بعد أن تعرف كل شيء.. تفتح الأبواب بابا بعد باب.

وتسأل حورية الحناوي عن سر عدم الاعتراف بأحقية صقر في المنصب.. ولكن الحناوي يحاول التهرب بأن ذلك كان عنادا في الماضي وانتهى الأمر.. لماذا لم يقدم له التوكيل إذن؟ ويؤكد أن ذلك كان أيضا في الماضي، وها هي الأمور تسير بشكل عادي الآن، والعمدة لا يحتاج الآن لمن يقر له بمنصب ولا لمن يقدم له توكيلا.. كانت كلمات الحناوي محاولة واضحة للهروب من أسئلة حورية المتلاحقة.. إجابات قالها ولم تلتق عيناه بعينيها، ففي العيون تظهر الحقيقة.. ومع نهاية كلماته يؤكد أنه إن أتى عمدة جديد وهو على قيد الحياة فسوف يقدم له التوكيل.. هنا ينطلق السؤال الأخطر على لسان حورية.. يومها من سيكون العمدة الجديد؟ من الأحق في ذلك الوقت؟ الحسيني ابن العمدة القديم؟ أم مروان ابن العمدة الجديد؟ سؤال فيه تكمن النيران المشتعلة.

وعندما لا تجد حورية إجابات شافية عن أسئلتها عند الحناوي تلجأ إلى حارسة أبواب الماضي لتجد عندها الإجابة.. تنقل حورية لسسبان ما عرفته في بيت الحناوي.. أياكون هذا هو رد ما فعلوه معه؟ هكذا يكون رد فعل سسبان.. أبعد ما قدموه من أجله ومن أجل ابنته يفعل ذلك ويكشف المستور لحورية؟ ولكن حورية تدافع عنه، فهم لم يفعلوا إلا الواجب، كما أن الحناوي لم يقل شيئا.. من قال كان رشاد..

وتبدأ أسئلة حورية.. لماذا لم يحقق صقر في مقتل أبيها؟ كان عيارا طائشا يا حورية.. وما فائدة معرفة صاحب البندقية التي خرج منها؟ وكعادتها تطلب سسبان من حورية السكوت وإغلاق باب الأحزان القديمة.. أتريد أن تفتح الجراح وتجدد الأحزان؟ ويأتي الرد من حورية بأنها لا تريد إلا أن تفهم.. أن تفهم فقط.. ولكن أسمح سسبان لك بالفهم يا حورية؟ إنها تعرف جيدا أن الطريق يبدأ بالفهم.. لن تساعدك على الدخول في هذا الطريق الذي لا تأمن

نهايته.. ولم تكن سسبان فقط من يخاف هذا الطريق، بل تشاركها عساكر في ذلك، فقد سألتها حورية أيضا قبل أن تلجأ لسسبان.. هكذا قالت عساكر للعمدة.. ولكن ماذا كانت الإجابة يا عساكر؟ كانت الإجابة "ما عرفش".. ولكن حورية لن تتوقف عن السؤال.. ولا يوجد إلا حل واحد فقط.. الحل أن تنشغل حورية بأمر زواجها وأن تنتقل إلى بيت العمدة لينتهي الأمر برمته.. وقتها لن يكون هناك مجال لسؤال أو فهم.. وقتها ستخمد شرارة الثورة.

وتذهب سسبان غاضبة إلى الحناوي.. ترى أنه قابل المعروف بالشر.. ويتعجب الحناوي من ذلك، وهو المقر بفضلها هي وحورية والحسيني مؤكدا أن ما فعلوه سيظل دينا في رقبته.. وتستمر سسبان في ثورتها.. ترى أنه رد الجميل بما قاله لحورية هو ورشاد.. ذلك الكلام الذي لا يستطيع أحد من الحلوانية الخوض فيه.. الكلام الذي مر عليه الزمن وانتهى.. الزمن الذي شيب رأس الحناوي ولكنه لم يفهمه.. ويدافع الحناوي عن نفسه.. إنه لم يفتح الأبواب المغلقة.. بل أغلقها في وجهها وتهرب من الحديث عن الماضي.. كان هذا ما فعله الحناوي حقيقة، ولكن سسبان لم تعد تصدق ذلك.. خوفها من أن تعرف حورية يمنعها من تصديق الحناوي الذي أخذ يؤكد أنه ليس مسئولا هو أو رشاد عن كل ما حدث.. صحيح أن الصدفة لعبت دورها في إلقاء الحسيني أمام رشاد، ولكنه وأولاده لم يعتمدوا شيئا.. كان ما حدث محركا للأسئلة في قلب حورية وعقلها، وليس لهم علاقة بالأمر.

ومن جديد ترفض سسبان كلام الحناوي، فيبدأ الهجوم للمرة الأولى، فابنة الحلواني هي من تغش روحها.. "بنت الحلواني".. كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديها بها الحناوي.. لم ينادها بالحاجة أو بسسبان.. ولكنه كان يناديها بها في الماضي.. يقرر الحناوي المواجهة وفتح أبواب الماضي على مصراعيها.. لم ينس ثأره إذن.. هكذا تقول

سسيبان.. ولكن أي ثأر هذا؟ وما علاقة سسيبان به؟ وكيف يريد أن يأخذه صالح؟

صراع جديد يشتعل.. صراع الثأر غير المفهوم بين ابن الحناوي وابنة الحلواني.. ولكن عكاشة يلقي بنا في الماضي لنفهم كل شيء.. الحناوي وسسيبان وقد عاد بهما الزمن إلى الماضي البعيد.. لعبة العودة إلى الخلف يلعبها عكاشة لنجد إجابة عن أسئلتنا التي طرحناها.. كان صالح يحب سعادبة أخت سسيبان وصقر وصادق.. كان يريد الزواج منها، وكانت راضية هي وأخوها صادق عن الزواج، ولكن سسيبان وصقر وقفوا أمامهم، وكانت النتيجة موت سعادبة.. ماتت وهي ابنة العشرين بعد أن كسر قلبها.. كانت جريمة أخرى لم يتم التحقيق فيها!!

يملك الحناوي قلباً أسود لم يستطع النسيان.. هكذا قالت سسيبان.. ويؤكد لها الحناوي.. قلبه ارتدى السواد حزناً على حبيبته المفقودة، ولكنه لم يفكر في الثأر يوماً، والمتقم هو الله، ومن يموت حزناً وقهراً كمن يموت بغير طائش.. وتكررها سسيبان ثانية: "لم لسانك".. ويؤكد لها صالح أنه لا يخاف التهديد.. وترد عليه بأنها لا تهدده ولكنها تخاف عليه، فيكون الرد: "خافني ع الي يهمك"، وتفلت الكلمة من لسان سسيبان كاشفة عن العديد من الأسرار موضحة الصورة.. صورة الماضي الذي حدث.. كانت الكلمة الخارجة من سسيبان: "طول عمرك تهمني يا...". لم تكمل جملتها ولكن الأمر كله كان قد اتضح.. كانت سسيبان تحب الحناوي إذن.. كان هذا سبب رفضها زواجه من أختها.. ولكن هل تحبه حتى الآن؟ ويقولها الحناوي لها.. كان يعرف ذلك جيداً.. كان يعرف أنها تحبه، ولكنه أحب أختها الصغيرة.. وتحاصر كلماته سسيبان فتطلب منه السكوت.. ويستجيب هذه المرة.. سيسكت، ولكن عليها أن تسكت هي أيضاً.. الجميع يجب أن يسكت، فلم يعد هناك حاجة للكلام!! وقبل انصرافها تحذره

من فتح حديث الماضي مع حورية ثانية، فإذا وصل الخبر للعمدة فسيكون رد الفعل شديداً.

ويذهب بنا عكاشة إلى الوحدة الصحية للاطمئنان على مروان.. تحكي له حورية عن كل ما حدث.. عن المظاهرة وعن رد العمدة وعن المال الذي أعطاه للحناوي ورشاد.. رأى الفارس الحالم في كل ذلك أن أباه العمدة لم يكن ليظلم أحداً.. كان متأكداً من أنه سيرد الحقوق لأصحابها.. وتتعجب حورية من كلامه، فقد بدأت رحلة الفهم والمعرفة.. الرحلة التي تبدأ بالسؤال.. وتطلب حورية من مروان أن يقدم لها شيئاً.. الفارس على أتم استعداد لتقديم ما تريد.. على استعداد للإتيان بالقمر من أجلها.. ولكن طلب حوريتها كان أقل من ذلك بكثير.. كانت تريد فقط من مروان أن يسأل أباه السؤال الذي تبحث له عن إجابة عند الجميع.. لماذا لم يحقق في مقتل أبيها؟ ويتعجب مروان من السؤال.

وفي اللحظة ذاتها يدخل العمدة الغرفة.. يسأل مروان عن السؤال الذي سألته حورية ورآه هو عجيباً.. ويتهرب مروان ويؤكد أنها كانت تسأله عن موعد خروجه من المستشفى.. ويخبرهما العمدة بأن الطبيب أخبره بأنه يمكنه الخروج الآن.. سيخرج الحبيب إذن.. لم يكن هناك سبب إذن لتأخير الزواج ثانية.. ويسأل العمدة حورية عن رأيها، فتبدي ترددات، ليغضب العمدة.. ومع الغضب يظهر ما كان تحت الرماد.. إنها تريد تكرار ما فعلت.. تريد فضحه ثانية.. لقد دللها أكثر من اللازم حتى قادت المظاهرة وانطلقت بها في شوارع الحلوانية ودخلت عليه دار الحكم ورفعت صوتها أمامه.. ويصدر العمدة فرمانه.. لا زواج حتى تعاد تربية حورية.. ويكسر قلب حورية الحلوانية وتغادر المكان، ليحاول مروان أن يثني العمدة عن فرمانه، ولكنه لا يلقي له بالاً، ويعلن أن هذا هو القرار النهائي.

كسر قلب الحبيين.. لم يأت وقت الفرح بعد.. إنها النبوءة التي

تنبأها ميلم.. لم يتنبأ فقط بأن الزواج لم يتم ليلتها.. لقد قال إن الحلوانية لن ترى فرحا بعد ذلك، وها هي الحلوانية تخرج من حزن لتدخل حزنا جديدا.. اشتعلت النيران وبدأت تسري في كل ركن من أركانها ولم يعد أحد يستطيع مواجهتها وإطفاءها.. ولكنها النار التي تطهر كما قالت حورية.

لم يستطع مروان الدفاع عن حورية.. تذهب لأخيها حزينة والدموع تملأ عينها.. ترى مروان متخاذلا عن الدفاع عنها.. كيف يكون لها الرجل والسند وهو لا يستطيع الحفاظ عليها؟ ويلتمس الحسيني لمروان الأعذار فصقر رجل ليس كأبي رجل.. إنه المهيب الذي لا يستطيع مواجهته أحد.. إنه ليس كأبي أب.. إنه رجل مهول.. هكذا وصفه الحسيني ويا له من وصف!!

وتعلن حورية أنها لا تريد هذا الزواج، فيسألها عن الحب.. ماذا عن الحب يا حورية؟ ولكن بنات الريف لا يعرفن الحب.. الحب لا يوجد إلا في البنادر.. هكذا تقول المحبة.. فيرد الحسيني بأن الحب في كل مكان.. وتؤكد حورية إنها تربت مع مروان.. لا تتصور أن يكون لها زوج آخر.. وماذا يكون ذلك غير الحب يا حورية؟ إنه الحب الذي سكن قلبها وقلب مروان، ولكن الأقدار لم ترد لهما أن يجتمعا حتى الآن.. إنها قصة الحب التي تواجه الأعاصير والأزمات.. إنها ملح الدراما وسيلها إلى جذب المتلقي وربطه بها، يستخدمها عكاشة لتنضم قصة حب مروان وحورية إلى قصص المحبين والعشاق في الحكايات الشعبية.

وتطلب حورية من الحسيني الدخول من البرد.. كانا يجلسان أمام بيت أبيهما.. يحب الحسيني النظر إلى الغيطان.. ولكن حورية تقول إنها ساعة أتنه لم يكن جالسا بالخارج.. كان يبحث عن شيء.. كان يقلب كل ركن في البيت باحثا عن شيء ما.. إنها رحلة البحث التي بدأها الحسيني منذ نزل بقدميه أرض الحلوانية.. ولكن عن أي شيء

يبحث الحسيني؟ ما الذي سيجده في هذا البيت المغلق منذ ٢٠ عاما؟ أي سر يريد كشفه؟ كلها أسئلة إجابتها عنده وحده.. عند الحسيني الذي سيفتح كل باب من أجل الوصول إلى هدفه.

ويبدو الارتباك على الحسيني. يقول إنه كان يبحث عن أي شيء له علاقة بوالده.. إنه لا يعرفه كثيرا.. يريد أن يجد أي شيء يعرفه به أكثر.. يريد أن يسمع كل من يعرفه. نعم كان حديث الحسيني صحيحا، ولكنه لم يصرح لحورية بهدفه الآخر.. لم يأت وقت المصارحة والمكاشفة بعد، فلم يجد ما يبحث عنه حتى الآن.. حين يجده سيكون موعد الكشف.. الكشف عن كل شيء.. كلاهما إذن بدأ رحلة البحث عن الحقيقة.. حورية بالسؤال.. والحسيني بالبحث المادي.. الطريق واحد وأساليب الوصول إليه مختلفة فقط..

وتذهب سسبان إلى أخيها صقر.. تنقل إليه مخاوفها من أسئلة حورية.. ولكن ما الحل لمواجهة هذه المخاوف؟ وتقدم سسبان لأخيها الحل الذي اقترحته عساكر.. لا بد أن يتمم الزفاف.. يجمع الحبيبين في بيته.. تدخل حورية بيت العمدة وهناك يحكم السيطرة عليها.. تصبح بعيدة عن أية أسئلة مطروحة.. ولن تجد هناك أية إجابة.. ويتفهم صقر رأي سسبان.. كان يريد أن يظل السؤال مدفونا في سابع أرض، ولكنه خرج للنور.. ليس أمامه الآن إلا أن يعيد دفنه.. ولا سبيل إلا اقتراح عساكر.. سيتراجع العمدة إذن عن فرمانه الذي أخذه بتأجيل الزواج.. سيسرع بذلك لدفن الأسئلة داخل القلوب.

وتذهب سسبان إلى الحسيني في بيت أبيه.. تذهب إليه ومعها المفاجأة الكبرى.. جاءت إليه طالبة منه الرحيل.. "ارحل يا حسيني.. أما زالت تنكره؟ لا.. لم تعد تنكره.. ولم يعد ينكره أحد.. إنه الحسيني ابن أخيها الذي وصاها عليه.. ولهذا أتت تطلب منه الرحيل.. تطلب منه ذلك لأنها تحبه وتحب حورية.. تحبها وتخاف عليها.. ويخرج السؤال من الحسيني.. يريد أن يفهم.. إنها الرغبة

في الفهم.. الرغبة التي تطارده وتطارده حورية.. من أي شيء تخاف سسبان؟ وتجيّب "ست إخوانها" بأنها لم تعد تسمع إلا صوت البوم والغربان.. نذير الشؤم ما زال موجودا في أذن سسبان، وفي قلبها قبل أذنها.. لم تعد ترى في أحلامها إلا ما يشير إلى خطر قادم.. من أجل هذا تشعر بالخوف.. ولكن هل يقبل الحسيني بالرحيل؟ هل يترك أهله وناسه وحقه؟ وماذا سيتبقى له بعد ذلك؟ وتؤكد له سسبان أن العمدة سيعطيه كل ما يريد، ولكن ما يريده الحسيني لم يكن متاحا لدى صقر.. الحسيني يريد أن يموت هنا.. يريد أن يموت في الحلوانية التي مات فيها أبوه..

لقد كتب على الحسيني الموت منذ الصغر.. كتب عليه الموت لكنه تأخر من أجل سبب واحد.. تأخر من أجل العودة إلى الحلوانية ليعرف الإجابة عن سؤال واحد.. بل أسئلة أتى الحسيني من أجل الوصول إلى إجابة عنها.. من قتل صادق الحلواني؟ وكيف قتل؟ ولماذا؟ وتضع سسبان يديها على فمه.. تريد له السكوت، فقد مات صادق لأن الموت حق.. ليس مهما أن يعرف بيد من.. الحقيقة الوحيدة أنه مات.. ويزيح يديها الحسيني بهدوء.. إنه لا يريد ثأرا أو انتقاما.. إنه يريد أن يعرف فقط.. وها هو يعاهدها بأنه سترك الحلوانية وقتها.. سيتركها دون حتى أن يقابل القاتل.. نعم.. إنها رحلة الوصول إلى المعرفة.. بدأها وسيكملها إلى نهايتها.. ولن يرحل.. لن يرحل ولن يصمت يا سسبان.. وتدررها العمدة: "فات الأوان ع الأمان".. إنها الكلمات التي نشرها ميلم في القرية.. لقد مر الأوان، وقد نفخ الحسيني في الرماد لتشتعل النيران وتستمر في الاشتعال.

ويخرج مروان من الوحدة الصحية بعد أن تم شفاؤه.. يذهب إلى أمه ليطمئن عليها.. نحن دوما بين من اختارت الصمت سبيلا لها وتريد إسكات الجميع، وصامته فقدت النطق والبصر معا، ولكنها تبدو راغبة في أن تنطق بكل ما في قلبها.. يحاول عكاشة دوما الربط

بين الشخصيتين الصامتين كاشفا عن الفروق بينهما، بين سسبان
”ست إخوانها“، وآمنة أم مروان.

وتخبره الأم بلغة الإشارة أن أباه منعها من الذهاب للاطمئنان عليه..
ويطيب مروان خاطرها، فالعمدة لم يرد أن يتعبها.. وتبدي الأم ضيقها
من العمدة.. لا يفهم مروان سبب غضبها عليه.. كعادته يحاول
التماس الأعذار له والدفاع عنه.. عين الفارس الحالم لا ترى عيوب
أبيه.. لا تقبل فكرة أن يكون أبوه ذلك الظالم.. تعرف الأم ذلك،
ولكنها لن تستطيع الكشف عما تعرفه، وسيظل مروان أسيرا للصورة
الوردية التي رسمها له.. لن يغيرها إلا إذا أزيحت الغشاوة من على
عينيه.. رغم ذلك تطلب الأم منه طلبا صعبا.. لا تريد أن يأتي العمدة
إليه.. لا تريد أن تراه.. هل تكرهه؟ هل تخافه؟ ربما كلاهما معا!

وتعود سسبان من زيارتها للحسيني.. تجد العمدة في البيت.. إنه
في غرفة حورية.. يبدو أنه فكر جيدا في اقتراح عساكر الذي ذهبت
به إليه.. هل قرر إتمام الزواج سريعا ليضمن سكوت حورية؟ ما
زالت حورية تبكي بسبب القسوة التي رأتها من عمها وأبيها صقر..
كانت هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها هذا.. كانت هذه أيضا
المرة الأولى التي ترتكب فيها حورية ما ارتكبت.. هكذا برر صقر
غضبه عليها.. ها هو يحاول تطيب خاطرها.. ما زالت حورية نقطة
ضعفه.. ما زال يحبها رغم كل شيء.. وقد أتى ليشرها بأن الزواج
سيكون بعد أيام.

وتتساءل حورية عن سبب تغير رأيه.. هل كان لمروان تأثيره
عليه؟ هل حدثت أزمة بينهما انتهت لصالح مروان؟ كان هذا هو
سؤال حورية.. ذلك السؤال الذي يكشف رغبة حقيقية لديها في
أن يواجه مروان أباه.. تتمنى أن ترى مروان قويا صلبا قادرا على
الوقوف أمام العمدة.. جزء من حورية يحب مروان الحالم، والجزء
الآخر يتمنى أن يكون مثل أبيه.. مهيبا مثل العمدة.

ولأنها نقطة ضعفه فهو مستعد كذلك لتلبية شروطها.. ولكن الشرط صعب المنال.. إنه السؤال الذي يكرهه العمدة.. السؤال الذي يريد أن يدفنه للأبد.. كان السؤال: هل حققتم في مقتل أبيها أم لا؟ وكانت الإجابة لا.. ما السبب إذن؟ يرفض الإجابة مبررا ذلك بأنها إن عرفت فسوف يكون العذاب مصيرها.. يبدو أن العمدة استعد للسؤال هذه المرة.. لم يغضب.. هل جهز العمدة كذبة جديدة.. كذبة آمن بها وصدقها ليصدقها الجميع؟ أم أنه سيكشف عن الحقيقة هذه المرة؟ وهل يمكن أن يفتح باب الماضي بنفسه؟ نحن في انتظار الكذبة إذن.. الكذبة التي ستتحول إلى حقيقة ما دامت ستخرج من فم العمدة.

لم يحقق من أجلها هي.. كتم الحقيقة داخله عشرين عاما من أجلها هي.. لم يصرح بما يعرفه من أجلها هي.. لم يكن يريد لها عذابا.. هكذا قال صقر، ولكن ما العذاب الذي يمكن أن يكون في معرفة الحقيقة؟ ما العذاب الذي يمكن أن يحل بحورية إذا وجدت الإجابة عن أسئلتها.

كتمها طوال تلك السنوات من أجلها والآن يقولها من أجلها أيضا.. لم يكن العيار طائشا.. ها هو صقر يقول الحقيقة هذه المرة.. صرح بها أخيرا.. ولكن من القاتل إذن؟ هل يكشف حقا عن الحقيقة؟ قتل العمدة صادق، وهو يعرف من ارتكب هذه الجريمة.. يعرف من الذي قتل العمدة صادق المدافع عن الحقوق.. يصرح بذلك فتلح عليه حورية طالبة الإجابة عن السؤال الأهم.. من القاتل؟ ويحاول صقر التهرب من الإجابة ولكنها تصر على الحصول عليها.. ويجب صقر.

لم يحقق في القضية لأن من قتل صادق الأب كان أحد أخوال حورية.. لم تقل الحقيقة يا صقر.. لا يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة.. موقف صالح الحناوي من أخوالها يؤكد ذلك.. إرسالهم ذهب والدتها يؤكد

ذلك.. خوف سسبان وحرصها على عدم فتح أبواب الماضي يؤكد ذلك.. موقف صقر نفسه من أخيه ومن الحسيني ومن الحناوي ورشاد يؤكد ذلك.. كلها تأكيدات لأننا أمام كذبة جديدة.. كذبة جديدة ربما تصدقها حورية.. ما زال أبوها صقر رغم كل شيء نقطة ضعفها كما أنها نقطة ضعفه.. ما زالت تصدقه!

ويكمل صقر الكذبة حتى النهاية.. كان السنباطي يقف خلف العمدة مباشرة.. حين انطلقت الرصاصة لم ينشغل مع الناس.. أخذ يبحث بعينه في كل مكان.. رأى ماسورة بندقية فوق سطح أحد البيوت.. ورأى صاحبها يقفز على سطح بيت آخر.. طارده حتى رآه يركب سيارة كانت في انتظاره.. لم يلحق به ولكنه التقط رقم السيارة.. عرف الكل السيارة، فقد كانت تزور الحلوانية كثيرا.. كانت سيارة أخوالها.. وقتها فكر فيها.. لم يرد لها أن تكبر وهي تعلم أن من قتل أباه هو أحد أخوالها.. كان هذا هو السبب الذي منعه من إبلاغ الشرطة.. رفض إبلاغ الشرطة وأخذ عهدا على نفسه ألا يأخذ ثأر أخيه إلا بعد أن تكبر وتتزوج ثم تعرف الحقيقة وتطلب منه هي أخذ الثأر.

قصة محكمة وضعها العمدة.. صدقها بكل حواسه وقدمها مبررا لكل ما حدث.. يحاول صقر أن يدفن الحقيقة بأسلوب جديد.. لم يعد الصمت مجديا.. فليكن الكلام إذن.. ولكن أي كلام؟ إنه كلام الأكاذيب.. كلام الباطل الذي يدفن الحقيقة كما يدفن الصمت.. تغيير في الاستراتيجية ليس إلا.. إنهم قوم لا يعرفون قول الحقيقة، فإما الصمت أو الكذب.. هذا هو حال السلطة الغاشمة دوما.

رغم ذلك لم تنته أسئلة حورية.. ما زالت هناك أسئلة.. فما الدافع وراء الجريمة؟ ولأن الكذبة مدبرة، فقد كان العمدة مستعدا لهذا السؤال أيضا.. إنه الطمع.. لقد عرف العمدة صادق أن أخوال حورية أجبروا أمها على بيع أرضها لهم في مرضها الأخير.. صمم أن يطعن في هذا

البيع بالتزوير، فقررُوا قتله.. الآن وجد صقر إجابة لكل الأسئلة..
كان هذا هو السبب الذي جعله يمنعهم من حضور حفل زفافها..
كان هذا هو السبب الذي جعله يخفي عنها الحقيقة..

ولم تتوقف حورية عن السؤال.. لماذا إذن قال لها الحناوي إنهم
أناس يعرفون الأصول والواجب؟ لماذا رأى فيهم غير ما تسمعه الآن؟
ولكن الإجابة كذلك جاهزة، وهل يظهر الإجرام على المجرم؟ ومن
جديد تلقي حورية السؤال.. ماذا عن الذهب الذي أرسلوه لها؟ لم
يكن ذلك إلا "جر رجل".. يريدون فقط أن تحبهم فتذهب إلى زيارتهم
ليقوموا بالقضاء عليها.. ولكن ذلك لم يخفها.. تعلن أنها ستذهب
إليهم وتقف لهم.. ويثور صقر.. لن تذهب في أي مكان.. لن تخرج
من الحلوانية.. لقد قضي الأمر.. كانت كل الإجابات جاهزة عند
صقر.. يغلق كل أبواب الأسئلة أمام حورية.. لم يعد هناك أسئلة
أخرى.. ستدفن الحقيقة الآن بعد أن قدم لها إجابة لكل الأسئلة التي
طرحتها.. هكذا كان يرى صقر، ولكن هل تستسلم حورية؟ هل
تتوقف عن الأسئلة؟

ولأن الكذبة لا بد أن تجد من يحرصها فقد كان لزاما على العمدة
أن يجتمع بالسناطي.. يعطيه الأمر بالألا تخرج حورية من الحلوانية..
خروجها يعني كشف الحقيقة المستترة تحت كذبة صنعها صقر..
كذبة لن تستسلم لها حورية بسهولة.. ستحاول بالتأكيد الخروج من
الحلوانية والذهاب إلى أخوالها لمواجهةهم.. هكذا تكون العنيدة دوما.

ولأن العمدة قرر أن يسري قانون الحلوانية على الحسيني كغيره
يطلب من الدمرداش أن يعطي له مصروفا شهريا.. لقد بدأت العطايا
من العمدة.. العطايا التي تسكت الجميع.. لهذا يرى الدمرداش أن
الأموار قد استقرت، فقد أخذ رشاد العطية وسافر، وانتهت مشكلة
الحسيني، أما حورية فقد عرفت الحقيقة الكاذبة!

وينتهز الدمرداش الفرصة لتوجيه ضربة إلى صديقه اللدود السنباطي.. يوسوس للعمدة بأن هناك خطأ واحدا قد وقع فيه السنباطي.. كان الخطأ هو إخبار أهل القرية بأنه حول أبو الوفا إلى النيابة.. بإمكان رشاد أن يتأكد من ذلك بنفسه، ولكن العمدة يؤكد له أنه التفت إلى ذلك الأمر، ولذلك شغل رشاد بقضية المال الذي يحتاجه، وهو ما حدث بالفعل.

مرة ثانية يؤكد عكاشة الصراع الدائر دوما في بلاط السلطة.. صراع دائم بين جميع الأطراف، فكل عضو في هذا البلاط يريد الصعود على أكتاف الآخرين.. لا ينشغل أحدهم إلا بأن يكون هو الأعلى وأن يكون الجميع في الدرجة السفلى.. وأدوات ذلك النفاق والرياء من جهة، وضرب الآخرين تحت الحزام من ناحية أخرى.

وننتقل إلى جلسة الحظ التي تجمع الدمرداش وفريقه على مقهى أيوب الخضري.. ينقل الدمرداش لهم تلك الكلمات التي يرددها رشاد عن الحق والمبدأ.. وينقسم الفريق إلى رأيين؛ الأول يرى أن هؤلاء لن يؤثروا أبدا في العمدة، فهم لا يساوون شيئا أمامه، أما الرأي الثاني فيرى أن هؤلاء الذين يرددون مثل هذه الكلمات قد زادوا في القرية.. لقد زاد عدد المتعلمين.. يرونهم أغرابا وإذا بهم أبناء أهل القرية.. ذهبوا إلى البندر وتعلموا وعرفوا وفهموا وأتوا لترديد هذه الكلمات الرنانة.

وما دمنا قد ذهينا إلى مقهى محاسب السلطة، فقد كان لزاما أن نجد أنفسنا وقد نقلنا عكاشة على مقهى "الغلابة".. مقهى عزازي ووطنية.. ميلم يظهر من جديد مطالب الجميع بتقديم "بريزة فضة" له.. وكالعادة يدخل حشاد وميلم في صراعهما المعتاد.. يعرف ميلم أنه أحد البصاين المندسين وسط أهل القرية.. لا يريد منه "البريزة الفضة".. لن يأخذها حتى إن دفعها.. ويستمر حشاد في استفزاز ميلم.. يؤكد أنه يملك كنزا من هذه العطايا.. ويرد ميلم بأنه لم

يسرق يوما.. كانت الكلمة موجهة لحشاد.. إنه من يسرق أموال غيره.. ويصر حشاد على ضرب ميلم.. تحذره وطنية من ذلك، فميلم بركة القرية.. ولكن حشاد لم يتوقف ليتصدى له أحد شباب القرية مدافعا عن ميلم.. كان هذا نموذجا لهؤلاء الشباب الذين كانوا يتحدثون عنهم في مجلس أنس الدمرداش.. أراد عكاشة إذن أن يقدم نموذجا دالا على هذا الجيل الجديد الذي نما وكبر دون أن يشعر الجميع.. إنه الجيل الذي لا يعرف الصمت.. وكالعادة يبدو ميلم هو المحرك لكل الأحداث.

ونعود لمنزل العمدة ثانية.. صقر يزف لمروان خبر الزواج.. يطلب منه ألا يترك حورية لحظة.. ألا يترك لها الفرصة لمغادرة القرية حتى يتم الزفاف ووقتها لن تستطيع أن تتحرك إلا بإذنه.. ويطمئنه مروان على ذلك، ولكنه هو الآخر يسأل.. لقد تعلم مروان أيضا كيف يسأل.. كان السؤال هو: كيف انتظر العمدة كل هذه الفترة دون أن يأخذ الثأر؟ وجاءت الإجابة كما قالها لحورية.. ولكنه أضاف إليها جديدا.. ما دفعه لذلك ليس خوفه على حورية فقط بل خوفه على مروان أيضا فأخذه بالثأر كان يعني الخلاص من خالي حورية الاثنين، فهو لا يعلم أيهما القاتل، وهذا يعني أن أهل أخوالها سيأخذون الثأر أيضا ولن يكون هناك سوى مروان. إنها الكذبة الجديدة التي أضافها العمدة إلى كذباته المتعددة.

وتذهب حورية إلى الحسيني.. تؤكد له أنها لن تهدأ إلا بعد أن تذهب إلى أخوالها.. ويشرح الحسيني الأسئلة ذاتها التي طرحها حورية.. وأمام هذه الأسئلة تجيب حورية بسؤال جديد.. ألا يصدق الحسيني العمدة؟ وماذا عنك أنت يا حورية.. هل تصدقينه أنت وأنت الأدرى به؟ وتجيب حورية بأنها تصدقه.. لماذا تريد الذهاب إلى أخوالها إذن؟ إنها تريد أن تسمعهم.. تريد أن تتيقن من الحقيقة.. ربما لم يفعلوها.. ربما سُرقت سيارتهم لتنسب إليهم الجريمة.

ويأتي افتراض آخر من الحسيني.. ربما لم ير السنباطي أحدا.. ما هذا يا حسيني؟ إن ذلك يعني التشكيك في القصة برمتها.. إنه يغرس بذور الشك في قلب حورية، والشك مفتاح السؤال، والسؤال بداية المعرفة.. من جديد يحثها الحسيني على الوصول إلى الحقيقة.. يحثها على الذهاب إلى أخوالها.. يبدو الحسيني مثل ميلم.. كلاهما يحرك الأحداث.

ونعود إلى مقهى عزازي.. يقومون بحصر التلفيات.. يعرض ميلم التكفل بالمصاريف لكن عزازي يؤكد أنه لا يريد شيئا، فقط لا يريد ميلم ثانية في المقهى.. ويحزن ميلم، ولكنه يواصل رسائله المهمة.. ما حدث مكسب وليس خسارة.. لم يفهموا الرسالة.. حتى ذلك الشاب الذي دافع عنه لم يفهم.. لم يعرف حتى سبب تدخله لحماية ميلم.. ولكن ميلم يعرف السبب، ويؤكد أنهم سيفهمونه يوما.. ربما تكون هذه نبوءة جديدة.. لقد اقترب موعد الفهم.. وإذا فهم أهل القرية فسوف يصلون إلى الحق والحقيقة.

ونذهب مع الحسيني إلى الحناوي.. ما زال يبحث في أروقة الماضي.. يسأل عن أبيه وما حدث له.. كان الحناوي صديقه المقرب.. ولكن لماذا يسأله الحسيني دون غيره؟ لماذا لا يسأل يوسف العفي؟ هكذا طرح الحناوي اسما جديدا لم نسمع به قبل ذلك.. يرمي للحسيني اسما جديدا عن عمد.. ربما يريد الابتعاد هو عن الحديث حتى لا يقع تحت وطأة العمد.. وربما يرشد الحسيني إلى طريق جديد يعرف منه الحقيقة.. ولكن من يوسف العفي؟ لقد ذكره العمد صادق في أحد خطابات له أم الحسيني.. تحدث عن صديقه الحناوي "وأبو حجاج".. يوسف هو أبو حجاج المقصود إذن؟ ولكن أين هو؟ لماذا لم يظهر في الأحداث حتى الآن؟ وماذا قال العمد عن الصديقين في الخطاب؟ قال إن معه رجالا يقفون معه في الأزمات.. لماذا لم يقف الحناوي والعفي معه إذن؟ ويهرب الحناوي من السؤال، رادا بسؤال:

”وقال إيه كمان؟“.. يبدو الحناوي خائفاً، ولكنه يؤكد أن عهد الخوف ولى.. كان الخوف في الماضي.. الخوف إذن هو الذي جعلهم يصمتون.. يسكتون عن حق صديقهم الذي قتل بين أيديهم.. وتفاجئنا حورية بالدخول طالبة من الحسيني الخطاب.. تريد أن تقرأه لتعرف ما به.. تريد أن تفتح باباً جديداً من الأبواب المغلقة عليها تجد فيه الإجابة عن الأسئلة التي تسكن رأسها وقلبها.. الأسئلة التي أشعلت النيران.. ويستمر الحريق.

ومع نهاية الحلقة نقف أمام شيء لفت صناعه عكاشة.. لقد لجأ في هذه الحلقة تحديداً إلى المشاهد الطويلة.. حوارات طويلة بين أطراف المشهد.. حوار طويل بين رشاد والحناوي والعمدة.. وحوار لا يقل طولاً بين العمدة وحورية.. رغم ذلك لم تكن هذه المشاهد الطويلة دافعا للمل أو رتابة.. كانت بمثابة مباريات بين أطراف الصراع، فضربة هنا وأخرى هناك.. جاءت المشاهد طويلة لتأصيل الفكرة الأساسية التي بدت واضحة في هذه الحلقة.. لقد انطلقت شعلة الثورة.. لم تعد الجولات من طرف واحد.. كانت أية جولة في الماضي محسومة لصالح العمدة.. لن يزيد وقت الجولة أبداً ففارق القوة كبير. أما الآن فقد اختلف الأمر.. لقد أعطت شرارة الثورة القوة للجميع.. أصبحوا قادرين على المواجهة، وتحملها لفترة أطول.. ربما لم يحققوا انتصاراً بعد، ولكنهم أصبحوا أكثر قوة، وسيستطيعون الانتصار يوماً.

لم يكن طول الحوار إذن شكلاً يقدمه عكاشة فقط ولكنه جزء أساسي من المحتوى في الوقت ذاته.. جاء الحوار الطويل المليء بالصراع كاشفاً عن غاية أسمى، وهي التحول الذي حدث في القرية.. أصبح هناك من يستطيع الحديث.. يستطيع الكلام.. لقد تكلم بعض أهل القرية الصامتة دوماً، فهل يشيع الكلام فيها كلها مستمداً طاقته من شرارة اشتعلت ومعرفة يسعى إليها كثير من أهلها؟ الإشارات تؤكد ذلك، ونبوءة ميلم تبدو على مقربة من التحقق.

الإشارة.. والحق قبل الحقيقة

وتستمر الحكاية.. نبدأ من حيث توقفنا.. تقرأ حورية خطاب أبيها إلى أم الحسيني.. ذلك الخطاب الذي يطمئن فيها على أحواله رغم صعوبة ما يمر به.. كان حوله رجال لن يتركوه أبداً في هذه الأزمة.. هم ظهره الذي يستند إليه، وعلى رأسهم الحناوي والعفي.. إنهما الصديقان المخلصان له.. لولاهما ما كان يستطيع تحمل ما يحدث.. الضغوط عليه كثيرة لكنه يتحملها بمساعدتهما.

ويفتح الخطاب باب الأسئلة.. أسئلة لا حدود لها.. بدأها الحسيني، وها هي حورية تشاركه فيها.. ما الأزمة التي كان يعيشها العمدة القديم؟ وما الضغوط التي يتحملها بمساعدة الصديقين المخلصين؟ وما دورهما في هذه الأزمة؟ ويصطنع الحناوي النسيان.. ولكنه في النهاية يقول لها إن هذه الأزمة كانت بين العمدة القديم وأخوالها بسبب الخلاف على حق أرضها في الميراث.. لم يكذب العمدة إذن.. هكذا تردد حورية فرحة بصدق رواية أبيها صقر.. لكنها تؤكد في النهاية أنها ستذهب إليهم.. ستواجههم.. ستعرف كل ما حدث.

ونبدأ في سرد الأسئلة داخلنا؛ هل صدق صقر فعلاً في روايته؟ كل الإشارات تؤكد كذبه، ولكن شهادة الحناوي الآن تربكنا.. إنه الإرباك المتعمد من عكاشة.. الإرباك الذي يجعل المتلقي منجذباً للمتابعة.. الحيرة تدفعه لاستمرار مواصلة الحدث.. أظلمنا العمدة في اتهامنا له بالكذب، أم أنه استغل جزءاً من الحقيقة لنسج قصة محبوكة تستند إلى الخلاف الذي حدث بالفعل بين صادق وأخوال حورية؟ هذا هو السؤال الذي سنظل نبحث عن الإجابة عنه.. وسنتنظر الوقت الذي سيكشف فيه عكاشة عنها.

وتعود حورية إلى بيت العمدة.. تجدد مروان في انتظارها.. كان قلقا عليها.. يبدو أن توصية والده قد أتت بنتيجة.. يريد أن يعرف أين كانت.. هل بدأ حصار من نوع جديد؟ هل نجح العمدة في فرض الإقامة الجبرية على حورية مستغلا مروان الحالم الوديع الذي لن يفكر في أن ذلك يمكن أن يكون ضد حبيبته؟

ومن بيت سسبان نعود ثانية إلى بيت الحناوي.. تسأله صباح عن الماضي.. لقد عرفت هي الأخرى كيف تسأل.. السؤال أصبح متاحا أمام الجميع، ولكنهم لم يجدوا الإجابة الشافية حتى الآن.. وكعادته لا يقدم الحناوي الجديد.. تطلب منه صباح أن يقول الحقيقة لحورية ما دام لا يريد أن يقولها لها هي.. يؤكد لها أنه قد قال لها كل ما يعرف.. ولكن ابنته لا تصدق.. تذكره بأن حورية تريد الذهاب إلى أخوالها، وإن كانت روايته صحيحة فإن هذا يعني أنها قد تتعرض لخطر كبير، ولكن الحناوي يؤكد لها أنهم لن يفعلوا شيئا لحورية.. هذا إن سمح العمدة أصلا لها بالذهاب إليهم.. كلمات الحناوي تكشف لنا عن أن روايته لم تكن صحيحة في مجملها، وأن أحوال حورية بريئون من دم صادق.

ونلمح الإشارة التي يريد لها عكاشة أن تصل.. الشباب هم الثائرون الحقيقيون.. كل الشباب يسألون.. حورية والحسيني ورشاد وصباح.. كل شباب القرية يريدون المعرفة، في مقابل الذين ينتمون إلى الماضي.. كلهم يفضلون السكوت.. سسبان وعساكر وأمنة والحناوي وحتى يوسف العفي الذي لا نعرف أين هو.. كلهم لم يتكلموا.. اختاروا السكوت.. إنه الصراع الناشئ بين الأجيال.. صراع دائم ومتجدد.. صراع سيبقى متجاوزا فكرة الزمان والمكان.

ونذهب إلى العمدة الذي يلجأ إلى المكان الذي يرتاح فيه.. بيت درية.. المكان الذي ينسى فيه القرية وهمومها.. إنها الصديقة التي يأوي إليها.. صديقتها التي يكشف لها كل ما بداخله.. الصديقة

الوحيدة له.. كل هؤلاء الذي يهتزون لرؤيته ويهابونه ويلتفون حوله ليس فيهم صاحب.

ما زال عكاشة يقدم لنا شخصية العمدة الظالم من لحم ودم.. رغم كل شيء فإن داخله إنسانا يشعر ويحس.. يحتاج إلى الخل والصديق.. يريد أن يتكلم معه.. يحكي دون خوف أو قلق.. يتحدث معه دون أن يعد عليه أنفاسه.. يطمئن إليه عندما يعطيه ظهره.. العمدة لم يجد كل هذا في القرية.. أين يجده؟ هل يجده مع السنباطي والدمرداش؟ لم يجده إلا مع درية.. وجد فيها الصديق الذي كان يبحث عنه.

كانت درية تسر طلبا في نفسها، ولكنها تشعر بالخجل.. لم يتأخر عنها يوما في شيء.. وفر لها كل ما أرادت.. لم يكن لها قيمة تذكر أمام الناس، فتزوجها لتعيش في سرايا تلبس الحرير وتملك المال والأرض.. كل ذلك جعلها تخجل من ذلك الطلب الذي تريده.. ولكن ما هذا الطلب؟ إنها تشعر بالوحدة.. تشعر بها ولكنها لا تستطيع أن تطلب منه الإقامة معها، ولا تستطيع أيضا أن تذهب لتقيم معه، ولكنه بيديه أن يكون معها دون أن يتغير شيء!! كيف يكون ذلك يا درية؟ والإجابة هي أنها تريد أن تنجب منه.. ويأتي الرد صارما: "لا".. لا يريد العمدة ذلك.. لا يريد أن يأتي بولد يعادي مروان ويشاركه في الأرض والسلطة والجاه؟ من أي شيء يخاف العمدة؟ هل يخاف على أحد ولديه من المصير الذي رآه العمدة القديم؟ هل يخاف أن يتحول الابن الأصغر لصقر جديد ينزع المنصب من أخيه الكبير الحالم الأمل المحب؟!!

وترد درية.. ربما تكون بنتا.. ولكن العمدة لا يريد بنتا.. عنده البنت يا درية.. عنده حورية نقطة ضعفه.. إنها أكثر من بنته.. ويطلب العمدة من درية أن تنهي هذا الأمر، وإن لم تستطع أن تعيش وحدها فعليها إبلاغه، ووقتها سيطلقها حافظا لها كل الحقوق.. ولكن درية تؤكد أنه لا يمكنها أن تعيش من دون العمدة.. هل تحبه درية؟ هل هناك من يستطيع أن يعشق هذا الرجل المهول كما وصفه

الحسيني؟ لم لا؟ إنه إنسان في النهاية ربما لا يُحِب مثل كل الناس، ولكنه قد يُحِب.

ونعود إلى الحلوانية لنرى الحبيين.. مروان وحورية يتحدثان عن المكان الذي سيجتمعها بعد الزواج.. إنه "المنزل".. دار الحكم وبيت العمدة.. هكذا قال العمدة وهكذا يقول مروان، وهذا ما اتفق عليه الحبيان قبل ذلك.. ولكن شيئاً ما قد تغير.. لقد اكتشفت أن لها أخاً.. تريد أن تبقى إلى جواره في بيت أبيها.. لقد قبلت أن تتركه وحيداً الآن حرصاً على عدم إغضاب العمدة، ولكنها لن تقبل بغير الزواج معه.. تبدأ حورية مسلسل عنادها المعتاد.. ولكن هل يقبل العمدة ذلك؟ إن في هذا إفساداً لمخططه الذي وضعه.. كان يفكر في وضع حورية تحت الإقامة الجبرية.. كان يريد أن يضمن سكوتها.. بقاء حورية في بيت أبيها مع الحسيني لن يضمن له ذلك.. لن تكون تحت سيطرته.. بل ربما يعني ذلك فتح مزيد من الأبواب المغلقة.. أبواب الماضي التي يخافها صقر.

ليس هناك مانع عند مروان، فهو يحب الحسيني ويخاف عليه هو الآخر، ولكن الأمر ليس بيده، فهذا أمر العمدة وهو مصر عليه.. ولكن حورية ليست بأقل إصراراً على العيش مع الحسيني.. كلما انفرجت أزمة الحبيين واقترب الزواج تعقدت الأمور بعناد حورية.. يحدث الشق بينهما.. يتساءل مروان عن سبب تغيرها.. عن انقلاب حالها.. هل عودة الحسيني هي التي بدلت حالها؟ هنا تغضب حورية وتنسحب منهية الحديث.. ونعود مجدداً للتأكد من أن نبوءة ميلم ستتحقق حتماً.. لن يكون هناك زفاف.. لا فرح بعد اليوم في الحلوانية!

وتدخل عليها عساكر.. تلومها.. لماذا تغضب مروان وتتركه يمشي حزينا، وهو نواراة الحلوانية كلها.. صاحب القلب النقي الطاهر؟ إنه أكثر من ذلك ولكن فيه عيباً كبيراً سيفسد حياتهما.. كانت هذه

وجهة نظر حورية.. ولكن ما هذا العيب؟ العيب الوحيد في مروان أنه لا يقوى على مواجهة أبيه.. نعم.. من جديد يكشف لنا عكاشة عن جزء في قلب حورية يرى في مروان الشخص الضعيف.. نقي وحالم وطيب نعم، ولكنه ضعيف.. ضعيف أمام العمدة، وهي تريد من يكون لها ظهر وسند.. تعرف أنه لا يوجد من يقف أمام صقر، أو يرفض له أمرا، ولكنها كانت تأمل أن يكون مروان غير ذلك.. كانت تريده أن يكون قادرا على المواجهة.

ويلجأ مروان إلى صديقه حشاد البصاص المدسوس عليه، ولكنه لم يكتشف ذلك بعد.. ما زالت نفسه الطيبة لم تفتن لذلك.. يلجأ إليه لا ليحكي له، ولكن لينسى الكلام.. ولكن كيف ينسى؟ ويأتي الحل من حشاد فيصطحبه إلى جلسة الأنس في مقهى أذيال السلطة عند أيوب الخضري.. قد يجد في الشرب والضحك والرقص ما ينسيه أي كلام يريد أن ينساه.

ولأن البصاصين في كل مكان، فإن المعلومة تطير إلى عزب ومنه إلى السنباطي.. مروان وحشاد عند أيوب الخضري.. وماذا عن العمدة؟ كان هذا سؤال السنباطي لعزب.. ما زالت السلطة تتلصص حتى على سيدها.. تتبعه في كل مكان.. يعرف السنباطي أن العمدة في البندر، فيهب مسرعا.. ولكن إلى أين؟ ما الذي يريد أن يفعله في غيبة العمدة؟ ما الذي يريده هذا الثعبان في غياب أسد الحلوانية الغائب؟

ومن ثعبان السلطة تنتقل إلى قمر الحلوانية المنير.. الحسيني يواصل رحلة البحث في بيت أبيه.. ولكن الألم يفاجئه.. يعاني الحسيني.. يبحث عن الدواء الذي لا يفارقه.. لم يجده في كل مكان.. هل هي النهاية يا حسيني؟ لم تنته الرحلة بعد لتركنا عند هذه النقطة.. يخرج الحسيني من المنزل.. يحاول الصمود.. ويمر السنباطي وعزب في اللحظة ذاتها.. يهم عزب بإطلاق النار عليه ولكن السنباطي يمنعه.. يقتربان منه.. يسقط الحسيني.. ما زال قلبه ينبض، ولكنه

نبض ضعيف.. ويوسوس الشيطان الصغير في أذن الكبير.. يمكنهما تركه حتى يموت.. ولكن الشيطان الكبير كان له رأي آخر.. أنتركه يموت ليرتاح منه كل من يتعبهم وجوده؟ كان هذا هو السؤال الذي أطلقه السنباطي، ليكشف لنا عكاشة من خلاله ثانية مدى الكره الذي يكمن داخل أروقة السلطة.. لا يريد السنباطي إنقاذ الحسيني إلا ليظل يؤرق من يؤرقهم.. ومن يؤرق الحسيني غير العمدة ولي نعمته؟ كل طرف في السلطة يعمل لمصلحته هو.. كل يسعى لكسب مأربه، وفي سبيل ذلك لا يتوانى عن إزاحة الجميع.. ولكن المأرب سيظل سرا مدفونا في قلب السنباطي إلى أن يكشفه لنا عكاشة.

ويرتدي الثعبان ثياب الحمل الوديع.. تركه حرام، ولا فارق بين ذلك والقتل.. يأمر عزب بأن يحمله وينقله للوحدة الصحية، مهددا إياه بالموت إذا مات الحسيني.. ويفعلها عزب، ويحمل الحسيني على كتفيه منطلقا إلى الوحدة الصحية.. هكذا يسخر الله الأعداء لخدمته.. ما زال في العمر بقية يا حسيني.. ما زالت الرحلة في بدايتها وستكملها.. ستكملها إلى النهاية.

وتظهر لنا وجهة السنباطي.. كان متجها إلى شلة الأُنس عند الخضري.. يأمره بإغلاق المقهى وإنهاء الجلسة.. يغضب مروان لتصرف السنباطي مؤكدا أن هذا ليس من حقه، ولكنه يبلغه بما حدث للحسيني.. وينطلق مروان متجها للوحدة الصحية.. وينصرف الجميع.. يبقى الخضري وحده في مواجهة السنباطي الذي جاء لتطبيق القانون.. لا يملك الخضري تصريحا للسهر، ومن ثم فما يفعله مخالف للقانون.. ولكن هل يبدو السنباطي حريصا على القانون إلى هذا الحد؟ ويلتقط الخضري الخيط.. كلاهما من معشر الثعابين.. إنها الأتاوة.. يريد أن يفرضها السنباطي عليه.. الثلث للخضري والثلثان للقانون.. قانون السنباطي الجائر.

ويصل مروان إلى الوحدة الصحية.. يطمئن على الحسيني. ما

دامت الأقراص مهمة إلى هذا الحد، فكيف لا يلتفت إلى نفاذها؟ إنها الأقراص التي فيها حياة الحسيني.. سيوفرونها له باستمرار.. لا علاج للحسيني.. الموت قادم لا محالة.. ينتظره ولا يخافه.. ويطلب الحسيني من مروان عدم إخبار حورية بما حدث.. لا يريد لها قلقا فوق قلقها ولا حزنا فوق أحزانها التي زادت عليها منذ حل على القرية.

ونذهب إلى حورية التي تهم بالخروج من بيت العمة.. تستوقفها سسبان.. إلى أين ستذهب حورية؟ تخبر عمتها بنيتها الذهاب إلى أخوالها.. ما زالت العيدة مصرة على المواجهة.. مصرة على كشف الحقيقة.. مصرة على المعرفة.. ولكن هل تسمح لها سسبان بذلك؟ هل تستطيع أن تقف أمام عنادها المعتاد؟ تسألها سسبان عن سبب ذهابها إليهم.. تخبرها حورية بأن العمدة أكد لها أنهم من قتلوا أباه.. فتؤكد لها سسبان أن هذا ظن العمدة منذ وقتها.. ويبدأ عكاشة حواراته السريعة كطلقات الرصاص من الطرفين:

”- حورية: بس هو متأكد

- سسبان: لو كان متأكد ماكانش سابههم

- حورية: كان خايف عليا

- سسبان: لو كان خايف عليك ماكانش قال لك من أصله

- حورية: إنت عمرك ماشكتيش فيهم أبدا؟

- سسبان: أنا ماباشكش.. أنا أعرف وبس

- حورية: تعرفي إيه يا عمة؟

- قلته من يومها.. عمر وانتهى.. قضا وحل.. عيار طايش وصاب....“

من جديد نعود إلى العيار الطائش.. تبدو قصة سسبان مخالفة لقصة العمدة.. الحيرة تنهش حورية.. ترجوها سسبان ألا تذهب إلى

أخوالها.. هل تخاف عليها.. تؤكد سسبان أنها ليس عندها من تخاف عليه غيرها.. رواية العمدة إذن صحيحة، فليس هناك سبب لخوف سسبان إن لم تكن صحيحة.. هذا ما فكرت فيه حورية.. وأمام ذلك لم تجد سسبان إلا الإقرار بها.. ربما يكون فيها الحل لصرف حورية عن الذهاب إلى وجهتها.

تقر سسبان برواية صقر معتقدة أن فيها الخلاص، ولكن حورية تزدد إصراراً.. تريد أن تذهب إلى هناك فالعين بالعين والسن بالسن.. إنها لا تخاف من المواجهة.. صاحب الحق دوما هو الأقوى.. هذه هي الحقيقة التي وصلت إليها حورية.. إنها الأقوى بالحق الذي تملكه، ولكن الحق يحتاج إلى الحقيقة، وها هي تريد الوصول إليها.. وتنطلق حورية في طريق الحقيقة.

وتفشل حورية في الخروج من القرية.. كان الخفر يحيطون بها من كل جانب.. يحاصرونها من كل ناحية مانعين حورية من الخروج منها.. فرضت الإقامة الجبرية على حورية في الحلوانية.. لن تستطيع مغادرتها.. لن تصل إلى الحقيقة التي خرجت باحثة عنها.. ولم تجد في النهاية ملجأ إلا صباح.. تخبرها بما حدث.. ترى صباح أنهم فعلوا ذلك خوفاً عليها.. وتقر حورية بخوفهم.. لكنهم لا يخافون عليها.. يخافون نعم ولكن لسبب آخر.. ولكن من أي شيء يخافون؟ هذا ما تريد معرفته وفهمه.. إنها تشعر ولكنها لا تفهم.. وتتعجب صباح من إصرار حورية على الذهاب إلى أخوالها.. هل تتوقع منهم الإقرار بما فعلوا إن كانوا قد فعلوه؟ ولكن حورية توضح لها السبب الذي يدفعها للذهاب إلى هناك.. إنها تريد النظر إلى عيونهم.. وقتها ستعرف الحقيقة دون حديث أو كلام.. ستعرف كل شيء..

وتشعر حورية بأن شيئاً ما قد أصابها فلم تعد كما كانت.. تغيرت حورية كثيراً دون أن تعرف السبب.. ولكن صباح تكشف لها عن السبب.. السبب الذي غير القرية بأسرها وليس حورية فقط.. إنه

العائد بعد غياب رافعا راية الحق حاملا شعلة الثورة.. إنه الحسيني.. الحسيني الذي بمجيئه تغير الجميع.. قالها مروان لحورية قبل ذلك في غضبه. قال لها إنها تغيرت منذ مقدمه، والآن تقولها صباح، ولكن بشكل آخر.. نعم كان الحسيني هو السبب في كل شيء.

ومع غياب الحاكم في كل مرة يحدث التنازع بين أطراف السلطة.. صراع داخلي يشهده بلاط الحكم.. غاب العمدة عن القرية فيحدث النزاع بين شيخ البلد وشيخ الخفر.. يدخل الدمرداش على السنباطي غاضبا بعد أن منعه عزب من الدخول.. كيف يُمنع القائم بأعمال العمدة من الدخول على يد هذا الخفير؟ ويحاول السنباطي تهدئة الأجواء، موجها اللوم لعزب على فعلته تلك.. ولكن غضب الدمرداش لم يكن من عزب فقط.. لقد جار السنباطي على أرضه.. ولكن أي أرض هذه؟ إنه أيوب الخضري.. وصل الخبر إلى الدمرداش إذن.. عرف أن اتفاقا تم بين السنباطي والخضري.. كان الخضري تابعا للدمرداش.. كان يأخذ هو منه الأتاوة، وها هو السنباطي يتدخل ليفرض أتاوته.. إنه اعتداء مباشر من شيخ الخفر على شيخ البلد.. وبإله من اعتداء.. يختلفان على توزيع الغنائم بينهما.. كل يريد أن يأخذ نصيب الآخر.. هذه هي السلطة وهذا ما وصل إليه حالها.

ويهدد الدمرداش السنباطي بإخبار العمدة، ولكن الثعبان السنباطي يخرج حيلة جديدة من جراب حيله.. إنه يحمي مصالحهما معا.. ولكن كيف؟ لم يكن يفكر أبدا في وضع يده وحده على ما يأتي من أيوب الخضري.. كان الدمرداش يقبل بالفتات، ولهذا قرر أن يتدخل.. إنه لا يقبل بأن ينال شيخ البلد هذا الفتات.. ولهذا قرر أن يضع يده على نصف إيراد الخضري وسيعطي الدمرداش ثلثي ما سيناله من الخضري.. يكذب السنباطي كما يتنفس.. يأكل على كل الموائد.. لقد فرض على الخضري أتاوة الثلثين وليس النصف.. وها هو يأخذ الباقي لنفسه مع نسبته التي قالها للدمرداش.. إنه يكسب

من الجميع.. يكسب المال من ناحية ويضمن سكوت الدمرداش من ناحية أخرى.. أعطاه ما يسكته وكيفيه شره.

ونعود إلى مروان والحسيني.. لقد خرج الحسيني من الوحدة بعد أن استعاد قدرته بعد الأزمة التي مر بها.. يطلب منه مروان أن يتحدث مع حورية.. يريد أن يقنعها بأن تقبل إتمام الزواج وأن تقيم في بيت العمدة، وألا تصمم على الإقامة معه في بيت أبيهما.. في المقابل يطلب منه الحسيني أن يصبر على حورية.. إنها تمر بظرف صعب يستحق منه الصبر.. ويعد مروان بذلك.. وهل يملك مروان غير الصبر؟ وقبل أن ينصرف الحالم الصابر يفاجئه الحسيني بالسؤال عن يوسف العفي.. ما زال الحسيني متمسكا بكشف الحقائق كلها.. ما زال متمسكا في التفتيش في أوراق الماضي.

ويسأله مروان عما يريده من العفي.. ويحيب الحسيني بأنه عرف أنه كان صديقا لوالده.. ولكن ماذا يريد الحسيني؟ ما زال مروان لا يعلم ما يريده الحسيني.. إنه يريد أن يعرف أباه الذي لم يره.. يريد أن يراه في كل شيء.. كيف كان يعيش ومن أصدقائه وكيف قتل ومن قتله ولماذا؟ يريد معرفة كل شيء عن الأب الذي لم يره.

ورغم ذلك يحببه مروان.. العفي آخر شخص يمكن أن يساعد الحسيني، فقد اعتزل الناس جميعا وعاش على أطراف القرية.. فضل الابتعاد عن الناس والعيش في عالمه الخاص.. ها هو واحد جديد يضمه عكاشة إلى كتية الصامتين في هذه القرية.. لم يكتف بالصمت فقط ولكنه أضاف إليه الهروب.. هرب من الناس ليعيش بعيدا عن الجميع، مغلقا أبواب الماضي خلفه. رغم ذلك يسأل الحسيني عن مكانه ولكن مروان يؤكد أنه لا يعرف مكانه، ولكنه سيعرف.

ويلجأ مروان إلى العارف بكل شيء في هذه القرية.. وهل يعرف كل شيء غير ميلم؟ يستدعيه إلى بيت العمدة.. يهبه ثلاث برايز فضة..

يغضب ميلم.. أيستدعيه عن طريق الخفر ليعطيه الصدقة؟ ولكن مروان يوضح له أنه أراد منه أن يدلّه على شيء لن يستطيع قوله أمام الناس.. هنا يقولها ميلم بحسم، فما يقوله أمام الناس هو ما يقوله في الغرف المغلقة، فهو لا يخاف أحداً. ويصارحه مروان بطلبه.. إنه يريد معرفة مكان يوسف العفي.. ويأتي الرد مفاجئاً من ميلم.. لقد رد لمروان البرايز الفضة.. ولكن لماذا؟ ألا يعلم ميلم مكانه، أم يخاف عليه من مروان، أم يخاف على مروان نفسه؟ كلها احتمالات ممكنة وإن كان الأول بعيداً، فهل هناك شيء لا يعرفه ميلم؟

ويعرف مروان الطريقة التي يجعل بها ميلم يغير رأيه.. يخبره بأن الحسيني هو من يريد معرفة مكان العفي.. هنا يعود ميلم ويطلب البرايز الفضة ثانية.. لقد قرر القيام بالمهمة.. كان يعرف إذن ولكنه لم يكن يريد البوح.. ما زلنا أمام الاحتمالين؛ هل يخاف على العفي أم على مروان؟ ربما على كليهما.. ويهم ميلم بالانصراف فيستوقفه مروان.. ويؤكد له ميلم أنه سيأخذ الحسيني إلى العفي.. لماذا لا يريد إخباره هو؟ هل يكرهه ميلم؟ وينفي ذلك ميلم.. إنه يحبه.. يراه "غلبان.. وأنا ماحبش قد الغلابة".. لماذا يخاف منه إذن؟ يعلنها ميلم.. إنه لا يخاف منه.. إنه يخاف عليه.. ولكن من أي شيء؟ نعم هو ابن العمدة لكن حوله كثير من الغيلان، وحين يجتمعون عليه لن يحميه إلا أن يكون رأسه خالياً من أي شيء يقوله!

يعرف ميلم كل شيء حتى هذه.. يعرف الغيلان الذين يحيطون بالسلطة.. يعرف أن مروان لا يقوى على مجابتهم.. يعرف أنه لن يستطيع الوقوف أمامهم، ولن ينجيهم منهم إلا أن يظل هكذا.. لا يعرف شيئاً.. يعرف ميلم الفارق جيداً بين الحسيني ومروان.. إنها يملكان قدرات مختلفة.. الحسيني قادر على المواجهة.. إنه القوي الذي أتى ليحرك القرية بأسرها، أما مروان فهو الحالم الصبور الضعيف الذي لا يقوى على تحمل هذا الأمر.

ويذهب الحسيني إلى يوسف العفي في عزلته.. يقترب من ذلك المكان الذي لجأ إليه بعيدا عن القرية.. يعيش عيشة الزهاد في مكان ناء.. وعندما يقترب الحسيني يفاجأ بإطلاق النار فوق رأسه.. يخاف العفي من كل غريب يقترب منه إذن.. وينادي الحسيني عليه مخبرا إياه بأنه الحسيني بن صادق الحلواني.. يطلب منه العفي أن يظهر نفسه.. ولكن هل يعرفه العفي.. إنه لم يره قبل ذلك، فكيف له أن يعرفه؟ ولكن لم لا؟ ألم يكون صديق والده؟ يستطيع معرفته بمجرد النظر إلى عينيه.. كلهم عرفوه هكذا.. حورية وسسبان وحتى العمدة.. ويخرج العفي بشعره ولحيته الكثتين لاستقبال القمر الذي هل عليه.. لاستقبال الحسيني.

وما زالت حورية تبحث مع صباح عن حل.. ما دامت لا تستطيع الخروج من القرية، فلا بد أن يكون هناك بديل.. لا بديل سوى رشاد.. ولكن رشاد في القاهرة.. تذهب له صباح وتخبره بأن يذهب إلى أحوال حورية ليعرف منهم الخبر اليقين.. الخبر الذي لن يرتاح الحسيني وحورية إلا بمعرفته.

مشهد قصير قدمه لنا عكاشة بين حورية وصباح يكشف لنا خلاله أن الأخوين ما زالوا يبحثان عن الحقيقة، كل بطريقته.. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى يجعل المشاهد مترقبا لمعرفة ما يحدث بين الحسيني والعفي.

ويطلب العفي من الحسيني السماح، مناديا إياه بـ"سيدنا".. يؤكد له الحسيني أنه ليس العمدة.. ليس صادق الحلواني وإنما هو ابنه.. ربما يحسبه الحسيني مجذوبا بهيئته تلك.. ولكن العفي يؤكد له أنه العمدة.. إنه العمدة الحقيقي.. هو الأول بالمنصب، فهو ابن العمدة القديم والوريث الشرعي للمنصب من بعده.. ويبدأ العفي في الحديث.. لم يكن من الصامتين إذن.. كان فقط في انتظار الإشارة وها هي أتت.. كان في انتظار الحسيني.

وينطق العفي بالحق، لكنها تبدو معلومات متفرقة هنا وهناك.. صقر أخذ حق الحسيني في السلطة.. العمدة القديم قتل.. لم يكن العيار طائشا بل كان عارفا طريقه جيدا.. ويسأله الحسيني عن القاتل، لكن العفي ينكر معرفته.. عاد مجددا للصمت.. يؤكد له الحسيني أنه لا يريد الثأر.. إنه يريد الحقيقة فقط.. هنا يعود العفي للكلام.. الحقيقة هي الحق، ومن يفرط في الحق لا يستحق أن يصل إليها.. اطلب الحق لتصل إلى الحقيقة.. إنها رسالة تحريضية بامتياز.. يخرضه العفي على المطالبة بحقه من صقر.. يخرضه على المطالبة بالمال والأرض ثم السلطة بعدها.. ولكن الحسيني يتساءل عن "سلو البلد"، فيكشف له العفي عن أنه لم يأت إلا ليكشف زيف كل هذا.

ولكن هل يستطيع الحسيني أن يفعل كل ذلك وحده؟ هو نفسه يرى أنه لا يستطيع، ولكن العفي يؤكد أنه ليس وحده، فحورية معه.. ستساعده.. ستخبر أهل القرية جميعا بحقه الذي يريد الوصول إليه.. عليهما أن يرفعا صوتهما مطالبين بالحق ليصلا إلى الحقيقة، ومع أول صوت يعلو سيبدأ الجميع في رفع الصوت والمطالبة بالحق ومن بعده الوصول إلى الحقيقة.

وتدق الكلمات باب قلب الحسيني وعقله.. "الكل يطلب حقه وتبان الحقيقة".. كانت هذه هي الكلمة المفتاحية لحكايتنا كلها.. الكلمة التي أراد عكاشة غرسها في النفوس.. اطلب الحق لتصل إلى الحقيقة.. ارفع راية الحق لتصل إلى الكشف.. كشف كل الحجب.. إنها رسالة أقرب ما تكون إلى عالم الصوفية، كقرب العالم الذي يعيشه العفي من عالم الزهاد أنفسهم.. إنه عالم الكشف الحقيقي.. العالم الذي وجد الحسيني نفسه منجذبا إليه على وقع كلمات العفي.. ومن عالم الزهاد الباحثين عن الحقيقة نعود إلى عالم أصحاب السلطة سارقي الحقوق.. يعود العمدة من البندر ليتلقى تقريراً بما حدث من السنباطي.. لا يصدق صورة الحمل الوديع التي يتخفى

فيها السنباطي مبررا إنقاذه الحسيني.. العمدة يعرفه جيدا ويتذكر وسوسته يوم أن أصيب مروان وتبرع له الحسيني بدمائه.. يومها قال ماذا لو أخذنا منه كمية أكبر ليموت؟ ويبرر السنباطي ذلك بأنه وقتها لم يكن ابن أخي العمدة، أما اليوم فقد عرف الجميع أنه ابن صادق الحلواني، وعليهم حمايته.. ويصدق العمدة الكذبة على مضض، مدركا أن وراءها شيئا آخر.

ويبلغ السنباطي العمدة كذلك بمحاولات حورية الخروج من القرية ومنعها من ذلك عن طريق رجاله المتشربين في كل مكان، ويثني عليه العمدة طالبا منه الاستمرار في ذلك حتى يتم الزواج وتسكن حورية "المنزل" تحت سمعه وبصره.

أما آخر نقطة في التقرير فكانت أن الحسيني يبحث عن شيء ما داخل بيت والده.. ولكن ما هذا الشيء الذي يبحث عنه؟ السنباطي لا يعلم، ولكنه سيعلم بكل تأكيد، وسيكون هذا الشيء في يد العمدة فور الوصول إليه.. ويدخل القلق العمدة ثانية، فالحسيني لم يطلب منه أي شيء إلا أن يسكن في بيت أبيه.. تصور وقتها أن الحسيني يشاق إلى بيت أبيه الذي لم يدخله يوما.. ولكن.. ما الذي يبحث عنه الحسيني هناك؟

كان هذا هو التقرير كاملا ولكن هل عرف السنباطي أن الحسيني قابل العفي؟ أعرف ولم يخبر العمدة، أم أنه لم يعرف بأمر تلك الزيارة؟ هل استطاع الحسيني أخيرا أن يفعل شيئا دون أن ترقبه عيون البصاين المنتشرة في كل مكان؟ ربما تكون هذه أول خطوة في الوصول إلى الحقيقة التي يبحث عنها في كل مكان.

ويعود الحسيني من رحلته إلى يوسف العفي.. يجد حورية في انتظاره.. تسأله أين كان فلا يخبرها بأمر هذه الزيارة التي قام بها.. وهنا تسأله حورية مباشرة عن زيارته يوسف العفي.. كانت تعرف

إذن.. ولكن من الذي أخبرها؟ ربما مروان، وربما ميلم.. ليس مهما من الذي أخبرها.. المهم أنها عرفت، والأهم أن الحسيني يجب بأن العفي أطلق عليه النار فخاف وهرب.. يكذب الحسيني على أخته حورية.. لم ينفذ وصية العفي نفسه.. أوصاه بالاستعانة بحورية، وها هو يكذب عليها.. الكذب لا يوصل إلى حق ولا حقيقة يا حسيني.. الكذب خوف، والخوف طريق الصمت، فهل يضل الحسيني الطريق بعد أن وصل إلى بداية النور في طريق السالكين إلى الحقيقة؟

وتسأله حورية السؤال الآخر.. عن أي شيء تبحث في البيت؟ ويكذب الحسيني ثانية على حورية، مدعياً أنه يشغل وقته.. تكشفه هذه المرة، فيقول لها إنه يبحث عن أي خطاب من أمه إلى أبيه.. لا يملك أي شيء بخط أمه التي كانت حياته كلها.. تصدقه حورية هذه المرة، ولكن هل كان يقول الحقيقة كاملة؟ لقد بدأ الحسيني يكذب ويكذب، فهل يستمر في طريق الكذب؟

ويغير الحسيني مسار الحديث.. لماذا تغضبين مروان يا حورية؟ كان هذا هو السؤال الذي سأله.. وتكشف له حورية عن السبب.. إنها تريد أن تقيم معه في بيت أبيها.. ولكن الحسيني ينتفض مؤكداً لها رفضه ذلك.. وتفاجئ الإجابة حورية، ولكنه يبرر ذلك بأنه لا يريد أن يغير مسار حياتها وحياة الجميع.. وترد حورية بأن هذا ليس السبب الوحيد.. إنها ترى مروان ضعيفاً أمام أبيه وهي لا تريد لزوجها أن يكون كذلك.. ويفاجئها الحسيني بالسؤال: هل تكره العمدة؟ وترد حورية مستنكرة السؤال: إنه من رباها وكان نعم الأب لها فكيف لها أن تكرهه؟ ويباغتها الحسيني بالرد ثانية: ربما تغير ذلك بعد مجيئه!!

إنه يكرر الكلام نفسه الذي قاله مروان لحورية غاضباً، وصباح موضحة.. الكلام ذاته يتكرر.. كان الحسيني نقطة التحول التي غيرت كل شيء.. وتقر حورية بذلك أيضاً.. نعم لقد بدل الحسيني كل شيء.. بدّلها هي ذاتها.. لقد أصبحت ترى ما لم تره قبل ذلك.. أزيحت كثير

من الحجب.. بدأت طريق الحقيقة.

ولكن الحسيني وقع في المحذور.. لقد كذب منذ قليل، فهل يكذب من يدفع إلى البحث عن الحقيقة؟ وهل يستمر في طريق الكذب بعد أن وقع فيه؟ الإجابة تأتي سريعا من عكاشة.. مثل الحسيني لا يطبق ذلك، ولهذا لم يكن غريبا أن يقر في النهاية.. لقد قابل يوسف العفي.. هكذا يصرح لحرورية.

وننتقل إلى العفي ومجذوبه ميلم.. يرى ميلم أن الحسيني لن يقوى على مواجهة صقر.. ويرد العفي بأن حرورية ستقويه.. ويؤكد ميلم أن حرورية لن تستطيع أيضا فهي فتاة في النهاية، فيرد العفي بأن الحسيني سيسندها.. إنها يستطيعان معا.. ربما لا يستطيع أحدهما ولكنها معا سيفعلانها.

ويردد العفي الكلام الذي فهمناه من المشهد الذي جمعه بالحسيني.. ألم نقل بأن الحسيني كان الإشارة التي جاءت بعد ذلك الزمن الطويل؟ ها هو العفي يقولها الآن.. الحسيني إشارة جاءت له ليتحرك ويتحرك الجميع.. يراها ميلم إشارة ضعيفة، ولكن العفي يرى أن عليهم النفخ فيها.. كل من في صدره نفس سينفخ فيها لتقوى الإشارة وتقود الجميع.

ونذهب لحرورية والحسيني من جديد.. حرورية تردد كلمات العفي كالمجذوبة.. "الحق قبل الحقيقة.. حقك أرضك ومالك.. مع أول لسان ينطق ألسنة كثيرة هتتفك عقدتها والكل يطلب الحق والحقيقة تبان.. كلام يحمل الصدق، ولكنه يحمل الخوف أيضا.. الخوف من باب الأسئلة الذي يفتحه.. من الذي يطلب الحق؟ ومن يطلبه؟ وما حقوق الكل، وما علاقتها بالحقيقة المنشودة؟ وما سبب عقد الألسنة؟ لماذا يسكت الناس؟ يكشفنا عكاشة بكل الأسئلة التي دارت في رؤوسنا.. تردها الآن حرورية واضحة وضوح الشمس.

ويخبرها الحسيني برسالة العفي.. لقد طلب منه أن يقول لها وأن تقول هي لكل القرية.. ولكن ماذا تقول لهم؟

وتذهب حورية بالسؤال إلى عمتها، ولكنها لن تجد إجابة بالطبع، فمنذ متى تقدم سسبان الإجابة عن الأسئلة؟ تغضب سسبان من حورية.. تطلب منها أن تردد كلمات العفي أمام أهل القرية ليقولوا عنها إنها مجنونة مثله.. هذه نظرة أهل القرية للعفي إذن.. لا تختلف نظرتهم له عن نظرتهم لميلم.. كل من يتكلم يروونه مجذوبا.. كل من يعرف الحقيقة ينظرون إليه على أنه مصاب في عقله.. كل من يملك اليقين وتُكشف له الحجب مختل.. هذه هي نظرة أهل القرية ورؤيتهم.

تؤكد لها حورية أنها لن تردد كلام العفي.. لن تخبر أهل القرية به.. ستخبرهم فقط بما ستعرفه منها، ولكن هل ستخبرها سسبان بشيء؟ لن تخبرها بأي شيء.. لن تتكلم أبدا.. تريد حورية أن تفتح خزائنها دون جدوى.. وتتفض سسبان عندما تقترب حورية من خزانة ملابسها.. تظنها ستفتحها.. إنها الخزانة التي يسكن فيها الماضي.. تضع فيها سسبان ملابس أخيها صادق الملوثة بالدماء.. وتمنع سسبان حورية من فتح الخزانة التي لم يخطر ببالها أن تفتحها.. هنا تصر حورية على فتح الخزانة بالفعل.. وتفاجئنا سسبان بصفعها على وجهها في صدمة مروعة لحورية التي تسرع بالخروج من الغرفة ومن البيت كله، غير ملتفتة لنداء عساكر عليها.

وتدور عساكر في كل مكان باحثة عن حورية.. تبحث عنها عند صباح.. عند الحسيني.. في بيت العمدة.. لقد اختفت حورية.. لم تجد لها أثرا.. ويبدأ الجميع في رحلة البحث عنها.. يسخر العمدة كل رجاله للوصول إليها.. ويطلعنا عكاشة على مكانها.. لم يكن هناك مكان تستطيع الذهاب إليه إلا هناك.. لم يكن لديها إلا أن تذهب لأبيها.. ذهبت إلى قبره لتشكو له.. ضربتها عمتها.. ضربتها لتمنعها

من الوصول إليه.. يمنعونها كلهم من بلوغ غايتها والوصول إلى أبيها.. يخافون من عودته إلى الحياة.. وهنا يدخل العمدة عليها.. كان الوحيد الذي عرف مكانها.. عرف أين تكون..

وجدها العمدة.. ولكنه وجدها بعد أن عرفت وجهتها، وعرفت طريقها المنشود.. إنه طريق أبيها.. طريق إعادته للحياة.. طريق الحقيقة، والحق قبلها.. الحق الذي نادى به وبحث عنه.. وستواصل حورية رحلته التي بدأها قبل أكثر من عشرين عاما.. ويستمر الحريق.

ويبدو لافتا - خلال هذه الحلقة - تلك التقنية الحوارية التي استخدمها عكاشة بكثافة.. إنها الجمل القصيرة بين المتحاورين.. جمل قصيرة من هنا وهناك كما رأينا في مشهد حورية وسسبان.. يستخدم عكاشة هذه التقنية دوما ولكنها هنا بدت ظاهرة بوضوح.. تجعل المتلقي / المشاهد يلهث أثناء المشاهدة.. يبدو حريصا على ألا يغمض له جفن أثناء المشاهدة، فهذا يعني أنه سيفقد جزءا من الحوار.. جزءا ربما يكون فيه إجابة عن سؤال.. وما أكثر الأسئلة التي يطرحها عكاشة في كل مشهد. الخلاصة أنه حريص دوما على أن يتابع كل لحظة من لحظات الحريق المشتعل في كل مكان.. حريص على جذبنا لمعرفة كل التفاصيل دون أن تُفُلت تفصيلة ربما تعني الكثير.

الدليل المفقود.. ورحلة البحث

وتستمر الحكاية.. يشتعل الغضب في صدر العمدة مما تفعله حورية.. ها هي فضيحة جديدة تتسبب فيها بعد خروجها من بيت العمدة، والبحث عنها في كل مكان حتى وجدوها عند قبر أبيها.. تدافع حورية عن نفسها.. لقد ضربتها سسبان وهي التي لم تفعل ذلك معها وهي طفلة صغيرة.. ويحاول مروان الدفاع عن حورية، ولكن العمدة يسكته.. لا أحد يتكلم في حضوره.. هو فقط من يتكلم.. هو الأمر الناهي الذي لا راد لكلامه.

ويستمر صقر في خطته التي وضعها.. سيتم الزواج ليسلمها إلى رجل يحكمها ويكون مسئولاً عن أفعالها.. لا تفعل شيئاً إلا بإذنه.. ولن تتحرك من بيت سسبان إلا إلى "المنزل" مع عقد القران.. هنا تخبره حورية بقرارها، فلن تتزوج إلا في بيت أبيها، وقد أبلغت مروان بذلك. وكعادة الحالم دوماً يتدخل مروان مؤكداً قول حورية، ولكن ضعفه يغلبه فيقول إنها طلبت ذلك، ولكنهما اختلفا عليه.. لم يقبل إذن.. وهذا ما التقطه العمدة مؤكداً رفضه هو الآخر.. لن يكون هناك زواج إلا في "المنزل".

ورغم كونها صاحبة الفكرة فإن سسبان تتدخل موضحة للعمدة أن هذا خطأ، فسيعطي ذلك الفرصة لحورية مجدداً لتكرار ما فعلته ليلة أن رفضت الزواج أمام الجميع.. لا حل إلا الزواج في بيت صادق، والعيش مع الحسيني.. ويوافق مروان على ذلك.. وأمام كل هذا لا يملك العمدة إلا الموافقة.. يتراجع العمدة أمام إصرار حورية وعنادها، لتسجل انتصاراً عليه.. إنه انتصار في جولة صغيرة، ولكنه انتصار على أية حال.

وتأتي المفاجأة من الحسيني.. إنه يرفض أن تقيم معه حورية ومروان، ويبرر ذلك بأن البيت يحتاج إلى ترميم وتجهيز، وهذا سيأخذ وقتاً.. ونجد أنفسنا نسأل: لماذا يريد الحسيني أن يظل وحيداً في البيت؟ لأنه يريد البحث عن شيء دون تدخل من أحد؟ وما الشيء الذي يبحث عنه ولا يريد لأحد أن يعرفه؟

ونعود إلى حورية.. إذن لا مفر من تأجيل الزفاف. ولكن مروان يشعر بأن حورية تبحث عن أي سبب للمماطلة.. ألم تعد تحبه؟ ولكن كيف؟ إنه مروان الذي لا تستطيع أن تفكر يوماً في أن يكون لها زوج غيره.. ويحسم مروان الأمر.. سيتم الزفاف في موعده على أن يقيم العروسان في "المنزل" مؤقتاً لحين الانتهاء من ترميم بيت صادق. ولم تجد حورية ما تفعله.. توافق في نهاية الأمر على الزواج.. ولكننا من جديد نشعر بأن زواجنا لن يتم.. خط الدراما يقول ذلك.. أنسينا نبوءة ميلم؟ لا فرح بعد ذلك في الحلوانية.

وتلوذ حورية إلى حجرتها.. تنفرد بنفسها.. تسأل نفسها عن سبب التغيير الذي أصابها.. أليس هذا هو مروان الذي كانت تعد الليالي لتذهب إلى بيته؟ هل تغير مروان؟ التغيير أصابها هي.. أصابها يوم جاء الحسيني.. إنه تردد كلمات مروان وصباح والحسيني نفسه.. لقد غير الحسيني كل شيء.. غيره حين جاء حاملاً على كتفيه حملاً تنوء به الجبال.. غيرها يوم أن رأت أن عليها أن تحمل هذا الحمل معه.. كان هذا هو الحوار الداخلي/ تيار الوعي الذي اختار عكاشة أن يكون تقنيته المستخدمة للكشف عما يدور داخل حورية.. تقنية اعتاد عكاشة أن يستخدمها أكثر من مرة للكشف عما داخل النفوس المغلقة.

وتدخل سسبان على حورية.. تحاول إرضاءها فهي أمها التي ربتها.. لم تقسُ عليها يوماً.. كانت دوماً الحانية عليها والمحبة لها.. وتعود حورية لما كانت عليه.. تعود للأسئلة.. لماذا ارتعبت سسبان

بمجرد الاقتراب من خزانة ملابسها؟ ما الذي تخفيه داخلها؟ وترد سسبان بأن لها أشياءها الخاصة التي لا يجب لأحد أن يعرفها.. الرد لم يكن مقنعا لحرورية، فتستمر في النيش في الماضي.. ولكن سسبان تحذرها من ذلك، فأمامها طريق السعادة مفتوح.. لماذا إذن تعود إلى الماضي؟ عليها أن تفكر في مستقبلها وزواجها وأبنائها المنتظرين.. لماذا تترك كل هذا لتشغل نفسها بماض تم دفنه؟ الماضي ملك لمن عاشوه فقط، وسواء كان يسعدهم أو يربعهم فهذا حساب يدفعونه هم، ولا دخل لها به، بل عليها أن تبتعد عنه. كانت هذه كلمات سسبان الكاشفة لأسباب صمتها.. صمتت لأن الماضي ليس إلا ملكا لمن عاشه.. هذه هي نظرتها للأمور.

ولكن هل هذه هي الحقيقة؟ لولا الماضي ما كان الحاضر والمستقبل.. الماضي ملك للجميع يا سسبان وستظل حورية مشغولة به لتعرف حاضرها ومستقبلها.. يدور ذلك في رأس المتلقي/ المشاهد وهو يسمع كلمات سسبان.. إنه المنطق الذي رسخه عكاشة.. لقد أصبح المشاهد يفكر ويبحث ويتوقع ويسأل ويجزن ويغضب ويفرح.. أصبح جزءا من الحدث.

ومن الحلوانية تنتقل إلى القاهرة.. تذهب صباح إلى رشاد محملة برسالة حورية الباحثة عن الحق والحقيقة.. تطلب منه الذهاب إلى أخوالها.. ولكن هل يذهب إلى من لا يعرفهم للتحقيق معهم؟ وترد صباح بأنه صحفي وسيعرف كيف يتصرف.. ولكن كيف؟ يترك عكاشة السؤال مفتوحا.. يعود عكاشة للمشاهد القصيرة غير المحسومة ليظل المتلقي/ المشاهد يفكر.. هل سيقبل رشاد الذهاب إلى أخوالها بحثا عن الحقيقة؟ وماذا سيفعل هناك إن قبل؟ كيف سيصل إلى الحقيقة المنشودة؟ أسئلة يتركها عكاشة في العقول والصدور لنتنظر الإجابة عنها فيما هو قادم.

ويعود بنا عكاشة سريعا إلى الحلوانية، وتحديدًا إلى مقر الحكم.. إنه

موعد اجتماع صقر مع عامة الشعب من المحتاجين إلى المنح والعطايا.. ومع بداية الاجتماع يدخل الحسيني وكلمات العفي تتردد في رأسه وقلبه.. يرحب به صقر، ويعرفه لأهل القرية، ويقرأ الفاتحة لأبيه.. ومع انتهاء الجميع من قراءة الفاتحة يظهر ميلم.. يعلو صوته مؤكدا أنهم جميعا من المغضوب عليهم.. كلهم من الضالين ما داموا قد ارتضوا السكوت وجعلوه سبيلا لهم.. ولكن الأجل اقترب ووقت الحساب على الأبواب. ويغضب العمدة من كلمات ميلم فيأمر بطرده.

ويبدأ الاجتماع الذي يلعب فيه الحسيني دور المشاهد.. يرصد العمدة وهو يعطي ويمنح ويخطب في الوقت ذاته.. لا بد من خطبة للحاكم في مثل هذا اليوم.. وتأتي الفرصة للعمدة حين يطلب شاهين أحد رجال الحلوانية منه المنحة لسداد احتياجات ابنه عمر طالب الطب.. يلومه العمدة على إلحاق ابنه بالتعليم العالي.. ويبدأ في خطبته العصماء التي تضع قانون الحلوانية الذي يجب أن يسري على الجميع.. التعليم ليس سبيلا للمباهاة والتفاخر.. كان قادرا على إلحاق مروان بأعلى الجامعات ولكنه أبى، فابن الفلاح لا بد أن يكون فلاحا.. ماذا ستفعل الأرض دون أن تجدد من يزرعها ويرعاها؟ وما دام الأمر كذلك فهو لن يمنح بعد ذلك من أجل تعليم عال، ومن أراد خلاف ذلك فليأخذ ثمن أرضه ويغادر تاركا الحلوانية.

كانت هذه استراتيجية العمدة.. لا مكان للعلم هنا.. العلم لا يولد إلا الفهم والسؤال، وهما أول طريق الحق والحقيقة.. رأى ذلك في الماضي من العمدة القديم الذي سافر إلى البندر ليعود غير ما كان.. ورآه من رشاد.. ورآه من شباب الحلوانية الذين بدأ صوته يعلو.. لن يسمح بذلك ثانية.. ستغلق الحلوانية على نفسها، وتفرض قوانينها الموروثة على الجميع.

ويقدم عكاشة مشهدا كاشفا للسلطة وما يدور في دروبها.. ينسحب الدمرداش والسنباطي من القاعة التي تشهد الاجتماع.. أدركا أن الخطبة

قد بدأت وأنها ستطول.. لا حاجة لوجودهما إذن.. يدخلان إلى غرفة أخرى ليستريحا ويشربا الشيشة انتظارا لانتهاء العمدة من خطبته العصماء.. ويتهامس الرجلان بينما يلوح في الخلفية صوت العمدة مدويا.. بيدي السنباطي إعجابه بالعمدة وكلماته التي يرددها.. ويرد عليه الدمرداش بأن من يسمع ذلك يحسبه حقيقة.. ويؤكد السنباطي أن من يتأمل الكلام لن يجد فيه شيئا غير الحقيقة، فيرد الدمرداش ثانية بأن المدقق سيرى شيئا آخر.. هنا يطلب السنباطي منه الصمت فـ“الحيطان لها ودان”.. ليكون الرد من الدمرداش: “ما الودان تبعك يا شيخ الخفر”.

مشهد جديد يوضح لنا عكاشة من خلاله أروقة السلطة.. إنها نفسها لا تصدق ما يقوله رأسها.. ولكن هذا لا يدور إلا في الغرف المغلقة.. يرددون كلماتهم همسا كاشفة ما في الصدور، وفي العلن يقولون خلاف ذلك.. في العلن يكذبون كما يكذب زعيمهم.. ورغم أن السلطة بأيديهم فإنهم يخافون.. يخافون حتى في الغرف المغلقة.. يخافون حتى من أذانهم التي يضعونها هنا وهناك، فربما كانت هناك أذان أخرى تنصت عليهم لتنتقل أخبارهم إلى آخرين.. هكذا هي السلطة.. وهكذا يقدمها لنا عكاشة.

ويعود عكاشة لاستخدام الحوار الداخلي/ تيار الوعي ثانية، ولكنه هذه المرة من خلال الحسيني.. الحسيني الذي كان يشاهد ما يحدث أمامه.. يستمع لخطبة العمدة التي طالت، ليستغرق في أفكاره.. يتذكر كلمات العفي.. يحاول جاهدا أن يطلب الحق.. إن هذا ما دفعه للمجيء.. يجمع كل قواه لكي يتحدث.. لن يجد فرصة كهذه ليقولها أمام الناس.. يعلي بها صوته ليسمعها الجميع وتفك عقدة الألسنة التي اعتادت الصمت وألفته.. يحاول الحسيني مرارا ولكن دون أن يستطيع.. ويحاول ويحاول ولكن دون جدوى، لينسحب من المكان في النهاية، وتتأكد رؤية ميلم الذي أشفق على الحسيني من المواجهة..

رآه الإشارة فقط، ولكنه لا يستطيع أن يفعلها وحده.

ويذهب الحسيني إلى حورية.. هي التي تستطيع أن تفعلها وليس هو.. وتسأله حورية عن السبب.. أهو خائف؟ ولكن الحسيني يوضح لها أنه ليس خائفا.. إنه لا يريد.. لا يريد شيئا.. لا يريد أرضا ولا مالا.. فترد بأنه حقه.. ولكن من طالب بالحق في الحلوانية قبله؟ كان هذا سؤال الحسيني ليأتيه الرد من حورية.. إنه الأول، وكل أول سيليه الثاني.. إنها تردد كلام يوسف العفي.. الكلام الذي نقله لها الحسيني لتنقله للناس.. وتعلن حورية تحملها المسؤولية.. ستأتي بحق أخيها ويوم تأتي الحقوق ستنكشف الحقيقة كلها. وتطلب حورية من الحسيني أن يذهب بها إلى العفي.. ولكن كيف؟ الخفر يحيطون بالقربة كلها ليمنعوا حورية من الذهاب إلى أخوالها.

ونذهب إلى العفي لنجد ميلم هناك.. الأوبة يلتقون دوما.. يداوي يوسف جرح ميلم.. هو من يداوي الجراح إذن.. أصيب ميلم من اعتداءات الخفر عليه حينما أرسل رسالته للجميع عند اجتماعهم في دار العمدة.. كان العفي قد طلب منه أن يزيد من رسائله وها هي النتيجة.. أیظل يرسل الرسائل فيستمررون في إيذائه؟ هل يتحمل ذلك؟ إنه يزيد من الكلام والكلام لا يؤلم، أما هم فيزيدون من الضرب وهو شديد الإيلام.. هنا يتدخل العفي مؤكدا أن الكلام حين يكون في الحق يسبب ألما أكثر.

ويتعجب ميلم من تغير العفي.. إنه لم يكن كذلك قبل مقدم الحسيني.. ومن جديد يؤكد لها عكاشة على لسان العفي.. الحسيني هو الإشارة.. إشارة التغير التي كان ينتظرها وقد أخذ العهد على نفسه منذ سنوات طويلة أن يفعل ذلك عندما تصل.. ولأول مرة يبدو ميلم غير فاهم ما يقال.. يسأل العفي عما يقصده بالإشارة، ويأتي الرد من العفي عن طريق فتح باب الماضي.. كان مع صادق في الليلة الأخيرة له.. طلب منه الرحيل، ولكن العمدة القديم رفض،

فليس هو من يهرب من معركة.. أكد له أن يوما سيأتي وسيعود فيه الحسيني.. سيعود رافعا الراية والسيف للوصول إلى الحق والحقيقة.. يومها ستضوي نار الحق في ليل الحلوانية.. كانت هذه هي الإشارة إذن، وها هو برأها شاخصة أمامه.

ويصل مندوب حورية إلى الحلوانية.. عاد رشاد من رحلته.. يراه الخفر مفسرين العودة بأنه ”داع حلاوة الفلوس“.. في اللحظة ذاتها نرى ميلم يقود عربة محملة بأجولة التبغ تمر أمام الخفر على مدخل القرية.. أين أنت ذاهب يا ميلم؟ هل تصطحب حورية للذهاب إلى العفي؟ هذا ما سيخطر ببالك وأنت ترى هذا المشهد.. ويتعجب الخفر بقيادة عزب من عمل ميلم الجديد.. هل ترك الشحادة ليعمل عريحا؟

وتلتقي حورية بالعفي.. ليس عنده كلام آخر غير ما قاله للحسيني.. هكذا يقول العفي، ولكن حورية تؤكد أن لديه كل شيء.. هنا يقول لها إنه ليس لديه الحق في أن يقول بلا دليل.. إنه يردد الكلام ذاته الذي قاله الحناوي منذ قليل.. إنه الدليل ثانية.. الدليل الذي يجب أن يكون موجودا أمامهم ليستطيعوا الوصول إلى الحق.. لو كان عنده الدليل لما انتظر كل ذلك.

وتحته حورية على الحديث، فعليه الكلام وعليهم الدليل، ولكن العفي يقول لها: "كان غيركم أشر". ويعود بنا عكاشة إلى الماضي لنرى العفي والحناوي وشاهين وهم أصغر بعشرين عاما.. كانوا أقوياء ويمتلكون القدرة على الكلام.. ولكنه الكلام دون دليل.. كان هذا هو سبب الخلاف بين العفي من ناحية والحناوي وشاهين من ناحية أخرى.. كان العفي يبغض صمتهم، وكانوا يرون أنه لا كلام دون دليل.. كره العفي صمتهم ولهذا قرر عزائهم جميعا.. قرر الخروج من الحلوانية، معلنا أنه حرم على نفسه العيش معهم، ولن يتكلم أبدا إلا بعد أن تأتبه الإشارة ويبدأ الجميع في البحث عن الحق.. وقتها سيتكلم وتظهر الحقيقة.. ها هو العفي يكشف عن مغزى كلماته التي ظل يرددها وحفظها الحسيني وحورية: "الحق قبل الحقيقة".. الآن أصبحت الأمور واضحة جلية.

ويعود بنا عكاشة إلى حورية والعفي الذي يؤكد لها أنهم كانوا أقوياء ولكنهم لم يستطيعوا في النهاية، ولهذا لا بد من أن يتحرك الكل.. لا بد أن تتفض القرية كلها مطالبة بالحق الضائع. وتصل الرسالة كاملة إلى حورية.. وتقرر حمل الأمانة.. ستحملها وستطالب بحقها وحق أخيها وحق الجميع. ويطلب العفي من ميلم توصيل حورية من حيث أتت محذرا إياه من أن يعرف أحد بأنها كانت عنده.. وتتعجب حورية من كلماته.. أما زال خائفا بعد كل هذا؟ نعم إنه يخاف عليها، فهي الأمل المنشود.. ولكن هل تخاف حورية.

هل تعرف معنى الخوف بعد كل ما عرفته؟

ويأتي الرد مباشرة من عكاشة في المشهد التالي.. ميلم وحورية يدخلان القرية معا.. يمران على الخفر ويلقيان التحية عليهم.. حورية لا تخاف.. تعلن الحرب صريحة.. تعود أمام الجميع كاشفة عن خروجها من القرية.. ولكن أين كانت؟ أين ذهبت؟ هل ذهبت إلى أخوالها؟ ستظل هذه الأسئلة تطارد الخفر الذين صدموا لعودتها أمامهم.. لن يسألوا عن كيفية خروجها فقد أدركوا ذلك جيدا الآن.. عودتها مع ميلم كشفت لهم طريقة الخروج.

ويذهب الخفر إلى كبيرهم السنباطي.. يشتعل غضبا مما حدث.. ولكن ما المدة التي غابتها حورية خارج القرية؟ يؤكدون له أنها لم تغب كثيرا.. ربما ساعة.. هذا يعني أنها لم تذهب بعيدا.. يريدون تأكيد أنها لم تذهب إلى أخوالها ربما يجدون في هذا سبيلا للعفو عنهم.. لا يعلمون أن حورية ضربت عصفورين بحجر واحد.. لقد خرجت للقاء العفي، وأرسلت رشاد إلى أخوالها لتعرف الحقيقة من هنا ومن هناك.

ويطلب السنباطي من عزب إحضار ميلم للتحقيق معه، فيخرج للبحث عنه تاركا السنباطي الذي يجتمع بالخضري.. يخرجان الغنائم لاقتسامها، وبعد أن يأخذ السنباطي الأتاوة يقر للخضري بأن لديه الرخصة الآن.. ولكن الخضري ثعبان هو الآخر.. ها هو يستغل الظرف.. إنه يريد توسعة مكانه.. لا يكتفي بمحل البقالة وجلسة الأنس التي يعدها كل ليلة.. إن عينه على مقهى عزازي.. ويجد السنباطي ضالته في ذلك.. لم ينسَ وطنية وما فعلته معه.. ما زال يريد، وربما يكون في ذلك السبيل إليها، كما أنه سيتخلص من ذلك المكان الذي يضم شباب أهل القرية الذين عرفوا مؤخرا كيف يكون الكلام.. ما زال يريد إسكات الجميع.

ويحضر الخفر ميلم إلى السنباطي.. ويبدأ في التهديد والوعيد.. يهدده بأنه إن لم يقل له ما يريد فسوف يقضي الليلة مع عزب.. ويفرح عزب بوليمته المنتظرة.. ويسأل ميلم السنباطي عما يريد. يريد السنباطي بالتأكيد أن يعرف أين كانت حورية، ولا بد أن ميلم سيحجب، وإلا ما كان ليكشف عن نفسه وحورية عند عودتهما من عند العفي.. وعندما يسأله السنباطي يسخر ميلم منه.. لأجل هذا استدعاه وضربه وهدده؟ إنه لا يريد إلا "بريزة فضة" وسوف يجيبه عن السؤال.. ويعطيه السنباطي مراده، فيخبره ميلم بأن حورية كانت عند يوسف العفي.. لم يكذب ميلم.. هكذا نتأكد مما وصلنا إليه.. لقد تركت حورية الخوف.. أعلنت الحرب واضحة جلية أمام الجميع.. بدأت رحلة البحث عن الحق الذي سيصل بها إلى الحقيقة.

ويطير الخبر إلى العمدة.. يثير ذلك السؤال في نفسه: ماذا تريد حورية من يوسف العفي؟ ويذكره السنباطي بأن طريق الحناوي يؤدي إلى يوسف العفي في النهاية.. يراه السنباطي ثعبانا كبيرا.. كان يرى قطع رأسه منذ زمن، بينما رأى العمدة أن يتركه لحاله ما دام قد ذهب بعيدا عن القرية كلها.. ولكن ها هو يعود الآن ليصل إلى حورية.

ومن جديد يؤكد العمدة أنه لا خوف من العفي فهو "جعجاع وبتاع كلام"، ولكن السنباطي يؤكد له أنه يملك غير الكلام، ولكن يبدو أن العمدة قد نسي.. ويرد العمدة بأنه لم ينس، وأنه إن نسي فلا يمكن للسنباطي أن ينسى هو الآخر. ويدق السؤال باب المشاهد: ما الذي لا يمكن أن ينساه السنباطي؟ ماذا فعل العفي معه؟ وتأتي الإجابة سريعا.. مرة ثانية يعود بنا عكاشة إلى الماضي.. العمدة والسنباطي والعفي أصغر بعشرين عاما.. يعلن العفي أن لديه شرطا واحدا.. لا نعرف مقابل أي شيء.. ليس مهما الآن.. ما هذا الشرط الذي يضعه العفي أمام العمدة؟ الشرط هو إطلاق النار على السنباطي.. ويتهم

السنباطي العفي بالجنون، فيعاجله العفي بضربة من عصاه فوق عينه اليسرى لتتفجر الدماء من رأسه.. ثم يوجه كلامه إلى صقرم مؤكداً أن الحلوانية ستكون محرمة عليه إذا أصبح عمدة لها وأنه سيظل اللسان الوحيد الذي سيعود للنطق بالحق.

ويعود بنا عكاشة من رحلته إلى الماضي إلى العمدة والسنباطي.. عرفنا الآن السبب الذي يجعل السنباطي لا ينسى.. إنها الضربة التي تركت ندبة في حاجبه ظلت ظاهرة إلى هذا اليوم.. كانت هذه هي العلامة التي لا تنسى.. ورغم ذلك يصر العمدة على عدم التعرض للعفي، فما دام بعيداً عن القرية فلا خوف منه ولا قلق.

ويتقل بنا عكاشة إلى ملح الدراما.. إنه الحب.. ولكن قصة الحب هذه المرة ليست قصة حب مروان وحورية.. إنها قصة جديدة وحب جديد.. حب بدأت بذرتة تنمو في قلبي الحسيني وصباح.. الحب الذي يظهر في العيون.. ولكن أمن حق الحسيني أن يحب وهو المهتد بالموت في كل لحظة؟ يستطيع أن يحب نعم، ولكن هل تكتمل قصة الحب؟ لا.. لن تكتمل قصة الحب.. قصة قصيرة هي، فسكة الحسيني ليست قصة فرح.. هكذا يردد الحسيني نفسه.. إنه سيمشي على الشوك ومن يمشي معه سيجرح وسيسيل دمه.. رغم ذلك لا تمنع الحبيبة فأخر السكة الهناء.. ولكن من يضمن ذلك؟ وتسأله صباح عما يدور في ذهنه.. يجيبها بأن في ذهنه الكثير.. يحلم بإعادة الحق ومعرفة الحقيقة.. يحلم بإنهاء دراسته وإكمال طريقه.. يحلم بالزواج ممن يحب.. يحلم حتى بأن يأكل هذه التمرة التي يمسكها ولكن هل يسمح له القدر بذلك؟ القدر إذن هو العائق الذي يمنع الحسيني من تحقيق أحلامه.. القدر هو المتحكم في كل شيء.. ليست الأحلام والنوايا هي المهمة، ولكن الأهم هو "المكتوب على الجبين". ومرة جديدة يؤكد عكاشة من خلال حواراه أن الحسيني قد جاء فقط ليكون الإشارة، وأن رحلته ستنتهي فور إتمام مهمته.

ويلتقي رشاد بحورية.. جاء من بيت أخوالها محملا بالخبر اليقين.. أخوال حورية أبرياء من دم أبيها.. قالها رشاد واثقا كل الثقة.. كاشفا عددا من الحقائق التي أتى بها من خزانة الماضي.. تفتح خزانة الماضي بعيدا عن الحلوانية، أما داخلها فتظل مغلقة.. مرضت أم حورية بعد أن ولدتها مرضا يمنعها من الحمل ثانية، ولأن العمدة كان يريد أن ينجب ولدا ليرث المنصب، فقد ألحت عليه كثيرا أن يتزوج ولكن دون جدوى، وفي نهاية الأمر أصرت على الطلاق لتعطي له الفرصة في زواج جديد، وهو ما حدث لينجب الحسيني. كانت هذه هي الحقيقة الأولى. أما الثانية فكانت بخصوص الأرض.. لقد تم بيع أرض أمها بالتراضي وقد رأى رشاد الدليل بعينه.. كان الدليل توقيع العمدة القديم نفسه على العقد بوصفه شاهدا. آخر الحقائق كانت أن العلاقة التي كانت تربط العمدة القديم بأخوال حورية كانت علاقة طيبة لم تنقطع يوما، وقد جاء رشاد بالدليل معه.. كان الدليل خطابا من أبيها صادق أرسله إلى أخوالها قبل مقتله بأيام قليلة.. كان الخطاب كاشفا مدى الود بين الطرفين.. كانت هذه هي الحقيقة التي كشفها رشاد برحلته التي قام بها.

ظهرت براءة الأخوال، ولكن الخبر نزل على حورية كالصاعقة.. كان من المفترض أن تسعد لذلك، ولكن براءة الأخوال كانت تعني أن هناك متهما آخر.. وقد أدركت حورية ذلك، ورأت أصابع الاتهام تشير إلى من.. عرفت الآن الإجابة عن كل الأسئلة التي راودتها كثيرا.. عرفت سبب خوف العمدة وسسبان من زيارتها لأخوالها.. عرفت سبب منعها من الذهاب.. عرفت سر غضبهما منها.. عرفت المتهم الأول.. عرفت كيف كان يعرف الحسيني ذلك كله دون أن يكشف لها عن ذلك.. لقد عرفت كل شيء. رغم ذلك يؤكد لها رشاد -الذي عرف هو الآخر- أن ذلك كله لم يعد يقينا بعد، فالكلام يحتاج إلى دليل ليكون حقيقة.. إنه الكلام عن الدليل مجددا.. الكلام الذي رده

صالح الحناوي ويوسف العفي يردده رشاد الآن.. الدليل.. الكلام يحتاج إلى دليل ليكون حقيقة.

وتردد حورية كلام العفي.. الحقيقة لن تظهر كاملة إلا عند طلب الحق.. ويؤمن رشاد على كلام العفي.. هو أيضا يرى ذلك.. حاول أن يفعله ولكنه لم يستطع.. وها هو يؤكد أنها لن تستطيع الوصول إليه إلا بعد أن تمتلك السلاح، والسلاح هو أهلها وناسها.. أهل الحلوانية.. ولكن هل يطالب أهلها بالحق؟ هل ينطق الصامتون؟

ويأتي الرد واضحاً كاشفاً من صالح الحناوي: "كلهم سكتوا واتداروا ورا الحيطان والبيان.. كلهم شافوا وكلهم عرفوا.. لكن بأيديهم خزقوا عينهم وقطعوا ألسنتهم.. ونفخوا في الكذب لغاية ما بقى صدق وحقيقة.. أنا منهم.. يوسف منهم.. سسبان منهم.. أكثر ثلاثة حبوا صادق وحبهم.. الناس عبيد يا بنتي.. عبيد للخوف والحاجة والطمع.. مش هتقدري تسندي عليهم إلا لما يتعتقوا".

كان هذا أشبه باعتراف يقدمه الحناوي لحورية.. لم يعد عكاشة في حاجة إلى حوار يلقي أمام المشاهد عدداً من الأسئلة.. أصبحنا في حاجة إلى إجابات وها هو يقدمها شيئاً فشيئاً.. كنا على موعد كل لحظة مع سؤال.. والآن أصبحنا كل لحظة على موعد مع إجابة جديدة تأتي من دروب الماضي.

لقد وضع عكاشة على لسان الحناوي يدنا على سبب الداء.. إنه العبودية للخوف.. العبودية للحاجة.. العبودية للطمع.. ولن يتغير شيء ما دام الناس أسرى لهذه الأشياء.. الحل يكمن في الحرية.. في العتق من كل ذلك.. يرى الحناوي ذلك بينما يرى ولده رشاد أن حورية يمكنها أن توقظ الناس.

وبعد مونولوج طويل نسبياً رصدناه على لسان الحناوي يعود عكاشة للجمل القصيرة.. طريقة الـ"بنج بونج" ثانية.. الحيرة تصيبك

بين الرأيين المتناقضين؛ رأي الحناوي من جهة، ورأي رشاد من جهة أخرى.. عينك تذهب هنا مرة وتعود هنا مرة أخرى، قبل أن تحسم حورية الأمر في النهاية:

”- رشاد: هي تصحيحهم يا آبا

- الحناوي: الصحيان مش كلام يا أستاذ.. الصحيان فعل

- رشاد: صح.. والفعل في إيدك يا حورية

- الحناوي: أسهل حاجة إنك ترمي الحمل على كتافها من غير ما تقول هتشيله ازاي وتمشي بيه لحد فين

- حورية: الحمل مالوش غير طريقة واحدة يتشال بيها يا آبا صالح.. مالوش غير سكة واحدة“.

لقد حددت حورية هدفها، وعرفت وجهتها وطريقها.. قررت أن تحمل الحمل وعرفت كيف تحمله وإلى أين ستذهب به.

ويتنقل بنا عكاشة سريعا إلى الحسيني.. ما زال يبحث في بيت أبيه عن ذلك الشيء الذي لا تعرفه.. هل يبحث عن الحقيقة؟ هل يبحث عن الدليل الذي يحتاجه الجميع؟ وتدق عليه حورية الباب فيخفي الأوراق التي يبحث فيها.. وتدخل حورية لتخبره بأن أخوالها أبرياء من دم أبيهما.. كان الحسيني يعرف ذلك.. كان يعرفه من قبل حتى أن يأتي إلى الحلوانية.. لم يخبر حورية به.. كان يريد أن يصل إليه بنفسها. ويتعرض لأزمة جديدة من أزماته لا ينقذه منها إلا الدواء الذي لا يفارقه أبدا.. إنها إشارة جديدة من عكاشة إلى أن صاحب الإشارة قد يذهب بلا عودة.. ولكنه سيذهب حتما بعد أن يؤدي مهمته.. المهمة التي تعاهده حورية أن تتمها مهما حدث.

وتتطلق حورية في أولى خطواتها لإتمام المهمة.. تذهب إلى بيت السنباطي لتجده هناك بصحبة الدمرداش.. الثعبانان معا إذن.. وتلقي

حورية السؤال الذي جاءت من أجله: من قتل أباهما؟ كان السؤال مفاجئاً لكلا الرجلين.. تتلعثم الكلمات في فم السنباطي.. يتساءل: هل سيعرفان ما لم يعرفه أهل البلد جميعاً؟ وتنصب له حورية الكمين.. لقد كان واقفاً خلف أبيها مباشرة.. إنها رواية العمدة الذي أخطأ ولم يخبره بها.. ينفي ذلك السنباطي مستنكراً، ولكن حورية تقول له بأن العمدة هو من قال ذلك.. يتدخل الدمرداش بثعبانته المعتادة مذكراً السنباطي بذلك، فيقرر به متحججاً بأن ذلك حدث من زمن بعيد. وتكمل حورية رواية عمها.. لقد رأى السنباطي القاتل وطارده ورأى سيارته ورصد رقمها.. ويزيد الارتباك من السنباطي ولكنه يقرر بذلك.. ما دام العمدة قد قال ذلك فإنه قد حدث حتماً. ولكن حورية تصرخ قائلة: "ماحصلش يا شيخ الحضر.. ماحصلش يا شيخ البلد.. دي حكاية متلفقة عشان تلزقوها في إخواني".. وتعيد السؤال ثانية: من قتل أباهما.. ويؤكد أنهما لا يعرفان.. ويبدأ الثعبانان في توجيه النصائح لحورية، فعليها أن تسلم أمرها لله.. عليها ألا تمشي في هذا الطريق فنهيته ليست جيدة.. يطلب الشيطانان لها الهداية من الله وأن يزيح عنها ما أصابها.. ما أعجب أن تتحدث الشياطين عن الهداية! ما أعجب أن تذكر الشياطين اسم الله!

وتنصرف حورية من وكر الشياطين مؤكدة أنها لم تكن تنتظر منهما غير ذلك.. لم تكن تأمل في الحصول على إجابة لسؤالها.. رغم ذلك فقد تأكدت من صدق أخوالها.. تأكدت أنهم صادقون.. تأكدت أنه وحده من يكذب.. هكذا قالت حورية دون أن تصرح بمن يكون ذلك الكاذب.. ولكن هل أصبحنا في حاجة لسؤال؟ لقد أصبح الكاذب واضحاً للجميع.. ربما ما زلنا فقط في انتظار الدليل.

وتتوالى المشاهد والبطلة دوماً حورية.. بدا عكاشة حريصاً على ذلك.. إنها إشارة خفية منه إلى أنها قد بدأت الرحلة.. بدأت رحلة البحث عن الحقيقة.. ها هي تدور في كل مكان باحثة عنها.. وتصل

بنا هذه المرة إلى "المنزل" لمقابلة مروان.. كان اللقاء من أجل سؤال واحد: هل يقف معها مهما عاداها كل الناس؟ هل يقف معها حتى ولو أمام العمدة؟ لم يفهم مروان السؤال.. كان بحاجة إلى الفهم.. بحاجة إلى المعرفة.. ولكن حورية كانت تريدها منه.. كانت تريده أن يقول إنه معها وسيظل دوماً ولو كان ذلك ضد الجميع.. كانت تريده أن يقول إنه لن يخاف أحداً وإن كان العمدة ذاته.. ولكنه لم يقلها.. لم يستطع مروان أن يقولها دون أن يفهم ويعرف.. كانت هذه إجابته لتركه حورية.. تركه حتى تأتي اللحظة التي يعرف فيها..

مروان لن يستطيع لأنه لا يعرف.. ولن يستطيع حتى إن عرف.. هي فقط التي تستطيع.. لكنها تريد أن تعرف كل الحقيقة.. هكذا قالت حورية للحاجة آمنة أم مروان.. ذهبت لتستنطق الخرساء إذن.. ما أصعب أن تلجأ إلى الأبكم لتستنطقه في قرية ألف أهلها الصمت! عرفت حورية أن آمنة تعرف.. أن ما أصابها كان بسبب الصدمة لما حدث في الماضي.. تريد منها الآن أن تكشف لها المستور كله.. تحصرها بالأسئلة: هل تعرف؟ هل شاهدت ما حدث؟ من القاتل؟ تريد منها أية إشارة تدلها على ما حدث.. وتستجيب آمنة.. تهم بإعطاء الإشارة.. تفتح خزانة ملابسها.. الأسرار جميعها في الخزائن المغلقة.. السر مدفون في خزانة سسبان، وها هو مدفون في خزانة آمنة.. الصامتتان تضعان الأسرار في الخزائن.. ولكن ها هي آمنة تفتح الخزانة.

ومع فتح الخزانة يقتحم أحد الخفر المكان.. لديه تعليمات بالألا يطيل أحد زيارة آمنة.. وترفض حورية الانصراف، فقد أصبحت على مقربة من معرفة إجابة السؤال، ولكن الخفير يؤكد لها أن هذه تعليمات لا يستطيع تجاوزها.. وتسأل حورية آمنة إن كانت تريدها أن تنصرف.. وأمام ذلك تضعف آمنة.. تعود للصمت من جديد.. يغلبها الخوف.. لم تنجح حورية في إزاحته عنها لتنطق بما تعرف..

تطلب منها أمانة الرحيل، ليضيع أمل جديد من حورية.. ولكن هل تعرف حورية اليأس؟ مثلها لا يعرف ذلك.. نعم تسير في طرق القرية وهي تصرخ أو تنوح: "ياني وياني بالي بيا وياني.. على فين يا دنيا الشين مودياني؟" ولكنها لن تعرف اليأس يوما.

ومن الخرساء إلى الصامته الكبرى.. إلى سسبان.. من جديد تحاول حورية أن تجعلها تفتح خزائنها.. تطلب منها سسبان ألا تشعل النيران.. ولكن النيران مشتعلة منذ عشرين عاما.. حاولوا ردمها دون جدوى.. أن لها أن تنطلق لتكشف الحق والحقيقة.. حورية أقوى هذه المرة.. أعنف.. أكثر إصرارا..

- حورية: هتكلمي يا عمّة.. هتقولي كل حاجة

- سسبان: اعتقيني يا بنتي الله يرضى عليك

- حورية: اعتقيني إنت.. اعتقيني واعتقي روحك وأهلك وناسك

- سسبان: بزيادة بقي يا بنت صادق

- حورية: صادق قلقان في نومته يا عمّة.. دم صادق الي راح هدر مابردش.. مانشفش.. هتفضل بقعة على إيدين كل الي عارفين وساكتين.. رصد ولعنة ماتفكهاش إلا شهادة الحق..

لم يكن الحوار هذه المرة شبيها بكرة الـ"بنج بونج".. كان أشبه بطلقات الرصاص.. جمل قصيرة سريعة من حورية تحاول سسبان تفاديها والهروب منها.. ولكن دون جدوى.. لم يكن أمامها في النهاية إلا أن تطلب منها أن تقتلها.. تريد سسبان أن تموت فهذا أرحم لها.. تفضل الموت على الكلام.. تفضل أن تموت صامته.

كانت هذه نهاية الرحلة التي قطعها حورية باحثة عن الحقيقة.. عن الدليل.. لم يعد هناك مكان تذهب إليه.. لم يكن غريبا إذن أن يقطع عكاشة الرحلة.. المشهد الآن دون حورية.. رشاد يجهز حقيته

لمغادرة القرية.. لقد أدى مهمته، ولكن صباح تطلب منه البقاء..
تريد منه أن يبقى ليكون بجوار حورية فهي في حاجة إلى مساندة من
الجميع.. وتظهر حورية ثانية.. لم تأس بعد ولكنها لا تعرف ماذا
تفعل.. تأتي بصحبة الحسيني طالبة من رشاد المساعدة.. كان سؤالها:
”هنعمل إيه يا رشاد؟“ إنها تريد أن تعرف الخطوة التالية بعد أن أغلق
الجميع خزائهم أمامها.

وينطلق بنا عكاشة إلى دروب القرية الصامتة أهلها.. هل ينطقون
حين يتجاوز الظالمون المدى؟ يذهب بنا عكاشة إلى مقهى عزازي
حيث ينفذ السنباطي القانون.. عزازي الذي فتح المقهى منذ عشر
سنوات يعمل دون ترخيص.. عليه أن يغلق مقفاه إذن.. ولكن لم لا
يطلب الترخيص؟ لقد مر الوقت.. القرية لا تتحمل إلا مقهى واحدا،
وقد أخذ الخضري البقال ترخيص إنشاء المقهى.. يستنكر عزازي
ذلك وسط انسحاب أهل القرية الذين كانوا يجلسون حوله منذ
قليل.. تركوه وحده في مواجهة السنباطي وغيلانه.. كان يجلس فقط
ذلك الشاب عمر بن شاهين الذي دافع عن ميلم يوما في معركته
ضد حشاد.. إنه واحد من الذين يمثلون أمل القرية في ترك الصمت.
الأمر لم ينته بعد.. لا بد أن يبحث عزازي عن عمل آخر.. لم يعد
يمكنه الآن أن يستمر في عمله.. لقد استولى على أرض ملك الدولة
لسنوات طويلة دون أن يدفع إيجارا.. يالها من جريمة شنعاء يا
عزازي وسيعمل رجال القانون على إنزال العقاب بك.. العقاب
الذي تستحقه جراء فعلتك!!

ويبدأ السنباطي ورجاله في تنفيذ العقاب.. الخفر يحطمون المقهى..
يكسرون كل ركن فيه.. وأمام الظلم السافر ينطق عمر.. إنه من
القلائل الذين يعرفون الكلام.. يقف أمام السنباطي ورجاله.. يصرخ
فيهم.. يسأل السنباطي رجله عزب عن هذا الشاب، فيعرفه به..
يأمر رجاله بالقبض عليه هو وأي شاب آخر لم يترك المكان تضامنا

معه ومع عزازي.. لقد كشرت السلطة عن أنيابها، فكل من يعرف لغة الكلام لا بد أن يصمت، وإن لم يصمت فسيوضع خلف القضبان. ويعلم السؤال داخل المشاهد: هل تكون مقهى عزازي نقطة التحول؟ هل تكون بداية كسر جدار الصمت؟

ويستمر السنباطي في تلفيق التهم لعزازي.. إنه يفتح مقهاه لاستقبال هؤلاء "الصيع".. سرقة المواشي منتشرة في القرية ويقوم بها شباب.. يمكن إذن أن يكونوا هؤلاء.. هكذا تلفق التهم للجميع دون رقيب أو حسيب.. لا رادع ولا مانع لأصحاب السلطة الغاشمة.. ويصدر السنباطي فرمانه.. على العزازي أن يأخذ "كراكيه" وأن يخرج بها خارج البلد.. يمكنه أن يفرشها في عشة هناك.. لقد استأجر أيوب الخضري هذا المكان.

ويقولها عزازي أخيراً.. قال "لا" في وجه السنباطي.. قالها دفاعاً عن حياته و"أكل عيشه" هو وزوجته وبناته التي تقف إلى جانبه كتفا بكتف مدافعة عن زوجها.. يقولها مؤكداً أنه سيكسر قدم كل من سيدخل هذا المكان عنوة.. وأمام هذا يعطي السنباطي أوامره باستمرار تحطيم المكان. لم ينتصر عزازي، وما كنا لتتوقع منه أن ينتصر، ولكنه قالها.. قال "لا".. ربما تكون بداية لأكثر من "لا" نسمعها من أهل القرية جميعاً.

ويوصف عكاشة الحالة التي وصلت إليها دولة الظلم على لسان رشاد، فقد وقفت المياه الجارية، وغطاها العطن.. اكتفى الجميع بالأكل والشرب والنوم والتأؤب.. أغمض الجميع عيونهم على كابوس ولم يستيقظوا منه.. كل ذلك لأنهم خضعوا له.. اشترى الأمان بالخرس والسكريت. وتسأله حورية عن سكوته هو.. لماذا لم يقل ذلك من قبل؟ ولماذا لم يكتبه في صحيفته ليقوموا بقراءته؟ ويؤكد لها رشاد أنه قد آن الأوان ليقوله الجميع. ويتنفض الكل على استغاثة وطنية بحورية.. تلجأ إليها المسكينة لتقف أمام ظلم السنباطي ورجاله.

ونذهب إلى دار الحكم حيث يجلس العمدة هائثا مستعدا لمغادرة المكان.. يسأله السنباطي عن وجهته.. ولكن ألا يعلم حقا وجهته وهو من يتلصص عليه ويتبع خطواته؟ ويفاجئ العمدة السنباطي ويفاجئنا معه.. يؤكد صقر أن السنباطي يعرف، وإن لم يكن يعرف فهذا يؤكد أنه فاشل في عمله.. هل يعرف العمدة أن السنباطي يتلصص عليه؟ هل يرى ذلك دليلا على كفاءته في عمله؟ ما أغرب السلطة وأصحابها! وتستمر مفاجآت العمدة.. لقد عرف أن عزب كان يتبعه عندما ذهب إلى درية.. لقد أخذ منه عزب مثلما أخذ من السنباطي.. الكل يلعب على الكل في أروقة السلطة.. الكل يستفيد من الكل ويتلصص على الكل.. والكل يعرف ذلك ويعرف أصول اللعبة. ويحاول السنباطي تبرير فعلته بأنها رغبة في حماية العمدة وحراسته.. إنها الحجة المعتادة.. ولكن العمدة يباغت السنباطي بالسؤال: ولماذا لم يرسل رجاله خلفه في المرات التالية ما دام الدافع هو الحماية؟ ويطلب منه العمدة أن يرسل رجاله خلفه في العلن.. إنه سيسافر هذه الليلة وعليه إعداد رجاله الذين سيتبعونه!

ونعود إلى حورية.. تنقل لها وطنية ما حدث.. تعرف بأمر شباب القرية الذين تم القبض عليهم.. تأمرها بأن تدور على بيوتهم جميعا لإخبار أهلها.. وجدت حورية الوسيلة التي قد تدفع الجميع للكلام.. تدفعهم لقول "لا" مثلما قالها عزازي.

ويبدأ عزازي ووطنية في تنفيذ مخطط حورية، بينما يدور ميلم في شوارع القرية رافعا صوته بأن على الجميع الاجتماع في بيت العمدة بعد صلاة العشاء.. ولكن هل تكون دعوة ميلم هذه ضمن مخطط حورية، أم أن الدعوة من آخر؟ يبدو واضحا أن ميلم ضلع أساسي في هذا المخطط.. حورية تريد أن تصنع تجمعا كبيرا.. تريد أن يشهد عدد كبير الصرخة التي سيطلقها أهل القرية مدافعين عن أنبائهم، أو ربما تريدهم أن يشهدوا صرخة أخرى.. ربما تريد أن تُسمعهم

صرختها هي.

ويصل الخبر إلى السنباطي فيجمع خفره ليكونوا في استقبال المظاهرة الثانية.. ويخبر العمدة بما حدث.. يبدو القلق على وجه السنباطي، وهو ما يدفع العمدة لسؤاله عن ذلك، فيؤكد له أن يقوم بالاحتياطات اللازمة فقط حتى لا يلومه بعد ذلك.. ومرة ثانية يأتي رد فعل العمدة معاكسا.. يأمره بصرف خفره جميعا.. لا حاجة لخفر ولا حرس.. أيريده أن يظهر خائفا أمام أهل بلده؟ هذه هي الرسالة التي يريد صقر توصيلها.. إنه لن يشعر أبدا بالخوف من أهله وناسه أهل الحلوانية.. وهذا البيت بيتهم جميعا، وها هو يفتح ذراعيه لأولاده في كل وقت وحين.

ويصل أهل الحلوانية إلى دار الحكم حيث الأبواب المفتوحة دون خفر أو حرس.. يرحب العمدة بهم.. يبدأ عزازي بتقديم شكواه.. إنه يطلب الحماية من العمدة.. يطلب منه الحق الذي سلبه السنباطي.. ويبدأ الجميع في المطالبة بالعدل والإنصاف.. وتظهر حورية مؤكدة أن أهل القرية جميعا عندهم حقوق يريدون الحصول عليها.. ويأتي ظهور حورية مباغتا لصقر، ويدور الحوار:

”- العمدة: تاني يا حورية؟

- حورية: ده أولاني يا آبا العمدة.. مش تاني

- العمدة: لا ما هم ليه تاني يا بنت أخويا؟

- حورية: أنا مش لا ما هم.. أنا جاية معا هم.. كلنا لينا حقوق

عندك وعازينها

- العمدة: حقوق؟ حقوق إيه يا ولاد؟

- حورية: حقوق قديمة لكن حية.. وحقوق جديدة خايفين تقدم وتندفن.. اتكلم يا عزازي“.

ويبدأ عزازي في سرد ما حدث، وتكمله وطنية وشاهين.. ويسأل

العمدة حورية عن حقها الذي أخذه السنباطي، ولكنها تؤكد أن حقها ليس عند السنباطي.. حقها عند صقر الحلواني.. عند العمدة.

لقد فعلتها حورية ووقفت أمام العمدة.. حركت أهل القرية ليبدأ الكلام.. أتوا في ثوب الشاكين المطالبين بالإنصاف نعم، ولكن هذه هي البداية.. لم يكن جمعهم من أجل الوقوف في وجه العمدة.. كان جمعهم من أجل أن يكونوا شهودا عليها.. من أجل أن يروها وهي تجاهر بطلب الحق.. ها هي تنفذ وصية العفي.. تطالب بالحق لتظهر الحقيقة.. ومع المطالبة بالحق يستمر الحريق.

ومع كل حلقة نلمح سمة من سمات عكاشة ونرصده تقنية يجيد استخدامها والتركيز عليها، وفي حلقتنا هذه نستطيع رصد ثلاث تقنيات رأيناها في أكثر من موضع في الحلقات السابقة، ولكنها تبدو لافتة هنا.. الأولى هي استخدام الخطاب الداخلي / تيار الوعي الكاشف عما يدور داخل رأس الشخصية من أفكار.. يعكس لنا العالم الداخلي والصراعات التي تحدث فيه.. الصراعات الإنسانية بين الإنسان وذاته.. رأيناها في حوار حورية مع نفسها وتساؤلها عن موقفها من مروان، ورأيناها في حوار الحسيني مع نفسه أثناء خطاب العمدة، وهو يحاول أن يدفع نفسه للمطالبة بالحق.

أما الثانية فكانت العودة إلى الماضي / فلاش باك.. إنها التقنية التي استخدمها عكاشة أكثر من مرة لفتح خزائن الماضي، والتعرف على ما حدث فيه.. رأيناها مرة من خلال شخصية يوسف العفي، ورأيناها ثانية من خلال العمدة نفسه.

وأخيرا نأتي إلى الثالثة، وهي الحوار القائم على الجمل القصيرة التي تكشف عن الصراع الدائر بين الشخصيات.. جملة هنا وجملة هناك في صد ورد يوضحان المسافة بين طرفي ذلك الحوار.. طرفي النقيض، وإن كانا في فريق واحد!

البطانة والأعيب السلطة.. والحقيقة!

وتستمر الحكاية.. نبدأ من حيث انتهينا.. من المطالبة بالحق.. تلك الكلمات التي رفعت بها حورية صوتها.. تصدر الهمهمات من الموجودين.. ربما لا يصدقون ما تقوله حورية.. ربما يرفضون موقفها.. ربما يحاولون الكلام رغبة منهم في ترك الصمت دون رجعة إليه.. ويتساءل العمدة: أي حق هذا الذي تتحدث عنه؟ ويأتي الرد في كلمة واحدة: الحسيني.. ويعتقد العمدة أن حورية جاءت لتكرر طلبها بالاعتراف بأخيها.. ولكن ألم يعترف به؟ لقد حدث ذلك.. لقد أقر بأنه ابن صادق الحلواني.. جعله يعيش في بيت أبيه.. خصص له راتباً ليعيش منه.. ماذا تريد من حقوق أكثر من ذلك؟ إنها تريد بقية حقوقه.

”- العمدة: حقوق إيه يا بنت صادق؟

- حورية: ورثه من أبوه صادق يا أخو صادق“.

قالت حورية واضحة صريحة.. ها هي تطالب بحقها وحق أخيها في الميراث.. تطالب بالمال والأرض.. ويعود الجميع للهمهمات غير المفهومة.. ويستغل صقر ذلك قائلاً إن حورية مريضة.. لا بد أن ما تقوله تحت تأثير المرض والحمى.. ولكنها تؤكد أنها سليمة.. إنها تطالب بميراث أخيها وهو حقه الشرعي.. ويرد العمدة بأن حقها أمانة في رقبته.. وتستمر حورية في معركتها.. تشكره على صيانة الأمانة طوال هذه الفترة مطالبة باستعادة الأمانة.

لقد أصيبت حورية بالجنون.. هكذا يردد العمدة الذي اهتز لأول

مرة.. هزته حورية الثابتة الواثقة.. تنادي على الشيخ وهبة، لتسأله: هل يكون المطالب بحقه الشرعي مجنوناً؟ وتأتي الإجابة بالنفي.. تعاجله بسؤال جديد: وما رأي الشرع فيمن يأكل حق اليتامى.. ويرد الشيخ بالإجابة التي تزلزل الحضور وعلى رأسهم العمدة: "يبقى عاصي"!

ويزداد غضب صقر ويأمرها بالعودة إلى بيت عمها، ولكنها تستمر.. ها هي تُشهد أهل القرية أنها جاءت تطالب بالحق.. حق أخيها وحقها.. وتوجه السؤال المباشر لصقر: "هتسلمنا ورث أبونا ولا لأ؟".. وتعلو الهمهمات ويزيد استهجان البعض لما تفعله حورية.. ويحاول صقر أن يتمالك نفسه.. يلبس ثوب الحاني ثانية.. يطلب منها أن تتعقل وأن تعود لبيت عمتها، وسيأتي إليها بعد الانتهاء من أمر عزازي وشباب القرية المقبوض عليهم.. وترفض حورية ذلك.. تعلنها له.. لقد غضب عليها.. تعرف هي ذلك جيداً ولهذا فإنها تتحامى بأهل القرية.. تتحامى بأهلها وناسها.

ويعود صقر للغضب.. يؤكد أن هذا الموضوع قد فتح من قبل.. فتحه البعض ثم وصلوا إلى مرحلة اليأس.. وعندما ذلك حرضوها.. يقصد صالح الخناوي وابنه.. ويرد الخناوي بأنه لا تحريض في الحق.. ويأتي السؤال من صقر: إذا كان حقاً فكيف كان يفاصل فيه هو وابنه؟ يحاول صقر أن يحجر الجميع إلى قضية فرعية.. وينجر رشاد لذلك مدافعاً عن نفسه وعن أبيه.. إنه لم يفاصل في الحق.. ما أخذه من مال كان جزءاً من الحساب الذي سيأتي يوم لتصفيته.. ولا تفریط في الحق.. ويهب صقر من جديد قائلاً إن الحق هو حق البلد.. "سلوها" وقانونها الذي نشأت عليه، ولن تغيره أبداً.. الحق هو الأرض التي ستظل قطعة واحدة لا تجزىء لها.. ويسأله رشاد: من قال بأنه أكثر حرصاً على الأرض من أهلها؟ إنهم أدري بها وأولى.. لا يوجد فلاح يفرط في أرضه، فالأرض عرض.

ويستمر صقر في الابتعاد عن القضية الأساسية مواصلاً هجومه على رشاد.. إذا كانت الأرض عرضاً فلماذا كان يريد بيعها والتفريط فيها من أجل شقة يتزوج فيها؟ وتلفت حورية إلى الحيلة التي لجأ إليها صقر، فتعيد الحديث إلى القضية الأساسية.. لا سبب يجعل الأرض في يد أحد غير أصحابها يتحكم فيها كما يريد.

ويحاول صقر ثانية مخاطبة حورية الابنة، فيسألها: الآن أصبح غيرها؟ وترد بأن كل شخص غير الآخر.. هكذا خلقنا الله.. ويأتي الرد منه مستعظفاً: "خلق له كمان اللي يريه ويرعاه ويكبره".. وهنا نتساءل: هل هذه حيلة فقط من صقر لاستعطاف حورية وإنهاء هذا الموقف، أم أن العمدة صادق هذه المرة؟ أما زالت حورية نقطة ضعفه؟ ومهما كانت الإجابة فإن النتيجة لم تكن متوقعة.. لم ينجح صقر في استعطاف ابنة صادق.. قالتها له: "هو ده تمن العمودية يا أبا صقر؟ العمودية اللي ما كانتش من حقك؟" وترتفع المهمات رافضة ما تقوله حورية.. لقد تجاوزت كل الحدود.

وهنا يظهر يوسف العفي.. لقد وفي نذره.. ها هو يظهر عندما علت الكلمة مطالبة بالحق.. يدخل مطالباً الجميع بالاستماع إلى حورية.. يؤكد كلامها، فالعمدة الشرعي هو ابن العمدة الشرعي.. إنه الحسيني بن صادق الحلواني.. ويصرخ صقر وقد فقد صوابه: "مجنون.. مجنون محرض مجنونة".. ويختلط الحابل بالنابل.. ويعلو صوت العمدة مطالباً السناطي بالتدخل.. ويفرق الخفر الجمع ويطاردون أهل القرية في الشوارع والأزقة.

يكشف لنا عكاشة عن أن السلطة المستبدة مهما بلغ طغيانها تهتز أمام كلمة حق عالية مدوية ينطقها الناس.. السلطة خائفة مهما كانت الهالة التي تُغلف بها.. لا تقوى أبداً على مواجهة الحق.. تستتر بقوة غاشمة لتخفي ضعفها.

ويصل الخبر إلى مروان.. لا يوجد غير حشاد يبلغه بما حدث.. بهم مروان بالذهاب إلى حورية، بينما يحثه حشاد على الذهاب إلى العمدة.. ويصر مروان على موقفه.. سيذهب إلى حورية أولاً.. يريد أن يعرف السبب الذي بدّل حالها.. من ملأ عقلها بمثل هذا الكلام؟

وتجيبه حورية بالإجابة نفسها التي قدمها صالح الحناوي: "الحق مش محتاج تخريض".. ويسألها ثانية عن الجديد الذي جعلها تقف أمام عمها.. وترد بأنها تريد حقها.. ولا يقتنع مروان، فإذا كان هذا بالنسبة للمال والأرض، فما مسألة العمودية التي تطالب بها؟ وتمتنع حورية عن الإجابة.. إنها لا تريد الحديث في هذا الأمر حتى لا تجرحه.. ولا يفهم مروان حديث حورية.. وتذكره بإجابته عندما سأله عن وقوفه معها حتى إذا كان أمام العمدة.. لم يجب وقتها، ولهذا فإن قضية العمودية ستظل بينها والعمدة فقط.

وتطلب منه سسبان تركها لكنه يقول إنها ستكون زوجته بعد أيام.. ما زال حالما كعاداته.. ولم يكن غريباً أن ترد سسبان: "ماظنش".. كيف يا سسبان والزفاف بعد أيام؟ إنها تردد نبوءة ميلم.. أصبحت واقعاً.. وتستمر سسبان مؤكدة له أن حورية قد تغيرت ولم تعد كما كانت.. وتتدخل حورية قائلة لمروان إن أمر زواجهما أصبح في يد العمدة.. يعطيها هي والحسيني حقهما تصبح ملكاً له.. لقد وضعت الشرط الذي يصعب تنفيذه.. حققت النبوءة بما لا يدع مجالاً للشك.

ونعود إلى مقر الحكم الذي تعرض لهزة لم يكن ليتوقعها يوماً.. يبدأ في لم شتات نفسه.. يبدأ العمدة الخطوة الأولى من الشيخ وهبة.. رجل الدين الذي اعتاد السكوت سابقاً وملأ الخوف قلبه.. كيف تفلت منه هذه الكلمة التي قالها في حضرة الجميع؟ يبدأ العمدة ورجلاه السنباطي والدمرداش في محاسبته على ما فعل.. ولكن كيف لهم أن يحاسبوه وهو رجل الدين الذي يحترمه الجميع؟ كيف وقد بلغ الرجل من الكبر عتياً ولن يتحمل منهم شيئاً؟ ولكن أيعدم

العمدة وزبانيته الحل؟ بدأ الجميع في التلميح بأن الرجل ربما فقد عقله بسبب سنه الكبيرة.. وإلا فكيف قبل أن يفعل ما فعل أثناء أزمة صباح ابنة الخناوي؟ وكيف فعل ما فعل اليوم حين علا بصوته في حضرة العمدة قائلاً إنه عاص؟ ويحاول الشيخ الدفاع عن نفسه، فهو لم يقل ذلك صراحة.. كل ما قاله هو أن الذي يأكل طعام اليتامى عاصي.. لم يحدد أحدا ولم يشر إلى أحد.

ويستخدم عكاشة جملة القصيرة على لسان العمدة ورجليه ليشدد الحصار على الشيخ وهبة الذي لم يعد قادراً على تحمل الهجوم الآتي له من كل الجهات.. يلمحون له بأنهم سيحرّمونه من منصبه كشيخ للمسجد، ولكنه يرد بأنه ليس معينا من الأوقاف وأنه متطوع، وأن أهل القرية هم من اختاروه منذ وقت العمدة الكبير، وأنه استمر يؤم أهل القرية طوال أربعين عاماً.. ويرد العمدة بأنهم يستطيعون اختيار غيره أيضاً.. ويأتي الرد من الشيخ: "لما ربنا سبحانه وتعالى يريد".

كان هذا عن دوره كشيخ للمسجد.. ولكن ماذا عن عمله كمأذون للقرية؟ لقد اختاره العمدة لهذا العمل الذي أدر عليه الكثير والكثير، وهو قادر الآن على إزاحته عن هذا العمل.. إنه تهديد صريح للرجل في قوت يومه.. في عمله الذي يعيش منه.. وأمام هذا التهديد ماذا يفعل رجل الدين؟

ويصمد الرجل.. ويلجأ العمدة للطريق الآخر.. إنه يحب الشيخ ويحترمه ولا يريد لبعض من الشباب أن يتحكموا فيه وأن يحرّكوه إلى ما فيه إفساد للقرية التي يسهرون جميعاً عليها.. ويستمر الشيخ في ثباته معترضاً على ما حدث الليلة من اعتداء على أهل القرية وترويع لهم من السبائطي ورجاله، لكن العمدة يؤكد أن هذا لم يكن بأمر السبائطي، وإنما كان بأمره هو.. هو ولي الأمر.. إنها إشارة منه للشيخ بأن طاعته واجبة.. ألم يأمر الله بطاعة أولي الأمر؟

وينتهي عكاشة المشهد دون أن نعرف موقف الشيخ الأخير.. هل سيستمر في الصمود أم أنه سيسلم لولي الأمر؟ السلطة الغاشمة لا يمكنها أبدا الاستغناء عنه.. لا يمكن أن تحكم سيطرتها دون أن تأمنه.. لا يمكن لها أن تتحكم في الأمر وهي تراه يطنطن هنا وهناك بكلام ضدها.. لن تسمح بوجود سلطة ربما تمثل السلطة الأهم عند العامة، وهي سلطة الدين.. لا بد أن تكون هذه السلطة تحت لوائها.. لا بد أن تقول ما تريد هي وليس ما يريد الدين.. تزواج السلطة المستبدة مع رجال الدين يبدو أمرا منطقيا بل حتميا.

ونذهب إلى بيت الحناوي.. هو وولده يصران على أن يبيت الحسيني ليلته معهم.. لن يتركوه يبيت في بيت أبيه وحده من الآن.. الحسيني يرفض ذلك، ولكنهما يصران، ويؤكد الحناوي أن العمدة لن يترك ما حدث اليوم يمر. مشهد قصير ينقلنا به عكاشة إلى الطرف الآخر لنعرف بعضا مما حدث له، قبل أن نعود ثانية إلى مقر الحكم.

وفي مقر الحكم كان الدمرداش يعلن موافقته على ما قام به السنباطي الليلة.. لقد أطاح بالقربة جميعها.. كان يجب أن يري الجميع العين الحمراء.. رغم ذلك يعاتبه الدمرداش لأنه لم يقبض على القوى العظمى في البلد مثل الحناوي والعفي وشاهين.. ترك هؤلاء واكتفى بالقبض على الصغار.. ويرد السنباطي بأن الأمر كله تحت سيطرته ويستطيع فعل ذلك في أية لحظة ولكنه ينتظر أمر العمدة.. كان العمدة يروح جيئة وذهابا كالأسد في عرينه.. ويتدخل هنا.. يأمر السنباطي بالقبض على أحد من هؤلاء.. يأمره أيضا بالإفراج عن كل من تم القبض عليهم.. لا يريد أن يتحول ما حدث اليوم إلى قضية.. يريده أن ينسى.. ألا يتذكره الناس.. يتحول إلى حدث عارض وينتهي.. كانت هذه هي الخطة التي اختارها صقر إذن.. سيمحو ما حدث من الذاكرة.

وينصرف السنباطي لتنفيذ الأمر.. إنه اليد التي تنفذ.. أما

الدمرداش فيستوقفه العمدة.. إنه العقل الذي يساعده على التدبير.. لقد جاء وقته.. ظل طوال سنوات بلا عمل.. ركن للراحة والأنس، وها قد جاء وقته.. ماذا يجب أن يفعل العمدة الآن؟ كان هذا السؤال الذي طرحه عليه صقر.. ويأتي الثعلب بالحل.. إن على العمدة أن يعطي الحسيني وحورية حقهما.. ولكن كيف؟ ليست الحقوق دوما الأرض.. يعطيها حقهما مالا على أن يترك القرية كلها.. هكذا يتخلص منها للأبد ويظل قانون الحلوانية راسخا دون أن يمسه أحد.. كانت هذه فكرة الثعلب الدمرداش.. ولكن الفكرة لم ترق لصقر.. ليست المشكلة في الحسيني.. المشكلة في حورية.. إنها نقطة ضعفه.. ما زال يحبها.. إنها ابنته وعروس ابنه.. ويستنكر الدمرداش ذلك، متسائلا: أما زال العمدة يحب حورية بعد كل ما فعلت؟ ويؤكد العمدة أن حورية "مضحوك عليها".. وماذا سيقول الناس عنه وهو يترك أولاد أخيه يرحلون؟ ماذا سيفعل إذا أتى الكل ليطلب الحق مالا ثم يترك القرية؟ ماذا إذا نفذ المال؟ سيطلب الباقي بالأرض.. سيصبح هذا "سلو البلد" الجديد.. هذا ليس الحل إذن.. رغم ذلك يؤكد أنه سيفكر فيه!

ويلجأ العمدة إلى المكان الذي يفكر فيه.. درية.. يحكي لها ما حدث.. تتفق درية مع رأي الدمرداش.. ولكن العمدة يحدد رفضه.. ماذا إذا رفضت حورية المال مطالبة بالأرض؟ وترد درية "اديهالها".. لا تعرف درية معنى الأرض.. لا تعرف "سلو البلد" وكيف لها أن تعرف وهي الغريبة عن القرية؟ ليست واحدة من أبنائها لتعرف وتفهم.. ويهب العمدة من مكانه.. يحاول أن يفهمها.. يتكلم ويتكلم.. هنا يتكلم العمدة كما يشاء دون قلق.. القصة ليست الأرض.. إنها ما وراء الأرض.. ولكن ما هذا الذي وراء الأرض ويخاف عليه العمدة؟ إنها السلطة.. ها هو يتذكر كلمة حورية: "العمودية الي ماكانتش من حقك".. ويترك صقر الغرفة.. لقد ضاق صدره.. يبحث عن الهواء.. يريد أن يتنفس.. الفكرة فقط تؤرقه.. لقد فعل كل هذا من

أجل السلطة والسلطان، فكيف يفرض فيها الآن؟

وتطلب منه درية أن يخرج كل ما في صدره.. ويرفض صقر..
لا لقلقه منها، ولكن لإشفاقه عليها.. ما في صدره سيغير الدنيا في
نظرها.. لن تكون الحياة كما هي الآن.. كتب عليه أن يظل سره داخل
صدره فقط.

وتعارضه درية.. إنه لا يعرفها.. يعرفنا بها عكاشة الآن على لسانها..
إنها ليست المرأة الشابة المرفهة التي تعيش في انتظار الزوج الغائب
عنها.. إنها تعودت على الشقاء والعمل.. تعودت على ذلك قبل أن
تأتي إلى الحلوانية في الليلة التي أتى بها أيوب الخضري لتحيي ليلة
هناك.. ويقاطعها صقر.. إنه لا يريد تذكر ذلك.. لا يريد أن يتذكر
أن زوجته لم تكن إلا راقصة.. كانت راقصة وسقط العمدة في شباكها
من أول نظرة ليتزوجها بعد ذلك.. الصقر المهيب يسقط في شباك
راقصة!!

لم تذكر ذلك درية إلا لتؤكد له أنها تستطيع الوقوف معه.. إنها
تعودت على الشقاء قبل ذلك، ومن ثم فهي تستطيع.. تستطيع أن
تواجه معه كل ما يتبعه.. إنها المرأة القوية القادرة على ذلك.. ولكن
كيف يقبل العمدة؟ سينكشف أمره أمام الجميع.. ماذا سيقول أهل
القرية عن عمدتهم الذي تزوج راقصة؟ وترد درية بأن أحدا لن
يعرفها ولن يتذكرها.. وماذا عن الخضري؟ لن يستطيع أن يتحدث
عن عمدته.. لن يستطيع أبدا.. ويقتنع العمدة.

ونعود إلى الحلوانية.. مروان في حضرة شيطانه حشاد.. يستمر في
الوسوسة إليه.. يملأ أذنيه بالكلام الذي تريده السلطة عن صديقه
رشاد الذي يوسوس لحورية والحسيني من أجل الوقوف ضد
العمدة.. إنه السبب في كل ما يحدث.. ولهذا لا بد أن يواجهه.. لا بد
أن يقف مع حورية والحسيني ويحميها منه فهو رجلها الذي يجب

عليه الدفاع عنها وعن العمدة وأهل القرية جميعا.

ومن مروان نذهب إلى يوسف العفي الذي عاد لينفذ نذره.. يعود إلى القرية مصطحبا ميلم.. يفتح دكانه الذي أغلق منذ عشرين عاما.. أغلقه يوم أن نذر ألا يعود إلى القرية إلا بعد أن تنفك عقدة أول لسان في الحلوانية.. وها هي العقدة انفكت.. وتحيط جوقة السلطة بالعفي.. تتحرش به.. تلقي إليه السؤال الذي يكمن فيه السم: ولماذا لم تنفك عقدة لسانه هو منذ ذلك الوقت؟ ويغضب العفي، ويحاول ميلم ردهم بتلك الكلمات التي لا يفهمها أهل القرية.. ويزيد التحرش بهما.. بـ“المجنون والأهبل” على حد تعبيرهم.

وتتكشف لنا خطة صقر شيئا فشيئا.. لقد نشر بطانته في كل القرية.. الكل يردد الكلمات ذاتها.. كلماتهم تريد أن تطمس الحقيقة.. حورية تحررها العصابة الكارهة للعمدة بقيادة الحناوي وابنه رشاد مستعنيين بـ“المجنون والأهبل” العفي وميلم.. لقد فقدت عقلها ووقفت أمام العمدة.. هذا ما يريده العمدة أن ينتشر بين الناس ليضع ستارا كثيفا على كل ما حدث.. كانت هذه خطته التي وضعها قبل أن يذهب إلى درية، وها هم الجميع يقومون بأدوارهم خير قيام.. يرددون الأكاذيب.. الحناوي كان طامعا في المنصب ورشاد يريد أن يبيع الأرض ليتزوج راقصة عرفها في مصر.. هذا ما قاله الخضري.. ولكن هل رشاد حقا هو من يريد الزواج من راقصة يا خضري؟ ولكن من يعرف؟ لا أحد.. هكذا الأكاذيب ترداد وتردد وتتحول إلى حقيقة.. وهذا هو دوما سبيل السلطة المستبدة.. لا يستر عوراتها إلا الأكاذيب.

ويذهب مروان إلى بيت الحناوي وصدره ممتلئ بالسم الذي صبه حشاد في أذنيه.. أتى ليأمره بالابتعاد عن حورية والحسيني.. أن يتعد عنها ويكف عن بث كراهية أبيه في قلبيهما.. ويسأله رشاد عن سر غضبه.. حورية والحسيني يطالبان بحقهما، فما الذي يغضب في هذا؟ كان يجب عليه أن يقف مع ابني عمه.. ويستمر مروان في الهجوم على

رشاد.. كلامه الآن يؤكد الظنون وأنه هو والده من يحركان حورية والحسيني ضد العمدة.. وينفي رشاد التهمة ثانية، فحورية لا يستطيع أحد أن يحركها.. هي التي أفاقت لتقود المسيرة وتحرك الجميع خلفها.. اكتشفت أشياء لم تكن تعرفها من قبل. ويسأل مروان عن تلك الأشياء، وتأتي الإجابة صادمة تحمل الكثير من المواجهة بين صديقي الماضي: "اكتشفت إن أبوك كذاب"!! ويشعل مروان مدافعا عن والده، ولكن رشاد يكمل.. إن عليه أن يذهب ليسأل والده لماذا كذب على ابنة أخيه مدعيا أن أخوالها هم من قتلوا أباهما؟

ويصل الصوت إلى الحسيني الذي كان يجلس بالداخل بصحبة صباح.. يفضل الخروج للفض بين مروان ورشاد، بينما تفضل صباح ألا يفعل ذلك حتى لا يفسر مروان وجوده على أنه تأكيد للكلام الذي يردده.. ويصر الحسيني على الخروج.. ويخرج للإجابة عن سؤال مروان عن سبب حرص رشاد على الذهاب لأخوال حورية والتحقيق في الأمر.. يرد الحسيني بأن حورية طلبت ذلك منه.. ويفاجأ مروان بكلام الحسيني، ويحاول أن يجد دفاعا عن أبيه.. ربما كان يفهم خطأ.. هكذا يقول مروان، ولكن الرد يأتيه من رشاد: "ماتضحكش على نفسك يا مروان".. ويسأل ثانية عن قاتل العمدة القديم إن لم يكن من أخوال حورية.. ويعود الحالم المحب والده لقصة العيار الطائش.. ولكن هذه القصة لم تعد ذات جدوى فقد نفاها صقر نفسه.. يطلب منه رشاد التفكير في الأمر، وتصل الرسالة أخيرا إلى مروان، فينتفض ممسكا بخناق رشاد.. يتوعده.. إن ما يومئ إليه رشاد خطير شديد الخطورة.. وصل مروان إلى مرمى رشاد، ولكنه لم يقبله.. لا يتصور أن يكون أبوه على هذا النحو.. إنه لا يتحمل مثل هذه الفكرة.

ويغادر مروان المكان غاضبا.. ويؤكد رشاد إشفاقه عليه.. ويرد الحسيني بأن ذلك قدره هو الآخر.. الجميع يحركهم القدر.. ويشير رشاد الأزمة.. الأزمة تكمن في أنهم قد أشاروا إلى كثير من الأشياء

التي لا يملكون عليها دليلا.. الدليل المفقود.. يبحث عنه الحسيني منذ جاء ولكنه لم يصل إليه بعد.. ولكن ما الدليل؟

وأخيرا يكشف عكاشة عن الدليل الذي يبحث عنه الحسيني.. إنه آخر ما كتب أبوه.. ويعود عكاشة إلى استخدام الـ"فلاش باك".. يعود بنا إلى الأم.. أم الحسيني تحكي له عن آخر ما حدث مع أبيه.. غاب عنها فترة فقلقت عليه.. اتصلت به فطلب منها ألا تقلق، فقد توقف عن الكتابة لها لأنه عرف أنهم يقومون بقراءة خطابه لها ثم لا يرسلونها.. أكد لها أنه سترك خطابا في مكان آمن بالمنزل، فإذا حدث له مكروه فعلى الحسيني أن يعود للبحث عنه، والوصول إليه. كان هذا هو الدليل إذن.. الدليل الذي يبحث عنه الحسيني ولم يجده بعد.. ربما يكون الدليل ذاته الذي كان ينتظره الحناوي والعفي وشاهين في الماضي.

ويطلب منه رشاد أن يشاركه في البحث، ولكن الحسيني يرفض ذلك، فوجوده وحده في البيت أمر طبيعي يسر له البحث، أما وجود رشاد معه فسيثير شبهات العمدة ورجاله الذين ينتشرون في كل مكان. لم يعرف الحسيني بعد أن الخبر قد وصل إلى العمدة.. إنه يعرف أنه يبحث عن شيء.. يبحث عن شيء ما!!

ويذهب بنا عكاشة مع مروان إلى بيت العمدة سسبان.. فقد مروان صوابه.. يصرخ مناديا على العمدة وحورية.. ويوجه مروان لسسبان السؤال الذي تعبت منه.. سمعته كثيرا ولكنها لم ترد عليه أبدا.. من قتل العمدة القديم؟ وكعادتها لا تجيب.. وتطلب منه حورية ألا يسأل عمتها.. إن كان يريد أن يعرف فعليه أن يسأل أباه.. عنده وحده الإجابة. ويحاول مروان مع سسبان ثانية.. يطلب منها أن تريحه، ولكنها ترد بأن وقت الراحة قد مر.. لم يعد للراحة مكان.. تقولها ثم تنسحب.

ولم يجد إلا حورية.. يسألها ثانية، ولا يجد إجابة.. يكاد يفقد عقله..
وتؤكد له أن العقل مات يوم مات أبوها.. ويجن جنونه.. يسألها
عن ذلك الذي أصابها، فترد: "أصلي اتجننت".. تقولها وهي ترك له
المكان.. ويؤمن على كلامها.. لقد جنت وتريد أن تحرق البلد كلها..
يريد ذلك من أصابها بالجنون.. وأمام هذا لن يسكت أبدا.

ويفرض عكاشة علينا السؤال: هل فقد مروان عقله؟ ألا يصدق
فعلا ما فعله أبوه؟ أيبه لهذه الدرجة؟ ألا يستطيع عقله وقلبه
الحالمان مجرد التفكير في مثل هذا الأمر؟ ألا تتحمل قدراته تصديق
هذا؟ أسئلة نظرهما على أنفسنا ونحن نسمع كلمات مروان التي
يرردها وهو ينطلق في طرقات القرية كالمجنون.. يذهب إلى أقرب
خفير ويأخذ منه سلاحه عنوة.. يردد في كل مكان: "صقر أبو البلد
وحاميها وراجلها.. الي هيلسن عليه بكلمة ولا يخوط في سيرته
مالوش عندي غير دي".. ويطلق مروان الحالمان رصاصة من السلاح..
أفقد الحالمان حلمه؟ هل سيتحول مروان إلى صقر جديد؟ هل تكون
هذه نقطة التحول لنرى الوجه الآخر من مروان، أم أن هذا تأثير
الصدمة؟ أيكون سبيله للهروب من الأزمة هو الإنكار؟

ويبرع عكاشة في تقديم ما أصاب الشيخ وهبة من تغيير.. فعلى
هامش طلقات مروان نجده مع بعض من طلابه في المسجد.. يستاءلون
عن سبب هذه الطلقات.. يتذكر أحدهم صوت طلق مشابه منذ
عشرين عاما.. يرد الشيخ وهبة: "خلينا في الي كنا فيه يا جماعة"..
لقد عاد وهبة لإغلاق فمه إذن.. نجحت السلطة في جذبها إليها..
سكت رجل الدين ثانية.. وقبل أن تتشكك في ذلك يعود عكاشة
لتأكيده.. وهبة يقول: "النفر جايز مايقاش راضي عن الي بيتقال..
لكن لما تنطلب الفتوى لازم يكتب شرع ربنا"..
إنه يبرر كلماته التي
قالها في حضرة العمدة حين سألته حورية عن أكل مال اليتامى.. لم
يكن راضيا إذن عن ما قالته حورية.. كانت كلمته تمثل فتوى عامة،

وليست دالة على موافقته على موقف حورية.. ولكن لماذا لم يوافق على موقفها؟ لا نجد إجابة.. لم يقدم لنا عكاشة إجابة.. لسنا في حاجة لها.. الأمر أصبح واضحاً.

ونعود ثانية إلى مروان المنطلق في كل مكان في القرية.. يأتيه المرسال من العمدة.. يريد العمدة.. عاد إذن من البندر.. عاد مصطحباً زوجته درية.. الزغاريد تملأ المكان مرحبة بالعمدة وزوجته.. ويصل مروان إلى هناك.. يدهشه ما رآه.. لم يفهم مباركات السنباطي والدمرداش.. يدخل إلى العمدة الذي يجلس بصحبة ضيفة "المنزل" الجديدة.. تعقد المفاجأة لسانه.. يتذكر كلماته التي كان يرددها منذ قليل.. تصيبه الطعنة من أبيه الذي كان يدور في القرية مدافعاً عنه.

وفي الخارج كان الدمرداش والسنباطي يخوضان في سيرة سيدهما وولده.. كانا يريان الضربة قاسية لمروان.. ماذا لو أنجب العمدة ولداً؟ هذا يهدد مروان.. من في السلطة لا يرى أبداً إلا تهديد السلطة.. الحديث عن المشاعر والأحاسيس لا يهمهما.. الحديث عن الصدمات لا يشغلها.. لن يشعرا أبداً بما أصاب مروان.. لم يفهما سبب غضبه الذي بدا عليه وهو يمر عليهما خارجاً من غرفة العمدة.. بدت شاة الدمرداش وهو يقول بأن خلافاً حدث بين مروان والعمدة.. ويرد السنباطي بأن مروان لا يقوى على ذلك.. ولكن الدمرداش يذكره بما فعله مروان منذ قليل.. كان يدور في القرية كالفارس المهام.. ولكن السنباطي يقدم لنا التفسير الذي كنا ننتظره.. "كانت حققة".. كانت غضبة مؤقتة من مروان.. لم تكن أكثر من ذلك.. لم يتغير مروان من الداخل.. سيظل حالماً كما كان.. يريد فقط أن يفهم ويعرف لكي يفيق من غفوته.

ونعود للحسيني بصحبة رشاد.. رشاد يقدم له النصيحة.. لكي يجد الخطاب الذي أخفاه أبوه لا بد أن يفكر في المكان الذي يمكن أن يخفيه فيه.. وتأتيها حورية.. تبدو غاضبة لتركه بيت أبيه.. مرت

حورية على البيت فلم تجده ووجدت رجال السنباطي يفتشون في كل مكان فيه.. لقد بدأ السنباطي في تنفيذ تعهده للعمدة بالوصول إلى السر.. وتأخذه حورية إلى المنزل ثانية.. عليهما أن يستمرا في البحث حتى يجدا الدليل.. الدليل الذي يبحثان عنه.

ونعود لصاحب القلب والعقل الساذجين الحالمين.. نعود لمروان الذي ما زال يرى في حشاد الصديق.. يرى مروان أن أباه قد خانته.. ويدافع حشاد عن العمدة.. لقد تزوج.. هذا أبسط حقوقه، خصوصا أن أم مروان مريضة.. لا يفهم حشاد سبب غضب مروان الذي يرى والده مختلفا عن الجميع.. ما يناسب الجميع لا يناسبه.. إنه عنوان القرية كلها ورمزها.

ويبرر حشاد فعلة العمدة ثانية.. إن العمدة قد فعل ذلك لسبب ما.. لغرض لن يفهمه أحد غيره.. ولكن مروان يتساءل عن السبب.. لقد تزوجها منذ عامين.. ويرد حشاد بأنه تزوج منذ عامين نعم، ولكنه أحضرها الآن.. يضيء لنا عكاشة عن طريق حشاد بقية دروب الخطة التي وضعها صقر.. إنها الاستمرار في إخفاء معالم ما حدث بالأمس.. يجب أن ينسى الجميع كل شيء.. أن ينشغلوا فقط بالعمدة وزواجه.. كانت هذه هي الخطة إذن.

ونذهب إلى سسبان في غرفتها.. نتحدث مع صورة صقر.. مشهد لا يضم إلا كلمة واحدة.. كلمة واحدة تقولها العمدة: "أول مرة تخونك ذكاوتك يا صقر".. ترد سسبان على حشاد إذن.. نعم فعل العمدة ذلك لغرض لا يعلمه أحد، ولكن سسبان عرفته، ورأت أنها المرة الأولى التي يخطئ فيها العمدة.. لماذا ترى سسبان ذلك؟ ما الذي تراه ولا نراه نحن؟ لا نعلم الإجابة الآن، ولكن عكاشة سيعلمنا بها حتما في وقت ما.

ويفهم الجميع ما فهمناه.. صباح تؤكد لحورية أن الناس سينسون

ما حدث وسينشغلون بزواج العمدة، وترد حورية بأنها ستذكرهم.. ولكنهم يرونها مجنونة.. هكذا تقول صباح، ولكن حورية لن تتوقف.. لن تتوقف رغم كل شيء.

وما تقوله صباح يردده رشاد متحدثا مع أبيه.. لقد نجح العمدة في إلهاء الناس وشغلهم.. إنها حيل السلطة دوما.. السلطة التي تلهي الناس عن همومهم وتشغلهم بما تريد هي.. تقدم لهم حدثا كبيرا جللا ينسي الجميع قضاياهم.. ربما تصنع حفلا أو عيدا أو عرسا.. تصنع أي شيء يشغلهم وينسيهم ما حدث.

وفي الوقت الذي ترقص فيه جوقة السلطة كان البحث مستمرا.. حورية والحسيني يبحثان عن الدليل.. الدليل إلى الحقيقة وعليها.. الدليل الذي ينتظرانه ويتنظره الجميع.. يدخل اليأس قلب الحسيني، أما حورية فلا تعرف اليأس.. وتصل حورية.. تصل أخيرا إلى الدليل.. ظرف كبير به الكثير من الأوراق.. لم يكن خطابا فقط.. ولكن ما الذي تضمه هذه الأوراق؟ ما الذي ستكشفه؟ لن يجيب علينا عكاشة بهذه السهولة.. سنظل مجذوبين لما نراه حتى يكشف لنا هو الحقيقة وقتما يريد.. في الوقت الذي يراه هو مناسبا.

ونذهب إلى المقهى.. المقهى الذي كان لعزازي أصبح الآن لأيوب الخضري وجوقة السلطة والسلطان.. يتراقصون ويتمبلون من أجل عرس عمدتهم.. وبجوار المقهى كان عزازي يقف وسط شباب القرية يترعمهم عمر شاهين طالب الطب الذي يعرف كيف يكون الكلام.. يبيتون شيئا.. لقد قرروا المواجهة.. ليس فقط من أجل عزازي ووطنية، ولكن من أجل القرية كلها.. ويبدأ عمر وعزازي وشباب القرية الهجوم على جوقة السلطان، وفي الخلفية يأتي لنا صوت حورية: "الحق ظهريا ناس".

ومن المقهى إلى بيت سسبان سريعا.. بدأت المشاهد القصيرة

ثانية.. اللهات عاد مجددا ونحن نتقل من مكان إلى مكان.. هكذا تكون العاصفة دوما.. عاصفة الأحداث المتلاحقة.. وفي بيت سسبان كان الحسيني قد أتى بحثا عن حورية.. ألم تكن معه في المنزل الآن؟ لقد خرجت دون أن ينتبه إليها.. أين ذهبت إذن؟ كنا نسمع صوتها في الخلفية منذ قليل ولكننا لم نرها.. تتوقع سسبان ذهابها إلى العمدة.. لماذا لم تنتظر إلى الصباح؟ وهل تستطيع حورية الانتظار بعد أن وصلت إلى الدليل الذي لم نعرفه بعد؟ ولكن هل ذهبت إلى صقر حقا؟ لماذا سمعنا صوتها منادية على أهل القرية معلنة أن الحق ظهر؟

ويأتي الرد سريعا على لسان صباح التي تفتحهم المشهد لتخبر الحسيني وسسبان بأن حورية قد مرت عليها وأخذتها معها ثم أخذت تدور في القرية كلها مرردة: "الحق ظهر يا ناس".. ظلت تفعل ذلك حتى وصلت مقهى عزازي.. كانت المشاجرة قد بدأت هناك.. شباب القرية وعزازي من ناحية والخضري وبطانة السلطة من ناحية أخرى.. وعلى خلفية ذلك كان الخفر يمسون كل من يقابلهم، وقد أمسكوا بحورية.

ومن بيت سسبان إلى الشارع ثانية.. الخفر يمسون بحورية.. تصرخ بأعلى صوتها إنهم قد يمسونها لكنهم لن يستطيعوا إمساك لسانها.. ستظل تتكلم فقد كشفت الحقيقة وصار الدليل بين يديها.. ويشرعون في تكميم فمها، فتستمر في الصراخ بأن الكلمة قد خرجت بالفعل.. خرجت وسمعها الجميع، ولن يفيد تكميم الأفواه بعد ذلك.. ترفع صوتها طالبة بأن يتكلم من سمعها.. أن يوصل الأمانة.. ويخلط صوتها بصوت ميلم الذي يردد ما قالت حورية: "الي ماسمعش يسمع".

ومن الشارع إلى دكان العفي.. يبكي ميلم وهو يشعر بالحسرة.. لقد أخذوا الجميع وتركوه.. أكان يريد أن يكون معهم؟ أحزين لأنهم لم يأخذوه؟ أشعر بأنهم لا يقدرونه حق قدره؟ ويطمئنه العفي

قائلا: "ماحدث في الحبس غيرهم" .. نعم .. ليست حورية من وقعت في الحبس .. لقد وقعت السلطة كلها في الحبس الذي لا مفر منه .. حبستهم حورية وحدها .. نجحت فيما لم ينجح فيه أحد.

ومن دكان العفي إلى المخفر حيث يحاول الحسيني الدخول للاطمئنان على حورية .. يمنعه عزب .. يسأله الحسيني كيف يفعل ذلك مع حورية ابنة أخي العمدة؟ ويرد بأن العمدة أمر بذلك فلا فارق عنده بين كبير وصغير .. الجميع سواء .. العمدة العادل يصنع ذلك .. الكل سواء أمام القانون .. كل من يتكلم يسجن مهما كان .. وسيعرض الجميع على العمدة في الصباح .. هذه شريعة العمدة وقانونه.

ويأتي الصباح ليدخل العمدة ساحة المحاكمة مصطحبا سيدة القصر الجديدة .. يسأل السنباطي إن كان قد حقق معهم وأخذ أقوالهم أم لا؟ ويرد بأنه فعل، وأنهم اعترفوا بكل شيء .. لقد أقروا بأن حورية قد حرضتهم على كل شيء .. حرضتهم على حرق المقهى .. ويهتف الجميع .. عرفوا الهتاف جميعا .. نطقوا به .. يهتفون بأن ذلك لم يحدث .. ينفون التهمة عن حورية علنا .. يكذبون السنباطي دون خوف .. لقد نسوا الخوف وعرفوا كيف يتكلمون.

ويتدخل العمدة ليدور الحوار التالي:

- العمدة: يا خسارة يا بنت أخويا .. إيه اللي جرى لعقلك بس؟

- حورية: اللي جرى جرى للبلد كلها يا صقر

- العمدة: صقر؟! ده انت اتجنيت بحق بقى .. مش كلام

- حورية: أنا مش هاقول لك يا عمي .. لأنك مش عمي .. ومش

هاقول لك يا عمدة .. عشان اللي يقتل عمدة بلده .. أخوه اللي من دمه .. يبقى حرامي وقاتل

- العمدة: الله يعوض على عقلك يا حورية.

كان هذا الحوار الكاشف عن الجريمة للمرة الأولى.. كانت حبيسة الصدور والقلوب والعقول.. توقعناها نعم.. رأيناها في عيون الجميع، ولكننا لم نسمعها إلا في هذه اللحظة.. لقد تحققت النبوءة التي قدمها العفي هذه المرة.. عندما تعلقو الألسنة مطالبة بالحق تنكشف الحقيقة.. طالبت حورية بحقها وحق أخيها، فعرفوا الحقيقة كاملة، ووجدوا الدليل الذي ظلوا يبحثون عنه.. وها هي تأتي كاشفة الحق والحقيقة.. قالتها في وجهه.. لم تخف من صقر، الذي لم يكن يوما عمها.. كان قاتل أبيها.

ويدخل الحسيني إلى المشهد منضما إلى أخته، وكيف لا وهو من جاء رافعا الراية مشهرا السيف في يده.. سيف الحق الذي لا يخاف.. ويقولها هو الآخر عالية: "حورية ماتجنتش وكل كلمة قالتها صح.. ومعايا الدليل".. قالها الحسيني ليستمر الحريق.

ويرسخ عكاشة في هذه الحلقة قيمة المشاهد القصيرة المتلاحقة.. لقد نجح في الانتقال بنا بين بيوت كل من صقر وصادق وسسبان والحناوي ودرية وحشاد.. ذهب لكان العفي ومقهى عزازي والمخفر والمسجد وشوارع القرية.. كل هذه الأماكن ذهبنا إليها خلال هذه الحلقة، في مشاهد سريعة أصلت فكرة تسارع الأحداث التي وصلت إلى ذروتها مع نهاية الحلقة في الحوار الذي جسد قمة الصراع الدائر بين السلطة والشعب.. بين صقر وحورية.. ومع هذا المشهد الأخير كان اللهاث قد وصل بنا إلى حد لم يعد ممكنا تحمله إلا بالتوقف عند هذه النقطة.. التوقف ثم العودة لاحقا لتستمر الحكاية.. حكاية الصراع الذي لا نعرف نهايته.

العب صقر.. وسقوط الإشارة!!

وتستمر الحكاية.. تستمر من حيث انتهينا.. من ذروة الصراع التي لم نتحملها.. المواجهة الحاسمة بين حورية وصقر.. تدخل الحسيني مؤكداً أن أخته ليست مجنونة كما ادعى صقر.. كلامها كله صحيح وعنده الدليل.. ويرد السنباطي بأن حورية ليست فقط المجنونة.. الحسيني أيضاً فقد عقله، وعليه التحفظ عليهما حين إحضار طبيب.. ولا يسمعه العمدة.. كان غارقاً في أحلام يقظته.. كان يرى ذلك الكابوس الذي يطارده.. الفارس المنطلق في ربوع القرية ممتطياً حصانه ممسكاً رايته وسيفه.. يراه ثانية.. لقد أصبح شاخصاً أمامه الآن مجسداً في الحسيني وحورية.

وتزلزل الصدمة العمدة.. يأمر السنباطي بترك الجميع والإفراج عنهم.. يطلب من حورية أن تنصرف إلى بيت عمته تاركة الحسيني له.. أي خطة جديدة تدور في رأسه بعد كل ما حدث؟ هل يريد ثانية الظهور أمام الجميع بمظهر الحمل الوديع الذي لا يؤذي ابني أخيه رغم اتهاماتهما له؟ هل يريد أن يُنزل العقاب على الحسيني منفرداً؟ أسئلة تطرق باب الرؤوس.. وترفض حورية الذهاب.. ترفض ترك الحسيني وحيداً.. وينصرف الكل.. يتركون حورية والحسيني مع صقر في مواجهة ربما يكون فيها الخسار.

وتبدأ حورية المواجهة بالسؤال عما يريده من الحسيني.. ويرد بأنه يريد التحدث معه كرجل، ولكن ما دامت قد فعلت ما فعلت وخرجت في الشوارع تدور كالرجال فسيكلمها هي إلى أن يكبر الحسيني ويصبح رجلاً.. اللعبة الأولى إذن.. إنها إشعال الفتنة بين

الأخوين.. ولكن الحسيني وحورية يؤكدان ألا فرق بينهما.. كلاهما واحد وعليه أن يواجههما معا.. فشلت اللعبة الأولى يا صقر.. عليك أن تلجأ إلى لعبتك الثانية.

ويسأل العمدة: "عايزين إيه؟" والإجابة قاطعة على لسانيهما: "الحق.. والعدل".. فهم العمدة المقصود بالحق.. ولكن هل يفهم العدل؟ إنه الاقتصاص ممن قتل أباهما وقفز على كرسي السلطة مكانه.. قالتها حورية ثانية.. وسمعتها صقر مجددا ليتساءل عن الدليل الذي تحدث عنه الحسيني.. إنها اللعبة الثانية إذن.. كشف الأوراق.. معرفة كل ما لدى الأخوين الباحثين عن الحق والعدل.

ويقدم الحسيني دليله.. يقدم ذلك الخطاب الذي تركه صادق الحلواني في الليلة الأخيرة.. ويرمي بنا عكاشة في دروب الماضي لنسمع الخطاب بصوت صادق ذاته.. كلماته الأخيرة قبل مقتله بساعات.. يكتب هذا الخطاب لزوجته أو حورية أو الحسيني أو لمن يعثر عليه بعد موته.. يوضح أن أخاه مصمم على أن يسير في طريق الشر إلى النهاية.. حاصره برجاله من قطاع الطرق وأبناء الليل، وفرض عليه الإقامة الجبرية في منزله ليتنازل عن العمودية.. أعطاه آخر إنذار، وإلا فلن يكون مسئولا عن حياته.. رفض التنازل، وهو يعرف أنهم سيقتلونه في أول مرة يخرج فيها من البيت.. حذرته أخته سسبان من الخروج لحضور فرح ابن شيخ البلد.. ولكنه مؤمن بأن الأعمار بيد الله.

ويكشف لنا صادق خلال خطابه عن الأوراق التي وجدها الحسيني وحورية مع الخطاب.. إنها العقود والأوراق التي تثبت موقفه من صقر.. لم يوضح ماهيتها لكنها الأوراق التي لن يتم مخطط صقر إلا بها.. لن ينجح صقر في فرض سطوته إلى الأبد إلا من خلال القضاء عليها والتخلص منها. ورغم كل هذا، يدعو صادق لأخيه بالهداية ومغفرة ذنبه إن لم يتراجع عنه.

وأخيرا يختتم صادق خطابه بوصية إلى الحلوانية وأهلها.. يوصيهم بأخذ الحقوق.. يوصيهم بإلغاء التوكيلات، وأن يفرض كل منهم سيطرته على أرضه، وألا يسلم رقبته لأي إنسان مهما كان.. وتنطلق الرصاصة.. الرصاصة التي قتلت العمدة القديم.. العيار الذي لم يكن طائشا.

ونعود إلى صقر.. نبدأ اللعبة الثالثة.. التشكيك في كل ما جاء في الخطاب.. إنها اللعبة التي مارسها مع حورية والحسيني من قبل.. اتهام بالجنون.. كل ما كتبه صادق تحريف ولا أساس له.. الكل يعرف أنه أصيب في عقله قبل موته.. أصيب بالجنون، وما كتبه هو نتيجة لذلك.. يحاول صقر إقناع الأخوين بما أصاب أباهما قبل الموت، مؤكدا أنه لن يتركهما ينشران ذلك وسط الناس.. لا يستطيع ذلك.. ومع كلماته تلك كان يمزق الخطاب.. الدليل على صحة كلامهما.. كانت هذه هي اللعبة الثالثة.

وتفشل لعبة صقر الثالثة.. يفاجئه الحسيني بما فعل.. هذه صورة من الخطاب.. لم يكن الحسيني ساذجا.. لقد صنع خمس صور منه غير الأصل.. صورة معه وصورة مع حورية وصورة مع سسبان وصورة مع العفي وصورة مع الحناوي.. لم تمزق الدليل إذن يا صقر.. فشلت لعبتك الثالثة.

ويملي الحسيني شروطه.. لن يعرف أحد عن الخطاب والأوراق شيئا إلا إذا رفض التنفيذ.. ولكن ما الذي يريد منه الحسيني أن ينفذه.. إنه الحق المسلوب.. ليست الأرض ولا المال فقط.. كان صقر يعرفها وحده، فقد أرقته كثيرا.. ومع ذلك قالتها له حورية.. رفعت صوتها بها.. الحق هو التنازل عن العمودية وإعادة الأرض لأصحابها.. ويصل غضب العمدة إلى منتهاه.. لم يعد يملك ألعابا أخرى.. يصرخ في وجهيهما.. إنه سيد البلد.. سيدها وحاميها.. حمايته ليست الخفر فقط، وإنما حمايته من أهل القرية أنفسهم.. هم أهله وناسه.. هم

من سيتصدون لهما، وليس هو فقط.. هكذا يفكر صاحب السلطة المستبد دوما.. يعتقد أن الجميع معه.

ويرد الحسيني بأن هذا سيتغير -إن كان صحيحا- فور أن يروا العقود والأوراق.. لقد وجدها إذن.. يفتن صقر إلى ذلك أخيرا، ويبدأ في الوعيد.. ينذر ويحذر.. سيعطيها المال ويترك الحلوانية قبل نهاية اليوم، مقابل هذه الأوراق.. يغادرانها بلا رجعة.. هذا هو الإنذار الأخير.. ولم تنجح هذه أيضا يا صقر.. حتى اللعبة الوحيدة التي ألفتها وتعودت عليها لم يكن لها فائدة.. لم تخف حورية ولم يهتز الحسيني.. صوت الحق أعلى.. ترد حورية بأنهما من يعطيانه الإنذار الأخير.. إما ترك الحلوانية وإما كشف كل شيء.. ولكنهما سيكونان أكثر كرما منه.. الفرصة أمامه للغد، وليس لنهاية اليوم.. وينصرف الأخوان تاركين العمدة يعاني مما حدث.. لم يعد هناك راحة.. هكذا يقول لدربة التي سمعت كل شيء.. يؤكد لها أن المشكلة ليست في الحسيني.. مشكلته حورية.. أما زالت نقطة ضعفه حقا بعد كل ما حدث؟ إنها ابنته التي رباها على يديه، ويعرفها جيدا.. ولكن ما العمل؟ هكذا تسأل دربة، لينتهي المشهد على العمدة مناديا رجليه الدمر داش والسنباطي.

ينتهي أطول المشاهد في المسلسل كله.. قرابة تسع دقائق كاملة.. وكيف لا وهي المواجهة الكبرى.. ذورة الصراع بين الفريقين المتصارعين؟ لماذا لا يكون هذا هو المشهد الأطول إذن؟ رغم ذلك فإن عكاشة يدرك جيدا أن هذا ربما يلقي بعضا من الملل عند المشاهد، فيلجأ إلى حيلتين تقتلان هذا الملل الذي لم يبد لنا ولو للحظة.. الحيلة الأولى كانت الخطاب الذي جاء بصوت صادق عائدا بنا إلى الماضي.. لقد كسر المشهد بهذه الحيلة.. تغير المكان والزمان معا. أما الحيلة الثانية فكانت الجمل القصيرة التي اعتدناها في مثل هذه الصراعات.. حيلة ألفناها من عكاشة ولم تعد غريبة عنا أو عنه.

وننتقل إلى بيت الحناوي.. يلوم رشاد الحسيني لأنه صرح لصقر بأسماء من يحملون صورة من الخطاب.. يرد أبوه بأنهم لا يخافون منه، ويرد العفي بأن العمدة لا يخاف أيضا، فهم يعرفون ما في الخطاب منذ زمن، وصقر يعرف ذلك.. وتستنكر حورية موقفهم.. أكانوا يعرفون ورغم ذلك صمتوا؟! ولكن الرد يأتي متوقعا.. عرفناه سابقا.. كان ينقصهم الدليل، وها هو بين أيديهم الآن.. هذه هي القيمة الحقيقية للخطاب والأوراق.. هذا ما سيجعل العمدة يخاف.

وتدرك حورية الخطر.. تعرف أن الخطر قد أصبح على الحسيني.. لقد عرف صقر أنه الوحيد الذي يعرف مكان أصل الخطاب والأوراق.. لا أحد غيره.. إنه مستعد أن يفعل أي شيء للوصول إليها.. هذا هو الخطر الذي سيحيط بالحسيني، ولا بد له من حماية. رغم ذلك نرى الحسيني يؤكد أنه ليس خائفا وسيعود لبيت أبيه كما كان.. ولكن رشاد يرفض ذلك.. ويطلب منه ألا تكون الأوراق معه.. ويرد الحسيني بأنها ليست معه.. أخفاها بمعرفته ولم يقل لأحد.. كان هذا طلب حورية، وقد نفذه.. لقد أخفاها في مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه، ولكن إن حدث له شيء فستكون بين يدي حورية.

ونذهب إلى سسبان.. تقرأ خطاب أخيها.. تطلب منه السماح فلم يكن بيدها شيء.. ويأتي الرد مفاجئا.. لقد زاد عدد من يعرفون الكلام.. ترد عساكر التي تخترق الغرفة نافية ما تقوله سسبان.. كان بيدها إذن.. تسألها عما سمعته.. فترد عساكر بأن شيئا لم يعد خافيا عن أحد.. ورغم كل ما حدث تحذرها سسبان.. تحذرها من أن تفتح فمها.. ما زالت تفضل الصمت وتوصي به.. وتستجيب عساكر.. إنها لا تتحدث إلا معها فقط وخلف الأبواب المغلقة.. إنها فقط تصون العيش والملح.. تخاف عليها وعلى ابني عمدها القديم صادق.. وترد سسبان بأنها لن تخاف مثلها عليهما فقط.. خوفها لم يكن يوما على نفسها، وإنما الخوف كل الخوف على الكل.. الخوف من النيران التي

ستأكل الجميع.. وترد عساكر بأن النار اشتعلت منذ زمن طويل..
لكن سسبان ترى أنها ستزداد وتزداد.. إنها تراها أمام عينيها.. تراها
تأكل الكل.

ونعود إلى حورية والحسيني في بيت أبيهما.. تبدو الهموم على وجه
حورية.. تصرخ من داخلها.. يعود عكاشة -أو لنقل سيد حجاب
هذه المرة- إلى الخطاب الداخلي وتيار الوعي.. تردد تلك الكلمات التي
تؤكد الهموم التي تحيط بها.. ستكمل الطريق الذي بدأته.. لن تتوقف
عن الوصول إلى الحق والحقيقة.. لن تتوقف عن إكمال مسيرتها، رغم
ما بها من ألم.. وأي ألم هذا الذي تشعر به؟! تردد:

”لا جري ورا حقي..

والآقي حقيقتي..

وأنساك يا سنين الغشاوة ونوحي..

عمي الي رباني بإيده عماني..

ياني وياني..

وتقرر حورية أن تنتقل للعيش بجوار أخيها.. لقد عرف الجميع
أنه أخوها، والعمة ليست في حاجة إليها مثله.. ويسألها الحسيني:
”ومروان؟“.. ما زال الحسيني يرى في مروان أملا رغم كل ما حدث..
أما حورية فلم تعد ترى ذلك على ما يبدو.. تسأل: ”مروان مين؟“..
ألم تعد تراه؟ ألم تعد تفكر فيه؟ ألم تعد ترى فيه أملا؟ إنها لم تعد تعرف
أحدا بهذا الاسم.. لم تعد تعرفه من الأساس.. كان مروان الذي تعرفه
مجرد خيال.. كان خيالا كاذبا لا وجود له في الواقع.. كان الفارس الحالم
الذي رآته في الحواديت وفي صندوق الدنيا المليء بالألوان والحواديت،
ولكنها لم تجده على أرض الواقع.. وجدت صندوقا آخر.. صندوقا
أسود مليئا بالظلم، وحين بحثت عن الفارس لم تجده.. ضاع كما
ضاعت الألوان والحواديت!!

ويلوم الحسيني نفسه.. إنه السبب في كل هذا.. السبب في كل ما حدث.. ألم يكن الأفضل ألا يعود؟ ألم يكن الأفضل أن يترك الصندوق مغلقاً؟ ألم يكن الصمت هو الأفضل للجميع؟ وترد حورية نافية ذلك.. لم يكن هذا أبداً هو الأفضل.. راحة البال حين تبنى على الهم والغفلة يتحول الإنسان إلى بهيمة تأكل وترعى دون أن تعرف الذي يسن سكينه ليقتلها.

كلمات حورية تلك تضيء لنا فكرة نجدها واضحة عند عكاشة.. إنك تشعر للحظة بأن الحوار الدائر على ألسنة الشخصيات ربما لا يتناسب معها.. حورية هنا مثلاً تبدو الحكيمة الخبيرة التي تحمل علم السنين وحكمتها وخبرتها.. أيمن لفتاة ريفية بسيطة أن تحمل كل هذه الحكمة داخل صدرها؟ ربما تكون الإجابة لا.. ربما تكون الإجابة أن عكاشة ينطق شخصياته برؤيته هو دون النظر إلى الشخصية التي تتحدث ومقوماتها.. ربما تكون هذه إجابة سطحية مريحة، ولكن التأمل الدقيق يجعلنا نؤكد أن كل كلمة نطقت بها حورية جاءت مناسبة لها.. تتناسب مع شخصيتها وما حملته من معارف وتجارب.. ألقاس الخبرة والحكمة بالسنين؟ نعم يحمل عكاشة شخصياته أفكاره، وهذا ليس عيباً، بل العيب هو أن يحدث عكس ذلك، ولكنه يمهّد الأرض جيداً لهذا.. يصنع شخصياته من البداية بعناية شديدة.. تصبح حية من دم ولحم.. تنطق ما يناسبها دون زيادة أو نقصان.. ما خبرته حورية وما عرفته في أيام قليلة غيرها من الألف إلى الياء.. جعلها قادرة على أن تقول هذه الكلمات المحملة بالمعاني التي لا يدركها إلا حكيم وخبير.

ويدق الباب عليهما.. تدخل العمّة سسبان.. تطلب الأوراق من الحسيني.. ماذا تريد سسبان؟ أتبيع ابني أخيها المقتول لأخيها القاتل؟ هل ستمزق الدليل الذي وجداه تحت دعوى الخوف من النيران التي تراها؟ نعم لقد جاءت من أجل ذلك.. جاءت لتحرق

الأوراق، فصقر لن يتركها أبدا معها.. لن يتركها يكشفان ما فيها.. نحن أيضا لا نعرف ما في هذه الأوراق.. ما زال عكاشة يحتفظ ببعض الأسرار.

وينطلق صقر في خططه الجديد.. ينفذ ما توقعه رشاد.. يهاجم كل من لديه صورة من الخطاب.. كل من يعرف شيئا عن الماضي.. يبدأ بالعفي.. يحطم دكانه، ويقبض عليه وسط هتاف الجوقة والمحاسيب وشمااتهم.. ولا يسلم ميلم الذي ينادي بفتح السكة لأراجوزات السنباطي من أذى عزب.. يضربه فيشج رأسه، ويتدخل عزازي ووطنية لإنقاذه.. ويلقى عزازي عقابه أيضا، ويعلن عزب فرمانه أو فرمان سيده.. عزازي ووطنية عليهما أن يلقيا خارج القرية بأكملها.

ونعود إلى سسبان ثانية.. بدأت المشاهد القصيرة.. أهذا نذير حدث جلل؟ لقد عهدنا ذلك من عكاشة.. المشاهد القصيرة هي مفتاح ذروة الصراع داخل كل حلقة.. ماذا نجبئ لنا عكاشة إذن؟ ها هي سسبان تطنطن بكلام لا يحمل معنى ولا قيمة.. بيت الحلواني لا بد أن يستمر.. ربما يُظلم واحد أو أكثر ولكن هذا لا يهم.. المهم أن تستمر العائلة.. وترد حورية على العمة التي لا يهمها إلا اسم العائلة وهيبتها فقط.. يهمها المنصب والسلطة والجاه.. كل هذا يجب أن يستمر بين يد العائلة ولا يخرج منها.. ليس مهما أن يكون هذا على حساب آخرين.. هذا لا يهم.. وترد سسبان بأن هذا هو حق عائلتها منذ زمن بعيد ولا تفريط فيه.. إنه الضلال يا سسبان.. إنه الطمع.. فهمها صادق منذ زمن وضحى بنفسه من أجلها، وها هما يفهماها الآن ومستعدان للمصير نفسه.. وأمام كلمات حورية تلجأ سسبان إلى الحسيني، ولكن هل يختلف الحسيني عن حورية؟ إنهما ينطقان بلسان واحد.

ويقتحم أراجوزات السنباطي بيت العمدة القديم.. يهمون بتفتيش البيت ركنًا ركنًا.. تقف لهم سسبان.. كيف يفعلون ذلك في بيت صادق الحلواني؟ ولكن عزب يقول بأن هذه أوامر العمدة.. لم يعد

هناك حرمة لبيت في الحلوانية، حتى بيت عمدتها القديم.. وترد سسبان بأن أوامر العمدة لا تسري هنا، ولكن الذئب عزب يقف أمام أخت العمدة متبجحا قائلاً إن أوامر العمدة تسري في كل مكان.. ولا تكتفي كلاب السلطة بهذا بل يلقون القبض على الحسيني.. فقد العمدة صوابه ولم يعد يرى.. قرر أن يطيح بكل من يقف في وجهه.

ومن بيت العمدة القديم إلى دار الحكم.. لم يجدوا شيئاً.. كان هذا هو الخبر الذي أبلغ السنباطي به العمدة.. يغضب العمدة، فيؤكد له أنهم سيبحثون وسيظلون يبحثون إلى أن يجدوا ضالهم.. ويسأل صقر عن الحسيني.. أين ذهبوا به؟ يرد الثعبان بأنهم وضعوه في طاحونة مهجورة خارج البلد.. وضعوا عليها قوة كبيرة من الخفر والحرس.. فرضوا عليه إقامة جبرية هناك كما فعلوا مع والده.. أ يكون مصيره القتل أيضاً؟ لم تعرف حورية مكانه.. لم يعرف مكانه أحد من أهل القرية.. حتى الخفر كانوا من خارج القرية.. أتى بهم السنباطي خصيصاً من أجل تنفيذ هذه المهمة.. لا يوجد من رجاله القدامى إلا عزب وسلماوي فقط.. لم تأمن السلطة حتى لرجالها في هذه اللحظة الحاسمة.. يعتمدون على مرتزقة من الخارج ليقفوا في وجه أهل القرية.

ونذهب إلى الطاحونة المهجورة.. الحسيني يجلس وحيداً في محبسه.. يتجدد تيار الوعي.. يستغيث الحسيني بصرخات من داخله من خلال كلمات سيد حجاب:

”يا أحباب للموني..

م العتمة ارحموني..“

يطلب من الخفير سلماوي مقابلة العمدة.. يأتي الرد بالنفي بإشارة من الرأس.. يطلب مقابلة مروان، فيتكرر الرد.. ويستسلم الحسيني للصمت.. وينتهي المشهد..

نتقل بسرعة إلى حورية ورشاد في بيت العمدة.. رشاد الذي يقول لها إن العمدة يتصرف بعصبية، وهذا معناه أنه لن يترك أحدا.. سيطيح بالكل.. وتسأله حورية عن مكان الحسيني.. رآه عمر شاهين وهم يذهبون به إلى خارج القرية.. وتركه حورية معلنة ذهابها إلى العمدة، فتدخل سسبان طالبة منها الانتظار لتذهب معها.. فهل تتكلم سسبان الصامتة؟ هل آن لها أن تترك الصمت؟

وبعد غياب طويل يذهب بنا عكاشة إلى مروان.. ما زال في معية حشاد.. يقرر مروان الهروب.. لا يستطيع تحمل ما يحدث.. هذه هي قدراته التي نعرفها عنه.. يريد أن يترك القرية ليسافر إلى مكان يهنا فيها بالسعادة.. بالسهر.. براحة البال.. لكن حشاد يخبره بأنه يمكنه أن يفعل كل ما يريد دون سفر.. يستطيع أن يفعل كل شيء عند أيوب الخضري الذي يفتح المقهى لكل هذا الذي يريده مروان.. لقد أعاد المكان إلى ما كان إليه بعد تخطيطه من قبل شباب القرية.. أعاده إلى ما كان وأفضل.. تحول إلى كازينو وستأتي اليوم راقصة لإحياء لياليه.. هل يفضل مروان هذه الحياة؟ هل يقع في شباك راقصة كأبيه؟

ورغم ذلك يؤكد مروان أنه يريد السفر إلى القاهرة.. ويرد حشاد بأن العمدة في حاجة إليه.. ولكن في أي شيء؟ يخبره البصاص حشاد بما حدث من الحسيني وحورية.. لقد طالبوا العمدة بالتنازل عن منصبه.. مروان لم يكن يعرف بما جرى.. يعيش في عالمه الخاص بعيدا عن القرية وما يحدث بها.. ويخرج السؤال من مروان: وكيف يترك أبوه الحسيني بعد كل هذا؟ ما زالت عينه مغمضة.. ما زال أسيرا لأبيه.. لا يستطيع الفكك منه.

ويستمر الشيطان الصغير في الوسوسة لمروان.. لقد ظهر صقر الحقيقي اليوم.. أعلن غضبه للجميع.. أسكت جميع الألسنة.. لقد أمسك بالحسيني وأغلق عليه باب القفص.. انتهى أمره. وتخرج الكلمة المنتظرة من مروان: "وحورية؟".. أما زال يحبها؟ أما زال قلبه

ينبض باسمها؟

ونعود إلى حورية وسسبان.. تذهبان إلى مقر الحكم.. تمنعان من الدخول.. الخفر يمنعهما.. الأوامر تقول ذلك.. وتحترق سسبان الحصون ولكن الخفر يمنعون حورية.. إن كان ولا بد فالدخول مسموح لسسبان وحدها.. وتؤكد سسبان لحورية أنها ستقول لصقر كل ما تريد أو أكثر..

وندخل إلى مقر الحكم.. لم نسمع ما قالت سسبان لصقر، ولكنه يقول لها إن هذا لم يكن كلامها.. ومنذ متى تقول سسبان كلاما غير كلامها؟ التغيير الذي حدث على ما يبدو أنها قالت.. قالت لأول مرة.. تكلمت بما كان يجب أن تقوله.. يقول لها إنه يعرف رأيها منذ زمن بعيد، فترد بأنها لم تقل شيئا في الماضي.. نعم لم تقل.. لقد فعلت.. فعلت شيئا غير ما كان في قلبها وفي ضميرها وقناعتها.. سكنت عن الحق يا صقر.. كانت تفكر في العائلة فقط.. كانت تفكر في الحلوانية، وكيف تحافظ على تماسكها.. كان هذا عهدا أخذته على نفسها، فيوم تتفرق الحلوانية ستزول.. كان هذا ما أسكتها.. هذا ما جعلها تفضل الصمت.

ويلعب العمدة معها ألعابه المعتادة.. لقد فعل ما فعل من أجل السبب ذاته.. كان هو أيضا حريصا على الهدف نفسه.. وكان ما فعله اليوم مثل ما فعله بالأمس وكانت توافق عليه.. ويتصاعد الصدام بين الصقرين.. لم توافقه يوما على ما فعل.. هكذا تعلنها سسبان.. كانت تسكت فقط خوفا من الانقسام والتفتت.. ويهب العمدة مرددا بأنها يجب أن تسكت كذلك هذه المرة.. لتهب كذلك سسبان قائلة إنها لا تؤمر.. لا أحد يستطيع توجيه الأمر لها.. ويستمر صقر في حيله وألعابه.. هي التي ستجبر نفسها على السكوت، والسبب هو نفسه السبب الذي يحركه.. كلاهما يملك الغرض نفسه.. هو بفعله وهي بسكوتها.. كانت هذه هي الحقيقة التي رصدناها من البداية

وها هو عكاشة يكشف لنا عنها من خلال هذا الصراع الدائر بين صقر وأخته.

وتستمر سسبان في المواجهة.. لقد تغير الزمن.. ما زرع في الحلوانية في الماضي طرح الآن.. الصغير كبر.. لا يفهم ما يرويه واجبا.. يفهم فقط أنه يريد الحق والحقيقة وسيظل يبحث حتى يصل إليهما.. ولكن العمدة لن يترك "شوية عيال" يهدمون ما فعلاه طوال هذا الزمن.. لن يسمح بذلك.. وستساعده هي.. ستغلق خزانتها على أسرارها ثانية، وسيضرب هو بيده على كل من يقف ضده.. وتوقفه سسبان مستحلفة: "إلا الضرب يا صقر".. يكفي هذا.

ويذكرها العمدة أنه كان قد اكتفى.. اكتفى يوم أن أخذ حورية وضمها إليه ورباها.. لم يكن يفكر في الضرب من جديد، ولكن كل شيء تغير بمجيء الحسيني.. تغيرت الحلوانية كلها.. ماذا يفعل؟ أيسكت حتى يجد نفسه مدفونا تحت أرضها؟ إنه الخوف إذن.. الخوف هو الذي يحرك العمدة الآن.

ولا تختلف سسبان عن أخيها كثيرا.. تقول إنها لم تطلب منه السكوت.. فقط عليه أن يعطي الحسيني حقه ويتركه ينصرف.. إنه الحل ذاته الذي فكر فيه صقر.. لا فارق بين الفاعل والساكت عن الفعل.. كلاهما واحد.. يفكر الاثنان بالطريقة ذاتها، ولا سبيل إلى تغيير ولا تبديل.. ولكن الرد يأتي من صقر مخالفا فقد اكتشف الحقيقة كلها.. الحسيني لا يريد مالا.. الحسيني يريد خلعه.. يريد أن يجلس على كرسيه.. فهل يرضي ذلك سسبان.. الإجابة بالطبع هي لا.. وهل ترضى له شريكته بذلك؟ ولكن ما الذي يرضيها؟ ما يرضيها ألا يؤذيه.. هذا فقط ما تريده.. تعرف ما يفكر فيه صقر.. إنه الخوف.. ويقر به.. "حتى صقر يخاف".. وهذا ما يخيف سسبان.. يخيفها على الحسيني وهو بيد صقر.

ويدافع صقر عن نفسه.. إنه لا يملك إلا ذلك.. الحسيني في يده نعم لكنه رغم ذلك يمسك برقبتة.. لو تركه فسيقضي عليه.. إنه لا يريد إلا الأوراق.. إن فيها مقتله.. لن يتركه إذن دون أن يأخذها.. لن يؤذيه ولكنه لن يتركه.. كان هذا هو الاتفاق النهائي بين الرأسين الكبيرين في نهاية هذا المشهد الطويل الذي كسر وتيرة المشاهد القصيرة المتتالية.. جاء المشهد طويلا لائقا بحوار يدور بين الكبيرين.. حوار يكشف عن صراع بين أبناء الفريق الواحد، أو على الأقل بين قائد الفريق والمؤيدة له ولو بالصمت.

ونعود إلى المشاهد القصيرة الخاطفة.. سسبان تخبر حورية بما حدث.. تنتفض حورية.. تهم بالخروج معلنة أنها لن تترجاه لترك الحسيني.. إنها ستجبره على ذلك.. ولكن كيف؟ ستذهب إلى الناس لإبلاغهم.. ستذهب إلى أهل القرية.. ولكن سسبان تتساءل: وماذا سيفعل لها أهل القرية؟ وترد حورية بأنهم سيفعلون لأنفسهم وليس لها هي.. عقدت حورية العزم على تحريك الناس.. هم الوقود الذي سيشعل نيران الثورة.. الثورة على الظلم.

وتبدأ حورية مسيرتها.. تدور في دروب القرية مرردة: "عمدتك صقر الحلواني قتل أبويا صادق الحلواني.. وحابس ابنه الحسيني.. الحسيني ابنكم.. وفي ضيقة ومحتاج لكم.. وافتكروا أبوه.. عمدتك اللي مات.. اللي حبكم وحبته.. وإذا كان فيه أي جميل عليكم ردوه في ابنه.. أنا مستنياكم عند الدوار".. هكذا كانت تردد حورية في كل مكان متجهة إلى مقر الحكم لاستئناف المواجهة.. تنطلق حورية ويتبعها ميلم.. إنه أول المستجيبين لندائها.

وتبدأ جوقة السلطان في ترديد الكلمات ذاتها.. إنها مجنونة.. لقد فقدت عقلها.. كانت نؤارة الحلوانية ولكنها أصيبت في عقلها.. لا يستمعون لكلمات العفي الذي يطلب منهم أن يصدقوها.. إنها ليست مجنونة كما يقولون.. إنها تريد أن تفتح لهم أعينهم التي نامت على

الضلال.. لا يستجيبون لكلماته فهو في نظرهم مجنون مثلها.. لا يختلف في كثير عنها.

وتستمر حورية في إرسال رسالتها إلى أبناء الحلوانية.. ورددها ميلم خلفها: "الحسيني ابن عمدتكم الشرعي واقع في إيدين غيلان.. لو سبتوه ينهشوه النهارده هيدوروا عليكم بكرة".. ويقف مروان وسط الجمع المحتشد لمشاهدة حورية والساع لها.. ما زال شيطانه حشاد يوسوس له.. يطلب منه التدخل لمنعها من الاستمرار في مسيرتها.. ويستجيب مروان الذي فقد مروته القديمة.. ولكنها لا تستجيب له.. وتصيبه المفاجأة بتلك الكلمة التي يكرهها.. الكلمة التي أصبحت تسكن في قلبها وعقلها.. صارت هي الحقيقة الواضحة بالنسبة لها.. تقول له: "عايز إيه يا ابن أبوك".. إنه ابن صقر الخانع له والمستسلم لمشيئته وإرادته.. لا يستطيع أن يحرك ساكنا أمامه وأمام رغباته.. ويهاجمها مروان: "لا.. ده انت اتجننت بصحيح".. ويرد ميلم بما قلناه منذ قليل: "فين المروة يا مروان؟".. ويحاول مروان إجبارها على العودة إلى بيت سسبان، لكن عمر شاهين يتصدى له، فلم تعد حورية وحدها.. ويرد مروان: "مافاضلش إلا العيال كان".. ولكن "الكل بيكبر يا مروان.. إنت بس اللي بتصغر".. هكذا تقول حورية.. لقد أصبح مروان صغيرا في نظرها.. لم يعد له قيمة تذكر بعد أن ألقى نفسه في معية أبيه من ناحية وفي أحضان جوقته حشاد والخضري من ناحية أخرى، هذه الجوقة التي تلتف حوله بعد أن تركه حورية وحيدا بعد أن أصابته كلماتها في مقتل.

ويجمع الحلاق أحد أفراد الجوقة أطفال القرية مرددين أن عقل حورية قد طار.. يدورون في القرية كلها وهم يغنونها.. يمرون على مروان ذاته فلم يدافع عنها.. تنتشر المقولة في كل دروب القرية.. فقدت حورية عقلها.. من يتكلم مجنون.. كل من عرف الكلام يصبح فاقد للعقل.

ونصل مع حورية وميلم وشباب القرية إلى مقر الحكم.. يمنعون من الدخول، فالعمدة ليس موجودا.. ويبدأ النداء من ميلم: "فين الحسيني يا عمدة؟" ومن خارج مقر الحكم نذهب إلى غرفة الحاجة آمنة.. لم يجد مروان من يذهب إليه إلا أمه.. يحكي لها.. تبدو غاضبة منه.. يتعجب من ذلك.. ماذا كنت تتوقع يا مروان؟ أكنت تتوقع أن يكون غضبها من حورية؟ كيف وهي تملك الحقيقة.. سكنت عنها لكنها تعرفها. وتفتح آمنة باب خزانها.. خزانة الأسرار المغلقة دوما.. تخرج له صورة عمها يحمله وحورية وهما صغيران.. تشير إليه بأن يظلا حوله دائما.. ولكن كيف وقد مات صادق؟ وتنفي آمنة موته.. ماذا يعني هذا؟ أتعني أنه لم يمت؟ أتعني أنه قتل؟ هذا ما لن يطيقه مروان.. أمه أيضا تؤيد كلام حورية.. ولكن ماذا عن أبيه.. لن يستطيع أن يقف أمامه.. ويترك الغرفة كلها.. ينسحب كعادته.

ومن غرفة آمنة إلى الطاحونة.. المكان الذي يجلس فيه الحسيني.. العمدة والسنباطي في زيارة مفاجئة له.. يجبره السنباطي على الوقوف أمام العمدة، ولكن العمدة يطلب منه أن يتركه، فصحته ضعيفة.. يحتاج إلى الدواء بشكل دائم، ولكن الدواء غير موجود.. تهديد واضح وسافر من صقر والسنباطي للحسيني.. لا بد أن يسترد عقله وأن يحضر له كل الأوراق وأصل الخطاب.. ويأتي الرد من الحسيني بأنه لن يعقل أبدا.. ويرد صقر غاضبا: "يبقى عمرك مش هيطول يا حسيني.. ربنا يتولاك".

ونعود ثانية إلى مقر الحكم.. ما زالت حورية وصحبتها يفترون الأرض أمام دار العمدة.. ينادون جميعا على الحسيني، ولا يجيب.. في الوقت ذاته يستمر الحلاق في قيادة أطفال القرية للسخرية من حورية.. يتوقف الأطفال عن الغناء.. يتركونه وحيدا.. ينضمون إلى صحبة حورية لينادوا معهم على الحسيني.. الغد لن يكون لجوقة العمدة ولا للعمدة نفسه.. الغد لحورية والحسيني.. للحق والحقيقة..

هكذا يريدنا عكاشة أن نفهم.. أشار إليه سابقا في أكثر من موضوع..
نعم الصغير يكبر ويعرف، ولن يطيق ما كان حادثا من قبل.

ويعود العمدة، فيأمر بتفريق الجميع، وإدخال حورية له..
ويرفضون تركها وحيدة ولكن حورية تطلب منهم ذلك.. وتدخل
لمواجهة جديدة مع صقر.. مواجهة من نوع جديد، وفي حضرة درية
هذه المرة.

تبدو حورية في صراع بين التمسك بالحق والحقيقة من ناحية،
وأخيها التي لا تعرف مكانه وتريد الاطمئنان عليه من ناحية أخرى..
يعرف صقر ذلك جيدا.. يبدأ ألعابه المعتادة.. كان يجب أن تكون مع
الحسيني هي أيضا، ولكن ما منعه من ذلك هو أنه ما زال يجها.. لا
يريد حتى الآن أن يقسو عليها.. ما زال صابرا عليها حتى الآن رغم
كل ما فعلت.

ومن لعبة التهديد والوعيد إلى لعبة الوعد.. إنه لا يريد أن يؤدي
الحسيني.. إن صدقته فسيكون كل شيء على ما يرام.. لقد عرض على
الحسيني كل ما يريد من مال مقابل ما يملكه من أوراق، ولكنه لم
يقبل.. لم يكن باستطاعته إذن تركه يدور في البلد ليتحدث بها يعرفه..
كان يجب أن يمسه.

ويتنصر حب حورية لأخيها في ذلك الصراع المحتدم بداخلها..
تؤكد لصقر أنها ستقنع الحسيني بالسكوت.. ستضمن له ذلك..
وماذا عنها هي؟ أتسكت هي الأخرى؟ أتستطيع أن تسكت مثل
سائر أهل القرية؟ أتنضم لركب الصامتين هي الأخرى؟ من يضمنها
هي؟ ترد بأنه هو من يضمنها فهو يعرفها جيدا.. كان يعرفها نعم..
كان يعرفها إلى أن حدث ما حدث.

وترد حورية بأن ما حدث كان سيحدث بكل تأكيد، فالحقيقة لا
بد أن تظهر مهما طال الزمن.. ويؤمن صقر على كلامها قائلا: "والي

بـيعرف ماينـساش“.. ولكنـه يستـطيع السـكوت.. يستـطيع أن يسـكت
مثـلما سـكت أهـل القـرية كلـهم.. هـكذا تـقول حـورية.. لـقد اخـتارت
السـكوت فـي مـقابل إنـقاذ أخـيها.. ويلـقي صـقر شـرطـه.. إنـه الأوراق..
ولـكن الأوراق مـع الحـسيني.. هـو فـقط مـن يـعرف مـكانـها.. ويـكون
الفرمان أن الحـسيني سـيظل مـكانـه إلـى أن يـفصح عـن مـكان الأوراق..
وتتـدخل دريـة مـؤكـدة أن الحـل بـيد حـورية.. هـي مـن بـيـدها إقـناعـه..
وهـنا تـطلب حـورية أن تـراه، وستـحاول مـعه.

وقـبل أن تـسأل نفـسك هـل اسـتسلمت حـورية حـقا؟ هـل سـتفـعل
ما طـلبـه العـمـدة لتـسـقط فـي فـخ الهـزيمـة والصـمت؟ قـبل أن تـطـرح
هـذه الأسـئـلة نـجد أنـفسـنا مـع حـورية ثـانية فـي الطـاحـونة.. تـطمـئن عـلى
أخـيها.. لم يـضـربـوه ولم يـتـعرضـوا لـه حـتى الآن، ولـكنـهم فـعلـوا ما هـو
أسـوأ.. لـقد أخـذوا مـنـه الدـواء.. ذلـك الدـواء الـذي يـنتـشلـه مـن خـطر
المـوت.. إنـه ورقـة الضـغط عـليه حـتى يـرضـخ.. لـكنـه لم يـفـعل ذلـك
حـتى الآن.

لم تـكن حـورية تـعرف بـأهميـة الدـواء بالنـسبة للحـسيني.. الآن عـرفت..
زاد خـوفـها عـليه.. تـعلن اسـتسـلامـها فـحياة أخـيها أهـم عـندـها مـن كل
شـيء.. تـطلب مـنـه إبـلاغـها بـمـكان الأوراق لتـسـلمـها للـعمـدة، ولـكن
الحـسيني كان يـعرف اللـعبة أكـثر.. الصـغـير يـملك الرـؤية والبـصـيرة..
إنـه العـيار الطـائـش الـذي يسـكت مـن تـكـلم.. فـي الـوقت الـذي تـسلم
فـيه حـورية الأوراق لصـقر سـيـكون هـناك عـيار طـائـش فـي طـريقـه لـه،
وعـيار آخـر فـي طـريقـه لـها.. وما أكـثر الأـعـيرة الطـائـشة فـي الحـلوانية!

تتـعـجب حـورية مـن كـلام الحـسيني.. لـقد أعـطاها العـمـدة كـلمـة.. ما
زالت تـثق بـكـلمـاتـه رـغم كل ما حـدث.. ويؤكـد الحـسيني أن العـمـدة
سـيـفي بـوعـده.. سـيـترـكه نـعم.. ولـكن إلـى أين؟ لـن يـترـكه يـتـعـد كـثـيرا..
سـيأتـيه العـيار الطـائـش ليـضمـن السـكوت للـأبـد.

وما العمل الآن؟ المهم الآن هو الدواء.. ماذا ستفعل حورية؟ تلجأ إلى سلماوي الخفير.. إنه الوحيد - إلى جوار عزب - من أبناء القرية وأهلها.. لقد خدم مع والدهما.. ألم يكن لصديق دين في رقبته؟ ويرد سلماوي بأن له الكثير.. لقد آن الأوان لرد الدين في الحسيني.. ولكن هل يستطيع سلماوي؟ الدواء موجود لكنه لا يستطيع، فسيكون ذلك هو آخر يوم في عمره.. إنه الخوف.. الخوف الذي يلجم الجميع.. وأمام ذلك لا تجد حورية إلا قرارا واحدا.. لا بد أن يخرج الحسيني.. ولكن كيف؟ يتركنا عكاشة مع هذا السؤال.. وسنتنظر لنجد الإجابة.

ويتنقل بنا عكاشة سريعا لبيت العمدة القديم.. حورية تبحث عن شيء.. أتبحث عن الأوراق؟ أتريد تسليمها للعمدة ليخرج الحسيني؟ ألم تقنع بما قاله لها؟ أما زالت تثق في وعد صقر؟ لم تجد شيئا.. فشلت في الوصول إلى ما تبحث عنه.

ومن بيت العمدة القديم نذهب إلى دار الولاية.. صقر يجتمع برجليه الدمرداش والسنباطي.. تدور المباحثات بينهم.. هل ستستطيع حورية إقناع الحسيني؟ حتى إذا لم تنجح فالحل الآخر موجود.. سيسلمونه لعزب الذي سيجبره على الإفصاح عن مكان الأوراق.. كان هذا رأي السنباطي؟ ولكن العمدة يتساءل وماذا إذا مات في يد عزب؟ ويرد السنباطي بأن هذا سيعني سكوته للأبد ودفن السر معه.. ويؤمن الدمرداش على كلام السنباطي، ولكنه يعطي لمسته هو الآخر.. لسنا في حاجة لعزب.. عليهم فقط أن يتركوه حتى تصيبه الأزمة ويموت.. الثعابين تفكر في اتجاه واحد.. لا تعرف إلا الموت لغة لدفن الأسرار.

ولأنه لا يختلف كثيرا عنهم، فإن العمدة يؤكد أن كلام الدمرداش يبدو معقولا، ولكن السؤال سيبقى: أين وضع الحسيني الأوراق؟ أين أخفاها؟ وما الذي يضمن ألا تقع في يد أحد آخر لتبدأ اللعبة من جديد؟ وربما أعطها لأحد موصيا إياه بالتصرف إذا ما تعرض

لسوء.

ويأتي السؤال من السنباطي.. من هذا الذي يمكن للحسيني أن يسلمه الأوراق؟ ويرد العمدة بأنهم كثيرون.. ربما رشاد.. ربما العفي.. ربما حتى عزازي أو ميلم.. لهذا لم يكن غريبا أن يأمر العمدة بمراقبة كل هؤلاء.. بمراقبة الجميع.. ولكن ماذا عن حورية؟ جاءت كلمات صقر واثقة.. حورية متعلقة بأخيها.. لو كانت تعرف مكان الأوراق لما ترددت عن تسليمها له.. أصبت يا صقر.. لقد بحثت حورية ولم تجد شيئا.

وتأتي حورية إلى صقر ليتأكد مما قال.. لم تجد شيئا.. جاءت راحة له.. جاءت طالبة العفو.. مستعدة لأن تفعل أي شيء يرضيه.. ستتزوج مروان وستعيش في داره.. ستوقع له على التنازل عن كل حق لها.. إنها مستعدة لأن تقطع لسانها حتى لا تتكلم.. ستقطع يديها لكي لا تكتب.. كل هذا مقابل أن يعطي الحسيني الدواء.. ستقدم كل شيء من أجل أخيها.. رفعت حورية الراية البيضاء إذن.. لم تعد لها قدرة على استكمال المسيرة للنهاية ما دام أخوها يتعرض لهذا الخطر.. أكون الحسيني أغلى من الحق والحقيقة؟ هذه هي المشاعر الإنسانية.. ربما يدفعنا الخوف على الأحبة للسقوط فيما لا نرضى عنه.

وصلت الرسالة إلى صقر.. لم تستطع إقناع الحسيني فهو يخاف على نفسه ومعه الحق في ذلك.. إذن فهو حر.. هكذا يقول العمدة.. لم يقل إلا الحق.. لم يكن العمدة يقصدها ولكنها الحقيقة.. لقد اختار الحسيني أن يعيش حرا!!

تطلب منه حورية أن يجسها هي.. هذا ضمن له أن الحسيني لن يتكلم.. ولكن العمدة ينفي قدرته على فعل ذلك.. إنه يعرف ما فعلته ولكنه رغم ذلك لم يستطع إيذاءها.. إنها نقطة الضعف التي كانت وما زالت تؤرقه.

وتعود حورية للبحث عن حل .. ستتزوج مروان ووقتها لن تستطيع الكلام.. ولكن العمدة لا يستطيع ترك رقبته للظروف.. هكذا يقول.. الأوراق مع الحسيني والحسيني في يده.. هذا هو الكلام الأخير.. وتستعطفه حورية المنكسرة ثانية.. وماذا عن الدواء؟ إنه الوسيلة التي ستجبره على الاعتراف.. لا بد أن يخاف ليعترف.. الخوف هو مفتاح الاستسلام.. هو الدافع للصمت.. لا بد أن يخاف. وتخرج الكلمات كالسيف من فم حورية.. إنه يقتله مثلما قتل أباه.. ولكن أيتهز صقر؟ مثل هذه الكلمات لا تهزه.. لقد مات أبوه لسبب، وسيموت هو لسبب.. والسبب واحد عند صقر.. كان مقتلهم في عنادهم.. ويأتي السهم الأخير من حورية: "وإنت مقتلك فين يا عمدة؟" .. ويأتينا الرد: "فيك يا حورية!!"

ويتركنا عكاشة دون حسم.. لم تنته لشيء جديد سوى قناعة بأن صقر لن يترك الحسيني ولن يعطيه الدواء.. الخطر يحاصر الحسيني.. أما حورية فماذا تفعل؟ أعندها جديد تستطيع فعله؟ أفضّل السكوت حقاً؟ أم تعود لمسيرتها التي بدأتها؟ هل ستكمل الرحلة؟

ونذهب إلى بيت الحناوي.. كان عمر شاهين ورشاد وحورية يتباحثون حول ما يمكن فعله.. لم ترفع الراية البيضاء إذن.. ستحاول حتى النهاية، وها هي تفكر الآن في إيجاد الحل.. الطاحونة محاطة بعدد كبير من الخفر.. لا يمكنهم اقتحامها.. يحتاجون لجيش جرار لفعل ذلك.. يقترح رشاد حلاً آخر.. ألا يمكن الاستعانة بأحد الخفراء؟ ويرد عمر بأن السنباطي قد اختارهم جميعاً من خارج البلد ليضمن ولاءهم.. ويدخل الحناوي متسائلاً: هل وصلوا إلى حل؟ ويعاود رشاد اقتراحاته.. لا حل إلا اللجوء إلى الشرطة في البندر، وإبلاغهم بما يحدث.. ولكن الحناوي وعمر لا يريان في هذا حلاً، فحتى يحدث ذلك سيكون الخبر قد وصل إلى صقر، وساعتها سينقلون الحسيني إلى مكان آخر، ولن يعرفوا طريقه.. ويأتي القرار من حورية.. ستخرج

الحسيني .

ومع نهاية كل مشهد يتركنا عكاشة مع النهاية المعلقة.. تشعر بأن المشهد لم ينته.. لا بد أن له بقية.. على المشاهد أن يتوقعها إن أراد.. عليه أن يجيب عن السؤال الذي يقفز إلى رأسك مع نهاية المشهد.. والسؤال الآن: كيف ستقوم حورية بذلك؟ كيف ستستطيع إخراج الحسيني من محبسه؟

ونذهب إلى الطاحونة.. الخفر يحيطون بالمكان.. فريق حورية المكون من عمر وعزازي ورشاد يدور حول المكان متخفياً.. وتبدأ الخطة.. خطة الهروب.. ولكن عكاشة لا يمهلنا وقتاً للتعرف على الخطة.. ندخل الطاحونة لنجد الحسيني يتعرض للأزمة المنتظرة.. جاء الخطر الذي كان يحيط به.. جاء في غير موعده.. ينادي على الخفير سلماوي.. إنه يريد الدواء.. إنه السبيل الوحيد للنجاة من الموت.. ولكن أيجب سلماوي مطلبه؟ سيوفر له الدواء نعم، ولكن إذا تكلم.. هذا هو الشرط الذي يخبره به.. ويسقط الحسيني.

ونعود إلى الخارج حيث خطة الهروب.. تبدأ الخطة بالإشارة.. إنها عواء الذئب.. ويهم ميلم وعزازي بإشعال النيران، وقبل أن يحدث أي شيء يخرج سلماوي مستغيثاً ببقية الخفر.. لقد مات الحسيني.. مات الحسيني ليستمر الحريق.. ولكن أيستمر الحريق بعد أن ماتت الإشارة؟ الإشارة التي أتت من بعيد لتحرك الألسنة وترتفع كلمات البحث عن الحق والحقيقة؟

هكذا ينهي عكاشة حلقة التي يرسخ فيها تلك التقنية التي أشرنا إليها.. نهايات المشاهد التي تترك للمتلقى الخيال لاستكمالها.. المشهد ينتهي على الشاشة نعم.. الكلمات تنفذ نعم، ولكن له بقية عليك أن تكملها أنت أيها المتابع.. عليك أن تلتقط السؤال الذي تركه لك نهاية المشهد لتبحث له عن إجابة في رأسك.. أن تتوقع الخطوة الآتية..

ستحاول أن تفعل ذلك بكل قوة، ستنجح حيناً وستضطر حيناً آخر
لانتظار إشارة تدلك على الإجابة.. عكاشة إذن يريد المشاهد الفاعل
لا المستسلم لما يعرض عليه من أحداث.

الهروب.. الخزائن المفتوحة.. الحريق

وتستمر الحكاية.. تساءلنا هل تستمر مع سقوط الحسيني.. مع سقوط حامل الراية والمشعل؟ وانتظرنا كثيرا لنجد الإجابة.. وما زلنا ننتظر حتى يكشف لنا عكاشة الإجابة.. ويدخل سلماوي وعزب إلى الطاحونة.. يحكي سلماوي لعزب ما حدث.. ويضع عزب أذنه على صدر الحسيني.. ما زال قلبه يدق، ولكنها دقات ضعيفة.. لم يمت الحسيني بعد.. لم يسقط الفارس من على جواده.. قدم لنا عكاشة الإجابة سريعا.. وفي مفاجأة غير متوقعة يأمر عزب سلماوي بإحضار الدواء.. ويتعجب سلماوي من ذلك.. لن يكون الأمر تحولا مفاجئا من عزب بكل تأكيد.. كل شيء له مغزى عند ذئب السلطة.. ويتم إنقاذ الحسيني على يد جلاده.

ونعود إلى الخارج ثانية.. توقفت خطة الهروب.. كانت حورية قد سمعت خبر وفاة الحسيني.. ولكن صحبتها عادت الآن لتأكيد أنه بخير.. عرفوا ما حدث بالتأكيد.. يحاولون تهدئة حورية التي تؤكد أنها لن تهدأ إلا بعد أن تراه بنفسها.. وتعود للنداء على أخيها، ويحاولون إثراءها عن ذلك حتى لا ينكشف أمرهم.. وتسمع حورية الخبر المطمئن.. عزب يطلب من خفره العودة إلى أماكنهم فقد أفاق الحسيني.

ويختلف الرفاق.. هل يكملون خطتهم، أم تؤجل لوقت آخر؟ يرى عمر وميلم أن هذا أنسب موعد، فما زال الخفر مشغولين بما حدث، بينما يرى عزازي تأجيل الخطة.. وتحسم حورية الأمر، فهي لن تترك الحسيني بين أيديهم ثانية.. سيكملون الخطة.. سيكملون خطة الهروب.

ويسأل سلماوي الحسيني إن كان يريد طعاما أو شايًا.. ولكن عزب
يتدخل.. لسنا في مضيعة أو مقهى.. ويرد سلماوي بأنه مريض.. ولكن
عزب لا يعرف مثل هذه الأمور.. يعرف فقط تنفيذ الأوامر.. هذا
هو الفارق بين عزب وسلماوي.. ربما يملك سلماوي قلبا رغم كل
شيء.. ويعلو صوت عواء الذئب.. إنها الإشارة.. إشارة بدء تنفيذ
الخطوة.. الإشارة التي فسرها سلماوي على أنها نذير شؤم!

ويسرع أحد الخفر بالاستنجاد بعزب.. النيران تشتعل حول
الطاحونة.. تحيط بهم من كل جانب.. ويسرع عزب وسلماوي
لمشاركة الخفر في إطفاء الحريق.. كانت هذه الخطوة التي رسمتها
حورية والصحبة.. يشغلون الخفر بالحريق ليخرجوا الحسيني من
محبسه.. ولكن الخطوة لم تكتمل بعد.. حورية ستحل محل الحسيني..
تجبره على ذلك، فلا وقت لحديث.. ومع ابتعاد الحسيني والصحبة
تتلقى حورية الإشارة.. وتبدأ الغناء!

كانت الخطوة التالية من الخطوة.. كانت تشغلهم ثانية بغنائها..
تلقت الأنظار إليها داخل الطاحونة ليدخلوا إليها مسرعين، في الوقت
الذي يتعد فيه الحسيني برفقة الصحبة.. ولكن ألا تخاف حورية من
بطش صقر؟ أتضحى بنفسها من أجل الحسيني؟ ولم لا؟ لقد أعلنت
ذلك مرارا وتكرارا.

ويقتحم عزب الطاحونة.. يهاجم حورية.. تدفعه بعيدا عنها
واصفة إياه بتريية الذئب.. يسألها عن الحسيني، محاولا التعدي
عليها مؤكدا أنه لا يهمله إن كانت ابنة أخي العمدة. ويتدخل سلماوي
لإنقاذ حورية من يده.. ويفطن عزب للخطوة.. كان هناك من يساعد
حورية.. هو من هرب الحسيني.. ويرسل الخفر لتتبع الهارب ومن
معه، بينما يصطحب حورية للسبناطي.

ويبدأ التحقيق مع حورية.. يطلب منها السبناطي الاعتراف على

من ساعدها.. ولكن هل تجيب حورية على مثل هذه الأسئلة؟ تنكر بالطبع.. هي من قامت بإشعال الحريق، وهي من هربت الحسني، وعندما تأكدت من ابتعاده قامت بالغناء لتشغل الحفر عنه.. لا تعرف أين ذهب، وحتى إن كانت تعرف فلن تقول.. كانت هذه كلماتها التي قالتها للسناطي.. ويحاول عزب أن يتدخل، ولكن السناطي يسبه، فلا أحد يستطيع أن يمد يده على سيدة الحلوانية.. ويترك السناطي حورية تمضي إلى حال سبيلها.. ما الذي في رأسه؟ أريد أن يتبعها ليعرف مكان الحسني؟ ربما يكون هذا ما يخطط له، وربما يكون شيئاً آخر.

وبعد أن تخرج حورية يبدأ السناطي في تأنيب رجله عزب.. كيف استطاعت حورية أن تتدعه وتهرب الحسني؟ ويحاول عزب الدفاع عن نفسه، فقد فوجئ الجميع بالنار تحيط بهم من كل جانب، ولم يكن هناك ما يفعلونه إلا ذلك إلا الخروج والتصدي للنيران.. كانت الخطة قد وضعت بإحكام، ونفذت كذلك بإحكام.

وللمرة الأولى لن يستطيع السناطي أن يواجه العمدة.. لن يستطيع الذهاب له وإخباره بأن رجاله الثلاثين لم يستطيعوا مواجهة حورية.. وقتها سيكون الأهلون عليه أن يرتدي طرحة وأن يخلق شاربته.. ماذا سيفعل السناطي إذن؟ هل سياتظر حتى يعيد القبض على الحسني؟ ولكن أين يجده؟ لا بد أنه سيتعد عن القرية كلها.. ولكن هل يترك الفارس العائد أرضه ثانية؟ ويأمر السناطي عزب بأن ينطلق في أثره.. لا بد أن يأتي به قبل أن يطلع عليه الصباح.

ولكن الحسني لم يغادر القرية كما توقع السناطي.. كان داخل القرية.. كان في بيت سسبان مع الصحبة.. كان في البيت الذي ذهبت إليه حورية متبوعة بالحفر الذين لم يتوقعوا ذلك.. كان في البيت الذي لا يجرؤ خفير على دخوله.. كانت هذه كلمة سسبان التي قالتها لحورية.. ويدق الباب، فتفزع حورية، ولكن سسبان تأمر عساكر

بأن تفتح الباب دون خوف.. وعلى الباب كان رشاد.. جاء لينضم إلى الركب.. إلى الكتيبة السرية التي ستقود الثورة.

وتأمر سسبان عزازي وميلم بالانصراف، فهما أول من ستدور حولهما الشكوك، ولا بد أن يكونا أمام الجميع.. وقبل أن ينصرف ميلم كان لا بد أن يذكر سسبان بكلماته: "خلاص يا سسبان.. ظهر الحق وبان".. بل يتبعها بقوله: "مش هتروقي من هنا ورايح يا سسبان".. إنها النبوءة الجديدة التي يبشرها بها ميلم.. ونبوءات ميلم لا تعرف إلا التحقق، فكيف ستتحقق نبوءتك يا ميلم؟

وتطمئن حورية على أخيها، وتطلب منه أن يعطيها اسم الدواء لكي تحضره له، ولكن رشاد يؤكد لها أنه قد أحضر له الدواء.. ويتكلم الحسيني.. يقول بأنه صار عبئا عليهم.. لا تعطيه حورية الفرصة ليكمل كلمته.. ويطلب رشاد من سسبان أن يصطحب الحسيني معه.. هو أيضا يرى في وجوده في بيت سسبان خطرا عليه.. سيبحث عنه العمدة هنا.. ولكن سسبان تستمر على رأيها.. لن يستطيع أحد أن يمد يده على الحسيني وهو في بيتها.. أجاء وقت التغير يا سسبان؟ أجاء وقت الانتفاضة؟ انتظرنا ذلك منك كثيرا ولكنه لم يحدث.

ويرد رشاد بأن العمدة لن يترك الحسيني فقد أصبح خطرا عليه، ومهما كان يوقر سسبان ويقيم لها حسابا، فهو لن يتركه.. لن يعرض كل ما فعله للخطر.. لن يوقفه شيء ولن يقيم وزنا لأحد.. لا لأخت ولا ابن أخ ولا ابنة أخ.. لن يهمله إلا هو فقط، خصوصا وأن حورية لن تراجع.. ويلقي رشاد السؤال الذي راودنا: هل ستراجع حورية؟

وترد حورية.. لن تراجع أبدا إلا بعد أن ينفذ العمدة كل ما طلبته.. لم تراجع حورية ولن تراجع.. كان كل ما حدث خوفا على أخيها فقط.. وتتدخل سسبان طالبة منهم الاكتفاء بما حدث.. ما زالت تفضل السكوت.. لقد ألفتها وأصبح صديقها الصدوق.. تطلب منهم

التوقف، وإلا سيحرقونها.

ويأتينا رد رشاد: "ساعات الحريق ما بيقاش شرياً حاجة" .. يحيلنا إلى كلمات حورية التي قالتها أو ستقولها في ذلك الزمن الذي لا نعرفه .. كلماته التي قالتها عن النار التي تطهر .. أجاها وقتها؟ أهذه هي النار التي يقصدها رشاد؟ نعم هي .. ها هو يقولها .. إنها النار التي تطهر وتنظف وتقوي .. تسأله حورية عن معنى الكلام؟ لم تكن فهمته بعد، فقد قالته في زمن لم نعشه بعد .. كانت هذه كلماتها وقت اشتعال القرية بأسرها في ذلك المشهد الذي لم يحن بعد .. كانت ساعتها قد فهمتها !!

وذهب إلى صقر .. كان في غرفته مع درية .. لم يصله الخبر، ولن يصله كما قال السنباطي .. كانت درية تلقي بسمومها هي الأخرى .. كانت ترى أن الحسيني ما دام تحت سيطرة العمدة، فلن تستطيع حورية فعل شيء .. ولكن العمدة يتساءل ولمتى سيظل الحسيني تحت يده؟ إنه مريض وربما يموت في أية لحظة، وهذا سيجعل حورية تفقد عقلها وتفعل ما لا يمكن توقعه .. وتأتيه درية بالحل .. عليهم أن يعطوا الدواء للحسيني في موعده ليحافظوا على حياته إذن .. وماذا بعد؟ هكذا يسأل العمدة .. فتشير عليه درية بأن يزوج حورية من مروان، فوقتها ستكون تحت يديه .. ولكن ماذا إن أصبح مروان هو الذي تحت يديها؟ كان هذا سؤال العمدة .. إنه لا يثق في مروان ابنه .. لا يثق أحد في مروان .. لا حورية ولا العمدة.

ويرفض صقر اقتراحات درية مبرراً ذلك بأنها لا تعرف حورية .. إنها ورثت العناد من أبيها وكذلك الحسيني .. نسي العمدة أنها ورثته منه هو كذلك .. وسواء كانا قد ورثاه من العمدة القديم أو من العمدة الجديد، فهما قد ورثاه في النهاية .. إنها لن يتركا ما في رأسيهما ما داما على قيد الحياة .. وتتفض درية، فقد فهمت كلمات العمدة .. إنه يفكر في القتل .. ليس هذا غريباً عنه .. يحب حورية نعم، ولكنه كان يحب أباه أيضاً، ورغم ذلك فعلها .. فعلها من أجل مصلحته

ومن أجل مصلحة القرية كلها، فمثله لا يستطيع أن يمشي خلف قلبه، فوقتها سيضيع نفسه ويضيع كل من يتعلقون برقبته.. لذلك عليه أن يقتل الحب في قلبه ويفعلها، ثم يقضي العمر كله تحت عذاب الندم والكوابيس التي تطارده.. كل ذلك من أجل أن تبقى الحلوانية.. أن تظل.. كاذب أنت يا صقر.. كان كل ذلك من أجلك أنت فقط.. كاذب أنت ولكنك صدقت كذبتك!

وتسأله درية عن الناس.. ماذا سيفعلون؟ الرد جاهز عند العمدة.. سيرون ويعرفون لكنهم سيسكتون كالعادة.. أصبح الصمت عادة والسكوت سنة، ولا غرابة أن يستمرا طوال العمر.. ويأتي الرد هذه المرة من عكاشة بامتياز.. إن كان الصمت أصبح عادة، فكل عادة يمكن أن تتغير.. وها هي الصامته الكبرى.. ها هي الخرساء آمنة تحاول أن تتحدث بطريقتها.. تترك غرفتها.. تمشي في طرقات المنزل.. تقتحم الغرفة على صقر وزوجته دون أن يلتفت أحد إليها.. كيف فعلت ذلك وهي العمياء الخرساء؟ كيف غافلت حرسها على هذا النحو.. إنها الرسالة التي أرسلها لنا عكاشة.. لقد انتهت وقت الصمت.. ولكن هل تصل الرسالة إلى صقر؟

وتشعر درية بالخوف، وتطلب العودة إلى حيث كانت.. ولكن العمدة يؤكد أن هذا خطأ لن يتكرر.. يصرخ في خدمه بأن يأخذوا آمنة ويعيدوها إلى غرفتها.. وتحاول آمنة النداء على مروان.. كادت تنطقها.. فهمتها درية.. وفهمها صقر، فيخبرها بأنه سيرسل إليه ليأتيها.

وننتقل إلى مروان الذي فقد مروتة.. كان في كازينو الخصري بصحبة جوقة السلطة المجتمعة هناك.. يشرب ويلهو ويسامر الراقصة التي أتى بها الخصري كما أتى غيرها من قبل.. ويدخل شيخ البلد جلسة الأنس.. يبدو غاضبا.. يرفع صوته: "إيه المسخرة دي يا خصري؟" ألا تعرف يا دمر داش؟ ألسنت واحد من روادها؟ يبدو أنه غضب

لأن مروان يشاغل الراقصة.. كان يجب أن تكون من نصيبه هو.. ويتأكد لنا ذلك من خلال الحوار الهامس بينه والخضري.. ويصرخ شيخ البلد في الحضور بأن ينصرفوا، ويهدد الخضري بأن المراد إذا لم يحدث فسيقوم بإلغاء رخصته.. وماذا عن مروان؟ على الخضري أن يتصرف.. ويحاول الخضري ذلك، فيأمر الراقصة المتنازع عليها بين ابن العمدة وشيخ البلد بأن تترك المكان متعللاً بأن أمها تمر بأزمة صحية.. ويوسوس حشاد كعادته متسائلاً: أمها أم شيخ البلد؟ ويرد مروان طالباً من الخضري أن يسألها عمن تريد.. وترد الراقصة بأنها ستذهب لمن يتفقون عليه.. وتفسد الجلسة، لكن خفيراً ينقذ الموقف.. يبلغ مروان بما حدث.. ويترك مروان المكان.

ونذهب إلى الحسيني لنجده وقد حل ضيفاً على رشاد في بيت الحناوي.. أقنع رشاد سسبان إذن بأن بيت الحناوي أكثر أمناً.. يقول رشاد للحسيني إن إقامته ربما تطول هنا، ولكن الحسيني كان يرى أن الإقامة لن تطول.. ربما فقط للغد.. سيتهي كل شيء غداً.. ما الذي تراه ولا يراه الجميع يا حسيني؟ ما الذي سيحدث غداً؟

ويتركه رشاد ليأتي حديث النفس وهو يفتح النافذة ويطل على الحلوانية: "مش هتعددي ليلة زي دي تاني على الحلوانية يا حسيني.. كل الكلاب هتجري وراك.. من بيت لبيت ومن سور لسور ومن غيط لغيط".. كان هذا ما يراه الحسيني في غده.

وتدخل صباح محضرة الطعام للحسيني.. تقول له إنها رياح الخماسين التي هلت.. يراها الحسيني بشائر الربيع.. إنها الخماسين ستأتي نعم، ولكن بعدها الربيع المزهر التي تفتح فيه الورود والأزهار.. إنها الحياة الهائلة التي ينتظرها الجميع.. ولكن لكي نصل إليها لا بد من الخماسين.. لا بد من رياح عاتية تمر ويأتي من بعدها الخير كله.. كانت هذه هي الإشارة التي قدمها لنا عكاشة من خلال هذا الحوار الذي قد يظنه البعض بعيداً عن الحدث.. كل كلمة لها

معنى عند عكاشة.

ولكن صباح ترى فيه وجع العين واحمرارها.. ألا تحب صباح الربيع؟ إنها لم تشعر به قبل ذلك.. لم تعشه الحلوانية يوما.. وماذا عن الخريف؟ إنه "حلو لكن باتقبض منه".. إنه مثل كل شيء حلو لا تكاد تشعر بحلاوته حتى يضيع.. كان هذا تفسير الحسيني.. يا له من حوار مليء بالمعاني والأسرار والإشارات.

وتتمنى صباح أن تحمل الحمل معه، فيرد الحسيني بأنه يشعر بأن الحمل يخف مع مرور الوقت.. سيرتاح قريبا لكن غيره سيحمل الحمل.. من جديد يؤكد الحسيني أن الرحلة ستنتهي قريبا.. يقولها دائما لصباح وهي الحبيبة.. ألا يريدان أن تتعلق به؟ أريدها أن تعرف أن أيامه معدودة؟ وتبكي صباح.. وهل تجد إلا البكاء؟

ومن الحسيني الذي أصبح يرى الموت أمامه إلى مروان الذي فقد كل شيء، ولم يعد له إلا أمه ليرتمي في أحضانها كطفل صغير.. لقد ضاع منه كل شيء حتى حورية.. وتشير إليه أمه إشارة لم يفهمها.. أهو من أضاعها من يديه؟ أهو من فرط فيها أم هي من أضاعته؟ أضاعها أبوه؟ نعم هو من أضاعها.. كانت هذه إشارتها.. وماذا عليه أن يفعل؟ إنه أبوه.. ما زال لا يعرف ما يجب عليه أن يفعل.. ما زال لا يستطيع تصديق ما يقال عن أبيه.. ما زال عاجزا عن ذلك، فإن صدق ضاع هو الآخر.. ويعترف مروان بالخطأ.. يدرك أنه كان يجب أن يفعل شيئا لكنه لم يستطع.. ونتعاطف مع مروان رغم كل شيء.. ربما نلومه.. ربما نغضب منه.. ولكننا سنتعاطف معه في النهاية.

ويقتحم العمدة خلوة الابن بأمه.. يأمره بالخروج معه، وقبل أن يخرجها يهددها.. يهدد العمياء الخرساء.. إن فعلتها ثانية فسيخرجها من "المنزل".. يقول لها ذلك ليخرج لمواجهة مروان.. لن يكون رجلا أبدا.. كانت هذه بداية الهجوم.. ويرد مروان: "أنا طول عمري

راجل“.. ويسكته العمدة.. كان يجب عليه أن يكون إلى جواره وأن يتعلم منه بدلا من أن يبكي في حضن أمه مثل البنات.. ويستمر العمدة في كلماته الحادة كالسيف.. عندما عاد وعرف أن مروان قد دار في القرية صارخا مدافعا عن العمدة مطلقا رصاصاته فرح.. قال إن ابنه أصبح رجلا يعتمد عليه.. أصبح ابنه حقا.. ابن صقر الحلواني.. لكنها “طلعت عيار فشنتك وطارت في الهوا“.. يراه صقر هكذا.. يراه فاشلا في كل شيء.. لم ينجح في امتحان أبدا.. فشل حتى في زواجه من حورية.. حورية التي كان يجب أن تكون خاتما في إصبعه.. لم يستطع أن يفعل ذلك.. لم يستطع أن يفرض سيطرته عليها.

ويتصاعد الحوار ليأخذ منحى آخر.. من أين جاء مروان الآن؟ ويجيب مروان بأنه أتى من عند أيوب الخضري.. ويشتعل غضب العمدة قائلاً إنه أتى من عند الخضري سمسار الأعراض.. ويأتي الرد كالصاعقة: “إلي جاب لك مراتك الجديدة“.. يالها من ضربة.. يالها من مفاجأة.. من أين عرف مروان؟ كيف وصلت إليه هذه المعلومة؟ لقد تذكرها مروان.. إنها غازية من الغوازي اللاتي أتين إلى القرية للرقص في الموالد والأفراح.. كل ذلك لا يهم الآن.. نزلت الكلمة كالصاعقة على صقر.. لم يعد هناك كلام ينفع.. يصفع مروان صفعة مدوية.. ولا يسكت مروان.. لم يعد هناك سكوت.. ينطق للمرة الأولى.. هذه الصفعة ليست على وجهه هو وإنما على وجه ما يريد أن ينساه.. كبير البلد الذي وقع تحت أقدام راقصة.. ويفقد صقر صوابه.. ينهال عليه بالضرب.. يسقطه أرضا.. يصبح كالشور الهائج لا يوقفه أحد.. وتتدخل درية، فيطرده.. يأمره بالخروج من البيت وألا يراه ثانية.. ويخرج مروان فيلتفت العمدة لدرية ويطلب منها أن تأتيه بالولد.. الولد الذي رفضه قبل ذلك يريداه الآن!

ومن عاصفة إلى عاصفة أخرى.. يمشي ميلم بصحبة العفي في دروب القرية رغم رياح الخماسين التي هبت عليها.. لا يعرفان وجهتهما..

شيء ما يقلق العفي.. يكشف عن ذلك لميلم.. القش يغطي أسطح المنازل.. الحمام سيترك الأبراج ويحط على القش و"ريشه هيلوع".. لا يبدو الكلام مفهوماً حتى لميلم الذي يرى ما لا يراه الآخرون.. يسأله ميلم عن مقصده.. يطلب منه العفي أن يدور على بيوت القرية جميعها طالبا من السيدات ألا يشعلن أفرانهن.. ويفهم ميلم.. ولكن الجميع نيام الآن ولن يسمعه أحد.. رغم ذلك يصبر العفي على طلبه.. ويبدأ ميلم في النداء.. ولكن لماذا؟ ما الذي يخاف منه العفي؟ أيخاف من اشتعال النيران في القرية؟ أيخاف أن تكون الرياح سببا فيها؟ أهذا ما يقلقه؟ أهذه نبوءة جديدة من نبوءاته إلى جانب نبوءات ميلم؟

ويصل الصوت إلى حورية.. كانت عساكر تستعد للخبز.. ألم تسمع ما قاله ميلم؟ ولكن منذ متى يسمع أهل القرية ما يقوله ميلم؟ وينتقل القلق إلى حورية.. إنها ربح عاتية.. وتتعجب حورية من كلمات ميلم.. لم يفعلها قبل ذلك.. وترد عساكر بأن العفي هو من قال له بالتأكيد.. كان دائما يردد هذا الكلام وقت الخماسين.. كان دوما يردد: "مسيركم هتحرقوها".. ولكن أحدا لم يستمع.. ويزيد القلق في نفس حورية.. تشعر بقلق مضاعف لأن العمدة لم يتحرك.. كانت تتوقع منه أن يقلب القرية كلها رأسا على عقب عندما يصله الخبر.. لم يصله الخبر يا حورية.. السنباطي لم يخبره.

ومن حورية التي تفكر في أمر إشعال الفرن نذهب إلى العفي الذي يستوقف الشيخ وهبة طالبا إياه بالاستعداد لشيء ما.. لم نعرف ما الذي يجب الاستعداد له.. يحاول وهبة الابتعاد عنه مؤكدا أنه إذا حدث هذا الأمر الذي لا نعرفه فسيحلها الحلال.. ويوقفه ثانية العفي فلن يمكنه الهروب مثل المرة الأولى.. ويؤكد وهبة أنه لم يهرب سابقا.. لقد سكت عندما سكت الجميع.. كانت السكين على رقاب الجميع.. ومن جديد يهرب وهبة ويذهب إلى المسجد ليصلي الفجر

بعد أن ظهر الحناوي..

ويكمل العفي رسالته للحناوي.. لقد جاء وقت ما هربوا منه في الماضي، أو قاموا بتأجيله.. ويخبره الحناوي بأن الحسيني في بيته.. ويرد العفي بأنه يعرف، ولكن يجب أن يتنقل لمكان آخر.. ويؤكد الحناوي أنه لا يوجد مكان آمن بالحلوانية.. ويرى العفي أن على الحسيني العودة إلى بيت أبيه وعلى الجميع محاطته.. ويستهن الحناوي الفكرة، فهذا يكون الفخ الذي سيقعون فيه جميعا.. أما زال الخوف يسيطر على الحناوي؟ كان هذا سؤال العفي له.. ولكن الحناوي يرفض ذلك.. إنه من واجه العمدة حتى الآن ولم يقر له بالعمودية.. ويستمر الخلاف بين الصديقين، حتى ينضم لهما الصديق الثالث.. إنه شاهين.. ويواجه العفي صديقه القديم بالسؤال: أنت معنا أم مع العمدة؟ ويفاجئ السؤال الصديق الذي اعتاد الصمت.. وينتهي الحناوي الحوار طالبا منهم أن يذهبوا للصلاة وبعدها يجلسون جميعا للحديث.

وتبدأ الجلسة.. الثلاثة معهم وهبة.. يصرخ وهبة بأنه لا يستطيع.. ويذكره العفي بأنه من رأى منكم منكرا.. ولكن وهبة يرد بأنه لم يعد لديه إلا أضعف الإيمان.. إنه التغير بالقلب.. رجل الدين وإمام المسجد لا يملك إلا أضعف الإيمان.. إنه الخوف الذي يضعف حتى الإيمان!

ويبدي شاهين ضعفه.. إنهم في الماضي لم يستطيعوا.. كانوا أقوى وقتها، ولم يكن صقر قد ثبت أقدامه بعد، ورغم ذلك لم يستطيعوا، فهل يستطيعون الآن، وقد شاخوا، وأصبح صقر مسيطرا على كل مكان في الحلوانية؟ ويرد العفي بأن هناك ظروفًا جدت لم تكن موجودة وقتها.. أصبح هناك حورية والحسيني.. أصبح هناك الدليل الذي كانوا يبحثون عنه.. ويرد وهبة هذه المرة بأن هذا مجرد كلام، وأنهم لم يروا شيئا.. إنها مبررات الضعف والخوف والصمت يسوقها

وهبة وشاهين.

ويتحدث الحناوي.. إنهم إن وقفوا مع الحسيني وحورية فسيدمان
لها كل شيء.. سيكون الدليل بين أيديهم.. ويتساءل وهبة عن
طريقة الوقوف معهم.. أيريدون أن يقفوا ضد العمدة هكذا دون.....
ويقاطعه العفي: "من غير إيه يا وهبة؟".. إنهم يعرفون كل شيء ولم
يكونوا في حاجة إلى تحقيق.. ويرفض وهبة أن يسير معهم.. يعلنها
صريحة.. ينسحب رجل الدين من المعركة مفضلا الصمت، مكتفيا
بأضعف الإيمان! ويترك العفي جلسة الشيوخ مؤكدا أن الشجاعة لا
تولد على كبر!!

ومن جلسة الشيوخ إلى فارس الشباب وحامل راية الحق.. نذهب
إلى الحسيني لنجده جالسا على سطح بيت الحناوي.. تصعد له الحبيبة
صباح.. لم ينم الحسيني طوال الليل.. بعد أن صفا الجو مع أذان الفجر
صعد إلى هناك.. يطلب منها الجلوس معه.. ربما تكون المرة الأخيرة
التي يراها فيها.. مرة أخرى يوجه سهامه إلى قلبها.. إنها لا تعرف
نيتها.. لا تعرف ماذا يريد أن يفعل.. ويرد الحسيني بأنه يحلم بأن
يذهب ليأتي بفرس من خيول العمدة ثم يأتي به مسرعا ليخطفها
ويطير بها.. إنها أحلام الفرسان في الحواديت والحكايات الشعبية..
يريد أن يخطف محبوبته ويطير إلى مكان بعيد على حافة نهر.. هناك
سيجد مركبا ينقلهما إلى الناحية الأخرى.. إنه يريد الأمان والسعادة
بجوار حبيبته.. ما زال قلبه يحلم.. شاخ قلب الشيوخ، وما زال قلب
الشباب ينبض بالشجاعة والإيمان والحق والحقيقة.. ما زال ينبض
بالحب.

ومن المحبين إلى الشياطين.. حلت الشياطين عائدة من بحثها عن
الحسيني خارج القرية.. لقد بحثوا عنه في كل القرى المجاورة دون أن
يجدوا له أثرا.. يخبرون السنباطي بذلك.. ماذا سيفعل الآن؟ لم يعد
يمكنه إخفاء الخبر أكثر من ذلك.. لم يعد أمامه إلا أن يخبر العمدة..

ويوجه السنباطي لرجاله الصفعة تلو الأخرى.. ويهب عزب غاضبا، فهذا كثير على رجال تحملوا كل "بلاوي" البلد، ويقاطعه سلماوي قائلا: "دي مش بلاوي البلد يا عزب.. دي بلاويهم هم.... بلاوي الكبارات.... احنا مش حريم ولا ننضربش على صداغتنا.. أولهم إنت يا سنباطي".. وتخونه الكلمات لتنزل على السنباطي كاشفة الصورة.. لقد عرف الآن كيف هرب الحسيني!

أكان سلماوي مشتركا في الخطة مع حورية وصحبته؟ أنجحوا في شق الصف واختراق صفوف العدو؟ وما الفائدة الآن وقد كشف رجلهم.. كشف سلماوي وها هو يقدم قربانا للعمدة لكي يغفر للسنباطي ورجاله الخطأ الذي لا يغتفر.. ويشتعل غضب العمدة على السنباطي.. يؤكد له أنهم بحثوا في كل مكان حول القرية ولم يجدوه.. تأكدوا أنه لم يغادر القرية.. لماذا لم يبحثوا عنه في القرية؟ لماذا لم يهدوا بيوت القرية للبحث عنه؟ كان هذا سؤال صقر الذي لم يعد يرى شيئا غير استعادة الحسيني.. إنه الخطر الذي يحيط به.. ويصدر صقر فرمانه.. لا دار في الحلوانية خارج التفتيش.. لا بد أن تفتش كل البيوت.. ويسأله الثعبان: "حتى بيت الحاجة سسبان يا سيدنا؟" ويتراجع صقر.. يطلب منه ترك بيت سسبان.. سيفتشه هو بنفسه.. الخطر يقترب من الحسيني إذن.. أصبح مهددا في كل لحظة، وهو من كان يحلم بالأمان مع محبوبته.. بدأ اليوم الذي توقعه.. ألم يتوقع الحسيني أن يكون هذا هو اليوم الأخير؟

وتبدأ رحلة البحث بعد إعلان الحوافز للخفر.. إن عادوا به اليوم فسينال عزب فدائين وسيحصل كل خفير على فدان.. كان هذا هو الحافز لمرتزقة السنباطي، وإلا فليبحثوا عن مكان آخر يعيشون فيه.. وينطلق كلاب السلطة ليحاصروا الحسيني.. يقتحمون كل بيت.. كل دكان.. كل عشة.. يكسرون ويحطمون.. ليست قريتهم ليخافوا عليها أو يحافظوا على حرمتها.. ويصل الخبر إلى رشاد.. يدفع الحسيني

دفعاً أمامه لكي يصعد إلى سطح البيت ليقفز منه على سطح بيت مجاور، بينما يفتح الخفر بيت الحناوي، ويهتكون ستره.. ويصل رشاد والحسيني إلى بيت سسبان لعل فيه الملاذ الأخير.. سسبان تؤكد أن العمدة لن يرتاح قبل أن يصل إلى الحسيني.. وتأخذه حورية لتخفيه، بينما يبدو هو ساخراً من كل ما يحدث.. أقتل الخوف داخله؟ لم يعد يشعر بخوف، أم أصبح يشعر بأن النهاية اقتربت ومن ثم فلا قيمة لكل شيء؟

ويعاد رشاد بيت سسبان ليعود للاطمئنان على أخته وأبيه.. وفي اللحظة ذاتها تأتي عساكر بالخبر.. صقر في الطريق مع خفره.. ولا تهتز سسبان.. وقتها كانت حورية تخفي الحسيني فوق سطح المنزل.. تطلب من الساخر الضاحك أن ينام على الأرض لتغطيه بالقش.. الهواء سيدخل له من كل مكان فلا خوف عليه.. ولكن سيكون هذا هو المكان الذي يختبئ فيه الحسيني من رجال صقر وزبائنه؟ ربما!! ويصل صقر إلى بيت سسبان التي ترحب به.. ولكنها ليست زيارة.. إنها تعرف ذلك.. تؤكد له أن البيت أمامه ويستطيع تفتيشه.. ولماذا؟ تستطيع أن تخبره لترىه وترى نفسه.. وهل سيصدقها إن قالت؟ نعم سيصدقها.. هكذا يقول.. ترد بأن الحسيني ليس موجوداً في الدار.. يطلب منها أن تقسم على ذلك.. ولكنها ترد: "عيب يا صقر".. وأين حورية؟ ربما تكون في غرفتها.. ويطلب مفتاح غرفة سسبان.. هل وصلت الأمور إلى هذا الحد.. لم يصدقها.. ليس هذا فقط.. إنه يقتحم غرفتها.. حصنها الذي لا يدخله أحد إلا برضاها.. ويصر على ذلك.. لا تعطيه المفتاح ولكنها تصعد معه.. تفتح له الباب ليرى.. ويتمادي صقر.. يطلب منها مفتاح خزانة ملابسها.. إنها الخزانة التي أغلقتها على الماضي.. لماذا يريد فتحها الآن؟ تحذره من ذلك.. لن يكون هذا في صالحه.. لن يسعده أن يجد الماضي شاخصاً أمامه.. إنه من يجبرها على فتح خزائن الماضي التي أغلقتها لسنوات طويلة.

ويصر صقر.. وتفتح أبواب الماضي.. يجد جلاباب أخيه الملوث
بالدماء.. ويسقط العمدة.. تصيبه الضربة من حيث لا يدري ولا
يعلم.. ويهرب صقر.. يهرب من أمام الماضي الذي رآه أمامه.. يهرب
وهو يردد: "الله يلعنك".. لقد حذرتة سسبان ولكنه لم يستمع.. لا
خزائن مغلقة بعد الآن.. فتحت الخزائن كلها.. فتحت أمانة خزانها
لمروان، وفتحت سسبان خزانها لصقر.. لقد حل الماضي.. جاء من
بعيد ليراه الجميع.

ويهم العمدة بترك المنزل كله، وتعالجه سسبان بالسؤال: "مش
هتفتش الدار يا عمدة؟".. وترد حورية بسؤال: "لقت الحسيني
يا عمدة؟".. ومن جديد يحاول صقر.. يطلب من حورية أن تخبره
بمكانه لتنجيه.. إن سلمته له فسيعيش.. ولكن إن وجده أحد الخفر
فسوف يطلق عليه عيارا.. وترد حورية: "عيار طايش برضه؟"..
إنها ضربات الماضي تحاصر العمدة.. ويأمر رجاله بتفتيش البيت..
بينما يعلو صوت سسبان بأنه بهذا قد سمح لخفره بأن يدهسوا بيتها
ويكشفوا ستره.. لم يعد هناك حرمة لبيتها.. لن يمر ذلك أبدا.. إنه
التهديد والوعيد.. نطقت سسبان إذن.. تهدد العمدة.. تهدد من كان
المهدد الوحيد دوما.

ويتعجب صقر مما أصاب سسبان.. أفقدت عقلها هي الأخرى؟ كل
من يتكلم يكون مجنونا في نظره.. ولكنها ترد بأن ما حدث حدث في
الماضي.. كان في مثل هذا اليوم.. كانت الريح عاصفة كذلك.. الغبار
يغطي القرية.. الجو خائق.. والغل يملأ صدره.. ولا يطيق العمدة..
يطلب منها السكوت.. ولكن حورية تنتفض قائلة: "وقت السكوت
خلاص".. لقد انتهى هذا العهد.. تكلمت سسبان.. تكلمت التي
نذرت صمتا طويلا.. وسيتكلم الجميع.. وحتى إن سكت الكل
فسيكلم هو.. سيفف أمام مرآته ليحكى ويقول.. سيحاسب نفسه
وسيحكم عليها.

ويرجوها صقر.. يرجو ابنة أخيه.. ولكن: "أخوك مين يا عمدة؟ بس صادق الحلواني مش أخوك.. إنت مالكش أخ ولا أخت ولا ابن.. إنت لوحدك".. ردت حورية بهذه الكلمات.. لقد شرب صقر دمه بعد أن تسمم.. أكل لحمه.. ما زال جائعا.. ما زال يشعر بالعطش.. لا دواء له من كل هذا.. لا رجوع له من الطريق الذي سار فيه.. شيء واحد فقط ربما ينفعه.. إنه إعادة الحق لأصحابه وتركهم جميعا حتى ينسوه.. وينهار صقر أمام حورية وسسبان.. يهتز الحاكم فوق عرشه.. يترنح ربما للمرة الأولى.. يأتيه الرد من خفركه.. لا أحد في البيت.. أبحاثون عنه بأعلى؟ ويتنبه صقر.. لم يكن يعرف ما حدث له.. كانت كلمات حورية وسسبان قاتلة.. يأمر رجاله بالانصراف.. ويغادر المكان معهم.. يهرب من حورية وسسبان.. يهرب منهما ويترك الحسيني.. وتتصر حورية.

وتصعد حورية إلى الحسيني.. تبشره بالخبر.. ما دام في بيت عمته فسيكون في مأمن.. ولكن حورية لم تهناً بالفرحة.. لم يكن الحسيني موجودا في مكانه.. أين ذهب؟ تبحث عنه في كل مكان.. هل وصلوا إليه؟ هل أخذوه دون أن يشعروا؟ هل هرب إلى مكان آخر خوفا من أن يقع في يد العمدة؟ أسئلة وأسئلة.. لا بد أن يتركنا عكاشة دوما في حالة اللهاث وحبس الأنفاس.. نطرح السؤال وراء السؤال ولا نجد ردا.

وتذهب حورية إلى رشاد.. أعاد الحسيني إليهم؟ لم يعد يا حورية.. يحاول رشاد طمأنئتها.. إن وجدوه فسوف يصل الخبر لهم، ووقتها سيبحثون عن حل جديد.. لن يكون هناك حل.. لن يتركوه هذه المرة.. سيتخلصون منه إن وجدوه.. هكذا قالت حورية وأمنت صباح على كلامها.. ويحاول رشاد مجددا طمأنئتها.. سيدور هو والصحبة في كل مكان ليعرفوا مكانه.

لم يجدوه.. يعطينا عكاشة الإجابة سريعا.. ما زال صقر غاضبا..

السنباطي لم يجده.. بحث عنه في القرية كلها ولم يجده.. يرد السنباطي بأنه سيستمر في البحث.. ويستنكر الدمرداش ذلك.. أين سيبحث؟ ألم يقولوا إنهم بحثوا في كل مكان.. حتى في وقت الأزمات لا يتورع أطراف السلطة عن ضرب بعضهم البعض تحت الأهمية.. ها هو الدمرداش يجدها فرصة للهجوم على السنباطي.. ويحاول السنباطي الخروج من المأزق.. سيبحث عنه في القرى المجاورة ثانية.. ولكن صقر يؤكد أنه ما زال في الحلوانية.. لم يغادرها. ولكن أين؟ سيكون في مكان لا يختفي فيه أحد.. ويتساءل الجميع: أين؟ هل يكون في المسجد؟ هكذا قال الدمرداش، ولكن العمدة ينفي.. إنه لا يعرف مكانه ولكنه سيعرف.

وتبدأ الخطة.. كيف تتعامل مع فأر "لا بد" في مكان لا يعرفه أحد؟ كان هذا سؤال صقر للدمرداش.. ويحييه الثعلب بأن عليه إغراءه بقطعة جبن.. كان هذا خياره، ولكن العمدة كان له خيار آخر.. لن يكون الحل في إغرائه.. الحل في زرع الخوف في قلبه.. ولن يخاف إلا بنار مشتعلة.. ويبدأ العمدة التنفيذ.. على السنباطي أن يرسل رجاله في كل مكان في القرية.. يحكون ويتكلمون.. يقولون كيف هربت حورية أخاها.. كيف أشعلت النار في الغيط بجوار الطاحونة.. ولكن لم كل هذا؟ لن نجد إجابة الآن.. فكر وفكر فربما تصل إلى إجابة.. لكن عكاشة سيركك هنا دون رد.

وتبدأ جوقة السلطة في ترديد القصة في كل مكان.. لقد أشعلت حورية النيران لتخرج أخاها من الطاحونة.. لم تهتم باشتعال النيران في الغيطان.. كانت هذه هي القصة التي تتردد على الألسنة.. ولكن لماذا كل هذا؟ لا نجد الإجابة.

ونعود إلى حورية في بيت الحناوي.. ما زالت تنتظر رشاد الذي يبحث عن الحسيني.. تنتظره أن يأتيها بخبر عنه.. ويأتي رشاد.. لم يجد الحسيني، لكن رجال العمدة أيضا لم يجده.. ولكن لماذا توقفوا عن

البحث إذن؟ سألته حورية هذا السؤال.. ويأتي رده بأنهم يدبرون شيئاً خطيراً.. هل عرف رشاد شيئاً، أم أن ذلك إحساس فقط؟ ما الشيء الخطير الذي يدبره العمدة ورجاله؟ وما علاقة هذا الشيء بالقصة التي بدأ يروجها في كل مكان؟ لم يصل رشاد لشيء.. إنه فقط يشعر بالقلق، والتعجب أيضاً لانتشار تلك القصة على الألسنة، خاصة وأن من يرددها هم جماعة البصاحين من رجال السنباطي.

وتردد حورية كلمات لم يفهمها الكل.. "ليه لأ؟ لو كان لابد بخطرته ولا محبوس غصب عنه لازم يطلع.... بس المهم أهل البلد".. تقولها حورية وتترك المكان مسرعة.. لم تترك لنا فرصة الفهم.. هل وصلت لما يخطط له العمدة؟ هل عرفت الشيء الذي يفكر فيه ولم نعرفه نحن إلى الآن؟ إنها تردد كلمات قريبة من كلماته.. تخيلنا إليها.. فهل عرفت حقاً الخطة وذهبت من أجل إفشالها؟ وما دور أهل البلد في الأمر؟ وأين ستذهب هي الآن؟

وتدور حورية في كل مكان.. تدق الأبواب جميعاً.. تطلب من الجميع الخروج إلى الخلاء.. عليهم أن يفعلوا ذلك بسرعة وإلا ستلحق النار بهم؟ أي نار تلك يا حورية؟ هل سيقوم العمدة بإشعال النيران في الحلوانية كلها؟ هل ستكون هذه هي النيران التي ستخرج الحسيني من المكان الذي اختبأ فيه؟ أكان هذا مقصده؟ لماذا إذن روج لقصة حورية وما فعلته لتُهرَّب الحسيني؟ أيريد إلصاق التهمة بها؟ أهذه هي الخطة؟ هل فهمتها حورية ولهذا خرجت لتتنقذ أهل بلدها؟ وتستمر حورية في النداء.. تطلب منهم الخروج.. تطلب منهم أن يدلوها على الحسيني إن كان هناك من يعرف مكانه.. النار ستشتعل ولا بد من خروج الجميع.

وتشتعل الحلوانية.. يشعلها صقر.. حلت اللحظة التي رأيناها قبل ذلك.. النار تحاصر كل مكان.. تنادي حورية على الحسيني.. يحاول الجميع مواجهة النار.. الرياح العاتية تزيد اشتعالاً.. حدثت نبوءة

العفي.. تحققت مرة أخرى، واشتعلت النار.. المشاهد أمامنا رأيناها قبل ذلك.. رأيناها في ذلك الزمن الذي لم نكن نعرفه.. المشاهد التي كان يصدر بها عكاشة حلقاته.. عرفنا الزمن الآن.. كان المستقبل الذي يبشرنا به.. ها نحن نراه الآن حاضرا أمامنا.

تكرر المشاهد كلها التي رأيناها سابقا.. نرى حورية تنادي على الحسيني.. تحاول البحث عنه وتمنعها صباح والحناوي ثم رشاد من الصعود إلى سطح البيت وسط النيران.. نرى شباب القرية يلجمون النيران.. نرى ميلم وهو يردد أنه طار.. ونرى حورية وهي تسأله هل رآه، فيجيب مؤكدا أنه رآه ولكنه لم يلحق به.. لقد طار.. نرى السيدات تحيط بحورية متهمة إياها بأنها من قامت بإشعال الحريق.. نرى مروان وهو يؤكد أن حورية لا تفعل مثل ذلك.. نرى حشاد وهو يحاول إقناعه بأنها فعلت وأن الناس رأوها وهي تشعل النيران.. نرى آمنة وهي تنطق.. تنادي على مروان ابنها.. نرى حشاد يسلمها إلى عزب الذي يرمي بها داخل البيت المشتعل، وترى حورية ما حدث.. نرى السنباطي يعطي الإشارة للمركز.. نرى المطافئ تصل ومروان يتساءل عن تأخيرها.. نرى رشاد وهو يقول له إن مقر الحكم لا تصله النيران.. بانورا ما سريعة خاطفة تذكرنا بما رأيناه سابقا.. يحيلنا عكاشة سريعا إلى ما رأيناه بشيء من التفصيل عبر مقدمات حلقاته الأولى.

ويأتي البيان: ”رياح الخماسين وفرن أم السعد والحمام يشعلون النار في قرية الحلوانية.. القرية تحولت إلى كومة رماد“.. كان هذا هو البيان الذي نشرته الصحف عن الحريق.. الحريق الذي رأيناه سابقا وكأنه نبوءة أو إشارة لما سنراه الآن.. أو بالأحرى كان ما رأيناه الآن إحالة لما رأيناه في السابق.. ليستمر الحريق.

إنها الإحالة.. التقنية الجديدة التي لم يستخدمها عكاشة فقط في مشهد النهاية عندما قدم لنا ملخصا سريعا يذكرنا بما رأيناه سابقا..

لقد أحالنا إلى ذات المشهد، مشهد الحريق في أكثر من موضع من خلال عدد من الجمل الحوارية التي سمعناها سابقا.. جملة تحيلنا إلى جملة ومشهد يحيلنا إلى مشهد.. الإحالة تلك التي يقدمها لنا عكاشة تزيد الدراما تماسكا.. تجد نفسك تربط بين خطوطها الممتدة عبر حلقات المسلسل.. تشعر بأن بنيانا متماسكا مترابطا يقف أمامك.. كل جملة مبنية على جملة سابقة وتمهد لجملة قادمة.. هذه هي صنعة الدراما التي يقدمها لنا عكاشة.

منح ميلم والسلطة.. وحريق النور والنار

ويستمر الحريق.. ولكن ألم ينطفئ؟ بل بدأ.. كان الحريق الذي أكل القرية كلها مجرد بداية ليس إلا.. "تحولت قرية الحلوانية إلى مجموعة أكوام من الرماد والأخشاب المحترقة وأطلال البيوت.. لم تستطع قوة الإطفاء الخاصة بالمنطقة والمناطق المجاورة أن تسيطر على النيران إلا بعد أن احترقت القرية عن آخرها".. كان هذا هو تقرير النيابة التي انتقلت إلى الحلوانية.. وما زالت حورية تنادي على الحسيني.. ضعف الصوت ولكن النداء استمر.. ما زالت تبحث عنه في كل مكان.. لا يأتيها الرد.. أمات الحسيني وسط النيران؟ أخرج سالما وطار كما كان يردد ميلم؟ ما زال التحقيق مستمرا وسيستمر.. لجنة كبيرة تحقق في سبب الحريق، وإن كانت الآراء كلها تشير إلى أن شرارة خرجت من فرن مشتعل كانت سبب الحريق؛ حيث أمسكت بالقش وساعدت رياح الخماسين على انتقال النيران من مكان لمكان.. هل تعرف اللجنة مصدر الشرارة؟ هل تعرف مكان الفرن المشتعل؟ لم تكن الشرارة مصدرها فرنا عاديا.. كان فرنا اشتعل منذ زمن بعيد.. اشتعل في الماضي وانطلقت شرارته وقتها.. ولكن كيف للجنة أن تعرف ذلك؟

ما زالت حورية تبحث في الأطلال عن أخيها.. ما زال الحسيني مخفيا.. التقارير تقول إن الخسائر في الأرواح طفيفة.. ولكن هل يكون من بينها الحسيني؟ الأمر ما زال غامضا.. نقل أهل القرية إلى مخيم إيواء مؤقت حين إعادة بنائها ثانية.. القرية أصبحت خاوية إلا من آثار النيران.. أصبحت تنتظر البناء من جديد، ولكن هل تبنى على نظافة كما قالت حورية؟ هل طهرتها النيران لتصبح جاهزة لتبنى على أسس العدل والحق والحقيقة؟

أهل القرية جميعاً أصبحوا في مكان واحد.. ذلك هو المخيم الذي صنع ليضمهم.. لم يعد هناك في القرية إلا صقر.. حرقها وجلس هناك على تلها في مقر الحكم.. حتى مروان كان هناك وسط الناس.. فقد أمه في الحريق.. كانت ضمن الضحايا.. يقدم رشاد له العزاء.. ليتهى بقيت في "المنزل" فهو المكان الوحيد الذي لم تصل إليه النيران.. خرجت باحثة عنه، ولكن هل يعرف أن هناك من ألقى بها في النيران؟ لقد قتلت أمه.. قتلت مثلما قتل صادق.. الطريقة مختلفة والقاتل واحد.

ويكمل مروان.. لقد تركوها تخرج.. الذين كانوا يمنعونها من الخروج من الغرفة تركوها لتخرج من البيت كله.. تركوها وسط النيران.. ويظهر حشاد.. أحد القتلة يمشي في الجنازة.. ما زال يمارس خسته وألغابه الدنيئة.. يدافع عن سادته.. لقد شغل الكل بالحريق.. الكل اهتم بأن ينجو بنفسه.. ويسأله مروان: وماذا عنه؟ ماذا عن صقر؟ لماذا لم يقم بإنقاذها كما أنقذ الثانية وهربها إلى البندر؟ ومن جديد يدافع الخسيس.. لم يهربها إلى البندر.. فقط تقيم تحت حراسة الخفر.. ويرد مروان بأنه فكر فيها في النهاية، فلماذا لم يفكر في أمه؟ ما زال مروان ساذجاً لا يرى الحقيقة الواضحة الجلية.. ربما يراها ولكنه ينكرها لأنه لا يتحملها.

ويستمر الكذب على لسان كلب السلطة.. العمدة لا يفكر إلا في القرية وأهلها.. لقد دار هو والخفر على كل بيت من بيوت القرية لإنقاذ أهلها وإخراجهم من وسط النيران.. ما كل هذا الكذب؟ ما زالوا يكذبون كما يتنفسون.

وتأتي حورية وسسبان إلى مروان لتقديم العزاء.. وتسكت حورية.. لم تتكلم.. لقد رأت ما حدث، ولكنها لم تتكلم.. أتصمت حورية أم أن وقت الكلام لم يأت بعد؟ أتسكت لأنها تعلم أن مروان لن يتحمل ما ستقوله؟ إنها تعرفه حق المعرفة.. تعرف أنه أضعف من ذلك الخبر.. لم تكن تعرف أنه وقف أمام أبيه.. ولكن حتى إن عرفت،

فهل ستتكلّم؟ هل تعود إليها ثقتها في مروان؟

ولا يفوّت الشيطان حشاد الفرصة.. يصب ناره في أذن مروان ثانية..
بيدي تعجبه من قدرة حورية على تقديم العزاء لمروان.. "تقتل القتل
وتمشي في جنازته".. هكذا قال حشاد.. أليس من الواجب أن يقولها
لنفسه هو؟ إنه من قتل وليست حورية.. لقد أسهم الخسيس في قتل
أم من يدّعي هو أنه صديقه.

ويسير العمدة بين أطلال القرية محاطا بخفره.. يصطدم بحورية..
وتتجدد المواجهة.. تقولها حورية كما قلناها نحن: "خلاص.. وقفت
على تلها؟".. وتواصل السلطة افتراءاتها.. إن حورية من أشعلت
النيران.. أصدق صقر نفسه لهذه الدرجة؟

وتسأله: "منزلك ماتحرقش ليه يا عمدة؟".. إن ما يخصه لا تصله
النيران.. وماذا بقي له غير الجدران؟ لم يبق له شيء غير الجدران
والحرس.. النار لم تحرق البيوت فقط.. لقد أحرقت الحلوانية كلها..
أحرقت جذره وسلسال آبائه وأجداده.. لقد وصلته النيران.. أمسكت
به هو، وها هي تحرقه وهو لا يشعر.

ويتكرر الاتهام.. إنها مجنونة أشعلت النيران في بلدها ثم ها هي
قد بدأت في وصلة هلوسة.. ولكن إلى من يوجه العمدة حديثه؟ إلى
الخفر؟ إنهم "خيال مآة" ليس إلا.. لا يقدمون نفعا ولا يضرّون.. إنهم
لا يسمعون ولا يفهمون.. إنهم ملابس محشوة بالقش، والنار قريبة
وستشتعل بهم وهم يحيطون به.. أما اللحم والدم فقد أصبح هناك..
هناك على البر الثاني.. إنهم أهل الحلوانية الذين أصبحوا يعيشون
هناك.. الفاصل بينهم ليس "قناة" من الممكن أن يعبرها بخطوة.. إنه
شق كبير.. شق يتسع مع كل محاولة منه لتجاوزه.. يتسع ليقع فيه.

ويجن جنون صقر.. يهتف من أعماقه.. كان يجب أن تبقى وسط
النيران لتحرقها كما أحرقت المجنون الذي حرضها وجاء ممسكا

بالنار ليشعل القرية.. إنها من أشعلا النيران في القرية.. ماذا؟ أحرق الحسيني حقا؟ أ جاء الخبر إلى العمدة؟ أهذه حقيقة أم أنها مجرد أمنيات يردددها؟ ربما يريد زرع الخوف في قلبها.. ربما يعيد استخدام كل أسلحته.

وتظل حورية على ثباتها.. لم تلمس النيران الحسيني.. لم تصل إليه.. هكذا تؤكد.. ونسأل أنفسنا مجددا.. من أين لها بهذا اليقين؟ أم أنها محاولة منها لإظهار ثباتها أمام العمدة؟ أتحاول حورية أن تبقي على الخوف الذي سكن قلب صقر من الحسيني وما يمتلكه من أوراق؟

وتستمر المباراة من الجانبين.. يعود صقر لتأكيد أن الحسيني قد احترق، فالنار أحاطت القرية كلها، وهو ورجاله أحاطوا بها من كل جانب.. لم ينبج منها أحد دون معرفتهم.. دون أن يروه. وترد حورية حاسمة: "عينيكم عميت.. الحسيني طار".. لقد أتت باليقين من ميلم.. ها هي تردد كلمته.. ميلم هو مصدر ذلك اليقين إذن.. تقولها حورية منهية تلك المباراة.. أو لنقل منهية الجولة.

ونذهب مع صقر إلى مقر حكمه.. يوجه حديثه إلى الدمرداش.. الحسيني هو السبب في كل ما حدث.. لقد احترقت القرية كلها من أجل هذا الفأر.. احترقت لكي يظهر، ولكنه لم يفعل.. لم يخرج من المخبأ.. ويحاول الدمرداش أن يجد مخرجا، فيشير إلى أنه قد مات محترقا.. وينفي العمدة لتؤكد من أنه لم يكن صادقا فيما قال لحورية.. كانت لعبة إذن.. ها هو يعلنها.. لم يمت في القرية كلها وفق التحقيقات سوى آمنة وطفل صغير ورجل قعيد.. كان هؤلاء هم الضحايا.. لم يمت الحسيني إذن.. كانت هذه هي الحقيقة.. ولكن أين هو الآن؟ لا أحد يعلم.

ويتساءل الدمرداش: أهذا يعني أن كل ما فعلوه ضاع هباء ولم يحصدوا إلا ضياع الحلوانية؟ ويأتي الرد بانتفاضة من صقر.. الحلوانية

لا تضيع أبدا.. الحلوانية ليست البيوت والجدران التي أكلتها النيران.. الحلوانية هي أهلها الذين سيعيدون بناءها ثانية بعد التخلص من الغربان والثعابين التي عششت فيها.. المهم أن هذه النيران قد أكلت نارا أخرى كانت تمثل الخطر بالنسبة له.. أكلت النيران التي أشعلها الحسيني وحورية، وكانا يريدان نشرها في نفوس أهل القرية كلها.

صقر أيضا يريد أن يبينها على نظافة. هكذا يتصور الحاكم المستبد دوما.. يظن أنه يبني وهو من يهدم.. يظن أنه يستطيع أن يقيم بناء على الظلم.. لا يعرف أن كل بناء قام على ظلم سيقع يوما.. لا بديل عن العدل ليكون الأساس الذي يقوم عليه البناء.

ونعود إلى صقر الذي يعد الدمرداش بتعويضه عن كل شيء فقده، وكذلك السنباطي.. سيعوض الجميع، ولكن لا بد أن يظهر الحسيني.. إنه ليس خيالا ليختفي هكذا.. ويدخل السنباطي وهو يتساءل: وماذا يفعلون بعد كل ما فعلوا؟ ويرد العمدة: ما الفائدة؟ أين الحسيني؟ لم يظهر بعد رغم كل ما حدث.. متى سيظهر؟ ويرد السنباطي ثانية بأن الحسيني سيظهر حتما، فهو لا يريد الهرب.. لو كان يريد أن يهرب لفعلها يوم عرض عليه العمدة حقه مالا.. إنه يريد أن يكمل المسيرة للنهائية.. إنه يريد هو وأخته العمدة نفسه.. ولهذا فلا بد أن يظهر، ووقتها سيكون في أيديهم.. ويصدر العمدة فرمانه: الحسيني أو عُمر السنباطي.. ويأتي الرد من الثعبان بأن عمره فداء للعمدة.. ولكنه سيأتي به.. سيأتي بالحسيني، ولكن بشرط واحد، وهو أن يطلق يده. ويلبي له صقر الشرط.. ويأتي التدخل من الدمرداش مذكرا بأن الشرطة في القرية للتحقيق في الحريق.. لا بد من الانتظار حتى تغادر القرية ثم يبدأ السنباطي في تنفيذ مخططه.

ويذهب العمدة لملاقاة أهل القرية.. ينقسمون إلى ثلاثة أقسام.. جوقة السلطان التي تهلل له وتطلب منه المدد والغوث.. وقسم

صامت أصابه الهم فوق الخوف فظل مؤمنا بأن الصمت هو الحل..
وقسم ثالث عرف معنى الحديث.. كان هذا الفريق يقوده الرباعي
العجوز الحناوي والعفي وشاهين ووهبة.. يرون أن العمدة الذي
تحرق قريته لا يستحق أن يكون عمدة بعد هذه اللحظة.. ويخرج
صقر من المأزق.. يعد الجميع بأنه سيبنى الحلوانية.. ستعود كما
كانت وأفضل.. سيعوض الجميع عن كل شيء.. ويعلمو الهتاف من
الجوقة، فيصدر العمدة فرمانا بتوزيع كل الأموال التي في الخزانة على
أهل القرية.. وينفجر الجميع مهللين حامدين صنيعة.

هكذا تلعب السلطة دورها.. تعطي باليد نفسها التي تقتل وتحرق
وتدمر.. تعطي لتعمي الجميع عن الحق.. تعطي وهي تعلم أنها
ستأخذ حتما.. ستأخذ ما تريد.

وتبدأ الجهات المعنية التحقيق مع العمدة.. لا يتهم أحدا.. إنها
رياح الخماسين.. لقد حذروا الأهالي من إشعال النيران في هذا الوقت
أكثر من مرة، ولكن الجهل هو السبب.. وها هي النتيجة.. كان هذا
كلام صقر الذي يأتي متفقاً مع التقارير المبدئية للجنة التي فحصت
الحريق..

ونعود إلى الباحثة عن أخيها.. ما زالت تبحث في كل مكان.. تنادي
الحسيني ولا يرد.. لا يجيبها.. ولكن إلى متى؟ لا بد أن تعرف مكانه..
تذهب إلى بيت أبيها الذي أكلت النيران كل جزء فيه إلا صورة أبيها..
تنتشل صورته لتضعها أمامها.. إنها الأمل الذي تحركوا من أجله.. لم
تصله النيران.. ولهذا فستستمر في البحث.. ستستمر لتصل إلى غايتها.

ونترك القرية لنرحل إلى القاهرة في رحلة قصيرة مع رشاد.. رئيس
تحرير الصحيفة التي يعمل بها يرفض نشر ما كتبه.. لقد كتب رشاد
ما يعرفه.. ولكنه لا يملك الدليل.. لا يمكن للجريدة أن تنشر هذه
الاتهامات دون دليل.. لقد كلفوه بتغطية ما حدث هناك لينقل لهم

أحوال أهل القرية بعد الحريق.. وماذا عن حالهم قبله؟ إنه لا يهم القارئ.. لن يهتم القارئ بأسباب الحريق وتلك التخمينات التي يقدمها رشاد.. يريدون حقائق ملموسة فقط.. ما زال التحقيق مستمرا وهناك لجنة فنية لمعرفة أسباب الحريق، ولا يمكن للجريدة أن تستبق كل ذلك وتكتب كلاما لا يستند إلى دليل، وإلا أصبح تدخلا في سير التحقيقات.

ويرد رشاد بأن من حقه البحث عن الحقيقة والوصول إليها قبل جهات التحقيق.. ومن جانبه يؤكد رئيس التحرير ذلك ولكن لا بد أن يكون هناك دليل.. الدليل ثانية.. لقد وجدته حورية والحسيني، وأخفاه الحسيني ولا أحد يعرف مكانه.. والحسيني غير موجود.. اختفى هو أيضا.. ما الحل؟ لا حل إذن.. لن تنشر الجريدة شيئا وعلى رشاد أن يبحث عن الدليل.

ونعود إلى القرية.. أهل القرية يتصارعون على المعونة.. ويرد ميلم بمنحته هو.. وهل يملك ميلم ما يمنحه؟ ”بريزة فضة لكل نفر بس على شرط.. يفتح بؤه ويتكلم.. يقول مين قتل صادق الحلواني“.. يوزع ميلم ما جمعه طيلة عمره على أهل الحلوانية، فمن أعطى في الماضي يأخذ الآن، ومن سكت في الماضي فعليه أن يتكلم الآن.. ومن سيصمت لا نصيب له.. لم يكن ميلم يتسول يوما.. كان يتنبأ.. كان يعرف كعاداته أن هذا اليوم قادم.. كان يعد له طيلة هذا الوقت.. غريب أمر ميلم هذا!

ويظهر الذئب عزب.. يأمر ميلم بالانصراف.. يهدد الجميع.. من سيتكلم فسيكون مصيره قطع اللسان.. ويتدخل عمر شاهين متسائلا: ”كنتم فين لما البلد كانت بتتحرق يا خفر؟ طبعاً كنتم بتهووا على النار وترموا لها حطب“.. ما زال هناك صوت في الحلوانية رغم كل شيء.. رغم النار.. رغم التهديد والوعيد.. رغم الوعود والمنح.. ما زال هناك صوت يصرخ بالحق.. ويظهر السنباطي آمرا

عزب بأن يأخذ الجميع إلى الحجز.. يلقي القبض عليهم جميعا، وعلى رأسهم ميلم، بينما يعود الممنوحون إلى التزاحم على منحتهم.

وتعرف قوة الشرطة الموجودة في القرية بالأمر.. ويبرر السنباطي ذلك بأنهم يشاغبون في وقت صعب، والقرية فيها ما يكفيها.. ويتفهم الضابط ما فعله السنباطي على أن يكون مجرد تحذير فقط ثم يقوم بالإفراج عنهم لاحقا، لأن ذلك مخالف للقانون.. أي قانون؟ إنه لا يعرف قانون صقر.. لا يعرف القانون الساري في الحلوانية. ويغادر السنباطي مكتب الضابط.. ويستلم الضابط الإشارة.. إنه تقرير اللجنة الفنية.. أمر خطير في الطريق.. ولكننا لا نعرفه.. يفعلها عكاشة ثانية وينهي المشهد قبل أن نعرف.

ويعطينا الرد سريعا.. عزب يعلن لأهل القرية أن التقارير أثبتت أن الحريق بفعل فاعل.. أهذا هو الأمر الجلل؟ نعرف جميعا أنه بفعل فاعل، ونعرف من الفاعل.. ولكن هل يعرف أهل القرية؟ وإن عرفوا فهل سيتكلمون؟ لن يتكلموا بالطبع إلا بما يرضي صاحب المنحة.. لقد مهد للكذبة وروجها.. ومع الخبر كان عزب يدعو للإرشاد عن الحسيني وعدم التستر عليه.

وفي مشهد سريع خاطف نذهب لحورية بصحبة سسبان.. تسألها سسبان عن الحسيني.. فتجيب بأنهم يريدون تليفق التهمة له.. ونذهب لمشهد سريع أيضا يضم الرباعي الحناوي والعفي وشاهين ووهبة.. يصلهم الخبر.. التقارير قالت إن الحريق بفعل فاعل.. وها هو العمدة لا يتوانى.. لقد دلهم على الفاعل مباشرة.

ونذهب إلى العمدة بصحبة جهات التحقيق.. يدلهم على الفاعل.. إنه ابن أخيه.. الواجب يحتم عليه أن يقر بالحقيقة رغم القرابة والدم.. ولكن أين هو؟ لم يظهر منذ وقت الحريق لكنهم يبحثون عنه.. إنه قد فقد عقله وأصاب عقل أخته معه.. لقد ضيق صقر

الحناق على الحسيني.. الكل يبحث عنه الآن.. لم يعد صقر فقط..
الأهالي والشرطة يبحثون عنه أيضا.

ويبدأ التحقيق مع أهل القرية.. جوقة السلطة تدلي بشهادتها..
الكلمات محفوظة، فحورية هي من أشعلت النار.. أشعلت النار في
غيط قبلها بيومين.. دارت على بيوت القرية محذرة من النار التي
ستشتعل.. في المقابل يدافع الحناوي ورفاقه عنها.. كانت تحذر الأهالي
من النار.. كانت تعرف أن هذا سيحدث.. كانت تخاف على الحلوانية
وأهلها.

ونذهب إلى حورية بين أطلال بيت أبيها.. تجهز طعاما لأهل
القرية.. ها هي حورية المتهمه بإشعال النيران في الحلوانية.. تطعم
أهلها المكسورين.. تطلب منها صباح أن تخبر النيابة بكل شيء.. لا
ترد حورية.. تطلب منها فقط البحث عن الحسيني.. تطلب منها أن
يبحث الجميع عنه.. وتطلق حورية.. ولكن إلى أين؟ وتساءل صباح
سببان عن وجهتها، فتجيب بأنه قدرها.. تعرف سببان قرار حورية
ولكنها لا تصرح به.. وتطلب منها صباح أن تخبرها حتى تذهب
خلفها، ويأتي الرد حاسما: لا أحد يستطيع الذهاب خلفها.

وتوزع حورية الطعام على أهلها أهل الحلوانية.. قلبها ينادي على
الحسيني.. ما زالت تبحث عنه.. توزع الطعام مرددة: "كلمة الحق
ما تجوعش".. ما زالت تطالبهم بها.. إنها كلمة الحق.. ويراهم أحد
الضباط.. يسأل عنها رشاد: أهذه هي؟ ويعبر عن رأيه فيما يراه
منها.. يبدو أن كلام الناس صحيح.. ويرد رشاد بأن حورية ليست
مجنونة.. ويؤكد الضابط أن تصرفاتها ليست طبيعية.. فيطلب رشاد
منه أن يحققوا معها مثلما حققوا مع الجميع.

ويصطدم مروان بحورية.. يسألها عن سبب ما تقوم به.. تجيبه
بأنها فقدت عقلها.. ويستنكر ذلك، لتقول له إنه قالها قبلهم.. تتركه

حورية.. لم يعد مروان الذي كان.. لم يعد فارسها.. لقد سقط من على جواده.. كان حدوته من الحواديت.. لم يكن واقعا.

ويبدأ التحقيق مع حورية.. إنها ابنة صادق الحلواني عمدة القرية الذي لم يحرقها.. وأخت الحسيني الذي لم يحرقها.. من أحرقها إذن؟ "أنا يا به".. تقولها حورية.. ولكن لماذا؟ "عشان تنصف".. تعترف حورية على نفسها وهي البريئة.. ربما تجد سببا لحرق الحلوانية لكنها لم تفعلها.. لماذا إذن تعترف على نفسها.. أتريد أن تحمي الحسيني؟ أتريد أن تزيع عنه التهمة حتى يظل في مأمن؟ ولكن أين هو؟ لا أحد يعرف.

وتستمر حورية في سردها الذي يشبه الهذيان، ولكنه هذيان العارفين.. الحلوانية جميلة.. لم تر فيها إلا الجمال.. رأت فيها الجمال في كل مكان منذ فتحت عيناها.. رأت الأرض والسماء والماء والناس الطيبين أصحاب الأحضان الدافئة.. وفي ليلة انقلب الحال.. ليلة كان فيها صوت الرعد يدوي عاليا.. كان البرق يخطف الأبصار.. يومها جاء الحسيني ليكشف لها كل شيء.. ألقى بنفسه في أحضان بلده فلم يجد غطاء يحميه من البرد.. مد إليهم يده فلم يستجب أحد.. أراد أن يطعمهم فوجد الجوعان منهم يشعر بالشبع من الخوف.. لم تكن الحلوانية جميلة.. كان الجمال على القشرة فقط.. لم يكن الصوت الذي يعلو غناء ولم يكن موالا.. كان عديدا.. كشف الحسيني ذلك كله.. كشف الظلم الذي أصبح له دار وحرس وخفر ومال وعزوة.. ولكي تعود الحلوانية جميلة ويحل الشر عنها كان لا بد أن ينطق اللسان.. والحريق نور ونار.. نار تلسع وتفيق وتطهر.. ونور يكشف المستور..

كانت هذه اعترافات حورية.. مونولوج طويل يقدمه عكاشة على لسان حورية.. مونولوج يحيلنا ثانية إلى السؤال عن الرؤية الفلسفية التي تكمن فيه.. هل تليق هذه اللغة والرؤية بشخصية بنت ريفية بسيطة؟ ونعود لنرد قائلين بأن ما رأيته حورية كفيل بأن يستنطقها

بمثل هذه الكلمات.. الحياة خير معلم.. الحياة فلسفة كاملة تنتظر من يكشف عنها.. ومع إيماننا بذلك فإننا لا ننكر أن الدراما تقوم بالأساس على قليل من مبالغة.. مبالغة مقبولة يعيها المتلقي ويفهمها وينجذب إليها ويوهاها في الوقت ذاته، وهذا ما فعلته كلمات عكاشة على لسان حورية.

ونعود إلى حورية.. لقد انتهى التحقيق معها.. اعترفت حورية بأنها من أشعلت الحريق.. وجاء القرار بحبسها حبسا مطلقا وإيداعها سجن المركز مع استمرار التحقيق.. ولا يفوت جوقه السلطة الفرصة.. إنهم لم يفتروا عليها.. الأمور كانت واضحة من البداية، وها هي قد اعترفت بنفسها بفعلتها.. يستمرون في الهجوم.. إن التفاف أهل القرية حولها هو ما شجعها على القيام بما قامت به.

ويدافع عنها العفي.. أيمكن لحورية التي تربت وسط أهل القرية وأحبَّتهم وأحبوها أن تشعل النار في القرية؟ أيمكن هذا؟ لا يوجد عقل يقبل ذلك.. ويرد الخسيس حشاد بأن هذا الكلام لم يعد له قيمة أمام اعتراف حورية بنفسها.. ويؤكد العفي أنهم لم يفهموا مقصدها من وراء ذلك.. وتسخر منه الجوقة، مدعية أن كلامه غير مفهوم.. كلامه لا وزن له بعد أن أمرت النيابة بحبسها. ويستوقف الحناوي صديقه العفي فالكلام مع مثل هؤلاء سيكون بلا جدوى.. وتأتي المفاجأة من شاهين.. لقد دخل الشك قلبه هو الآخر.. إنه يصدق أن حورية فعلتها.. كيف لوالد عمر أن يصدق هذا؟ إنه الضعف الذي يملأ قلبه.. ويوسوس حشاد في أذنه ويأمره الحناوي بأن يسكت، فيهاجمه حشاد قائلاً إن الحناوي هو من يقف وراء كل هذا.. ويناديه بالحناوي دون ألقاب.. ويرد الشيخ الكبير بصفعة على وجهه.. ويشهد حشاد الحاضرين على أنهم لم يعودوا يمتلكون الحق فتكلمت أيديهم.. يا له من كذاب أشر.. يستغل كل موقف لحشد الناس مع الباطل.. ولم لا وهو حشاد؟!

وينقسم الحاضرون.. هذا مع حورية وهذا ضدها.. ويشتعل الصراع بين الجميع.. يتحول الصراع من اللسان إلى اليد.. يحذرهم العفي من أكل بعضهم البعض ولكن دون جدوى.. ويظهر ميلهم.. يسخر من الكل في مشهد عبثي.. يلقي عليهم "البرايز الفضة"، مانحا "بريزة فضة" لمن يضرب أكثر.

هكذا يقدم لنا عكاشة لمحة ناقدة للمجتمعات الراضخة للاستبداد.. إنهم يسكتون للسلطة.. يتفرغون فقط للاقتتال فيما بينهم.. يصمتون عن الحق أمام السلطة.. ويدعون دفاعهم عنه بين بعضهم البعض.. لا ينظرون إلى الكبير خوفاً، ولكنهم يأكلون الصغير.. هذه هي شيمة المستضعفين الراضخين.

ومن أعلى يشاهد الدمرداش والسنباطي ما حدث.. ويقول الدمرداش إنهم سيقتلون بعضهم البعض.. ويرد السنباطي بأن هذا خلاف بين أهل القرية ولا يجب عليهم أن يتدخلوا فيه.. نعم يشعلون الفتنة ثم يشاهدون ويسخرون ويضحكون من بعيد.. فرق تسد.. هذا هو القانون السلطوي الباقي والخالد دوماً.

وتنشر اعترافات حورية في الصحف.. تنشر في الجريدة التي يعمل بها رشاد.. لا يصدق الحناوي أن ابنه من كتب ذلك.. بهاجمه العفي.. تتعجب صباح من موقفه.. تنتقده وطنية وعزازي وميلم.. كيف يفعلها رشاد؟ أيخون الحسيني وهو من أتى به؟ أيخون حورية وهو من ساعدها على أن تفهم؟ ويدافع رشاد عن نفسه أخيراً.. لم يخن.. لم يكن هذا ما كتبه أو أبلغه للجريدة.. لم يقل لهم سوى معلومة وحيدة فيها نتيجة التحقيق، وأن النيابة لم تأخذ باعتراف حورية بدليل أنها لم توجه إليها التهمة.. بنت الصحيفة كل القصة على تلك المعلومة.. صورت حورية على أنها تلك المجنونة التي فقدت عقلها وأحرقت قريتها.. ما يشغل القائمين على الصحافة هو تقديم السلعة التي يريدونها المتلقي.. الخبر الساخن دوماً هو المطلوب.. ويقدم عكاشة

انتقاده هذه المرة للسلطة الرابعة.. سلطة الإعلام التي لا تقدم الدور بأمانة.. تطحن المستضعفين من أجل مكاسبها الخاصة.

ويأتي الهجوم من مروان.. مروان الذي يظهر فجأة ممسكا بالصحيفة.. يتهم رشاد بأنه من أحرق الحلوانية وليست حورية.. هو من دس السم لها ودفعها لكل ذلك.. ما زال مروان لا يرى الحقيقة.. ما زال مغمض العينين.. ويرد رشاد الهجوم.. لم تكن حورية آلة ليحركها أحد.. لقد فتحت عينها ورأت الحقيقة شاخصة أمامها.. رأتها واختارت أن تقف معها.

ويؤكد مروان أن حورية كانت سعيدة هائلة قبل أن يحدث كل هذا.. ويبرر رشاد ذلك بأنها كانت واقعة تحت تأثير المخدر.. إنه المخدر ذاته الذي يسلب إرادة الجميع.. يسلب إرادة مروان وأهل الحلوانية كلهم.. المخدر الذي جعلهم جميعا نياما.. ويستنكر مروان أن يوقظهم رشاد الذي خلع ثوب بلده مرتديا البذلة.. ولكن البذلة ليس لها علاقة.. ويتدخل العفي طالبا من مروان أن يخلع عباءة أبيه.. إنها تعميه.. تجعله مغمضا عن الحقيقة.. إنه الطلب الصعب الذي فشل فيه مروان بدل المرة عشرات المرات.

كان العفي يسمع عن مروان كلمات الخير.. كان يسمع عنه أنه يختلف عن أبيه.. كان يسأل نفسه كيف يكون هذا وهو ابن صقر.. ولكن لم لا؟ إن الله قادر على أن يخرج الطاهر من الفاجر.. ويؤمن الحناوي على كلام العفي فمروان غير أبيه.. نعم غيره حقا، ولكنه ما زال واقعا تحت تأثيره.. ما زال صقريه يمن عليه.. والآن حان وقت الاختيار.. إما أن يأتي معهم من أجل حورية، وإما أن يظل أسيرا لصقر.

ويسأل مروان عن وجهتهم، وتأنيه الإجابة من العفي.. سيذهبون إلى صقر.. سيطلبون حقهم وحق البلد.. يطلبون منه مواجهة أبيه..

ويتدخل حشاد الشيطان.. يطلب منه ألا يستمع إليهم.. يؤكد أنهم يريدون الواقعة بينه وأبيه.. ويأتي الهجوم المباغت من رشاد وعمر.. يسأل رشاد حشاد عن الفترة التي قضاها متنصتا عليهم.. ويرد عمر بأنه أخطأ وكشف نفسه بتدخله.. كان يجب أن يذهب للإبلاغ أولاً.. ويسأل حشاد: إبلاغ من؟ وتجيبه وطنية عن السؤال: شيخ الخفر.. لقد كشف أمره.. إنه بصاص شيخ الخفر وجاسوسه.. أصبح الكل يعلم الآن، فهل يفيق مروان؟

وتكمل وطنية كشف حشاد.. تسأله عمن خرج من بيت السنباطي ذاهبا إلى "المنزل" ليلة الحريق، ثم خرج من هناك مصطحبا الحاجة آمنة.. وتلجم المفاجأة حشاد.. ويهب مروان لسؤاله: "إنت اللي خرجت أمي من المنزل ليلة الحريقة؟".. وينفي حشاد.. يستنكر تصديقه لهم وتكذيبه وهو الصديق الصدوق له.. يقع في الخطأ.. لم يوجه له مروان اتهاماً لينفيه.. ويهرب حشاد من المواجهة قبل أن يضيق عليه الخناق، فهل تزاح الغمامة من على عين مروان؟ يطلبها منه ميلم.. يطلب منه أن يفتح عينيه ليرى الحقيقة.

ويطلب مروان من وطنية أن تحكي له ما حدث يومها.. ولكن عزازي يمنعها.. يخاف عليها.. ما زال الخوف حاكما.. ما زال مسيطرا على الألسنة.. ويستوقفها مروان، فتعود وطنية للسكوت.. تقول إنها لم تر شيئا، وأخيرا تطلب منه أن يسأل حورية.. ولكن أين حورية ليسألها؟

ونذهب إلى حورية.. يقابلها رشاد.. يسألها عن سبب اعترافها بما لم ترتكبه.. يحذرها رشاد من خطورة ما فعلته.. وتكرر حورية اعترافها.. إنها من أشعلت الحريق.. ولكنه يؤكد أن أحدا لم يصدقها.. لقد انقسمت القرية إلى نصفين.. وتكشف حورية عن شيء من أسبابها الخفية.. تريدهم أن يبحثوا مرة عن الحقيقة.. ويطلب منها أن تقول له ولو كلمة واحدة يستشف منها ما تريده.. وتسأله حورية السؤال

الموجع: "عشان تكتبها في الجرائد؟" .. أتشك فيه هي الأخرى؟
وتطلب منه أن يكتب ما يريد.. تكشف لنا عن سبب آخر.. إنها
تريد أن تصل الصحيفة إليه.. ولكن من؟ إنه الحسيني.. أفعلت ذلك
لتجبره على الظهور؟ تعلم أنه لن يطيق أن يسمع عنها ما حدث،
وأنه سيسارع بالخروج من أجلها؟ أكان هذا هو السبب الذي أسرته؟
أهذا هو سبب اعترافها؟ ويفهم رشاد الرسالة.. يعيها جيدا.. قالتها
حورية بالإشارة والتلميح دون تصريح، ولكنه فهمها.

ونعود إلى جوقة السلطان.. نعرف منهم أن العمدة يسعى من أجل
أن تظل حورية محبوسة هنا في حجز القرية وألا يتم تحويلها إلى المركز
في البندر.. يتعجب بعضهم من هذا، فلماذا لا يتركها لتذهب وينتهي
الأمر؟ ونذهب للعمدة لنجده يحاول بالفعل أن تظل حورية في يده وألا
تذهب إلى المركز.. ولكن محاولته تفشل.. ترفض النيابة طلبه، ويتم
ترحيل حورية وسط صمت الجميع.

ويناديها مروان، ولكنها تكون قد ذهبت.. ويوجه كلامه إلى أبيه
متسائلا: أهذا ما يريده؟ ويأمره العمدة بأن يذهب إلى المنزل، ولكن
مروان يرفض.. لن يعود مروان ثانية.. لقد ترك بيت أبيه بلا
رجعة.. لن يعود مروان كما كان.

ويتحرك مروان بسرعة خلف حورية.. يقود سيارته خلف سيارة
الشرطة التي تُرحل حورية.. تلاحظه سيارة الشرطة فتقف لتسأله
عما يريد.. ويكشف للضابط عن هويته.. يوجه خطابه لحورية.. لن
يتركها.. تحرك مروان أخيرا.. عاد إلى طريقه الذي كان يمشي فيه في
البداية.. عادت المروءة لمروان.. وتطلب منه حورية العودة.. ما زالت
غير مؤمنة به.. يعتذر لها ويطلب منها السماح.. لم يعد له غيرها..
كان يعرف منذ زمن لكنه لم يكن يستطيع الوقوف أمام أبيه.. أما الآن
فقد خلع عباءة أبيه.. خلعها بلا عودة.. يطلب منها أن تصدقه..
وتعطيه الفرصة.. لكي تصدقه عليه أن يأتي لها بالحسيني.. وأين هو؟

لو كانت تعرف لما حدث كل هذا.. على مروان إذن أن يبدأ رحلة البحث. ويسألها عما رآته ليلة الحريق.. لكنها لا ترد. وتتحرك السيارة مبتعدة.. تذهب حورية إلى محبسها.

وما زلنا مع ما رآته حورية ووطنية ليلة الحريق.. عزازي يلوم وطنية على ما قالته.. حذرهما أن تقول شيئاً عما رآته.. ولكنها تقول إنها لم تطق ما فعله حشاد من كذب وتدليس.. ويطلب منها عزازي أن تبقى في الخيمة وألا تتحدث في هذا الأمر مرة أخرى.. ما زال الخوف يعيش في القلوب.. ويغادر عزازي.. وبمغادرته يظهر الذئب عذب.. يلقي القبض على وطنية.. يخطفها هو وخفره سرا ويذهبون بها.. لم يتأخر حشاد كثيراً.. لقد ذهب مسرعاً ليلبغ سادته بما حدث، وها هي المسكينة وطنية تقع في المحذور.. أي مصير سيترطر هذه المسكينة بعد أن تكلمت؟

ونذهب مع الثلاثي الحناوي والعفي وشاهين إلى مقر الحكم الذي لم تصله النار.. أتوا نياذة عن أهل البلد.. أما الرابع وهبة فقد أتى شاهداً فقط.. هكذا قال لصقر.. جاء شاهداً على طلباتهم ورده عليها.. ويتدخل الثعبانان الدمرداش والسنباطي.. يهاجمان الثلاثة مؤكدين أنهم سبب كل ما حدث.. ويطلب السنباطي من العمدة أن يتركهم له، ولكن العمدة يرفض مؤكداً أنهم رغم كل شيء كبار البلد.. ويسألهم عن طلباتهم.. ويبدأ الحناوي بالحديث.. لقد أتوا من أجل الحصول على التوكيلات.. ولكن الحناوي والعفي لم يقدموا توكيلاً له، وهبة ليس لديه أرض.. لم يبق إلا شاهين فقط.. ويرد العفي بأنهم لم يأتوا من أجل توكيل شخص أو شخصين.. لقد أتوا من أجل توكيلات أهل القرية جميعاً.. ولكن من هم حتى يتكلموا باسم أهل القرية؟ أتم انتخابهم؟ ويرد العفي بأنه هو من قالها منذ قليل.. إنهم كبار البلد وكبار البلد هم من يعرفون مشاكل البلد ويحسون بما يشعر الناس.

ويتحدث الحناوي بما قاله شاهين قبل ذلك.. لقد حرقت القرية وهي تحت ولاية العمدة، وما حدث يحل ولايته.. من لا يحمي بلدة تحت ولايته لا يحق له حكمها، ومن ثم فإن التوكيلات تكون باطلة لا قيمة لها. ويضيف العفي أنهم كانوا قادرين على الذهاب بأهل القرية لإلغاء التوكيلات ولكنهم فضلوا أن يأتوا إليه ليفعلها هو محافظا على صورته باعتباره العمدة، وليكون عمله الأخير خيرا بعد أن كان الأول شرا.

وبعد لحظات من الصمت يرد صقر.. يهاجم الجميع.. أين كانوا من أتوا ينادون بالحقوق اليوم؟ أين كانوا وهو يحمل هموم الحلوانية على كتفه سنوات طويلة؟ كان العفي يعيش كالمجاذيب بعيدا عن القرية وأهلها.. انفصل عنها وعن أهلها.. أما الحناوي وشاهين فجلسا على مصاطب بيتيهما.. لا يفعلون شيئا سوى المطالبة بالمال.. لم يظهر أحدهم يوما ليضع يديه في يد العمدة وقت أزمت القرية.. اكتفوا بالجلوس والأكل والشرب وتعليم أبنائهما من مال العمدة.. وها هم الآن يأتون لمطالبته بالتنازل عن منصبه من أجل حريق يحدث في كل مكان في هذا الموسم تحديدا.

بهذا ينهي العمدة كلماته.. درس جديد يقدمه عكاشة عن السلطة وعلاقتها بمحكوميها.. العلاقة القائمة على "كسر العين".. امنح وامنح لكي تكسر عيون الجميع.. ومن يقبل مرة المنحة والعطايا فعليه أن يدفع الضريبة للنهائية.. عليه أن يصمت.. إن أردت أن تتكلم فلا تصمت يوما، ولا تقبل أن تكسر عينك مهما كان السبب.

ويؤمن العفي على كلام صقر.. ولكنه يقدم المبرر.. لم يضع أحدهم يده في يد صقر لأنهم لم يكونوا على استعداد لوضع يدهم في يد غارقة بالدماء.. وينفعل الدمرداش مدافعا عن ولي نعمته.. يطلب منه السكوت.. السكوت ثانية.. إنه المأرب والهدف دوما.. ويلتقط السنباطي منه الحبل.. يطلب من العمدة أن يتدخل لإيقافهم عند

حدهم.. ويضربه العفي بكلمة جديدة.. يطلب منه الانتظار حتى يغادروا المكان لتبدأ عياراته الطائشة.. يعرف العفي كل شيء ويكشف المستور.. لقد بدأ صقر طريقه بالاستيلاء على السلطة ملطخا يديه بدم صاحبها الحقيقي.

ويكمل الخناوي بأنه لم يكن عمدة يوما.. كان ابن ليل.. يسطو ويسرق ويقتل.. ولا يتورع شاهين عن قول كلمته.. لقد كمم صقر أفواههم بخفركه وجبروته وعطاياه التي يمنحها لهم إلى أن نطقت حورية بأول كلمة.. نعم.. إنها أول كلمة.. الكلمة الأولى كانت الإشارة.

وينفي صقر كل ذلك مستنجدا بالشيخ.. يكذب الجميع، وهو الكاذب الأكبر.. إنهم جميعا حاقدون عليه.. كانوا دوما طامعين في المنصب.. إنها الكذبة التي تكررت حتى صارت حقيقة عنده.. ولكن وهبة يسأله السؤال الواضح: "تحلف ع المصحف يا صقر؟".. لقد جرده الشيخ من منصبه هو الآخر.. ناداه باسمه دون لقب.. الكل أمام كتاب الله واحد.. لا منصب ولا جاه ولا سلطان.

ويرفض صقر أن يقسم.. يرفض ذلك.. من هم حتى يحاسبوه؟ من هم حتى يأتوا لمحاكمته؟ ويبلغ غضبه مداه.. ولا يجد إلا أن يطردهم جميعا.. عليهم أن يطلبوا من الأهالي إلغاء التوكيلات.. لن يستجيب لهم أحد.. وأمام هذا يغادر الرباعي المكان بعد أن استطاعوا أخيرا أن يواجهوا.. أن يتكلموا.. سكتوا كثيرا نعم.. لكنهم تكلموا في النهاية، فهل سيسكت العمدة على ذلك؟

ويتنظر الشيطانان الدمرداش والسنباطي أوامر سيدهما.. سيدهما الذي يؤكد أنهم لم يتركوا له طريقا آخر.. لا بد أن يموتوا.. الدم ثانية يا صقر؟ ألا تعرف طريقا غيره؟ ويتردد صقر للحظة.. إنهم أيضا يجب أن يعيشوا.. ولكن كيف؟ إنها الحيرة التي تصيب العمدة

للمرة الأولى.. ويتدخل السنباطي هذه المرة.. عنده الحل، ولكن على العمدة أن يترك القرية الليلة وأن يعلم الجميع ذلك.. ويبدو صقر كغريق يتعلق بقشة.. سيرك الأمر للسنباطي مؤكداً عليه أنه لا يريد دماء جديدة.. إنها عقدة الدم قد بدأت في الظهور.. لم يعد يريد دماء جديدة.. لقد عرف أنها اللعنة التي أصابته.

ونذهب إلى رشاد والضابط.. حكى له رشاد الحكاية كلها.. حكاية صقر وحورية والحسيني.. يرد الضابط بأنهم وضعوا حورية في الحبس نعم، ولكنهم غير مطمئنين لذلك.. تبدو وكأنها فقدت عقلها.. ويستغل رشاد ذلك ليطلبه بالأخذوا إذن باعترافها.. ويرد الضابط بأن النيابة حتى لم تقتنع بهذا الاعتراف.. ويسأله رشاد عن الموقف بعد ما قاله له الآن.. ويقول الضابط إن ما سمعه خطير نعم، ولكنه متعلق بجريمة قديمة، وهم مشغولون بالأساس بالجريمة الجديدة.. حرق الحلوانية.. ولكن ألا يوجد ارتباط بين الجريمتين؟ ألم تكن الأولى هي السبب الذي أدى إلى الثانية؟ ألم يكن الفاعل واحداً في الجريمتين؟ بلى ولكن كيف لضابط الشرطة أن يعرف ذلك، وهو الغريب عن الحلوانية وأهلها؟

ونذهب إلى حورية في محبسها.. ما زالت تناجي أخاها الغائب.. تصنع له طاقة بيدها.. يدخل عليها أحد الضباط.. يسألها عن احتياجاتها.. لقد أوصاه العمدة عليها.. أوصاه على ابنة أخيه.. يسألها عما تفعل، فتجيب.. ويرد بسؤال جديد: وأين هو الحسيني؟ ويأتي الرد من كلمة واحدة: "هيرجع".. حورية تملك اليقين في رجوعه.. وهل تغيب راية الحق أكثر من ذلك؟ ستعود حتماً.. ولكن هل تعرف مكانه؟ الإجابة بالقطع لا.. لو كانت تعلم لما حدث هذا، ولكنهم لا يعلمون.. لم يكن غريباً إذن أن يكون السؤال التالي هو: "حرقت بلدك فيه يا حورية؟" وتسكت حورية.. قالت كل ما عندها للنيابة ولم يعد عندها ما تقول.. ويغادر الضابط المكان..

وتعود حورية لمناجاة الحسيني.. ثم تقولها.. الكلمة المحملة باليقين:
”هير جع.. هير جع وهيلبسها“.. ويستمر الحريق.

وتنتهي هذه الحلقة عند هذا الحد.. قدم عكاشة خلالها وجبة دسمة تحمل لنا خصيصة أساسية من خصائصه.. ليس غريبا أن نقول إن عكاشة مشغول بالأساس بالقضايا المجتمعية التي يعيشها وطنه.. إنه مشغول بهذا المجتمع الذي يعيشه.. لم تكن الحلوانية كلها إلا مجتمعه الذي يحياه. ليس غريبا أن نقول هذا بشكل عام، ولكن عكاشة في حلقتنا هذه رسخ هذه الفكرة بشكل واضح.. لقد قدم عددا كبيرا من الانتقادات في كثير من مشاهد هذه الحلقة لهذا المجتمع القابل بالظلم الساكت عن الحق.. مشهد المنح والعطايا والتصارع عليها يشي بذلك ويكشفه.. مشهد الانقسام بين أبناء القرية وتعاركهم بينما تكتفي السلطة بالمشاهدة يوضح ذلك.. مشهد انتقاد سلطة الإعلام وما تقدمه يعلن عن ذلك.. وأخيرا مشهد المواجهة بين رباعي القرية وصقر يظهر ذلك. يرسل عكاشة رسائله لمجتمعه هو من خلال الحلوانية وأهلها.. إنها دعوة منه للالتفات إلى ما حدث هناك حتى لا يكون مصير حلوانيته كمصير الحلوانية هذا.. لا بد من التكلم، فالسكوت هو بداية السقوط.. بداية النهاية.. أما الكلام ففيه النجاة.

رحلة مروان.. والمستضعف والمستقوي

وتستمر الحكاية.. كان صقر قد قرر الابتعاد عن القرية هذه الليلة.. قرر الابتعاد ليترك الفرصة للسنباطي لينفذ خطته التي لم يفصح عنها مع الثلاثي المتمرد الحناوي والعفي وشاهين.. رأى العمدة أن قتلهم واجب، فلا بد أن يموتوا، ولكنهم أيضا يجب أن يعيشوا.. كان ذلك هو ما رآه العمدة وتعهد السنباطي بتنفيذه، فكيف سيفعل ذلك، وما وسيلته؟ سؤال جديد يقدمه لنا عكاشة وننتظر الرد عليه.

وتبدأ حلقتنا باستعدادات صقر للسفر.. كان يجب أن يكون ذلك معلنا للجميع.. شيء خطير يدبر وعلى الجميع أن يعلموا أن العمدة ليس له دخل به. ينشرها بين جوقته ليعرفها الجميع.. ينطلق بسيارته مسافرا إلى البندر مقدما التحية لكل من يقابله من أبناء القرية، مؤكدا عودته بالغد.

ومن العمدة يعيدنا عكاشة سريعا لذلك التصاعد الذي أحدثه في الحلقة السابقة.. وطنية التي تم اختطافها من رجال السنباطي وعلى رأسهم عزب.. اختطفت وطنية ولكن إلى أين؟ نعرف السبب ولكننا لا نعرف المصير.. تكلمت وطنية موجهة أصابع الاتهام إلى حشاد رجل السلطة، فجاء العقاب سريعا.. يقدم المشهد لنا عزازي باحثا عنها.. لا يجدها في أي مكان.. يعرف أن خطرا أصابها فلا يعرف لسانه إلا النداء باسمها. بينما يردد ميلم ما حدث.. عاد إلى الخيمة فلم يجدها.. بحث عنها دون أن يجدها أثرا.

كان مشهدا قصيرا سريعا يذكرنا به عكاشة بما حدث في حلقة السابقة، ويعكس لنا ما أصاب عزازي من قلق وتوتر على زوجته

التي يتسابق الجميع لانتهاكها. وقبل أن نستغرق في طرح الأسئلة تكون الصدمة.. كانت متظرة نعم، ولكننا لا نتمناها.. يذهب بنا عكاشة إلى حيث كانت وطنية.. كانت في بيت السنباطي.. تتوسل إليه.. ترجوه أن يتركها، متعهدة له بالصمت.. لن تتكلم أبدا.. ولكن هل يترك السنباطي فريسته بعد أن وقعت في شباكه؟ لن يتركها بالطبع، فمن يتكلم لا بد أن يُنتهك.. أن يعود للصمت، غير قادر على رفع الرأس مرة أخرى.. عليه أن يكسر عين الجميع. ولم يكن المشهد بحاجة لأن يطول.. لقد عرفنا ما حدث.. وقعنا تحت تأثير الصدمة.

ويعيدنا عكاشة إلى الخط الدرامي الآخر.. مروان الذي وعد حورية بأن يبحث عن الحسيني حتى يجده.. عاد مروان إلى القرية، مقرا بما وقع فيه من أخطاء.. يقر لسسبان، الجالسة على أطلال الماضي، بأنه أخطأ حين ترك حورية وحدها في معركتها.. ترد سسبان وهي مستغرقة في حالة الذهول التي أصابتها.. ترد قائلة: "فات الأوان".. لم يفت الأوان يا عمّة، فحورية ومروان هما المستقبل.. هما الآتي.. ربما فات الأوان على من عاشوا في الماضي، أما هما فالمستقبل يفتح أبوابه لهما.. لم يذكر مروان الحسيني، فهل نسيه؟ ولا تتركه سسبان فتذكره به، فيؤكد أنه سيبحث عنه.. هذا وعده لحورية، وقد أتى لينفذه.. جاء إلى سسبان من أجل ذلك.. إنها العارفة بكل شيء، ومن ثم فعلم الحسيني عندها..

هكذا رأى مروان.. إن سسبان تعرف كل شيء.. ينتظر منها أن تخبره بمكان الحسيني ليذهب إليه.. يزيد عكاشة الغموض إذن ليزداد انتظار لحظة الكشف عن السر.. هل تعرف سسبان مكانه حقا؟ تقول إنه لم يخبرها قبل أن يذهب.. نعم لم يخبرها لكن مروان ما زال واثقا من أنها تعرف.. تؤكد له أن الحسيني مريض.. إنه لن يقوى على الذهاب بعيدا.. إنه في مكان قريب.. مكان لا يتوقعه أحد.. تستخدم سسبان طريقة الإشارة.. تذكرنا بميلم والعفي.. إنها لغتهما

التي يستخدمونها.. تلميح دون تصريح.. ولكن العفي وميلم يعرفان دوماً، فهل تعرف سسبان مفضلة الصمت كعادتها، أم أن كلماتها مجرد اجتهد منها فقط؟

ويحاول عكاشة أن يرسخ معرفتها.. يلتقط مروان الخيط، فيردد كلماتها ذاتها.. هل فهم مقصدها؟ يبدو ذلك، ولهذا تأتي كلماتها حاسمة صارمة.. على مروان أن يذهب وحده.. لا يجب أن يعلم أحد آخر بوجهته.. عرف مروان مكان الحسيني إذن.. اقترب من تنفيذ وعده لحورية.. اقترب من إعادة الغائب.

ويذهب مروان إلى مكان الحسيني.. تتوالى المفاجآت.. كان الحسيني في الطاحونة.. إنها الطاحونة التي كانت محبسه.. أختار ذلك المكان ذاته ليكون بعيداً عن أذهان العمدة ورجاله؟ أهذا هو المكان الذي لن يبحث فيه أحد؟ ينادي مروان على الحسيني النائم.. يرفع الغطاء من على وجهه.. ولا تتوقف مفاجآت عكاشة.. لم يكن النائم الحسيني.. كان الخفير سلماوي الذي ساعد الحسيني على الهروب.

المفاجآت المتتالية تساعد على تصاعد حالة التوتر لدى المتلقي.. كلما تخيل أنه وصل إلى شيء ما يجد النقيض.. المفارقة في أعلى صورها.. سسبان تعرف كل شيء.. لم تكن تعرف أو ربما فهمها مروان خطأ.. سيصل مروان إلى مكان الحسيني.. لم يصل بعد، فهل سيصل؟ كان الحسيني هو النائم.. لم يكن الحسيني بل كان سلماوي.. أمام هذه الحالة المركبة لا يجد المتلقي / المشاهد إلا تركيز عينيه على الشاشة منتظراً ما سيأتي من أحداث.

كان سلماوي مختفياً.. ولكن ممن؟ كان مختفياً من الخفر.. من رجال السنباطي.. ولكن لماذا وهو واحد منهم؟ لأنه ساعد الحسيني على الهرب؟ لم يكن ذلك هو السبب.. كان سبباً آخر.. إنهم يريدون إسكاته لأنه رأى شيئاً ما كان يجب أن رآه.. وما هذا الشيء؟ يتهرب سلماوي من الإجابة.. الإجابة عند حورية!

ومن جديد يستخدم عكاشة لعبة الإحالة.. كلمات سلماوي تشبه كلمات وطنية.. قالت مروان الكلام نفسه قبل ذلك، وها هو سلماوي يردده ثانية.. هل يعرف سلماوي السر نفسه؟ الإجابة نعم.. لقد رأى حشاد وهو يسلم آمنة إلى عزب ليلقيها في النار.. رأى ذلك كما رآته حورية ووطنية وكما رأيناه نحن، ولكن هل سيتكلم؟ هل يخبر مروان بما حدث؟ الإجابة لا.. ولكن السبب ليس الخوف هذه المرة.. حورية من طلبت منه ذلك.. ولكن لماذا؟ حورية لا تعرف الخوف، فلا بد أن لديها مبررا آخر.. وهل هناك مبرر غيره؟ إنها تعرف جيدا أن مروان لن يتحمل هذا الخبر.. إنه -كما تعرف- أضعف مما يتحمل. وينتهي المشهد.. انتهى من نقطة لا علاقة لها بما بدأ به.. بدأ مروان المشهد باحثا عن الحسيني، وفي قلبه أنه وصل إلى مأربه، ويخرج منه باحثا عن شيء آخر.. شيء يجعله يتعلق بأمه، ولكنه لا يعرفه.. وماذا عن الحسيني؟ لم يعد محور الحدث كما كان.. لم نعرف مكانه.. أضيف إلى سؤال: "أين الحسيني؟" سؤال جديد هو: "ما الذي حدث لآمنة؟" أو بالأحرى: "هل يعرف مروان ما حدث لأمه؟" نحن نعرف، ولكن هل يعرف هو؟ نعرف أيضا أن الأسرار ما زالت كثيرة وعلينا أن نستمر في محاولة الكشف عنها.

ويستمر مروان في رحلة البحث.. رحلة الوصول إلى المعرفة.. إنها الرحلة التي قطعتها حورية من قبل.. ما يحدث الآن من عكاشة يبدو تكرارا لما فعلته حورية من قبل.. عدد من المشاهد المتتالية تبدو فيها الشخصية نفسها.. تنتقل من مكان إلى مكان باحثة عن الحقيقة.. فعلت ذلك حورية من قبل، وها هو مروان يفعله الآن.. يذهب مروان إلى حورية.. لقد بحث عن إجابة سؤاله عند وطنية ولم يجدها.. طلب الإجابة من سلماوي ولم ينلها.. وفي كل مرة كانت الإجابة واحدة: اسأل حورية.. وها هو الآن يسألها.

ولا تجيب حورية سؤاله هو.. تجيب سؤالنا نحن.. تبرر سكوتها

وعدم إخباره بما رأيته.. "ما كنتش عايز أحملك هم أدده يا مروان".. لم يفهم مروان بعد.. لقد ماتت أمه فماذا سيعرف بعد ذلك؟ وتحكي له حورية ما حدث.. عندما تكلمت كان يجب أن يسكتوها.. كان لا بد أن يُدفن سرها معها.. ولكنه لم يعد سرها.. لقد انكشف السر وعرفه الجميع.. صقر هو قاتل أخيه.

ولكن مروان لم يتحمل كما توقعت حورية وكما توقعنا نحن أيضا.. لم يتحمل فعاد لاستخدام الحيلة التي دأب عليها.. إنها الإنكار.. لم يعرف أبوه ما حدث إذن؟ هكذا يقول مروان منكرا ما حدث.. إن كان قد حدث فلا بد أن والده لم يكن يعلم.. وتستمر حورية في الكشف.. من يستطيع أن يفعل ذلك دون علم صقر؟ لا أحد بالطبع، ولهذا فإن على مروان ألا يظهر ما يعرفه.. إن عرفوا أنه قد وصل إلى الحقيقة فإن هذا سيمثل خطرا عليه.. لن يرحموه.. لم يرحموا كل من عرف.. يجب إذن أن يتصنع الجهل بما حدث حتى يحافظ على نفسه من الجميع وعلى رأسهم صقر.. والده نفسه.

ونذهب إلى مقر السلطة.. لم يكن العمدة موجودا حسب الخطة.. كان حشاد في ضيافة السنباطي.. يحذره من استخدام العنف معهم.. نحن لا نعرف من "هم" الذين يتحدث عنهم حشاد، ولكننا بالطبع نبدأ مسيرة الاستنتاج والاستدلال.. إنهم هؤلاء الكبار الذين سيلقون العقاب.. من أمر العمدة بقتلهم والحفاظ عليهم أحياء في الوقت ذاته.. إنهم الثلاثي الحناوي والعفي وشاهين.. ونعود للسؤال: ماذا سيفعل معهم؟ ما الذي لن يتحملوه؟ كيف سيقتلهم وهم أحياء؟ وهنا يدخل مروان.. ما زال يكمل رحلة البحث عن الحقيقة.. عرف ما كان عند حورية، ولكنه لم يعرف كل شيء.. كان يبحث عن حشاد، وها هو يجده.. يأخذه ويتركان المكان.. ويستوقفه السنباطي، فلم يلق عليه التحية.. يخبره مروان بأن مجلسا سيجمعهما ولكن وقته لم يأت بعد.

وبعد انصرافهما يدخل الذئب الجائع عزب.. يبدو كالجائع الذي ينتظر الانقضاى على فريسة تلوح أمامه.. يسأل السنباطي: هل يبدأ معهم؟ مرة ثانية يتركنا عكاشة مع الضمير "هم".. ونعود مجددا لاستنتاج من هم.. ويكشف لنا عكاشة عن جزء من الخطة على لسان عزب.. إن السنباطي يريد منه أن يجعلهم يوقعون على الأوراق فقط.. نعم ولكن مع الحفاظ على حياتهم. إنها الإحالة إلى كلمات العمدة.. يريد قتلهم ولكن مع بقائهم أحياء.. قتلهم إذن يعني توقيعهم على الأوراق، ولكن ما هذه الأوراق؟ كالعادة لن تكون عندنا إجابة.. تعودنا ذلك من عكاشة.

وتبدأ المواجهة.. مواجهة حاسمة بين مروان وحشاد.. بين الصديقين.. لم يكونا كذلك يوما إلا في مخيلة مروان.. عرف الآن أنه كان مخدوعا.. أنه كان ساذجا.. أدرك خيانة حشاد.. يضيق عليه الخناق، ولكن حشاد يحاول الهروب.. يكاد يقسم على عدم الخيانة فيقابلة مروان بصفعة على وجهه.. يخرج مسدسه مهددا إياه بالقتل.. مثل حشاد يظهر جنبه عندما يسقط.. جنبه لا يقل عن خسته.. حين يسقط يحاول البحث عن مبرر لخسته.. إنه المبرر الذي لا يقل خسة.. كان يريد أن يعيش.. ماذا يفعل وهو الضعيف؟ ماذا يفعل وهو لا ينتمي إلى سلسال الحلوانية؟ لم يكن عنده إلا طريق واحد.. إنه الاستقواء بمن يمسك السوط في يديه.. رمى نفسه في أحضان السنباطي الذي تلقفه واستخدمه.. المنفعة متبادلة بين الطرفين.. أصبح من الكبار.. أصبح صديق ابن العمدة.

لم تشفع له كلماته الخسيسة.. الفقر ليس مبررا للغدر.. الفقراء كثيرون والغرباء كذلك، ولكنهم لم يبيعوا ضمائرهم يوما.. وأمام كلمات مروان يحاول الخائن نفي التهمة عن نفسه ثانية.. لم يفعل شيئا.. لم يكن يعرف ما سيحدث.. طلبوا منه توصيل آمنة إلى عزب فقط.. لم يكن يعرف أن هذا سيكون مصيرها.

يكشف حشاد تفاصيل ما حدث.. نطقت أمنة ونادت على مروان.. سمعها وهي تقول: "أخوك يا صقر" .. كانت تردد هذه الكلمة الكاشفة.. عادت إلى الماضي.. استعداته في لحظة، ونطقت بما حدث فيه.. قال السنباطي لحشاد إنها ستطمئن إليه لأنها تعرف صداقته بمروان.. طلب منه أن يوصلها إليه.. ولكن الذئب عذب قابله بالخارج وطلب منه أن يتركها له وسيقوم هو بهذه المهمة.

وفي محاولة أخيرة لاستعطاف مروان، أو ربما في محاولة من عكاشة لإضفاء ملامح إنسانية لحشاد، يؤكد حشاد أنه صادق مروان لغرض في نفسه نعم، ولكنه مع ذلك أحبه، وما دام قد سقط من نظره فإن الحياة لم يعد لها قيمة، والأفضل أن يُقتل برصاصة من مسدسه ليرتاح منها. وأمام هذا يتركه مروان بمروءته التي استعادها مع حصوله على المعرفة الكاملة.

ومن بحث إلى بحث.. من مروان الذي ظل يبحث عن الحقيقة إلى أن عرفها إلى رشاد وصباح وميلم وعمر الباحثين عن الثلاثي الكبير الذي اختفى فجأة.. توقعنا مكانهم.. إنهم الآن في صحبة عذب.. لم تكن فريسة واحدة هذه المرة.. كانوا ثلاثة.. وكان مستعدا لالتهامهم جميعا.. توقعنا ذلك ولكن رشاد ورفاقه لم يكونوا يعرفون.. أكد لهم ميلم أنه رآهم متجهين نحو مقر السلطة مع الخفر.. يحثهم على اقتحام "المنزل" والبحث عنهم هناك، ولكن رشاد يشير إلى أن العمدة ليس هناك.. لقد سافر إلى البندر.. كانت التغطية من العمدة على ما يرتكب بمقر حكمه.. ويخبر رشاد الجميع بأنه أبلغ صديقه ضابط الشرطة الذي يبحث عنهم في كل مكان.. ويأتي ضابط الشرطة.. لم يجدوهم.. وتطلب منه صباح تفتيش مقر الحكم مؤكدة أن الشواهد تقول إنهم هناك.

وسريعا نذهب إلى هناك.. لا ينكر السنباطي وجودهم.. إنهم هنا من أجل التشاور في أمر القرية ومشاكلها.. إنهم كبار رجال القرية

ولا بد من استشارتهم في كل شيء... ويخرج الثلاثة.. يبدو الانكسار على وجوههم.. كان معهم الدمرداش القائم بأعمال العمدة.. يسألهم الضابط إن كان وجودهم هنا بإرادتهم أم لا، ويأتي الرد بأنهم كانوا موجودين بكامل إرادتهم.. لم يجبرهم أحد على ذلك.. كانوا يكذبون.. ترى ماذا حدث؟ ما الذي فعله عزب معهم.. يتركنا عكاشة لخيالنا دون إخبار.. كل ما نعرفه أنهم عادوا للصمت.. لقد انحنت ظهورهم جميعاً!

وبعد خروج الجميع عائدين إلى بيوتهم لا يبقى إلا الثعبان والثعلب.. السنباطي والدمرداش.. يؤكد السنباطي أنهم فعلوا ما أرادوا.. لقد وقعوا على كل الأوراق.. وقعوا وتابوا.. لا نعرف على أي أوراق كان التوقيع، ولكننا نعرف عن أي شيء كانت التوبة.. إنها التوبة عن الكلام، والعودة إلى الصمت.

ونذهب إلى بيت الحناوي.. الألم يبدو عليه.. كان الحناوي يبكي.. تتساءل صباح عما أصابه ولا مجيب.. يحاول رشاد التدخل ومنعها من الضغط عليه.. يطلب منها أن تتركه ليتكلم وقتما يريد.. ولكن هل يتكلم الحناوي ثانية؟ ولا نجد إجابة عن سؤالنا عما حدث عند الحناوي فنذهب إلى شاهين.. كان الطلب الذي طلبه الحناوي من رشاد وهو مساعدته على "فرد طوله" هو الطلب ذاته الذي طلبه شاهين من ابنه عمر.. ويحاول عمر خلع "جورب" والده، فإذا به ينتفض طالباً منه تركه.. يسأله ابنه عما حدث، ولا نجد الإجابة، فينقلنا عكاشة إلى العفي في حضرة ميلم.. كان العفي هو الوحيد القادر على الكلام.. يعطينا الإجابة مباشرة: "ضربونا.. مدونا على رجلينا بعد العمر الطويل ده يا ميلم".. إنه الانتهاك إذن.. انتهاك الكرامة والإنسانية.. طعنوهم في رجولتهم وكرامتهم.. لم يكن ما فعله السنباطي معهم بأقل مما فعله مع وطنية.. إنها الطعنة النافذة.

ولكن كيف سكتوا؟ كان هذا سؤال ميلم، ويجيب العفي بأنه

كان يستطيع أن يؤلب القرية كلها عليهم.. كان يستطيع المواجهة، ولكنه سكت من أجل صديقيه.. لم يكن لديه ما يخاف عليه، أما هم فلديهم الكثير.. لديهم الأبناء.. هددوهم بهم.. كانت هذه هي الورقة التي استخدموها.. الورقة التي أسكتتهم، فقد هددوهم بأعز ما تملك الحلوانية.. بشبابها الذين يمثلون الأمل لها. كانت كلمات العفي عفية رغم كل شيء.. ما زال لديه الأمل.. الأمل في شباب يحمل الراية ويصل إلى الحق والحقيقة.

ويتنفض صقر من نومه.. خاصم النوم عينيه، وهو الهارب من القرية كلها.. تطارده كوابيسه في كل مكان.. لم يكن كابوسا في النوم، ولكنه كان في اليقظة أيضا.. هذا ما قاله صقر نفسه لدربة.. العمدة الذي زرع الخوف في قلوب الحلوانية كلها أصبح مطاردا بالخوف حتى في مهربه.. ضاق المكان عليه.. لم يعد يجد متسعاً له.. إنه التحول اللافت الذي يعني اقتراب السقوط، أو ربما زيادة الظلم.. ربما يعني كلا الأمرين معا!

مونولوج طويل يقدمه عكاشة على لسان صقر.. مونولوج لا يتخلله إلا كلمة أو كلمتان من دربة.. يبدو صقر وكأنه يكلم نفسه لا يكلمها هي..

- "العمدة: لقيت نفسي مغروس لغاية وسطي في غيط كبير كل أرضه مشققة.. والسما فوقي حمرة من كل جبهة.. وفي وداني صوت ديابة بتعوي.. ومن كل شق في الأرض حنش طالل بدماغه.. والشقوق دي عمالة تكبر.. تكبر وتطلع دخان.. وأنا عمال أزعق.. أزعق.. لكن مش سامع صوتي.."

كان هذا هو الكابوس الذي رآه.. الكوابيس كلها تأتيه وهو مستيقظ ويفتح عينيه.. لا يعرف ماذا حدث.. كان الخطأ منه.. لقد ترك عود قش واحدا مشتعل.. تركه ليلتقطه ذلك العصفور الضعيف.. يحبط به

على أسطح القرية فيتحول العود المشتعل إلى عشرة.. إلى مائة ومليون.. كان الخطأ هو أنه ترك العود من البداية.. كان يمكنه أن يدهسه بقدمه فينطفئ.. كان الحسيني هو عود القش الذي تركه.. وكانت حورية هي العصفور الذي طار به.. هما من أشعلا القرية كلها، ولهذا لا بد أن يصحح الخطأ.. لا بد أن يخرج العصفور من محبسه ويعود للوقوف على يده، ثم يطلقه فيذهب ليأتي بعود القش ليدهسه، ويعود الأمر كما كان.

مرة جديدة نجد أنفسنا أمام هذا الجدل حول مستوى الحوار المستخدم.. هل نستطيع أن نجزم بأن شخصية مثل صقر تستطيع أن تقول هذا المونولوج المحمل بالدلالات والآراء والأفكار التي تستند إلى فلسفة لا يدركها إلا الخاصة؟ الإجابة بأننا قد لا نجد عمدة يقول هذه الكلمات، ولكن عمدتنا يقول.. إنه الشخصية التي صنعها عكاشة بيديه.. وحدها من تستطيع قول ذلك، ووحدتها من يمكننا قبوله منها.. ولا ننسى ذلك التصريح الذي أدلى به عكاشة نفسه عن تلك الجملة التي تقرب من الشعرية التي يسعى إليها في إطار سعيه نحو تأسيس أدب الدراما التلفزيونية.. كان هذا هدفه، ولم نر إلا نجاحا كبيرا في ذلك يبدو مع كل كلمة تنطق بها شخصياته.

ومن صقر إلى ابنه مروان الذي عرف الحقيقة أخيرا.. يلجأ إلى العمة سسبان ليكي لها حاله.. يكي ما وصل إليه.. يسألها عما يجب أن يفعله.. وتجيبه بأن عليه أن يفعل ما اتفقا عليه.. وقبل أن نسأل عن هذا الذي اتفقا عليه، يأتي الرد من مروان سائلا: "الحسيني؟" وهل هناك غيره؟ إذن سيواصل مروان رحلة البحث.. عرف الحقيقة والآن سيبدأ البحث عن الحسيني.. سيبحث عن صاحب الحق.

ومن الباحث عن الحسيني نقلنا عكاشة -الذي لا ينسى شخصياته كلها- إلى الباحث عن وطنيته.. إنه عزازي الذي لم يترك مكانا إلا وبحث فيه.. يحاول मिलم طمأنته.. ربما سافرت إلى البندر للاطمئنان

على حورية.. لم تكن نبوءة ميلم في محلها هذه المرة.. لم تغادر وطنية الحلوانية.. ما زالت هنا.. وها هي تظهر الآن.. يدفع بها عكاشة إلى المشهد.. وقبل أن تنطق بكلمة تسقط وطنية.. لم تحتمل ما حدث لها.. نعرفه نحن ولكن عزازي لم يعرفه بعد.. لقد انتهكت هي وانتهكت معها رجولته كما انتهكت رجولة الكبار الحناوي والعفي وشاهين.. انتهك الجميع، فهل يكون ذلك وقود الثورة؟

وفي المشهد التالي يظهر لنا ميلم في اليوم التالي باحثا عن وطنية وعزازي.. لا يجدهما في خيمتهما.. لا يجد حاجياتهما.. هل تركا القرية؟ ولماذا يبقيان فيها، وقد فقدوا كل شيء.. لا عرض ولا عمل ولا أهل ولا مأوى ولا أمان.. لا شيء.. ولكن هل يعني هذا أن الثورة قد خمدت، مع سكوتها؟ وينقل ميلم الخبر إلى العفي.. لا يتعجب كثيرا.. إنه يرى أيضا أنهما قد فقدوا كل شيء، ولكن ميلم يرى ما لا يراه العفي هذه المرة.. كان هناك خطر واضح، وسر غامض يشي بمصيبة قد حلت عليهما.. ولا تتوقف رؤية ميلم عن هذا.. إنه يحدد من يقف وراء المصيبة.. إنه السبناطي.. يدرك ميلم ببصيرته ما لا يدركه الجميع.. يشعر بما لا يشعر به الآخرون.

ويستدعي عكاشة السبناطي بعد أن ذكر ميلم اسمه.. يفعل عكاشة ذلك كثيرا، وكأن كل شخصية تنادي المشهد القادم.. نذهب إذن إلى السبناطي الذي يقدم تقريره للعمدة العائد من رحلته.. يطمئنه على نجاح الخطة.. لقد صمت الجميع.. صمتوا بعد أن انتهكوا جميعا.. ماتوا ولكنهم أحياء.. حقق المعادلة الصعبة التي كان يريد لها صقر.. ويكشف لنا السبناطي عن تلك الأوراق التي وقع عليها الثلاثي الكبير.. إنها اعترافات تحمل توقيعاتهم.. يعترفون بأنهم من حرضوا حورية على حرق الحلوانية.. حرضوها على ذلك طمعا في السلطة وإزاحة العمدة ورجاله من مكانهم.

وبعد الاطمئنان على تنفيذ أوامره يصدر صقر أمرا آخر.. لا بد

أن تخرج حورية من محبسها.. لا يريد لها أن تردد ما تعرفه في النيابة، ولكن الثعلب الدمرداش يؤكد أنها مجنونة.. فقدت عقلها ولن يصدقها أحد.. ويعلمنا السنباطي بأن النيابة أمرت بالفعل بعرضها على طبيب نفسي لكتابة تقرير عن حالتها.. ولكن هذا لم يعجب العمدة.. يريد لها أن تخرج.. يأمرهما بأن يسافرا أحدهما ويوكل لها حاميا لكي يخرجها من محبسها.. هل تحركه نقطة ضعفه ثانية وتدفعه لذلك، أم أنه بدأ في تنفيذ خطته التي وضعها هناك في بيت درية.. أن يخرج العصفور من محبسه ليطلقه فيأتي له بعود القش.. يأتي إليه بالحسيني؟

ونواصل لعبة استدعاء الشخصيات التي يلعبها عكاشة.. يستدعي صقر حورية، فتظهر في المشهد التالي.. تجلس بمن يبدو أنه الطبيب النفسي المكلف بمتابعة حالتها.. يسألها عن السبب الذي دفعها لحرق الحلوانية.. تكرر كلماتها التي قالتها أكثر من مرة.. لقد حرقها لتتطهر.. ويأتي السؤال الثاني: "كنت كارهاها؟".. نجيب نحن نيابة عنها.. أتكراه حورية الحلوانية، وهي من تعرف جمالها.. تحب أهلها وناسها.. نذرت نفسها للإتيان بحقهم؟ مثل حورية لا يكره بلدته.. حورية الحلوانية تعشقها عشقا.

وتأتي إجابة حورية مخالفة.. تأتي هادئة.. تجيب: "فيه حد بيكره بلده يا بيه؟".. ويؤكد لها الطبيب إمكانية ذلك إن كره أهلها.. إن ظلموه.. وتحجب حورية.. لقد ظلموا نعم.. ولكنهم ظلموا أنفسهم.. باعوا أنفسهم لغيرهم، فظلموا أنفسهم.. أغمضوا أعينهم عن الحق فظلموا أنفسهم.

وينقل الطبيب الحوار إلى منطقة أخرى.. يسألها عن سبب عدم زواجها.. كل شيء بأمر الله.. كانت تلك إجابتها.. يعرف أنها كانت مخطوبة لمروان، فلماذا لم يتم الزواج؟ وترد حورية بحسم: لقد جاء الحسيني.. إنه من غير كل شيء.. ردها الجميع على طول الرحلة..

أصبح الجميع يقولها ويعيها ويعرفها ويفهمها.. يسألها عن مكانه، ولكن هل تعرف حورية مكانه؟ لو كانت تعرفه لما حدث ما حدث.. قالتها قبل ذلك مرارا.. أكان يريد حرقها هو الآخر.. تصرخ: "ماحصلش".. تتذكر يوم تركته على سطح منزل عمتها بعد أن خبأته بالقش.. يومها عادت تبحث عنه فلم تجده.. ظلت تنادي عليه ولم يرد.. ما زالت تنادي عليه إلى الآن.. وتنادي حورية: "يا حسيني".

ويذهب تقرير الطبيب إلى النيابة.. تقرير مكتوب مصحوب بتقرير شفوي على لسان الطبيب: "حورية مش مجنونة.. لكن مش طبيعية".. لا تعارض بين الأمرين.. إنها مختلفة عن الآخرين.. ليست مجنونة ولكنها مختلفة.. اختلافها هو الذي فعل كل هذا.. اختلافها هو الذي جعلها تطالب بالحق وتسعى إلى الحقيقة.

يفسر الطبيب ما حدث لحورية.. يفسر ما طرأ من تحول على شخصيتها.. إنه التفسير الذي يقدم الإجابة على أي تساؤل بهذا الشأن.. كانت حورية مثل الصفحة البيضاء، ثم جاء من كتب على سطورها الخالية.. امتلأت الصفحة، فلم تعد كما كانت.. هذه هي حورية التي رسم شخصيتها أسامة أنور عكاشة وقدمها لنا.

وينتهي الطبيب تقريره بكلمة موجزة.. حورية ليست مجنونة ولم تحرق القرية بسبب جنون أصابها، سواء كان دائما أو مؤقتا. فأتك شيء واحد أيها الطبيب.. حورية لم تحرق القرية من الأساس.

ومن الطبيب نذهب إلى النيابة والشرطة والحوار الدائر بينهما.. يتعجب الضابط صديق رشاد من حرص صقر على توكيل ثلاثة محامين للدفاع عن حورية.. كيف يكون حريصا عليها كل ذلك الحرص وهو أول من وجه لها الاتهام؟ أشياء غريبة كثيرة تحيط بهذه القضية.. ويؤكد عكاشة على لسان ضابط الشرطة ما يريده صقر.. ليس

الحب هو الذي يحركه هذه المرة، وإنما الحاجة.. الحاجة إلى حورية.. إنه يريد العصفور من أجل اصطیاد عود القش.. يصل الضابط إلى ذلك، ويكون الاقتراح أن تخرج النيابة حورية بكفالة.. يعطون العصفور لصقر، ويخلون له الساحة تماما.. سيقومون باستدعاء قوة الشرطة من القرية ولكنهم سيتبعون الجميع.. سيتبعونهم للوصول إلى الحقيقة.. لقد زاد عدد الباحثين عنها.

ويصل الخبر إلى حورية.. النيابة أخرجتها بكفالة.. هذا سيفسد مخططها هي.. فعلت كل ذلك من أجل أن يعرف الحسيني فيظهر.. كانت تسعى إلى ذلك وها هو المخطط يفشل.. ترفض حورية الخروج في مشهد بدا غريبا على الضابط مما دفعه للاتهام بالجنون.. هذا ليس جديدا على أية حال.. ترفض أن تدفع الكفالة فيؤكد لها أنها دفعت بالفعل.. دفعها العمدة الذي يقتحم المشهد ليقنص فريسته.. ترفض الذهاب معه.. ويظهر مروان ورشاد في اللحظة المناسبة.. ستذهب معها.. لن تذهب مع صقر. كان هذا المشهد هو أول لقاء بين العمدة وابنه مروان بعد أن عرف الحقيقة.. ولكن يبدو أن عكاشة أجل المواجهة إلى وقت آخر.. كان الشغل الشاغل هنا هو إنقاذ حورية من برائن العمدة، وقد حدث.

وتذهب حورية إلى حضن عمته سسبان.. لم يفهم مروان سبب حزنها بعد.. تصرح له بأنها كانت تنتظره.. ولكن من هو؟ مرة أخرى نجد الضمير العائد على مجهول، وعليك أنت أن تستتج.. ولكن هل هناك غيره؟ إنه الحسيني.. تقولها سسبان.. لم يتركنا عكاشة مع التفكير كثيرا.. توضح حورية أنها كانت تعتقد أنه سيظهر عندما يصله الخبر.. لن يتركها.. سيأتي ومعه الأوراق وسيعلنون الحقيقة أمام النيابة.. كانت تفكر في ذلك ومن أجل ذلك رضيت بالسجن.. رضيت بالاتهام من أجل الحق والحقيقة.. ولكن الحسيني لم يأت.. ويشير مروان إلى أنه ما زال يبحث عنه في كل مكان، ولكنه البحث دون إشارة أو دليل.

ويقتحم العمدة أطلال بيت أخيه؛ حيث كانت حورية وسسبان ومروان.. لم يكن يسمح بأن يفلت العصفور من بين يديه.. ومن سيأتي له يعود القش إذن؟ إنها مواجهة من العيار الثقيل.. صراع محتدم جديد.. مواجهة ربما تكون حاسمة بين صقر من ناحية وابنه وابنة أخيه وأخته من ناحية ثانية.. وتبدأ المواجهة.

العمدة يعلنها لها.. لقد أخرجها من محبسها، ووكّل لها ثلاثة حاميين من أجل ذلك.. تشكره.. ولكنه لن يتركها لتعود إلى الجنون مجدداً وتحرق ما تبقى من القرية.. ولكنها ترفض ذلك فلن تترك بيت أبيها.. يصرخ في وجهها.. ستذهب إلى بيته هي وعمتها.. هنا تدخل سسبان ساحة القتال.. تقولها له.. لقد عاشت طيلة عمرها في بيتها، فإذا كان بيتها قد احترق فبيت أخيها صادق هو بيتها الذي ستلجأ إليه.. ويصرخ صقر ثانية.. لقد أتى ليأخذهم.. وهنا يدخل الفارس المعركة.. يتدخل مروان متسائلاً بكلمة واحدة: "غضب؟"..
إنها المواجهة المنتظرة بين الأب والابن.. هل سيفعلها مروان هذه المرة وقد عرف كل شيء؟ هل يستطيع أن يخرج ما بداخله من مروءة ويقف أمام الظالم ولو كان أباه؟ هل ستغيره المعرفة كما غيرت كل من وصل إليها؟

ويسخر العمدة من مروان.. يسخر من ذلك الباكي على أمه.. يطلق العمدة المارد داخل مروان.. ما كان يجب أن يذكر أمه الآن.. ويقولها له مروان.. لا داعي للحديث عن أمه الآن فلم يأت الأوان بعد.. وتصل الرسالة إلى صقر.. لقد انضم مروان للكتيبة.. كتيبة المتوعدّين المنتظرين ساعة الهجوم والانقضاض والحساب.. لا يوجد من هو كبير على الحساب.. ومروان لن يظل العمر كله صامتا.. المعادلة واضحة.. سعي إلى الحقيقة والمعرفة، ومع الوصول إليهما تنفك عقدة اللسان ويعلو الصوت.. وها هو مروان يعليه: "مش هافضل طول عمري ساكت وماسك في ديل عبايتك يا سيدنا"..
ويعلنها لهم

صقر.. لن ينفعهم مروان.. كان يتمنى أن يبادلّه مع صادق.. يستبدل الحسيني بابنه.. في أعماقه يرى الحسيني إذن أفضل حتى من مروان.. يعرف قدره.. ليس الضعيف المستكين، بل القوي الذي استطاع أن يواجهه.. ولكن ها هو مروان يتغير.. لقد واجهه هو الآخر بعد أن عرف الحقيقة.. لم يكن غريبا إذن أن تؤكد حورية وسسبان أن مروان رجلهم وهو زينة الحلوانية ورجلها.. ويغضب العمدة أكثر.. لأول مرة سيخالف "سلو الحلوانية" وسيحدد العمدة التالي له.. لن يكون مروان.. نسي العمدة أنها لم تكن المرة الأولى التي يخالف فيها "سلو البلد".. نسي أنه خالفه قديما والدليل على ذلك مع الحسيني.

ومن جديد يأمر العمدة بأن تذهب حورية وسسبان معه.. لقد ضيع وقتا طويلا في الحوار، ولكنها ترفضان.. تطلب منه سسبان أن يأمر رجاله بإجبارهما على ذلك.. ويرد صقر: "هاعملها يا سسبان".. وتردها له: "ماعادتش حاجة بعيدة عليك يا صقر".. ويقولها مروان.. إنه في انتظار أول خفير يدخل المكان ليقطع قدميه.. بدأ مروان مشوار الدفاع عن حوريتيه.. وقف لأبيه أخيرا وواجهه.. وقف دفاعا عن الحق والحقيقة.. وأمام ذلك لا يجد صقر إلا الانسحاب.. خسر المواجهة ولكنه يتوعدهم بجولة جديدة.. لقد وصلوا إلى نهاية المشوار ولن يستطيعوا الرجوع.

مواجهة شرسة يقدمها لنا عكاشة بين أقطاب الصراع المحتدم على طول الدراما.. مواجهة تكشف عن النقطة التي وصل إليها هذا الصراع.. كانت أداة عكاشة الأولى في الكشف عن ذلك هي الجمل القصيرة الحاسمة الواضحة.. دخل العمدة النزال أولا لمواجهة حورية، ولكن سسبان سارعت بالمواجهة، فالتفت إليها صقر، ويبدأ بالهجوم، وإذا بمروان ينزل الساحة محاربا، فيجد صقر نفسه أمام فرسان ثلاثة فتفشل المواجهة، وينتهي المعركة بالانسحاب.. جمل قصيرة من هنا وهناك كانت كضربات السيوف من الجانبين.. ضربات السيوف التي

صمد أمامها حورية وسسبان ومروان، وردوها لصقر، فعرف مدى خطورتها عليه وفضل تأجيل المعركة.

وما زال عكاشة يواصل انتقاداته على هامش الدراما.. رشاد في محادثة هاتفية مع جريدته.. يرسل إليهم بمقالات لا ينشرونها.. ما زالت سلطة الإعلام مغمضة العينين عن الحقيقة.. تبحث عن الأخبار المثيرة فقط، ولدى رشاد واحد منها.. إنه خبر الإفراج عن حورية بكفالة. إنه مشهد قصير نعم، ولكنه على سبيل الاستراحة بعد المعركة الدامية في المشهد السابق عليه.. استراحة نعم، ولكنها لا تخلو من مغزى.. لا تخلو من رسالة.

وتبدأ الشرطة في تنفيذ مخططاتها.. تنسحب من الميدان تاركة الحلوانية كلها.. يتعهد لهم السنباطي راعي الأمن بالمحافظة عليه.. وقبل أن تغادر القوة القرية كان يوجه أوامره إلى ذئبه الجائع دوما.. لن يسمح بأن يتصور أحد بأن الزمام سيفلت منهم بخروج الشرطة من القرية.. من يهدد الأمن يقتل.. من لا ينفذ الأوامر يقتل.. من يعترض يقتل.. كانت تلك فرماناته الجديدة يملها لعزب.

ويظهر عكاشة ميلم في الوقت المناسب لتصعيد الدراما.. إنه الوحيد القادر على الوقوف في وجه السنباطي في هذه اللحظة.. هو القادر على الإلقاء بكلمة لا في أي مكان وزمان.. يبدأ في السخرية من السنباطي على طريقته الخاصة.. يغضبه.. يأمر السنباطي رجاله بالإمساك به.. يصرخ في وجه ميلم قائلاً إن زمن "الاستهبال" قد انتهى بلا رجعة.. ولا يكتفي بذلك بل يسبه قائلاً: "يا ابن اللي مانعرفلوش اسم".. وكم كان الرد قاسياً من ميلم.. ميلم الضعيف يقف أمام ذلك الثعبان الضخم.. يبصق في وجهه أمام الجميع!

يتحول السنباطي إلى ثور هائج.. يأمر ذئبه بالانقضاض على فريسته.. لا بد أن يكون عبرة للجميع.. يجردون ميلم من ملابسه

وينصبون له ساحة العقاب وسط القرية.. ويبدأ العقاب الفوري.. إنه الجلد.. ويحتشد الناس للمشاهدة.. الكل يتفرج.. والكل يسكت.. والكل يأخذ العبرة ويعي الدرس.. لكن ميلم لم يسكت.. لم يصرخ ألما.. ظل يستحثهم على الكلام من خلال عرضه الذي بدأ في تقديمه على طريقة الحواة.. يردد: "بريزة فضة للي يصلي ع النبي.. بريزة فضة للي يزيد النبي صلاة.. ثلاث برايز فضة للي يوحد الله.. خمس برايز فضة للي يقول الله أكبر.. عشر برايز فضة للي ينده ع الحسيني".. ويبدأ الجميع في ترديد النداء: "يا حسيني".. ولكن أحدا لم يتدخل لإنقاذ ميلم من يد الذئب.. الكل ما زال يشاهد.. ويأتي الحسيني.. ليس الحسيني نفسه.. إنه بديله.. إنه مروان.. رجل حورية وسسبان.. رجل الحلوانية.. يتدخل مروان.. يخطف السوط من يد الذئب وينهال به عليه.. يخلص ميلم.. ويهم الناس بالتدخل أخيرا، فيهددهم السنباطي ويطلب منهم مروان ألا يعطوه الفرصة.. يطلب منهم الانسحاب.

ومع انسحاب أهل القرية يقول السنباطي لمروان متوعدا: "لولا إنك مروان ابن صقر الحلواني ماكتش خرجت من هنا على رجليك".. ويرد مروان الوعيد له: "ولولا إن الوقت لسه ماجاش كان زمانك بتدفع حساب الكل يا سنباطي".. يقولها مروان ويترك لهم المكان، فلم يأت وقت المواجهة بعد.. ويحاول عزب تتبعه ليأخذ بثأره منه بعد أن ضربه أمام الجميع.. يمنعه السنباطي مذكرا إياه بأنه ابن العمدة، ولكن الذئب يؤكد أنه لا ينسى ثأره.. ويرد السنباطي بأنه لا يريد أن ينساه.. يريده فقط أن يؤجله.. إنه إعلان من السنباطي عن توحشه.. عينه الآن على السلطة ذاتها.. ينتظر اللحظة الحاسمة للانقضاض على الفريسة.. والفريسة هذه المرة هي العمدة نفسه.

وعلى هامش السلطة تقف الجوقة.. يقف أيوب الخضري وفتيحة الحلاق.. يتساءلون عن الذي أصاب مروان.. لقد أصابه ما أصاب

الخلوانية كلها.. وأمام هذا يبدو أنهم في حاجة للبحث عن قرية أخرى هم أيضا.. هكذا يقول سمسار الأعراض.. ويتعجب فتيحة.. وهل هناك من ترك القرية؟ نعم.. لقد تركها من انتھك عرضها.. تركها عزازي ووطنية.

وكان علينا أن نذهب سريعا إلى ميلم للاطمئنان عليه.. العفي يداوي جراحه.. كلاهما دوما يداوي جراح الآخر.. يعلو صوت ميلم.. ليس بالنداء هذه المرة.. إنه الألم.. الألم الذي كتمه طوال الوقت.. لم يصرخ وقتها ألما.. صرخ مناديا على صاحب الحق والحقيقة.. ويطلب منه العفي ألا يكررها، فلم يعد هناك ما يمنع العمدة من فعل أي شيء.. حتى لعبته القديمة التي كان يلعبها لم تعد لها فائدة.. لعبة الأب الذي يعرف أكثر ويدافع عن مصالحهم لم تعد مقبولة.. لعبة من تربت على كتفك بيمينه ويضرب بيسراه لم تعد صالحة.. ويعرف ميلم معنى ذلك.. معناه أنه: "هيطيح فينا كلنا".. ويرد العفي بأنه بدأ بالفعل يوم أن "مدهم على رجليهم".. ونستدعي مع العفي ذلك المشهد المهين.

ولا نستدعيه نحن فقط.. يستدعيه عكاشة على لسان صباح.. تحكيه لحورية.. ينزل عليها كالصاعقة.. كيف صمتوا على ذلك.. كيف يصمت على الإهانة من ظل ينتظر إعلاء كلمة الحق سنوات وسنوات.. ولكن صباح تطلب منها السكوت.. والدها لا يعرف أنها عرفت.. كان العفي هو من أخبر ميلم، وميلم من أخبر رشاد.. ورشاد من أخبرها.. ولكن حورية لا تسكت.. إنها تريد تفسيراً لسكوتهم هم.. وترد صباح بأنه الخوف.. الخوف عليهم.. إنه السبب الذي قاله العفي قبل ذلك.. وتتعجب حورية من موقف صباح ورشاد.. إن كان الكبار قد صمتوا، فكيف يسكت الصغار؟ هل أصابهم داء الصمت كما أصاب الكل؟ ولا تجد صباح إجابة.. ماذا تفعل؟ وترى حورية سؤالها سؤال من لا يريد أن يفعل.. وتدافع

صباح عن نفسها.. إنه سؤال من لا يعرف حقاً.. وترد حورية.. إن كانت هي لا تعرف فماذا عن رشاد؟ كيف لمن عرفها ألا يعرف ماذا يفعل؟ كيف وهو من أرشدها إلى الحقيقة والحق؟ ويرد رشاد نفسه.. لقد وصله صوتها.. يبرر سكوت والده وصديقيه.. إنه جرح الكرامة.. سقطوا في يد حيوان مسعور مثل السنباطي.. أهانهم وانتهك كرامتهم.. يخافون نعم.. لا يخافون عليهم فقط.. يخافون من تكرارها ويخافون أكثر من أن يعرفها أحد.. هذا هو دافعهم للصمت.

ولا تفهم حورية ذلك، أو بالأحرى لا تفهمه.. إنها تفهم شيئاً واحداً.. من يتعرض للإهانة فعليه ردها.. هذا هو ما تفهمه وتعرفه.. لا تفهم خوف الجميع.. الكل يخاف.. رشاد يخاف على والده وأخته.. وصباح تخاف على أخيها ووالدها.. والحناوي يخاف عليهما.. الكل يخاف على الكل.. لو ظل الأمر كذلك فليبحث كل واحد عن مأمنه وليسكت الجميع.. يعودون للصمت.. الصمت الذي سيفرض نفسه لسنوات طويلة يكتبون فيها بضرب رءوسهم في الحائط والعرض على أيديهم.. وتعود الأمور كما كانت وتذهب هي لـ "المنزل" وتتزوج من مروان وينتهي الأمر.. على الجميع الآن الاختيار.. ما بين السكوت أو استكمال الطريق.. عليهم أن يختاروا.. أما هي فقد اختارت منذ وقت طويل.. منذ جاء الحسيني رافعا الراية.. منذ عرفت.

ويستخدم عكاشة الإحالة مرة جديدة.. المشهد يضم العمدة ورجليه السنباطي والدمرداش.. يلوم العمدة السنباطي على فعلته.. على توحشه.. على فرماناته الجديدة التي أصدرها.. هذا يخالف منهجه وطريقته.. طريقته التي تحافظ على الهيبة والحب في الوقت ذاته.. تحيلنا كلماته إلى ما كان يقوله العفي ليلم منذ قليل عن سياسة الأب الذي يعرف أكثر.. إنها الهيبة مع الحب.. القوة مع وجه الرحمة الكاذب.. هذا منهجه الذي خالفه السنباطي اليوم.. لم يكن التغيير ناشئاً من العمدة إذن كما قال العفي.. كان تغييراً في إدارة شئون الحكم.. متخذ

القرار هذه المرة كان السنباطي، وخالفه صقر الذي يرى الهدف الذي يجب تحقيقه الآن هو الحصول على الحسيني.. وحين يصل إليه، فإنه لا يريد أن يجد أهل القرية يكرهونه.

ولكن السنباطي الذي توحش يقف معارضا العمدة نفسه.. إنه لا يعنيه الحب والهبة.. لا يعنيه ما يقوله العمدة.. يقولها في وجهه.. ما يعنيه هو إسكات كل الألسنة.. هذا عمله وواجبه، أما الحسيني فسيظهر حتماً لأنه ورجاله يحكمون السيطرة على كل مكان.. سيظهر إن كان على قيد الحياة.. سيظهر ووقتها سيكونون في انتظاره.. ليست القضية هي الحسيني إذن.. ولكن القضية إسكات الجميع.. وإن كان العمدة يرى عكس ذلك فليقم بإعفائه من عمله.. ويلمح صقر التهديد في كلمات السنباطي، ولكنه لا يبدي اهتزازاً، أو هكذا أراد.. يؤكد له أنه سيفكر في كلامه وسيرد عليه غداً.. وينصرف السنباطي تاركا العمدة مع الثعلب الدمرداش.. يقولها العمدة له: "حمزة السنباطي استقوى يا دمرداش"..

مشهد طويل يعكس الصراع الذي احتدم بين أركان السلطة.. وللمرة الأولى ربما نجد عكاشة يستخدم هذه التقنية التي تبدو هنا بوضوح.. مونولوج طويل نسيباً لصقر يرد عليه السنباطي بمونولوج أطول.. إنه الشكل الذي يحمل محتواه.. لقد بدأ السنباطي في التكلم.. بدأ في مواجهة صقر.. بدأ يتطلع إلى السلطة.. يحاول سحبها من تحت أقدام صقر، وأولى خطوات الوصول إلى السلطة هي الكلام.. ويبدو عكاشة بارعاً في ذلك.. لقد أرسل الرسالة إلى المتلقي وتلقاها جيداً، كما تلقاها صقر نفسه.. "حمزة السنباطي استقوى يا دمرداش".

ومن الذي استقوى يذهب بنا عكاشة إلى المستضعفين.. يظهر عزازي.. لم يغادر القرية.. لجأ إلى الشيخ وهبة.. لجأ إلى إمام المسجد.. ماذا يفعل يا شيخنا؟ ماذا يفعل وقد انتهك عرضه وشرفه؟ يلجأ إلى من تحرى دوماً أضعف الإيمان.. يطلب منه وهبة فقط أن يصلي

ركعتين لله وأن يطلب منه أن يبعد عنه الشيطان. ويقبل عزازي النصيحة لكنه يفاجئه بالسؤال: ماذا يجبر الإنسان على قبول الظلم؟ ولا نجد الإجابة.. ينتهي المشهد عند السؤال.. لا إجابة عند وهبة دوما.

ونعود من المستضعف إلى المستقوي ثانية.. الحوار دائرين السنباطي وذئبه.. يبشره باقتراب الموعد الذي لن يكون فيه مروان ابن عمدة.. سيقدم له حينها مروان هدية.. اقترب الموعد الذي سيقفز فيه إلى السلطة إذن.. بدا أن ذلك ما يخطط له، وهذا ما وصل حتى لصقر.. بل وصل كذلك إلى عزب الذي يشكره على هديته.. يشكره قائلا: "من يد ما نعدمها يا سي حمزة.. ولا أقول لك يا سيدنا؟".. ها هو يناديه باللقب الذي لا ينادى به إلا صقر.

ويفاجئنا عكاشة بمقدم عزازي.. أحد الخفر يخبر السنباطي بذلك.. أتى المستضعف ليرشد السنباطي إلى مكان الحسيني.. هكذا قال الخفير.. يا لها من مفاجأة غير متوقعة.. لم نكن لنفكر أبدا في ذلك.. أوصلت الحال بعزازي إلى ذلك؟ أبلغت الهزيمة مداها فرفع راية الاستسلام؟ أجاء راكمع من أجل استعادة المقهى كما يقول عزب؟ وقبل أن نستغرق في أسئلتنا يدخل عزازي.. يسأله السنباطي عن مكان الحسيني.. وتأتي الإجابة صادمة.. عيار لا يطيش يستقر في صدر السنباطي.. ومعه صرخة مدوية: "في صدرك يا ندل يا خسيس".. ويسقط المستقوي.. قتله المستضعف.. ويستمر الحريق.

ومع نهاية الحلقة تتضح لنا سمة من سمات عكاشة وخصيصة من خصائصه.. تتضح تلك الخصيصة من الإجابة على السؤال التالي: ما الشخصية التي يمكن اعتبارها البطل في هذه الحلقة؟ ربما يرى البعض أن مروان هو البطل.. إنه الشخصية المحورية على الأقل في النصف الأول من الحلقة أو يزيد.. رحلة بحثه عن الحقيقة كانت هي مركز الأحداث وأساسها.. تحولت الشخصية تحولا كبيرا هنا، ولكنه

التحول المبني على المعرفة.. كلما عرفت تغيرت.. إنها القاعدة الذهبية في الدراما.

وربما يرى البعض الآخر أن السنباطي هو الذي يستحق لقب البطل في هذه الحلقة.. إنه من أدار أمور القرية في ظل انسحاب العمدة.. هو من انتهك وطنية والحناوي والعفي وشاهين.. هو من وقف أمام صقر نفسه.. هو من استقوى وطمع في السلطة، وخطط للحصول عليها منتظرا اللحظة المناسبة للانقضاض.

وربما يرى آخرون أن البطل هو عزازي.. ذلك المستضعف الذي يتجرأ على الوقوف أمام الثعبان الأكبر الذي انتهك زوجته.. أطلق عليه عياره الصائب انتقاما لوطنية والحلوانية كلها.. هو من استطاع أن يفعلها.

أقول إننا إن جاز لنا أن نحدد بطلا لهذه الحلقة فسيكون هناك خلاف حول هؤلاء الثلاثة.. لن يذكر أحد الحسيني الغائب الحاضر ولا حورية التي خرجت من سجنها ولا العمدة الذي يخطط لاستعادة عود القش.

الخلاصة أن عكاشة يوزع بطولية عمله الدرامي على الجميع.. إن كل شخصية في ذاتها تحمل ملامح البطولة.. كل شخصية تكون لب الصراع وأساس الدراما في وقت من أوقات اللعبة كلها.. هذه هي السمة الواضحة الجلية عند عكاشة.. السمة التي تجعلك تتذكر جميع شخصياته داخل العمل الدرامي.. لكل شخصية دورها المؤثر في الأحداث، وملاحظها الواضحة التي ترسخ في العقل والوجدان معا.

التغيير.. الخطة.. والعودة

وتستمر الحكاية.. تُستأنف من لحظة سقوط السنباطي.. أطلق عليه عزازي رصاصة الانتقام لتسكن صدره.. يهرب عزازي بعد أن نفذ خطته.. يبدأ الخفر في مطاردته.. يصل صوت الرصاص إلى صقر والدمرداش فيأتيان مسرعين.. ويخبرهما عزب بالفاعل.. وبسرعة ينتقل بنا المشهد حيث تجري الاستعدادات لنقل السنباطي إلى مستشفى المركز.. الحالة خطيرة لكن السنباطي لم يمت.. لم يسقط ثعبان السلطة.. هل يعود مجددا؟ هل يعود ليتقم من الكل وعلى رأسهم عزازي؟ أين ذهب عزازي؟ هل سيسقط في يديهم؟ من الذي يقوم بمهمة شيخ الخفر في غياب السنباطي؟ هل تهتز السلطة بغيابه؟ أسئلة عديدة يضعها عكاشة على طاولة المشاهد، وما علينا إلا أن ننتظر إجابة.

يخرج الدمرداش لمصاحبة السنباطي، ويستوقف العمدة الذئب.. يريد في أمر ما.. هل سيكون هو البديل المنتظر.. هل يحل الذئب محل الثعبان؟ جمع الذئب الخفر جميعا لتحسين مقر السلطة.. يسأله العمدة عن سبب ذلك، فيجيب بأن هذا عائد لخوفه عليه.. ربما يفعلها عزازي مع العمدة أيضا.. بدأ عزب في استغلال الموقف.. لم ينتظر كثيرا على سقوط سيده.. بدأ في التملق للسلطة ومحاولة القفز على كرسي سيده. وينال عزب الرضا السامي، ولكن بشرط الإتيان بعزازي على وجه السرعة.

ويستدعي عزازي إلى المشهد لنراه يواصل الهرب.. مشهد قصير جدا يستخدمه عكاشة لمتابعة بطلنا عزازي، ثم يعود مجددا إلى الذئب لنجده يمارس دور الثعبان الأكبر.. كلمات التأنيب والتوبيخ

ذاتها التي كان يرددها السنباطي لخفزه بعد فشلهم في مهمة يرددها عزب لفشلهم في الوصول إلى عزازي.. يعترض أحدهم، فما الصفة التي يتكلم بها الذئب؟ لم يحصل على منصب ليتكلم من خلاله.. يرد عزب بأنه الأقدم، ولكن المنصب يأتي له سريعا على لسان صقر.. لقد أعطاه المنحة وخلع عليه المنصب.. إنه القائم مقام شيخ الخفر.. الذئب يقفز على المنصب ولو كان هذا مؤقّتا.

ومن عزب نذهب إلى الجوقة.. يتوجه الخضري إلى الله بالدعاء ليشفي السنباطي، ولكن فتحة يطلب منه خفض صوته.. لا تعرف الجوقة من سيكون له السيطرة على مقاليد الأمور في المستقبل.. أصبحوا لا يشعرون بالاطمئنان.. إنهم مستعدون لأن يكونوا مع من يركب السلطة.. لا فارق عندهم إن كان الجالس على الكرسي هو العمدة أو عمدة جديد.. لا فارق أبدا، فهم مع الكرسي ولا شيء آخر.

ومن الأكلين على كل الموائد للباحثين عن الحق.. ينطلق ميلم سعيدا، مرددا: "لكل ظالم نهاية".. يطلب منه الحناوي الانتظار حتى يتأكدوا مما أصاب السنباطي وهل هذه نهايته حقا أم لا.. ويرد العفي الذي يستشرف المستقبل دوما بأن رصاصة العزازي أسمعت الجميع وأوصلت الرسالة سواء عاد السنباطي أم لا.. ويتدخل من يسكن الخوف قلبه.. إنه شاهين.. أضعف الثلاثة.. ما زال خائفا بعد كل شيء.. يخاف من عودة السنباطي.. سوف ينتقم.. سيكون وحشا مفترسا.. ويرد عليه ابنه عمر.. من يملك الشجاعة والمعرفة والشباب: لن تعرف الحلوانية السكوت بعد ذلك ولن تقبل بوجود وحوش.

مشهد قصير وجمل أقصر لكنها كاشفة.. كل شخصية قالت جملة واحدة، ولكنها جاءت كاشفة عن كل شخصية.. ميلم حامل البشارة.. الحناوي المتردد الذي يتحلى بالصبر.. والعفي الذي يمتلئ بالقوة والقدرة على رؤية الأمل.. وشاهين الخائف دوما.. وعمر بما

يحملة من مستقبل مشرق.

ونذهب إلى حورية التي تغيرت ولم تعد كما كانت، كما تقول سسبان.. الكل تغير.. تدعو لها عساكر بأن يظهر الحق على يديها.. ما زالت حورية تبحث عن الحسيني.. تدعوه له وتدعو لمروان بأن يوفق في العثور عليه.. تطمئن لها سسبان.. تشعر بأنه بخير.. وتؤكد لها حورية.. سيعود الحسيني وسيحصلان على الحق وستحصل القرية كلها على حقها المسلوب.. وترد سسبان: "بس إيه التمن يا بنت صادق؟".. أما زال هناك ثمن بعد كل هذا؟ ألم يدفعوه حتى الآن؟ نعم لقد دفعوه كما ترى حورية.. ولكن سسبان تقول: "بيتهيا لك.. لسه.. لسه.. الي راح يوم والي جاي دوم".. ما الذي تراه سسبان.. أهى سسبان أم ميلم أم العفي؟ ما النبوءة التي تبشر بها؟ وهل تتحقق؟ ما الذي يمكن أن يحدث بعد حريق الحلوانية؟ أهنالك ما هو أكثر من ذلك؟

إننا أمام النقيضين.. حورية التي ترى الأمل في غد مقبل.. وسسبان التي ترى الخطر القادم.. صراع بين الرؤيتين يعكس اختلاف الشخصيتين.. وبينهما تقف عساكر طالبة من سسبان أن تكف عن كلامها هذا وأن تترك حورية المتشبثة بالأمل، ولكن سسبان ترد بأن حورية لم تعد صغيرة كما كانت.. باتت تتحمل كل المهموم.. لقد تغيرت.. نعم هذا ما بدأ به المشهد.. وهذا ما نعود إليه.. ومع نهاية المشهد يصل مروان.. يريد حورية في أمر جلل.. ولكن هل سنعرفه؟ ليس الآن بالطبع.. يمارس عكاشة ألعابه المعتادة ويتركنا للانتظار حتى نعرف هذا الأمر.

ونعود لمقر السلطة.. العمدة يتلقى تقريراً من أحد بصاصيه.. فتحة الحلاق ينقل له أخبار القرية في مقابل ما يجود به عليه.. يأخذ المنحة وينصرف.. ونقترب من العمدة.. يشعر بالاحتياج إلى السباطي.. رغم تلك المخاوف التي كان يشعر بها تجاهه ما زال يحتاج

إليه.. يقولها لعزب.. ويستغل الذئب الفرصة.. إنه على استعداد لأن يقوم بالدور كله، ولكن هل يمكن للذئب أن يحل محل الثعبان؟ هذا أمر صعب.. رغم ذلك يعطيه صقر الفرصة ويسمع منه: لا خوف من كل رجال القرية.. لا خوف من الحناوي أو العفي أو شاهين أو غيرهم.. الخوف من حورية فقط.. إن سكنت فسيسكت الكل.

ويسأله العمدة عن الحسيني.. ويلتقط عزب السؤال ليثبت أنه الذئب الثعبان، أو الثعبان الذئب.. لقد قرأ خطة العمدة.. عرف أنه أخرج حورية من محبسها لتكون الطعم الذي سيأتي بالحسيني.. وتسعد الكلمات العمدة.. ولكن يجب أن ينسى عزب ما فعله مروان معه.. ويؤكد عزب ذلك فمروان سيده وابن سيده.. نجح عزب في الامتحان.. ترقى إلى منصب الثعبان.

ونعود إلى حورية ومروان.. يسألها: هل تستطيع؟ ولا نعرف ما الذي ستستطيعه.. أتعبتنا عكاشة في التفكير.. أتعبتنا في البحث عن إجابة لأسئلتك.. وترد حورية بأنها ستقوم بدورها.. ويسألها مروان عن رأيها في الفكرة التي لا نعرفها.. وتؤكد أنها هي الفكرة التي ستحرك الجميع.. سيقلقون على أبنائهم ولكنهم سيتحركون.. ويتمنى مروان أن يوافق الجميع، فرفض واحد يعني انهيار الفكرة كلها.. تطمئن حورية فستعاون مع كل شباب القرية في تنفيذ المخطط الذي وضعه مروان، والذي سنستمر مترقبين طوال الزمن المتبقي من حلقتنا لنعرفه.. هذا هو هدف عكاشة، وهذا ما نجح فيه.

ودون أن نشعر نذكر تلك الكلمة التي قبلت منذ قليل عن تغير حورية.. لم تتغير حورية فقط.. تغير مروان أيضا.. أصبح يخطط ويقود.. لم يعد يفضل الهروب من المعركة.. المعرفة هي التي صنعت كل هذا.. صنعت التغير.

ويبدأ المخطط.. دقت طبول المعركة.. تنادي سسبان على حورية

ولا تجد ردا.. انطلقت حورية إذن لتنفيذ مخطط مروان.. أين ذهبت؟ لا نعرف.. ماذا ستفعل؟ لا نعرف.. كل ما نعرفه أنها بدأت!

ومن سسبان إلى الحناوي.. ينادي على صباح.. لا يجد ردا.. أين ذهبت صباح؟ هل ذهبت مع حورية؟ ربما، ولكن إلى أين؟ لا نعرف.. ماذا ستفعل؟ لا نعرف.. ما نعرفه أن الحناوي ينادي هو الآخر كما تنادي سسبان، وكلاهما لم يجد ردا.

ولم تكن سسبان فقط، ولا الحناوي وحده.. ينادي شاهين على ولده عمر، ولا يرد.. لا نعرف إجابة عن أسئلتنا المعتادة.. لا نعرف مكانه ولا نعرف ما الذي سيفعله.. ويستمر النداء.. الكبار ينادون على الصغار.. ينادون على الأمل.. كل القرية أصبحت تنادي.. ولا يجيب للنداء.. اختفى شباب القرية كلهم في اللحظة ذاتها.. هذا ما يقوله رشاد لمأمور المركز.. لقد اختفى شباب الحلوانية.. كانت هذه هي الخطة إذن.. كشفها لنا عكاشة ولكنه لم يقدم الإجابة على بقية الأسئلة.. أين ولماذا وماذا يفعلون؟ كل هذا لا نعرفه للآن.

وينقل البصاصون الخبر إلى صقر.. كل أبناء القرية اختفوا ولم يبق إلا رشاد فقط.. تصيب الصدمة العمدة.. ينادي ثعبانه الجديد.. ماذا فعل؟ اعتقد العمدة أن ثعبانه هو من فعلها، ولكنه يؤكد أنه لم يفعل شيئا.. ويسأله العمدة: من أخذ أبناء القرية، والإجابة بالطبع أنه لا يعرف.. وتنتقل عدوى الأسئلة إلى صقر.. كيف حدث هذا؟ من الذي تجرأ على فعل ذلك؟ من الذي تجرأ وخطف كل شبان القرية وبناتها؟ ويفيق صقر من غفوته.. إن له ابنا هو الآخر، فأين ذهب؟ يسأل عن مروان، فيقفز مروان إلى المشهد.. إنه هنا.. ولكن لماذا جاء؟ هل أتى لاستكمال الخطة؟ هذا ما سنراه بالطبع.

ويبدأ مروان دوره في الخطة التي وضعها.. يسأل أباه عن السبب الذي دفعه لفعل ذلك.. إن كان يريد حورية فليأخذها ولكن عليه

أن يترك كل شباب القرية.. يعرف مروان أن العمدة بريء من هذه الفعلة.. يعرف ذلك جيدا، فهو من خطط ودبر.. إنه يؤدي دوره في الخطة التي وضعها.. الخطة التي لا نعرفها ولكننا نراها وهي قيد التنفيذ.

وينفي صقر التهمة عن نفسه، ولكن مروان يواصل الضغط.. هذه فعلة لا يجزئ عليها أحد إلا العمدة.. ومن جديد ينفي صقر.. ولكن مروان يواصل مسيرته.. ربما فعلها أحد رجاله إرضاء له.. ولكن من؟ إن السنباطي في المستشفى وبصحبه الدمرداش.. ويتفرض صقر.. يأمر عزب بالذهاب مع الخفر جميعا للبحث عن شباب القرية.. يلتفت إلى مروان ثانية مؤكدا أنه لم يفعلها.. لو فعلها لقال فهو لا يخاف أحدا.. ويؤكد لها له مروان.. يعرف جيدا أن العمدة لا يخاف، ولا يقيم وزنا لأحد.

ويحاول صقر استمالة مروان.. يريد به إلى جواره.. لم يعد يشعر بالاطمئنان لأحد.. أصبح في حاجة لمن يستند إليه.. كل من حوله مرتزقة يعطون بقدر العطاء.. عرف صقر ذلك الآن.. عرفه جيدا، فهل يتراجع؟ وهل يتراجع من هم مثل صقر؟ ها هو يطلب من مروان أن يكون سيدا للحلوانية كلها، ولكن مروان يردد.. الحلوانية لا تحتاج إلى من يكون سيدها.. الحلوانية تحتاج إلى أن يكون كل من فيها سيدا لنفسه. وتصيب كلمات مروان العمدة في مقتل.. يقول سريعا: "ده كلام عمك ده".. ويتابع مروان: "ياريتك سمعته يابا".. وعرف العمدة أنه لا فائدة من مروان.. لقد أفسدت حورية عقله ولم يعد فيه رجاء.. يقولها العمدة وهو يشيح عنه.. لم يعد يريد به.. يؤكد أنه هو من سيحتاج إليه وسيعود طالبا العفو. ومع كلمات العمدة هذه كان مروان قد ترك المكان.. كانت كلمات العمدة لا يسمعها إلا هو وخفيته المكلف بحراسته.. تركه مروان وحيدا بعد أن نفذ دوره في الخطة.. ويخبر الخفير العمدة بأن أهل القرية قد تجمعوا وفي طريقهم

إلى "المنزل" .. الخطة تسير بإحكام يا مروان!

ونعود لأسئلتنا .. عرفنا بعضا من أجزاء الخطة .. شباب القرية يخفون جميعا وعلى رأسهم حورية .. الاتهام يوجه إلى صقر .. يرتبك العمدة وينشغل الخفر جميعا في البحث عن المختفين .. يبدأ أهالي القرية في النداء .. في كسر حاجز الصمت .. في البحث عن أبنائهم ، ومن يبحث مرة سيبحث الثانية ، وفي الثانية سيكون البحث عن الحق والحقيقة . هذه ملامح الخطة التي اتضحت ، ولكن لها ملامح أخرى ما زالت غير واضحة وسنظل نبحث عن استكمالها .. سنستمر مع عكاشة حتى النهاية .

وننتقل إلى أهل القرية الذين تجمعوا ومعهم ضابط الشرطة صديق رشاد .. لقد عادت الشرطة للقرية ثانية بعد ما حدث .. يحاول الضابط طمأنتهم مؤكدا أنه سيرسل لاستدعاء العمدة .. ويأتي العمدة سريعا .. يحضر بكلماته الواثقة ، أو هكذا يبدو .. يقول : "صقر ما يتبعتلوش يا أفندي .. صقر ييجي من نفسه" .. ويعود العمدة إلى خطبه القديمة .. خطبة عصماء يستعيد بها أمجاده القديمة .. سيعاقب كل الخفر لإهمالهم .. لن ينام ولن يأكل إلا بعد أن يعود شباب القرية لأهلهم .. إن هذه الفعلة لا يقوم بها إلا مجرمون وسوف يتصدى لهم جميعا ، وسيتصدى لمن يقف خلفهم .. يعطيهم عهدا بأنه سيحضر لهم أبنائهم ، وإلا فلن يبقى يوما في منصبه .

ويتدخل العفي قائلا : "أد القول يا صقر" .. يؤكد أن العمدة سيفي بالعهد لأنه يعرف من قام بهذه الفعلة .. يوجه العفي الاتهام إلى صقر .. ويصرخ فيه العمدة بأن يسكت فكفاه ما فعله قبل ذلك .. ويحول العمدة مسار المباراة لصالحه .. يبلغ الضابط بأن هناك ثلاثة هم المسئولون عن حرق البلد .. إنهم الثلاثي الكبير الحناوي والعفي وشاهين .. إنهم من حرضوا حورية على ذلك .. سيستخدم صقر الأوراق إذن .. سيستخدم ورقة السنباطي الخسيسة لتغيير مسار

اللعبة كلها.. لم يكتف بهذا لكنه يتهمهم بتحريض عزازي على قتل السبباطي لأنه من حصل على اعترافهم.

ويوجه الضابط السؤال للثلاثة: أهذه الاعترافات بخط أيديهم؟ ويجيب الحناوي بذلك الانكسار الذي يشعر به.. نعم هم أصحاب الاعترافات ولكنهم قاموا بتقديمها بسبب ما رأوه من تعذيب.. يكشف الحناوي عن الإهانة التي تعرضوا لها.. يكشف عن التهديد بأبنائهم.. التهديد الذي زرع الخوف داخلهم فصمتوا.. ولا يجد الضابط إلا الأمر بإلقاء القبض عليهم وتحويلهم للنيابة التي ستقوم بالتحقيق في الأمر كله. ولا نملك أمام هذا إلا أن نتساءل: هل فشلت خطة مروان؟ هل انتهت الخطة إلى هذا الحد أم أن هناك الجديد فيها؟ النتيجة حتى الآن رغم كل شيء هي انتصار صقر!

وتظهر سسبان منادية على حورية.. يخبرها العمدة بأنها مثل شباب القرية.. ستعود عندما يعود الجميع.. ولكن سسبان تؤكد أنها لن تعود.. لن تعود لأنها المقصودة بكل هذا.. إنها المطلوبة.. لقد أخذ الكل من أجلها هي.. تتكلم سسبان أمام الجميع أخيراً.. انتهى وقت السكوت والكلام في الغرف المغلقة.. تكلمت الصامته أمام أهل القرية كلها.. صرخت منادية على حورية.. أكانت هذه هي الخطة يا مروان؟ ربما.. ربما يكون هناك شيء آخر.

وتنهار سسبان.. تسقط بحملها.. يحاول أن يستنهضها.. يكلمها العمدة قائلاً إنها ليست هي من تفعل ذلك.. ولكن لماذا؟ لأنها كبيرة العائلة؟ وهنا تكون الإجابة من سسبان: لم يعد هناك كبير للعائلة.. لقد ذهبت العزوة والعائلة.. لم يعد لكل ذلك معنى ولا قيمة.. ما أضاعت عمرها كله في حمايته انتهى.. ويأمرها صقر بالسكوت، فرد بأنها ستسكت بشرط أن يأتيها بحورية.. ستعود للسكوت وقتها، وستعطيه الأوراق والعقود التي كانت لدى الحسيني.. إنها معها هي.. أتركها الحسيني معها حقاً؟ أترك الأمانة مع العمدة؟ وهل ستفرط

العمدة في الأمانة من أجل حورية؟ هل سيضيع كل شيء الآن؟

وقبل أن نسبح في بحر الأسئلة يسرع عكاشة بتقديم الجديد.. تصل كلمات سسبان إلى مسامع الضابط ومعه رشاد.. يطلب منه رشاد ألا يتركها.. وينتهي المشهد لنجد سسبان معنا محاطة بالشرطة.. يطلبون منها الأوراق.. هل ستسلم الأوراق إلى النيابة؟ أ جاءت النهاية؟ أ جاء موعد كشف الحقيقة؟ هل كان هذا هدف مروان من مخططه؟ أ جئنا يا عكاشة.. ولكنه لن يجيب.. إنها اللعبة التي يتقنها ويعرف كيف يستخدمها.

وترفض سسبان إظهار الأوراق.. إنها أمانة.. إن أرادوها فعليهم أن يطلبوها من الحسيني.. ولكن أين الحسيني؟ الإجابة بالطبع: لا أحد يعرف.. يحاولون ثانية.. إنهم يريدون معرفة ما في الأوراق.. يريدون الوصول إلى من قام بإشعال النيران في القرية.. ولكن سسبان تؤكد أن الأوراق ليس لها علاقة بذلك.. وتنتهي المحاولات بالفشل.. كبيرة العائلة ليست بأقل عندها من كل أفرادها.. الكل عنيد في عائلة الحلواني.. وأمام عنادها لا تجد الشرطة إلا أن تفرض عليها الحماية من العمدة.

وفي المشهد التالي يظهر ضابط المباحث في زيارة إلى السنباطي في المستشفى.. ما زال الثعبان حيا إذن.. تعافى إلى حد كبير من إصابته.. أخطأت الرصاصة هدفها.. لم ينجح عزازي في الثأر لعرض وطنية وشرفه، وإن كانت رصاصته قد أسمعت الجميع.. ينقل لنا الضابط الخبر، فالأطباء يؤكدون أنه سيخرج بعد يومين فقط.. يطلب منه الضابط أن يحكي ما حدث، ولكن السنباطي يرد بأنه قال كل شيء للنيابة.. ويسأله الضابط عما سيفعله عند عودته، فيرد السنباطي بأنه سيأمر عمله.. وتأتي المفاجأة من الضابط.. لا يمكن للسنباطي العودة إلى عمله، فقد كتب العمدة تقريراً يؤكد أن السنباطي هو المسئول عن حريق القرية.. ما هذا؟ أيمن أن يكتب صقر مثل هذا

التقرير وهو من كان في حاجة لثعبانه الأكبر؟ الإجابة بالطبع هي: لا..
المباحث تمارس اللعبة القديمة.. فرق تسد.. تزرع الفتنة بين العمدة
وشيوخ خفره لتكشف الحقيقة.

ومن شيخ الخفر المصدوم إلى العمدة الذي لا تقل صدمته.. يبدو
العمدة مهتزا متوترا وهو يتحدث مع الدمرداش.. لم يعد يفهم ما
يدور حوله.. لقد تكلمت سسبان فأربكته.. كان قد أوشك على
الانتصار بعد القبض على الثلاثي الكبير، وإذا بها تقلب الأمور عليه..
ويبدأ صقري في ترديد الأسئلة: لماذا أطلق عزازي النار على السبباطي؟
وأين الحسيني؟ وأين شباب القرية؟ وأين اختفت سسبان؟ ولا يقدم
الدمرداش إجابة بل يضيف ما يربك العمدة أكثر.. لقد منعه
الشرطة من زيارة السبباطي.. نعرف نحن سبب ذلك، لكن العمدة
لا يعرفه ولا يعرفه الدمرداش.. ويزداد قلق كليهما.. ويطلب صقري
السيارة.. يقرر الهروب من القرية إذن.. السيارة معناها دوما رحلة
إلى درية.

ولم يعد غريبا علينا أن نستدعي الشخصية فنجدها.. العمدة في
حضرة درية.. تكرر الهروب إليها في الفترة الأخيرة.. يبدأ في الفضفضة
كالعادة.. يشعر بأن هناك شركا ينصب له، وأن الجميع يدفعه للسقوط
فيه.. حتى أخته سسبان التي كانت دوما المعين له.. وتطلب منه
درية البقاء معها: "إنت ليك إيه هناك؟".. يا له من سؤال! له كل
شيء.. ويأتي السؤال الصاعق: "مش إنت حرقته خلاص؟".. يتحول
العمدة إلى غول يهاجم فريسته.. وتطلب درية الصفح والغفران..
كانت زلة لسان.. ويحذر صقري من تكرارها.. إن كررتها فستكون
العواقب وخيمة.. ولأن العمدة لم يعد يجد الراحة في أي مكان حتى في
مهربه، فلم يكن غريبا أن يقرر العودة إلى الحلوانية ثانية، ولكنه يأمرها
بأن تعود معه.. تحاول الرفض.. ولكن هل يستطيع أحد رفض أمر
صقري؟ إنه يحب الحلوانية وسيعيش فيها وعليها أن تحبها أيضا وأن

تعيش فيها معه.. كان هذا هو الفرمان الذي أصدره ولم يعد هناك مجال لنقاش.

ومن درية إلى الإعلام.. توافق الجريدة أخيراً على نشر ما كتبه رشاد.. إنها قضية اختفاء شباب القرية.. وهل يجد الإعلام موضوعاً مثيراً أكثر من هذا.. ولكن مقص الرقيب يتدخل كما هي العادة في أي مجتمع يسوده الاستبداد.. ستحذف الجريدة اتهام العمدة.. لن تنشر ذلك.. والحجة أنه لا يوجد اتهام رسمي.. ولا يوجد دليل.. الحقيقة أهم من السبق في رأي رئيس التحرير.. ربما يكون معه الحق، لكن إن كان صادقاً فيما يقول.. ويؤكد ذلك رشاد.. مشكلة الإعلام هي مشكلة الحلوانية ذاتها.. الكل يدرك الحقيقة لكنه يغمض العين عنها إلى أن يضيع الحق ومعه العدل والحقيقة.. رصد دقيق يقدمه عكاشة على لسان رشاد لما يفعله الإعلام.

ويستخدم عكاشة الحوار من جديد لإمدادنا بالمعلومات.. فتيحة يخبر الخضري ويخبرنا بأن أسبوعاً مر على اختفاء شباب القرية.. القرية كلها تحولت إلى الحزن والأسى.. ويدور ميلم ممسكاً عصاه وطبلته.. يدق عليها مردداً كلماته المحملة بالحسرة والألم لمصاب القرية في شبابها.. الأيادي توضع على الحدود.. الابتسامات اختفت وحلت محلها الدموع في العيون.. الصبر طال ولم يتغير الحال.. وتطلب منه عساكر التوقف عن النواح.. يكفي ما يشعر به الجميع.. ويصرح ميلم بالنبوءة.. الكل سيعود ولكن كل شيء بأوان.. قالها ميلم، وما دام قد قالها فستحقق.

ويوقفه فتيحة والخضري.. الصراع بين الطرفين ما زال مستمراً.. كتيبة الحق في مواجهة جوقه السلطة.. ويطلب منهم ميلم أن يتركوا القرية ما دام حالها لا يعجبهم.

ويزيد المفقودون واحد.. ويزيد الباحثون واحدة.. اختفى الحسيني،

ثم اختفى شباب القرية كلهم، والجميع يبحث.. وها نحن أمام مختفٍ جديد.. إنه عزازي.. وها هي وطنية تبحث عنه.. لقد فعلها من أجلها.. من أجل عرضها.. تناديه الآن.. ولا تجد ردا.. الكل يبحث وينادي ولا يجد الرد.

وبعد هذا المشهد الخاطف نعود إلى العمدة الذي عاد.. يسأل رجاله عن سبب توقفهم عن البحث عن شباب القرية.. والإجابة أنهم لم يتركوا مكانا إلا وبحثوا فيه.. لم يجدوا شيئا.. ويطلب منهم العمدة أن يتصرفوا ليعلمنا عزب بأن الشرطة منعته من الاقتراب من الأهالي.. لقد ضاق الخناق عليهم كما ضاق على عمدتهم. ويتوجه إلى الدمرداش.. يطلب منه التصرف.. لكن هل يملك الدمرداش شيئا ليفعله؟ لم يعد لديه ما يفعله. ويتحسر العمدة على السبباطي وأيامه.. إنها إحالة لكلام ضابط المباحث مع السبباطي.. دليل جديد على عدم صحة هذا الكلام.. دليل على أننا أمام كمين ينصب للكل.

وتكتمل صورة الكمين.. المعلومة التي أعدها المباحث تصل إلى العمدة عن طريق خفره.. لقد اعترف السبباطي بكل شيء، وطلب من الشرطة حمايته في المركز، وألا يعود إلى القرية مرة أخرى. اكتملت فصول خطة المباحث الآن.. إنها الواقعة بين الطرفين.. الواقعة بين أقطاب السلطة.. اتضحت معالم خطة المباحث، ولم تتضح كل ملامح خطة مروان.. ما زلنا نجهل الكثير.

ورغم حزن القرية على غياب شبابها فإن الزغاريد تعلو مع عودة كبار القرية.. لقد عاد الثلاثي.. عاد الحناوي والعفي وشاهين.. يبدو أن النيابة قد أفرجت عنهم.. هل اعترف السبباطي حقا، أم أن الإفراج عنهم يأتي لإكمال الصورة أمام العمدة؟ من جديد نطرح الأسئلة وننتظر الإجابة.

ويستحث الثلاثي العائد أهل القرية على البحث عن أبنائهم..

ويستغل ميلم الفرصة.. يؤلب الناس على العمدة.. إنه يجلس في بيته دون أن يلتفت لمصاب القرية في شبابها.. لم ينفذ عهده معهم.. لقد تعهد بإعادة شباب القرية وإلا فسيترك المنصب.. عليه أن يفعل الآن.. عليه أن ينفذ العهد.. ولكن من سيقول؟ من سيتكلم؟

وأمام كلمات ميلم تنطق جوقة السلطان.. يتكلم فتيحة.. ماذا يستطيع أن يفعل العمدة أكثر مما فعل؟ لقد عجزت الشرطة نفسها عن العثور على شباب القرية، فهل يستطيع هو أن ينجح فيما فشل فيه أبناء القرية؟

وفي مشهد يستلهم التراث الشعبي تهل أصوات المداحين محملة بالبشائر.. إنها الصلاة على رسول الله تنطلق في دروب القرية.. إنه المولد النبوي واحتفالاته.. يردد ميلم الصلاة على الرسول مؤكداً أن البشرى ستأتي مع المولد في الغد.. ولم تعهد على ميلم كذبا قط.. هل أصبحنا قريبين من النهاية؟ هل يكون الغد هو نهاية الرحلة؟

ويظهر أحد المختفين وهم كثير.. إنه عزازي.. يجلس بصحبة سلماوي الذي نبذته السلطة وأصبح مطاردا هو الآخر.. يجتمع المطاردان.. يطلب منه سلماوي الصبر.. يطيب خاطره.. وينتهي المشهد.. مشهد قصير جديد يلقي به عكاشة نظرة على بطل من أبطاله.. يطمئن المشاهد عليه.. وكفى!

ويستمر ظهور المختفين.. تظهر حورية أيضا.. يبدو أن نبوءة ميلم قد بدأت تتحقق سريعا.. ها هي حورية مع مروان.. ما زالت تتساءل عن مكان الحسيني.. يحاول أن يطمئنها، ولكن دون جدوى.. ولا يجد ما يقول.. وتذكره بعهده لها.. لقد وعدها بأن يجده.. ويحدد العهد طالبا منها الصبر فقد تبقت خطوة واحدة.. ما الذي يعرفه مروان ولا يريد أن يقوله؟ تأكيد جديد على ما أصاب مروان من تغيير.. تطلب منه حورية أن يخبرها بما يعرفه.. ويعدها بأنه سيخبرها.. لقد بقيت

خطوة واحدة.. وموعدها سيكون الليلة.

ويسير الحبيبان في ظلمة الليل.. يؤكد لها مروان اقترابهما من تحقيق المراد.. وترد حورية بأنها تشعر بأنها تمشي في طريق طويل لا تظهر نهايته.. ويبرر مروان ذلك بابتعادها عن البلد.. ربما جعلها ذلك تشعر بالتشاؤم وهي التي كانت متفائلة دوما.. عرفنا أنها الآن بعيدة عن القرية ولكننا لم نعرف أين، ولم نعرف أين شباب القرية.

وتعيد حورية الحديث عما طرأ عليها من تغيير.. تغيير كبير أفقدها الضحكة والابتسامة وراحة البال لتبدأ رحلة من البحث عن الحق والحقيقة.. ويرد مروان بأن ما ضاع منها هو القشرة التي كانت تغطي عينيها وعينه، والآن قد زالت ليعرفا الطريق الصحيح.. مرة أخرى يؤكد عكاشة المعادلة.. حين تعرف أكثر تتغير.. حين تسقط من على عينيك الغشاوة تصبح شخصا آخر.

وتسأله حورية: "كرهته يا مروان؟" ويجيب: "ماحدث يقدر يكره أبوه".. ولكن حورية لم تكن تقصد العمدة.. كانت تقصد الحسيني.. ولكن لماذا يكرهه مروان؟ لأنه هو من نزع الغشاوة من على العيون وغير العالم وغير الكل؟ لولا ظهوره لتغير كل شيء.. لولا ظهوره لكانت حورية زوجة لمروان.. ربما يكون ذلك دافعا للكره.. ولكن مروان ينفي ذلك.. لم يكن الحسيني سببا في كل هذا، بل حرم هو الآخر من كل شيء.. حرم من السعادة في حياته كلها.. ويعيدها مروان.. لقد بقيت خطوة واحدة.. وتثير الكلمة حورية.. لماذا يخفي عنها؟ أيعرف مكان الحسيني؟ أهو مريض؟ ويقسم مروان إنه لم يره.. عنده إحساس فقط ولكنه لم يتأكد.. وسيؤكد الليلة.

ومن صحبة حورية ينتقل مروان إلى وهبة شيخ المسجد.. يطلب مساعدته، فإذا به يؤكد أنه "راجل غلبان وفي حالي يا مروان".. هذا هو وهبة الذي عرفناه دوما، ويرد مروان بأن صورة وهبة كانت

تطارده دوما.. كان يسأل نفسه لماذا هو بالذات؟ وها هو يلجأ إليه..
ويطلب منه إجابة السؤال الذي لم نعرفه بالطبع.. ويؤكد وهبة أن
هذا ليس مسموحا له.. ويحاول مروان ثانية، ولكن وهبة يتهرب..
لا يستطيع إلا بعد أن يأتيه الإذن.. ولكن كلمات وهبة تقدم إلى مروان
الإجابة.. لقد قالها: "تبقى جاوبت يا مولانا".. وينتهي المشهد.. لم
نعرف السؤال ولم نعرف الإجابة.. هل للسؤال علاقة بالحسيني؟ هل
يعرف وهبة مكانه.. هل تأكد مروان مما كان يريد التأكد منه؟ لن
نعرف إلا في الوقت الذي يريده عكاشة.

ومن مروان إلى أبيه.. يأمر خفره بإعداد الطعام وتوزيعه على رواد
المولد والمداحين والمجاذيب وأهل القرية.. ويأتيه خبر عودة الثلاثي
الكبير.. فيطلب من خفره عدم التعرض لهم.. حسابهم معه هو
وليس مع أحد غيره.

ومرة أخرى يستخدم عكاشة إحالاته.. يعلن صقر لدرية أنه لن
ينتظر.. سينهي كل شيء غدا.. يحيلنا لنبوءة ميلم.. ألم يبلغنا بذلك منذ
قليل؟ يصدق ميلم في كل نبوءاته.. ولكن كيف ستتحقق النبوءة؟
وما الذي سيفعله العمدة؟ تسأله درية.. ويحييها بأن كل شيء سينتهي
غدا.. ليس مهما كيف، ولكنه سينتهي على أية حال.. ستعود الحلوانية
كما كانت.. ستعود لسابق عهدها.. وسيعود أهلها أسرة واحدة.. كلمة
واحدة.. وصوتا واحدا.. كذلك قال صقر مؤكدا أنه تهاون كثيرا..
بدأ التهاون منذ ليلة الفرح.. يوم أن رفضت الزواج.. تهاون يومها
وغلبته عواطفه، ولكن لا تهاون بعد اليوم ولا عواطف.. لقد انتهى
كل شيء.. مثله لم يخلق للنظر في عين طفل، ولا لحمل طفل.. أخطأ
هو يوم أن نظر في عينيها وحملها ليضمها إلى صدره.. تحولت إلى نقطة
ضعفه.. كان هذا هو الخطأ.. يوم أن دخلت قلبه فلان وضعف..
ومع ضعف القلب ترتعش الأيدي وتهتز.. ولكن الأوان لم يفت..
سينسى الشهور التي مرت وسيعود إلى ما كان عليه.. سيعود صقر

كما كان.. يرتجف أمامه الجميع.

ووسط كلمات صقر وهذا المونولوج الطويل الذي يحدث فيه نفسه كالعادة، رغم وجود درية، تحدث المفاجأة.. كانت العينان مصوبتين إلى عينيه.. نظرة من خلف النافذة تطل عليه.. التقت العيون ودخل الخوف قلب صقر.. ارتجف من كان يتوعد الجميع بأن يرتجفوا أمامه.. ارتجف من نظرة عين لاحت له فجأة.. وكانت النظرة منه.. من الحسيني.. الغائب الذي عاد.. بشارة الحق.. إشارة الحقيقة.

ويصرخ العمدة.. يشق صوته الليل.. "هاتوووووه" ويتحرك الخفر في كل مكان.. يبحثون ويبحثون ولا جديد.. لم يظهر الحسيني.. هل ظهر في عين صقر فقط؟ لقد رأيناه معه، فهل كان كابوسا من كوابيسه التي يراها في يقظته؟ وما زال الصراخ يدوي.. "هاتوووووه" ويستمر البحث.

كيف وصل إلى "المنزل" دون أن يتعرض له أحد؟ يكاد صقر يحزن.. يعلن أنه من سيأتي به.. يلتقط بندقيته ويخرج للبحث عنه.. يحاول صقر الانقضاض على فريسته.. يبحث بنفسه.. يسأل جوقته المحيطة به، ولكنه لا يجد ردا.. لم يره أحد.. ولكن كيف؟ لا بد أن يمر أمامهم لكي يصل إلى النافذة.. كيف تمكن من ذلك؟ ولا يتغير شيء، فلا إجابة عند أحد.

ويجن جنون صقر ورجاله.. ينشرهم في القرية.. يقتحم الخفر المكان الذي يأوي الحناوي والعفي وشاهين وأهل القرية.. يهددهم عزب.. إما أن يظهر الحسيني وإما أن يكون هذا آخر أيامهم.. ولكن التهديد لم يعد يفيد.. لم يعد أحد يطبق الخفر في القرية.. يعلنها لهم الحناوي.. من سيتعرض لأحد من القرية فسيصدون له.. ويظهر أهل القرية وقد أمسك كل منهم بعصاه.. إنها الثورة.. لاحت الثورة يا ميلم.. النبوءة تقترب.. وظهرت بشارتها مع الحسيني.

ويصرخ صوت الثورة.. يطلق العفي بيانها.. القرية كلها على قلب رجل واحد الليلة.. لا بد أن يعود شباب القرية.. إن عادوا فسيسلمونهم الحسيني.. ويظهر العمدة.. يصرخ: "يعني بتعترفوا إنكم اللي مخبيينه؟".. ويرد الحناوي: "في عينينا يا صقر".. ويواصل صقر صراخه: "هاطلعها وهاطلعه معاها يا حناوي".. يقولها وينصرف مستكملا البحث.. ومع انصرافه ندرك أنهم لا يعرفون مكان الحسيني.. كان ما قالوه فقط استغلالا للموقف ليس إلا.. لكنه ما زال غائبا.. ومن جديد نسأل مع الحناوي: هل كان كابوسا رآه صقر؟ ولكن العفي يقول: لم يكن صقر فقط هو من رآه!!

ويلتقي الغائبان أخيرا.. تحتضن حورية أخاها.. ظهر الحسيني ورأته.. نفذ مروان وعده إذن.. قال لها إن الباقي خطوة، وها هي الخطوة قد تمت.. ولأننا نحتاج أن نعرف، فلم يخل عكاشة علينا بالمعلومات.. يحكي الحسيني ما حدث.. بعد أن احترقت القرية فقد الأمان.. فكر في أن يخفي لعل هذا يجعلهم يعتقدون أن الحريق قد نال منه، فيتركونها.. وحين عرف باعترافها للحكومة فكر في أن يسلم نفسه فداء لها، ولكنه عاد وتراجع فقد كان في ذلك قضاء عليهما معا.. وتلومه حورية على طول الغيبة، ليخبرها بأن المرض هو ما منعه من الظهور.. كان وجهه أكثر شحوبا.. لقد زاد عليه المرض إذن.. وتستمر في لومه.. كانت أولى برعايته، ولكنه يرد بأنه كان ينتظره.

ويعلو السؤال: ما هذا الذي ينتظره؟ ويرد: إنه الطائر الذي سيقف على كتفه ليأخذه معه.. ما معنى ذلك يا حسيني؟ أتقصد الموت؟ كان هذا ما وصل إلى حورية فلم تجد إلا البكاء وهي تؤكد أنه بخير، وأنهما سيكملان المشوار معا.. لقد اقترب المشوار من نهايته.. كان شعوره بأنه هو من أزاح الغمامة من على العيون هو ما يخفف عنه آلامه.. يشعران الآن بأنهما لم يعودا وحدهما.. لقد فتحا طاقة للكل.. وانفجرت النار.. لم تكن النار التي حرقت الحلوانية.. لا.. إنها النار

التي ستشتعل في الغد.. كانت هذه الكلمات خارجة من حورية.. كانت تأكيداً أخيراً لنبوءة ميلم عن انتهاء المشوار في الغد.. ليستمر الحريق.

ورغم وضوح استخدام عكاشة عدداً كبيراً من تقنياته وسماته الخاصة في هذه الحلقة، كاستدعاء الشخصيات، والإحالة، والمشاهد القصيرة التي تدور على الشخصيات سريعاً، وطرح السؤال وراء السؤال، واستخدام الحوار في تقديم المعلومات للمتلقي، فإن السمة الرئيسة هنا، أو لنقل اللعبة التي أجادها عكاشة هي لعبة إخفاء المعلومات.. ماذا سيحدثني المشاهد/ المتلقي من معرفة كل المعلومات دفعة واحدة؟ ستنتهي متابعته، أو سينتهي شغفه للمتابعة على الأقل.. لن يكون مقبلاً على استكمال مشوار المشاهدة.

لهذا لا يقدم عكاشة كل معلوماته دفعة واحدة.. يحتفظ بأوراق اللعبة في يده.. يكشف ورقة ورقة للمشاهد في الوقت الذي يريده، وبالطريقة التي يريدها.. يملك كل خيوط اللعبة ولا يقدم أي خيط منها إلا بحساب.. يزيد شغف المشاهد.. حب المعرفة يزيد.. حب الاستطلاع يتوهج.. يثبت المشاهد/ المتلقي على كرسيه منتظراً أن يستزيد مما يعرفه عكاشة ويخفيه عليه.

فعل عكاشة ذلك على مدار الحلقة.. انتهت حتى دون أن نجد إجابة لكل الأسئلة.. لم نعرف حتى خطة مروان على الوجه الأكمل.. ما زال هناك غائبون.. كل شباب القرية لم يعودوا.. أين هم؟ هل سيعودون كما عاد الحسيني؟ وأين كان الحسيني؟ أسئلة وأسئلة ما زال عكاشة محتفظاً بالإجابة عنها، ولهذا ستكون مدفوعاً إلى الانتظار لمعرفة الإجابة.

هذه هي اللعبة التي أتقنها عكاشة وتجلت بشكل كبير في هذه الحلقة.. أخف المعلومات التي تمتلكها، ثم أظهرها تباعاً واحدة تلو

الأخرى، وستملك عقل ووجدان مشاهدك.. قاعدة سحرية يقدمها
عكاشة في درس عملي من خلال هذه الحلقة وعلى طول حلقات
المسلسل.

سفينة الجبناء.. ويوم الخلاص

”وكانت نهاية الحلقة.. أخيراً.. هكذا يخبرنا راوينا العليم قبل بداية حلقتنا الأخيرة.. إنها نهاية الرحلة التي بدأناها.. النهاية التي انتظرناها كثيراً لتنفك العقدة ونصل إلى الحل، فهل نصل إليه حقاً أم أن لعكاشة رأياً آخر؟

ولأن حلقتنا ليست مثل أية حلقة، فقد بدأت من الذروة.. العمدة يمسك بسلاحه باحثاً عن مروان.. يتصدى له أهل القرية سائلين عن أبنائهم.. نطق الكل يا صقر.. لم يعد أحد يعرف السكوت.. ويدخل ميلم الحدث.. ما زال يردد أغانيه وهو يدق على طبلته.. إنه الراوي الشعبي الذي يحكي حكاياته، وما حكايتنا إلا واحدة منها: ”طلوا بنات الحور..

نادوا القمر واهو رد..

لاقوه في شال مسحور..

متشال لساعة جد..

يكشف غطا المستور..

ويقول كلام الحق..

ولا يفهم صقر كلماته.. ما زالت غامضة عصية على فهمه.. ويكمل ميلم: ”خلاص يا عمدة“، فيسأله صقر: ”خلاص إيه يا واد؟“.. ويطلب منه ميلم ”بريزة فضة“، فيصفعه العمدة على وجهه، وتنزل الصفعة على وجه ميلم ليؤكد أنها أفضل من مليون ”بريزة“.. يواصل ميلم استفزاز صقر: ”إخيه يا زمن.. اتدحدر بيبك الحال يا

عمدة ويتسأل ميلم؟.. ولماذا لا يسأله وهو العالم بيوطن الأمور.. هو الذي يعرف الحكاية ويعرف نهايتها، ولكن هل يسأله العمدة من أجل هذا؟ هل أصبح العمدة مؤمنا بميلم كما آمننا به نحن؟ الإجابة بالطبع: لا، ولكن ماذا يفعل وهو يريد أن يعرف.. ويستمر في توجيه السؤال لميلم.. أين كان الحسيني؟ ويرد ميلم بأنه سيخبره بكل شيء.. سيقول له أين كان الحسيني وأين هو الآن.. ويعده العمدة بألف جنيه لو قال.. وتغضب الكلمات ميلم.. إنه لا يبحث عن المال وإنما يبحث عن الحق.. نعرف نحن ذلك يا ميلم، ولكن هل يعرفه العمدة ويفهمه؟

إنه الحق ثانية.. الحق الذي يغضب العمدة ذكره.. ينقض على ميلم، فحتى هو يتحدث عن الحق، وهو من يعيش على "الشحاة" منذ نزل إلى القرية من عشرين عاما؟ ويسأله ميلم: هل يذكر هذه الليلة.. الليلة التي حل فيها على الحلوانية؟ ويشتعل الغضب في صدر صقر.. يكاد يسب ميلم بأبيه.. ولكن من أبو ميلم؟ لا أحد يعرف.. وكيف لنا أن نعرف وهو الغريب عن القرية؟ ويطلب منه ميلم أن يكمل سبه، فمن يعرف فقط هو من يستطيع الصفح.. ويستنكر صقر كلمات ميلم: "حتى إنك كمان هتسامح؟".. ويأتي الرد كطلقات المدفع الرشاش.. تندفع الكلمات من فم ميلم.. "الفرنواني يا عمدة.. الفرنواني.. كان غريب ومالوش حد يطلب حقه ولا يسامح اللي ظلمه.. هو اللي اداله.. فاكراه يا عمدة؟ الفرنواني.. دكان.. دوار.. وخمسين فدان.. وصفيحة مليانة ريالات وبرايض فضة.. الفرنواني يا ابن الحلواني.. خلصت خلاص.. حدوتة عدت على الزمان ملتوتة.. وتوتة توتة.. فاضل لك فتفوتة".. وينصرف ميلم بعد أن أفرغ طلقات مدفعه كلها في صدر صقر الذي أجمته المفاجأة.

ونعود إلى كلمات ميلم.. إنه الرواي الشعبي.. الرواي العليم حقا.. الرواي الذي يحكي لنا الحكاية وضمناها العديد من الحكايات.. ومع

اقتربنا من نهاية الحكاية يأتي الكشف.. ولكن أي كشف فيما قاله ميلم؟ من الفرنواني هذا؟ أهو والده؟ ربما نفهم ذلك من الحوار، ولكن ربما لا.. ربما أراد فقط أن يخبر العمدة بأنه العارف.. ولكن ما الذي يعرفه؟ من الفرنواني؟ وما علاقته بالعمدة؟ ولماذا نزلت كلمات ميلم على صقر كالصاعقة؟ كلها أسئلة نبحث لها عن رد، ولكننا على يقين الآن أن الرد قريب، ف"الحدوتة فاضل لها فتوتة".

وللحظة يفقد العمدة إحساسه بالمكان.. يسأله عزب: هل نتركه وهو يعلم مكان الحسيني؟ وفيق صقر.. يصرخ فيهم بأن يحضروه.. ويحضروا معه الحسيني ومروان وحورية والعفي والحناوي.. الكل.. كل من يعرف لا بد أن يأتي.. لم يعد ينفع إلا أن يسكت الكل. وهنا تدوي الزغاريد في القرية.. أهى أصوات المحتفلين بالمولد، أم أن حدثا آخر في الطريق؟ يؤكد عزب أنها أصوات "الموالدية"، ولكن العمدة يوبخه: "عقلك مقفول زي ودانك".. لم تكن أصوات المحتفلين بالمولد إذن.. هناك احتفال آخر!

وتظهر حورية.. لقد عاد شباب القرية.. لم يكن الاحتفال إلا بالعودة.. عادوا كما عاد الحسيني من قبل.. وتوجه حورية سهام نظراتها لصقر.. لم يكن قد استعاد قدرته بعد المواجهة العاصفة مع ميلم.. يتماسك أمامها أو يحاول ذلك.. ولكنه يفضل الانسحاب طالبا من عزب أن يعيده إلى "المنزل".. أصبح صقر يفر من المواجهة.. أصبح الضعيف وهم الأقوياء.. ويقترح عليه عزب أن يلقي القبض عليهم ليعرف أين كانوا، ويرفض العمدة طالبا منه أن يساعده على العودة إلى مقر حكمه.. لقد عرف العمدة ما لم يعرفه ذئبه الذي لم يصلح ثعبانا.. عرف الخطة كلها.

وتستوقفه حورية ملقية عليه التحية.. يسألها: لماذا عادت؟ لم يعد يريد لها.. فتزد: "ولا عايز الحسيني؟"، فيجيب: "ولا الحسيني؟".. وتكمل: "ولا مروان".. ولا يتحمل الإجابة فيطلب من ذئبه مساعدته

على العودة.. كان منذ قليل يريد الجميع والآن لا يريد حورية ولا الحسيني.. لم يعد صقر يعرف ماذا يريد.

ويأتي الخبر متأخرا من أحد الخفر.. لقد وجدوا الحسيني.. وجدوه بعد أن أصبح العمدة لا يريده.. وترد حورية بأن الحسيني لم يكن هاربا.. لم يكن خائفا.. الحسيني وسط أهله وناسه في الساحة أمام المسجد.. مع مروان.. المسجد؟ ألهذا علاقة بزيارة مروان إلى وهبة؟ أكان هناك؟ حتى من كان يرى الصمت أفضل الإيمان تحرك؟ الكل تغير إذن.. المعرفة تغير الكل.. والبحث عن الحق يكشف الحقيقة.

وأمام الهجوم الضاري من حورية وقبلها ميلم ينسحب العمدة.. يعود إلى عرينه مهزوما وأمام الجميع.. في ساحة القرية هزمه ميلم الضعيف وأكملت عليه حورية.. يعود إلى ثعلبه الدمرداش.. يعطيه أوامره.. لا بد أن يرحل الكل ويتركوا القرية.. ويرد الدمرداش بأنهم لو كانوا يريدون الرحيل لرحلوا من البداية.. ويعود صقر لحالة الجنون.. يتساءل عما يريدونه.. إنه لا يستطيع أن يعيد لهم أخاه.. ويطلب من الدمرداش أن يذهب إليهم ويتكلم معهم ويقنعهم بأنهم يطلبون المستحيل.. ولكن الدمرداش لا يستجيب.. يتهرب من ولي نعمته.. يبحث عن حجة.. يمكنه أن يذهب ولكنهم لن يسمعوه فهو ظل العمدة في نظرهم، وسيدوسون على الظل بلا تفكير.

ومن جديد يطلب منه العمدة أن يتحرك.. أن يفعل شيئا.. إذا تحرك هو فلن يكون أمامه إلا خطوة واحدة، وإذا أخذها فسيكون معها بحور دم لا تنتهي.. ما زال صقر يهدد ويتوعد.. ووسط التهديد يأتي بالكلمة التي أثارت أسئلتنا في حوار.. كلمة السر التي انطلقت.. "الفرنواني".. لم يكن "مقطوع من شجرة" كما قال له الدمرداش منذ أكثر من عشرين عاما.. وتهبط الكلمة على الدمرداش فتصعقه.. لماذا يكون رد الفعل دوما هكذا عند ذكر هذا الاسم؟ ويكمل صقر: كانت هناك عين أخرى تتبع الفرنواني هذا غير أعينهم.. كانت عين

ميلم.. وَضَعُ ميلم على الحسيني على حورية على الأوراق على كبار البلد على شباب الحلوانية الذين نموا دون أن يشعر ليحدهم أمامه فجأة ودون سابق إنذار.. كلهم تكتلوا عليه وعلى من معه.. أصبحوا جميعا ربطة واحدة لا يمكن فكها، ولكن يمكن حرقها.. ويسرع الدمرداش: "نحرقها يا سيدنا".. ولكن العمدة يتساءل: ألا يكفي ما فعلوه من حرائق؟ ويضغط الدمرداش.. إنه الحريق الأخير ومن بعده راحة.. ولكن درية تتدخل.. تطلب منه ألا يورط العمدة أكثر من ذلك. ولكنه يكمل.. إنها الفرصة الأخيرة فهم لا يعلمون ماذا سيحدث غدا.. ويرد صقر طالبا منه أن يذهب إليهم.. إنها المحاولة الأخيرة قبل أن يحرق الجميع.. يصبح الخيار واضحا.. الرحيل أو الحريق.

ويطلب العمدة منه أن يصطحب معه الخفر، ولكن الدمرداش يرفض مؤكدا أن لعبة من سيذهب إليهم غير لعبته هو والعمدة.. هنا يكشف لنا عكاشة براعة عن ما يدور في رأس من يجلس على مقاعد السلطة الغاشمة.. إنهم يعرفون جيدا أنهم يارسون كل أنواع الخسة.. يبررون ويكذبون ويصدقون أنفسهم، لكنهم في النهاية يعرفون مدى حقارتهم، ومدى نبيل خصومهم.. يعرفون أن الحق بعيد عنهم.. أن الحق في يد أصحاب الحق.. ولم يكونوا أصحاب الحق يوما.

ويرتجف العمدة.. يرتجف بشدة.. يطلب من درية مساعدته.. لقد ارتفعت حرارته.. لقد دخل في المعركة وراء الأخرى ولم يجد وقتا للراحة.. وتحاول درية مساعدته فيرفض ويطلب منها أن تذهب للنوم، ثم يعود ليطلب منها أن تسهر معه ليلته.. ربما تكون الليلة الأخيرة.. لا يريد لأحد أن ينام.. لقد صام عن كل شيء.. عن الأكل والشرب والنوم.. جسده لم يعد في حاجة إلى كل ذلك.. يشعر بأن النار تشتعل في جسده.. يسأل درية أتملك ما يطفئ ناره؟ وينتهي المشهد.

حرب نارية خاضها العمدة منذ بداية حلقتنا.. معركة وراء معركة

يدفعه إليها عكاشة.. عشر دقائق كاملة تقريبا بطلها الأوحده هو العمدة.. مواجهة مع ميلم تلتها مواجهة مع حورية، ثم محاولة داخل أروقة السلطة مع الدمرداش.. لم يتحمل كل ذلك، وها هي النار في النهاية تشتعل فيه، فهل تنطفئ ناره؟ لا يطفئها إلا أن تشتعل نار الآخرين، أو أن يرحلوا.. هذا هو الخيار الذي ذهب به الدمرداش إليهم.. إنها المفاوضات.. عندما تشعر السلطة بأنها قد اقتربت من السقوط تبدأ في إرسال مفاوضاتها إلى ممثلي الثورة.. ولكن هل يقبل ممثلوها لغة التفاوض بديلا عن الحق؟ إن قبلوها فقد ضاعت الثورة، وإن رفضوها استمرت وتوهجت، فماذا سيكون خيارهم؟

ويرفض الثائرون المفاوضات.. يتمسكون بثورتهم.. لم ينسَ الكل حقه وثاره.. لن يفرطوا في حق الحلوانية وأهلها.. لن يفرطوا في حق صادق الحلواني، ولا الفرنواني ولا أم مروان، ولا القرية كلها التي تحولت إلى رماد.. يبعث العفي المتحدث الرسمي للثورة برسالتهم إلى صقر.. لقد انتهى وقت التفاوض.. مر الوقت وأن وقت سداد الدين..

ويرد الدمرداش على الرسالة بالتحذير والتهديد والوعيد.. العمدة لا يخاف.. لم يرسله إلى تفاوض.. أرسله ليلبغهم بأن من يخاف على أهله وناسه فعليه الرحيل.. الرحيل قبل صباح الغد.. يبلغ الرسالة ويهم بالانصراف، ولكن لسان الثورة يستوقفه.. ما زال عندهم رد.. إنهم من يحذرون عمدته.. الشمس التي ستشرق غدا على الحلوانية لن تغيب والكل على أرضها.. إما أن يكون هو أو يكونوا هم.

وأمام كلمات العفي لا يجد الدمرداش إلا أن ينادي على الشيخ وهبة ليسمعهم كلماته.. ماذا سيقول الشيخ؟ هل يعود لأضعف الإيمان، أم يقولها بعد طول انتظار؟ يقولها.. يعلنها أخيرا.. كان هو من أخفى الحسيني في بيت الله يوم الحريق.. حماه ودافع عنه طوال هذه الفترة.. هو من فعل ذلك، ولكن هذا آخر ما يستطيع.. وهل سنطلب منه المزيد؟ إنه من حمى راية الثورة وشرارتها.. هو من أبقاها مشتعلة

حتى هذه اللحظة.. كيفيك هذا أيها الشيخ.. ولكنه يضيف إليها قوله إن الله هو المنتقم العادل.

ويلتقطها الثعلب.. الله هو المنتقم، ولا أحد غيره.. ولكن الرد يأتي من الكل.. إنهم لا يريدون انتقاما.. يريدون العدل وقد أمر به الله.. العين بالعين والسن بالسن. ولا يجد شيخ البلد إلا الانصراف.. لقد فشلت المفاوضات.. وظلت الثورة في طريقها.

ويتوجه الحسيني إلى مروان، طالبا منه ألا يشترك معهم فيما سيحدث في الغد.. إنه يشفق عليه من المواجهة مع أبيه.. لم ير الحسيني ما طرأ من تغيير على مروان.. لا يعرف أنه لم يعد كما كان.. ويطمئنه مروان: "ما تخافش علي يا حسيني".

وننتقل إلى رشاد وحرورية.. يتحدث رشاد هاتفيا مع الضابط.. يؤكد له أن خطتهم تسير على ما يرام، ولكن القرية تنام على احتمالات لا حد لها.. يطلب منهم أن يكونوا قريبين دوما للتدخل في الوقت المناسب.. وتسأل حرورية عن العمدة سسبان.. وينهي رشاد المكالمة، ليؤكد لها أنها ستأتي في الغد.. ستكون آخر العائدين.. كانت هناك في صحبة الشرطة.. ويكمل رشاد: "الحكاية كلها تنتهي بكرة".. إحالة جديدة إلى كلمات ميلم وبشارته.. الكل يعرف الآن أن النهاية غدا.. ولكن كيف؟ لا أحد يدري.

ويدخل الخناوي المشهد ليطلب من رشاد أن يعيد شباب القرية الغاضبين من "الجرن" ميدان الثورة حيث اجتمعوا هناك والغضب يملأ كل جزء فيهم.. ويندهش رشاد من طلب والده.. كيف هذا؟ إنهم يريدون لهم الاستمرار حتى يكونوا الوقود الذي يحرك أهلهم.. ولكن الخناوي ما زال يشعر بالخوف.. يخاف ألا ينتظر صقر للغد، وأن يطيح بالقرية كلها.. ويطمئنه رشاد، مؤكدا أنه سيذهب إليهم ليكون معهم، وتطلب منه حرورية الذهاب معه، ولكن الخناوي

يستوقفها.. ينقل لها خوفه.. إنه يخاف من الغد.. تطمئنه حورية، فلن يستطيع أحد أن يمسه.. ولكن هل يخاف الحناوي على نفسه؟ ينفي ذلك بالطبع.. إنها الليلة الكبيرة.. سيختلط فيها الحابل بالنابل.. لقد ضيق الخناق على صقر وأصبح ظهره للحائط.. لن يقيم وزنا لشيء أمام رغبته في الدفاع عن نفسه.. رغم ذلك فإن الرجال يستطيعون الوقوف له وتحمل كل ما سيفعله، ولكن ماذا عن النساء؟ إن هذا هو سبب خوف الحناوي.. إنه يخاف على نساء القرية وبناتها.. يطلب من حورية أن تأخذ بنات القرية ونساءها بعيدا عن الحلوانية حتى تنتهي الأزمة ويعود الأمن لها.. ولكن هل تقبل حورية بذلك؟ هل تنسى أن أول مسيرة قام بها النساء؟ هل تنسى أنها من أشعلت فتيلها؟ هل تنسى أن الظلم لم يفرق بين رجل وامرأة؟ هل تنسى وطنية التي انتهكت وانتهك معها نساء القرية كلهن؟ مثل حورية لا تنسى ذلك.. لن تقبل أن تترك المعركة.. ولن تقبل أي امرأة في الحلوانية أن تفر من الميدان تاركة زوجها أو ابنها أو أخاها. ويعرب الحناوي عن أمنياته.. يتمنى أن تمر الأزمة دون أن تتكلف الحلوانية نقطة دماء جديدة.. يريد أن يحفظ دماء الكل.. وتسأله حورية: "الكل؟" وتأتيها الإجابة: "الكل يا حورية".. هنا تقول حورية إنه إذن يفكر فيما تفكر فيه ويفكر فيه مروان.. وما هذا الذي يفكرون فيه؟ لا نعلم بالطبع، ولن نخبرنا به عكاشة.. ليست اللعبة بجديدة علينا.

ونذهب مع حورية إلى مروان.. تقنعه بالذهاب معها.. إلى أين؟ لا نعلم.. يسألها إن كانت ما زالت محتفظة بالأمل.. لا يزيد أملها عن نقطة نور مرتعشة وسط ظلام محيط.. تخاف من الندم.. تخاف أن تلوم نفسها لو لم تذهب إليها.. أمل ضعيف نعم لكن لا بد من المحاولة.. والمحاولة هي الانطلاق لنقطة النور، فإما أن تتسع وتكبر، أو تنطفئ فلا يندم الجميع على تفويت الفرصة.. وينطلقان.. لا نعرف إلى أين.. ولكننا نستنتج.. ربما تكون المحاولة الأخيرة مع العمدة.

ويتأكد الاستنتاج.. يدخل الحبيبان على صقر.. لا يصدق ما يراه..
يستقبلها بأمله الزائف.. أمل في مواجهة أمل.. أملها الذي يحملانه في
مقابل أمله في عودتهما إلى ما كانا عليه. يستقبلها بلهفة المتمسك بهذا
الأمل.. هل عاد إليهما العقل؟ ويدور الحوار:

- "حورية: أنا ومروان جاين نترجاك.. جاين نحب على إيديك..

- العمدة: مساحكم.. مساحكم يا حورية خلاص..

- حورية: احنا مش جاين لك عشان تسامحنا.. احنا ماعملناش
ذنب.. ولا دسنا لكش على طرف.. احنا جاين نترجاك تمشي..

- العمدة: إيه؟ أمشي؟

- مروان: أرض الله واسعة يابا.. ماضاقتش عليك وعلينا هنا.. إنت
حداك أطيان في نواحي تانية كتير.. ابنى لك في وسطها دار وزريبة
واصطبل.. وخذ مالك وعيش هناك.

- حورية: الي انت ناوي عليه بكرة مش هيخفف حملك..
ومش هيرحك.. حتى لو طحت فينا وفي أهل الحلوانية.. وبالفرض
خلصت مننا.. هيفضل لك مين؟ المزين والقهوجي والسمسار؟
حتى دول مش هتلاقيهم حواليك.. لأن دول مايعمروش خراب..
كل الي هيفضل لك يا آبا صقر بوم معشش في دارك.. وعينين
كارهاك ومتربصة لك.. وهم أد الي شاله ضميرك ألف مرة.. مش
هتقدر تشيله.. ولا تنام وهو معاك.. مش هتشوف فيه غير عتمة
ورا عتمة.. وليل غرقان في ليل.. الزاد على لسانك هيبقى علقم..
وفرشتك هتبقى شوك.. والحلوانية هتبقى سجنك.. الناس خلاص
يا آبا صقر.. مش عايزينك.. الحب والهبة والصبر اتحرقوا مع بيوت
البلد.. والكل مستنيك عشان يحاسبوك.. والحساب وراه جزا.. جزا
خافين عليك منه.. وجاين نقول لك اهرب.. الناس مش عايزين
غير أرضهم.. وحريتهم.. حريتهم الي مش هيقدرُوا يطولوها طول

ما إنت معاهم.. عايزين يخلصوا من ضلك الي مغيم عليهم وكابس
على صدورهم.. ما حدش طالب تار ولا انتقام.. حتى أنا وأخويا..
مساحينك في دم أبونا.. كل الي طالينه منك ماتفضلش قدامنا تفكرنا
بيه.. ارحل يا آبا صقر.. باقولها لك.. عشان لسه جوايا حنية مش
قادرة أنساها.. ودم في عروقي زي الدم الي في عروقك.. ارحل يا آبا
صقر..

- مروان: ارحل يا آبا.. ارحل وأنا مستعد أرحل معاك.. هانسى
الي عملته في أمي.. هانسى نصي الي اتحرق معاها.. وأعيش معاك
بالنص الي لسه بيحبك.. هانسى البلد الي مستيناني عشان أعوضها
عنك.. هانسى حورية.. وأنسى نفسي معاها.. وأعيش معاك طول
العمر ابنك وخدامك.. ارحل يا آبا وأنا أرحل معاك.

- العمدة: بكرة.. بكرة أول الشمس ما تطلع.. هيطلع عليكم
غفر.. يدوروا عليكم واحد واحد.. لو شافوا حد منكم هيقتلوه..
هيطخوه.. خدوا حباييكم والناس الي تهمكم وسيبوا الحلوانية..
سيبوا الحلوانية.. ده آخر حق عندي للدم والعشرة والحنية.. خلاص..
لا القلب حاكم ولا القلب دليل.. الوجع ورانا وقدامنا“.

يا له من مشهد وياه من حوار!! يا لها من مشاعر تحملها
الكلمات! بدأ المشهد بعدد من الجمل القصيرة من هنا وهناك..
ثم تنفرد حورية بالميدان من خلال مونولوج طويل.. رغم طوله
نجد فيه تكثيفا عاليا لكل المشاعر المختلطة التي تشعر بها.. نلمح
كذلك تلك اللغة الشعرية التي يتميز بها عكاشة.. ومن حورية
التي تخرج من جعبتها كل ما تستطيعه من دفع لصقر على الرحيل
يلتقط مروان الخيط.. مونولوج آخر فيه مشاعر الحب الكبيرة التي
يحملها الابن لأبيه.. تلك المشاعر التي تجمع له يقبل بنسيان كل شيء
والرحيل مع أبيه تاركا كل شيء خلفه. كلمات مروان كانت محملة
بكل ذلك.. جاءت كلماته مكملة لما قالته حورية.. يتكلمان بالصوت

ذاته وباللسان نفسه.. كلمات تليق بمحاولة أخيرة منهما للتمسك بذلك النور الخافت الذي كانت حورية تراه من بعيد، ولكن النور لم يتوهج. انطفأ بلا رجعة.

ينزل العمدة الميدان.. يهدد ويتوعد.. ينذر ويحذر.. لم تغير فيه الكلمات شيئاً.. ما زال على عناده.. لقد انتهى الأمر إذن.. أعلن عن نيته.. سيقتل الجميع.. إما الرحيل وإما القتل.. هذا ما ستنظره في الغد.. أصبحنا نعرف ما ينوي فعله، فلم يعد "العقل حاكم ولا القلب دليل".

ويعود الحبيبان الثائران.. لم ينجحا في المحاولة.. قرر صقر السير في طريقه إلى النهاية.. تقول حورية بأنها فعلا ما عليهما.. أعطياه الفرصة.. ويرد مروان بأن الفرصة لا يستغلها إلا من يريد الهروب.. وصقر لا يعرف الهروب.. يكمل طريقه حتى لو عرف أن مصيره في نهايته.. وتظهر حورية إشفاقها على مروان.. تكرر ما قاله الحسيني.. "بلاش إنت يا مروان".. ولكن مروان يتفض.. يقول ما قلناه رداً على الحسيني.. لم يعد مروان كما كان.. تغير مروان منذ زمن.. لم يعد ذلك الهارب من النظر إلى عيني العمدة.. لم يعد ظل أبيه الذي لا يفارقه.

وتؤكد حورية معرفتها بأنه تغير، لكن ما سيحدث في الغد لن يكون كلمة حق تقال وينتهي الأمر.. الغد محمل بأخطار كثيرة.. يعرف مروان ذلك جيداً يا حورية، ولكن لم يعد هناك بديل.. وتذكره حورية بأن العمدة أبوه، ولكن مروان يقولها واضحة.. لو فكر في أنه أبوه فسيقف إلى جواره.. لا تفكير الآن إلا في الحق.. ولا تتوقف حورية.. ترى أنه قام بدوره ولكن ليس مطلوباً منه أن يلف الحبل على رقبة أبيه حتى ولو كان ذلك ثأراً لأمه.. ويتفض مروان.. إنه لا يريد انتقاماً ولا ثأراً.. إنه يساعد أباه.. يمد له يده لكي يتخطى ما هو فيه.. لمحها في عينيه.. رآها واضحة "بأيديك إنت يا مروان مش بأيدين غيرك".

ويوضح لنا عكاشة أسباب التغير الذي حل على مروان.. وكشف كذلك عن ذلك الشيء الذي ينتظره صقر منه طالبا أن يكون بيده هو لا بيد غيره.. يكشفها على لسانه هو.. لقد عرف الكثير في الفترة الماضية.. عرف أكثر مما يعرفه الجميع.. عرف أكثر مما يعرف الحسيني وحورية.. وقد علم أبوه أنه عرف.. لذلك طلبها منه هو.. إنها رصاصة الرحمة، فقد سقط الفرس.. كل ما يستطيعه أن يبحث عن أحب الناس إليه ويطلب منه الخلاص. ووتر كنا عكاشة للحيرة مع نهاية مشهده.. نتساءل: ماذا سيفعل مروان؟

ويذهب بنا عكاشة إلى درية.. إنها مع الخضري.. وهل لها غيره في الحلوانية وهو من أتى بها إليها، وعرفها بالعمدة لتوقعه في شباكها؟ كان الخضري يتجسس لصالحها على ما دار بين العمدة ومروان وحورية.. يجربها بما وصل إليه العمدة.. لم يقبل بترك الحلوانية.. يطلب منها أن تتدخل هي، وأن تحاول معه، ولكنها تؤكد أن هذا سيكون بلا فائدة.. لم يعد صقر يسمع أحدا.. إنها تشعر بالرعب كلما نظرت إليه.. ليس أمامها إلا حل واحد.. لا تنتظر الحل فعكاشة لن يقدمه لك على لسانها.. سيترك تفكر فيه، وأنت ترى الخضري يجمع كل ما لديه استعدادا للرحيل.. أهذا هو الحل الذي تقصده درية؟ أترك الحلوانية مع من أتى بها إليها؟ أترك زوجها في أزمتة؟ يبدو أن ذلك هو الخيار الذي اختارته. يالها من مفارقة.. إنها المفارقة التي هي لب الدراما.. لن تنسى وأنت ترى هذا المشهد أن تتذكر ذلك المشهد الذي ضم حورية والحناوي.. كان يكلمها عن خوفه عن بنات القرية ونسائها.. اقترح أن تترك النساء القرية حين انتهاء الأزمة.. رفضت حورية وقتها، فساء القرية لا يترك رجاءهن وقت الشدة، أما درية التي هبطت على القرية من بوابة الخضري فتفعلها.. تفعلها لتترك زوجها وحيدا.

ويحاول فتيحة أن يقنع الخضري بعدم ترك القرية.. أن ينتظر

حتى يرى من سينتصر في المعركة، ووقتها سيطلبون ويرقصون له.. سيخدمون السيد مهما كان.. ولكن الخصري كان قد أخذ القرار.. إنه يختلف عن فتيحة الحلاق.. لا يملك فتيحة رأس المال الذي يخاف عليه، أما هو فبجارته رأس ماله، ولا بد أن يحميه من شر ما يمكن أن يحدث.. ”ها هم الجبناء يفرون نحو السفينة“^{٨٢}.

ولا ينسى عكاشة شخصياته كعاداته.. ينتقل بنا إلى حشاد بصحبة سيده القديم السنباطي العائد من بعيد بعد إصابته.. يسأله السنباطي عن الفترة التي سيتنظرها في هذا المكان الذي لا نعرفه.. يحببه بأن عليهما الانتظار حتى الفجر، وبعدها يقول له إلى أين سيتجهان.. ويسخر السنباطي مما يقول حشاد.. أجد الأوان الذي يحركه فيه حشاد؟ ويكشف لنا عكاشة المعلومات على لسان السنباطي.. لقد سافر حشاد إلى البندر متجها إلى السنباطي، قائلًا إنه جاء إليه من أجل الجميل الذي يحفظه.. جاء ليسد إليه الدين.. رغم ذلك فإن السنباطي لا يصدق.. يشعر بالقلق منه.. وأمام هذا يكشف حشاد عن مراده.. في مساء الغد لن يكون هناك عمدة للحوانية.. لقد وقع صقر في الفخ بين أهل القرية من ناحية والشرطة من ناحية أخرى.. لن يكون هناك صقر، ولن يصلح مروان، ولا قيمة للدمرداش، ولن تجد القرية إلا رجلا في قوة السنباطي يخافه الجميع ووقتها عليه أن يعينه شيخ خفره.. إنها الصفقة التي يدخلها حشاد مع السنباطي.. فهل تتم الصفقة؟ يوافق السنباطي، ولكن هل تتم؟

ويتركنا عكاشة للسؤال: أهذا امتداد لخسة حشاد التي عرفناها عنه، أم أن شيئا آخر في الأمر؟ سيكون ذلك امتدادا لخطة المباحث التي وضعتها وأوقعت من خلالها بين السنباطي وعمدته، أم يكون امتدادا لخطة مروان، ويكون اشتراك حشاد فيها تكفيرا عما فعله معه سابقا؟ لا تتعب نفسك.. إجابة مثل هذا السؤال تستدعي منك الانتظار.

٨٢ أمل دنقل. مقابلة خاصة مع ابن نوح.

ولأن عكاشة جعلنا نفكر في خطة المباحث، فقد كان هذا بمثابة استدعاء لهم.. المشهد التالي يضم الضباطين.. لقد أقنع أحدهما سسبان بأن تعطيهم الأوراق.. اشترطت أن يعيدوها إليها لترد الأمانة إلى الحسيني، ولكن الأوراق هناك.. في الحلوانية.. لا بد أن يعودوا إذن للحصول عليها.. يجمع عكاشة الكل داخل الحلوانية.. ميدان المعركة.. يجمعهم جميعا في ليلة الحسم.

ومن المركز إلى مقر الحكم بالحلوانية.. حشاد في حضرة صقر.. يتساءل العمدة: أيريد السنباطي الاستيلاء على كرسي العرش؟ يؤكد ذلك حشاد مشيرا إلى أن الشرطة وعدته بذلك.. إنه يلعب على الوجهين.. ما هذا؟ ربما نحن أقرب إلى مخطط الشرطة.. الواقعة بين القطبين.. ربما يكون هذا ولكن عكاشة يحيطه بغموض ألفناه وعرفناه خصيصه من خصائصه.

ويسأل الدمرداش عن مكان السنباطي الآن، فيجيبه حشاد بأن السنباطي خارج القرية مع قوة من الشرطة تستعد لدخولها عندما يبدأ الخفر مع بزوغ الفجر في الهجوم على أهل القرية.. وقتها سيدخلون إلى القرية لحماية أهلها وسيكون هو في صحبتهم ليظهر بطلا في عيون أهل القرية جميعا. وينادر حشاد المكان، ليأمر صقر شيخ البلد بتكليف عزب بإرسال أحد الخفر وراء حشاد ليعرف وجهته.. مثل صقر يشك في الكل، وعلى رأسهم من يلعب على كل الحبال.. إنه لا يشعر بالأمان أبدا.. لم يعد هناك وقت لأمان ولا حتى الحذر، فكل ما يفعله الآن مكتوب عليه أن يفعله.. كتب عليه منذ زمن بعيد.. هكذا يؤكد لدربة التي تحذره من أن يأمن لأحد.. لم تغادر درية إذن. هل تسرعنا في اتهامها؟ ربما.. ربما لم يأت الوقت بعد.. لا نملك إلا نتظر ما سيقوله عكاشة!

ومن مقر الحكم إلى بيت صادق أو أطلاله.. إلى صورته المعلقة على الجدار.. تمتد يد سسبان إليها لتخرج منها الأوراق وتسلمها

للضابط.. كانت الأوراق بصحبة صادق إذن.. حفظتها سسبان طول الوقت مع من تركها لهم.. داخل صورته وداخل بيته.. وتصل حورية إلى عمتها.. تعرف بأنها قد أعطت الأوراق إلى الشرطة.. فعلتها يا حورية.. فعلتها من أجل أمل في اجتناب ما يمكن أن يحدث.. كان خوفها دافعا للصمت، والآن أصبح دافعا لأن تتكلم.

وتتساءل حورية عن سبب صمتها طوال هذه السنوات.. كيف صمتت عن دم أخيها؟ كيف ارتضت أن تقف مع القاتل؟ ولكن سسبان تنفي ذلك.. لم تفعل ذلك قط.. كيف هذا؟ القاتل مختلف يا حورية.. القاتل هو السنباطي.. ولكن أكان السنباطي هو القاتل بالفعل يا سسبان؟ إنه اليد التي نفذت.. لكنك تعرفين من القاتل الحقيقي.. إنه من أمر.

وتلقي سسبان التهمة كاملة على السنباطي.. لم يكن صقر كما هو الآن قبل أن يعرفه.. كان يحب أخاه.. لكن الشيطان السنباطي وسوس له.. هو من أوقعه في الغواية.. إنه القاتل الحقيقي.. وترد حورية.. إن العمة تكذب على نفسها.. هل تستطيع أن تقول ذلك لأخيها في دار الحق؟ وتسكت سسبان.. كانت هذه هي المحاولة الأخيرة منها لمنع الخطر القادم.

ومن سسبان نذهب لمروان.. يقدم لنا عكاشة حوارا يكشف عن مخاطر السلطة.. تعلن له حورية عن مخاوفها من أن يصمم الناس على أن يكون العمدة.. ويشاركها هو الشعور نفسه.. يخاف من إغراء المنصب والجاه.. الكرسي يغري من يجلس عليه.. تتخيل أن بإمكانك الاستغناء عنه وقتما تريد، ومع مرور الوقت يتملك منك ويستعبدك.. تصبح أسيرا له.

ومن جديد تؤكد حورية رغبتها في ألا يكون العمدة.. لا تريد لابتسامته أن تحتفي من على وجهه.. ما كانت تكرهه فيه في الماضي

كان أحسن ما فيه.. كان ذلك الفارس الباسم الحالم الآتي من عالم
الحواديت. ما كانت تراه ضعفا وقلّة حيلة تراه الآن سباحة وقلبا
نقيا طاهرا تريده أن يظل هكذا. ويرد مروان بأنه يخاف من الضغط
عليه.. يخاف ألا يستطيع الرفض.. ولهذا يفكر في ترك الحلوانية..
يتركانها لبنينا بيتا خارجها يزرع أرضا ويكون فلاحا.. عاد مروان
لأحلامه القديمة.. لا يرى أمامه سوى هذا الاختيار فلن ينسى أنه
ابن صقر الذي أشعل النار فيها.

لقد عبر لنا عكاشة خلال هذا المشهد عن ذلك الداء الذي يصيب
كل من يجلس على كرسي السلطة.. إنها الحكاية التي تتكرر عن ذلك
الذي دعي إلى السلطة فاستجاب.. ومع السير في الطريق يكشف أنه
أصبح متجها إلى مسار آخر.. وتزيد المدة، ومع زيادتها يزداد التعلق
بالكرسي.. ساعته لن يستطيع تركه.. إنها القصة التي تعودها العالم
وألّفها.

ويحترق ميلم المشهد.. يردد أشعاره: ”بريزة فضة للحلوانية.. حل
كيسك تبني بلدك.. ابني بلدك تملا كيسك.. بريزة على بريزة فوق
بريزة تعلل دارك.. تبقى مدنة.. نورها يضوي.. صوتها يعلا.. وحده
ربك.. هو سيدها“.. حيرتنا معك يا ميلم.. أمجذوب أنت أم شاعر
أم عراف أم نائر؟ ولم لا يكون كل هذا؟ إنه ميلم المجدوب الشاعر
العراف النائر.

ويخبرهما العراف بأن الجميع في انتظارهما وأن الحسيني يبحث عنهما..
وننتقل سريعا إلى الساحة حيث يجتمع أهل القرية.. تعلن حورية
للـكل أنها وأخاها قد ساحا في الدم.. لن يبحثا عن ثأر أو دم.. لن
يمسك أحد سلاحا في الغد.. لن يمسكوا حتى العصا في أيديهم..
تضع القائدة شروط الثورة.. تنبه على الكل أن ثورتها لا بد أن تكون
”سلمية.. سلمية“.. ويتساءل عمر عن كيفية ذلك.. إن بإمكانية الخفر
الانقضاء عليهم جميعا، ولكن رشاد يطمئنه فالشرطة ستكون قريبة

وستحميمهم.. كما أنهم لن يسيروا في مظاهرة ليهتفوا فيها.. الخطة واضحة.. سينطلق كل واحد من أهل القرية ناحية أرضه.. سيضع يده عليها ليزرعها.. وفي الوقت ذاته سينطلق الوفد الذي يضم كبار البلد إلى مقر الحكم، وكل واحد منهم يعرف دوره الذي سيقوم به.. كانت هذه هي الخطة التي وضعت من أجل إتمام الثورة وإنجاحها.. ووسط التخطيط لليوم الأخير يسقط الحسيني.. الآلام تهاجمه.. يقول إنه يريد أن ينام.. يسأله مروان عن الدواء فيؤكد عدم حاجته إليه.. إنه الإرهاق فقط.. سينام الآن وسيكون بخير عندما يستيقظ.. ويتتهي المشهد.. أتكون هذه إرهاصات نهاية الرحلة.. أأدى الحسيني دوره إلى هذا الحد؟ أ جاءت لحظة النهاية التي انتظرها طويلا بعد أن حقق هدفه وأشعل الثورة؟

ومن الثورة إلى الشرطة والمباحث.. إلى الدليل الذي سلمته سسبان إليهم.. يطالع الضابطان الأوراق.. يصلان إلى كل ما حدث.. يعرفان الدافع للقتل.. إنها الأرض التي فرض عليها صقر الحراسة طوال الوقت رافضا مبدأ البيع، وهو البائع الأول.. كان هذا سبب الجريمة وكان هذا سبب رغبته في إخفاء الأوراق.. ومن خلال الأوراق تظهر الجريمة الأخرى.. الرجل الذي اشترى الأرض من صقر، ثم اختفى، أو قتل.. إنه الفرنواني.. كلمة السر التي لم نعرفها جيدا حتى الآن.

ونعود إلى العمدة.. المشهد يضمه والدمرداش.. يطلب منه الدمرداش أن يضع التوكيلات في مكان أمين، ولكن العمدة يوضح له أن التوكيلات لم يعد لها قيمة بعد أن تجرأ أهل القرية عليه.. باستطاعتهم جميعا أن يقوموا بإلغائها، ولهذا لا بد أن يعود الكل إلى الخضوع.. لا بد أن يجبروا على السكوت كما كانوا.. ويخرج العمدة عقودا ويعطيها إلى شيخ البلد.. لا بد أن يوقع الكل على عقود بيع الأرض.. ويتساءل الدمرداش: من سيوافق على ذلك؟ وتأتي الإجابة صارمة: الكل. لقد توحش صقر.. لم يعد يرى شيئا إلا الطريق الذي

يسير فيه.. ها هو يخطط لإجبار الكل على البيع.. يخطط لأن يكون مالك الحلوانية كلها.

ويقطع الخفير كلام العمدة وشيخ البلد.. يدفع درية أمامه محملة بحقائبها.. يخبر العمدة بما حدث.. لقد طلبت منه تحضير السيارة.. رأى الخضري يضع فيها حاجياته.. نزلت بحقائبها دون المرور على العمدة.. كان يجب عليه أن يأتي بها ليسأل العمدة. ها هي درية تفعلها.. لم نعلمها ولم نتسرع في قراءة المشهد.. كانت تختار الوقت المناسب لتفر مع الفارين في السفينة.

ويعنف العمدة خفيه حفاظا على هيبة زوجته أمامه، فيعذر الخفير وينسحب، وينسحب وراءه الدمرداش.. وينفرد العمدة بحاملة اسمه.. لماذا لم تطلبها منه؟ وترد بطلب الصفح والغفران.. لكن العمدة لا يعرف صفحا ولا غفرانا.. وكيف يسامحها وعلى أي شيء.. أيسامحها على هروبها أم على هروبها مع الخضري تحديدا؟ لقد حنت لأصلها ولعملها القديم.. كيف يغفر صقر لها ذلك؟ تحاول الدفاع عن نفسها.. إنها لا تعرف غيره في القرية كلها، فلم تجد من يساعدها غيره.. ويرد العمدة: ألا تعرفه هو؟ لماذا لم تطلبها منه؟ كان سيركها تذهب لتعيش في بيتها بالبندر معززة مكرمة.. إنها الخسة يا صقر.. لقد باعتك كما سيبيعك الكل.. قالتها حورية له.. مثل هؤلاء لا يعمرن خرابا.. لن يبقى إلا البوم ليعشش في داره. وقالتها أيضا للحناوي: المرأة التي لا تصون رجلها لا تستحق شيئا.

ومن جديد تطلب درية الصفح.. لن تسافر.. ستبقى معه.. لكن الفرمان يصدر.. سترحل درية.. سترحل مع الخضري من حيث أتت.. لن تكون زوجته بعد الآن.. وسترحل كما أتت.. لا ذهب ولا أموال ولا شيء.. كل شيء ستركه وترحل.. ومع رحيلها ستأخذ فقط يمين طلاقها.. ولم ينته الفرمان عند ذلك.. سيتضمن الفرمان أيوب الخضري.. سيرحل هو الآخر كما أتى الحلوانية.. لن يأخذ شيئا معه..

إنه العقاب الفوري من صقر، ولكن هل يرى ماذا يحدث له؟ لقد بدأت الجوقة في الانفضاض من حوله.. ولكن ما الذي يهم العمدة من ذلك؟ هو لا يرى إلا نهاية الطريق وسيمشي فيه إلى النهاية.

وينضم إلى الجبناء الفارين نحو السفينة عضو جديد.. إنه الدمرداش.. يجمع أمواله ويلفها حول وسطه.. يتخفى محاولا الخروج من القرية.. ولكن مروان كان في انتظاره.. يسأله إلى أين الذهاب.. أيترك عمدته في محتته ويهرب؟ وكعاداته يحاول الثعلب الهروب من المأزق.. إنه ينفذ وصيته ووصية حورية للعمدة.. سيرحل تاركا الحلوانية لهم.. ويمنعه مروان.. ولكن الخسيس يعرض أن يفدي نفسه ويقدم المقابل.. والمقابل كل أسرار العمدة التي لا يعرفها أحد.. يا خسة هذا الرجل! كلهم مصابون بداء الخسة.. كلهم سيتركون الوطن وقت الطوفان ويرحلون.

وبأتي فجر يوم الخلاص.. يوم المولد.. يوم مولد الحلوانية المنتظر.. ويستعد الجميع للخروج.. الحناوي يوصي ابنه بصباح.. صباح التي تبكي قلعا وخوفا.. يطمننها رشاد.. ويؤكد الحناوي أن غدا سيكون يوما مختلفا فلن يستطيع أحد الوقوف أمام الحلوانية بعد اليوم.. وبا للغربة.. يطلب منه الحناوي أن يبيع أرضه، فرشاد لن يكون يوما فلاحا.. ولكن الشرط ألا يبيعها لغريب.. لا بد أن تبقى الحلوانية ملك أهلها وناسها.. لا تفريط في أرض ولا عرض.. أما نصيب أخته فعليه أن يصونه.. ويظهر العفي وشاهين.. يأتيان لاصطحاب صديقهما الحناوي وتبدأ خطة الخلاص.

ومع الفجر يستيقظ الحسيني من نومه، وبجواره حورية وسسبان.. لم تعرفا طعم النوم.. كانتا ساهرتين إلى جواره.. يحاول الجلوس.. سيقوم للوضوء ثم صلاة الفجر في المسجد.. ويقوم الحسيني تاركا القلق يعشش في قلب حورية وسسبان.. يلتفت إليهما قبل الذهاب مؤكدا عودته بعد قليل ليأخذ من عمته الأوراق.. ما زال يفكر في

القضية رغم مرضه.. لا يشغله غير الحق والحقيقة.. لا يشغله إلا الدليل. وتطلب حورية من عمتها أن يذهبها معها لإحضار الأوراق من الضابط كما وعدا لتردها للحسيني.

ونعود إلى القلعة.. إلى الحصن.. تحول دار الولاية إلى حصن محاط بالخفر من كل جانب.. الكل تركك يا صقر إلا الخفر.. ينظر إلى النافذة نفسها التي أطل عليه منها الحسيني.. كان ينتظر النهار.. ينتظر لحظة البداية.

ونعود ثانية إلى حورية.. يستنجد بها الحسيني الذي عاد سريعا.. هل تحضر له الطبيب؟ يرد بلا.. لقد فات أوان التعب.. كيف يا حسيني وأنت لا تستطيع الوقوف؟ كيف والعرق يغطيكم من كل جانب؟ ويطلب منها الحسيني طلبه الذي قد يكون الأخير.. الذهاب إلى بيت أبيه.. يريد الفارس أن يذهب إلى بيته الذي قطع كل هذه الرحلة من أجله.. لقد جاء من أجل أن يكون إلى جوار أبيه.. جاء مليبا نداءه.

وتنادي حورية على مروان ورشاد.. تستنجد بهما لمساعدتها في تنفيذ طلب الفارس حامل المشعل والراية.. وتقولها سسبان: "جاي لأبوك يا حسيني".. جملة تعني النهاية.. لقد أنهى الفارس رحلته وعاد إلى مستقره الأخير.. ويسمعها الحسيني فيرد: "ناداني يا عمة".. ويهم مروان بالذهاب لإحضار الطبيب، ولكن الحسيني يستوقفه: "خليك يا مروان.. مش هيلحق".. الجملة وراء الجملة يرسلها لنا عكاشة لتأكيد أن النهاية حلت.. لحظات ستمر وسيسدل الستار على الرحلة.. لقد انتهى دوره.. ها هو يقولها بنفسه.. لقد سلمهم الأمانة التي جاء من أجلها.. يطلب من حورية أن تكمل الطريق.. إنها الإحالة لكلام العفي.. يخبر حورية وعلى حورية إخبار الجميع.. كان هذا دوره من البداية.. وتأتي الكلمات الأخيرة للحسيني:

”الريش تحرق يا حورية.. وطلع لك ريش بداله.. طيري بيه..
الريش اللي يطلع في النار مايرميش شرار.. بيرمي نور.. نوري يا
حورية.. طيري ونوري يا حورية.. ماتعيطيش يا حورية.. افرحي
لي.. أنا مرسل شال رسالة قطمت وسطه.. وراحته بتبتدي بعد ما
بيسلمها.. وأنا سلمتها وماشي.. فهميها يا عمة.. ويذهب الفارس
إلى متنها.. يرحل الحسيني.. عاد ليرحل.. عاد مضحيا بنفسه من
أجل الكل.. تلقي عليه سببان التحية: ”مع السلامة يا حسيني..
فرحانة لك يا ابني“.

إننا بصدد قطعة شعرية.. صورة بديعة رسمها عكاشة بكلماته على
لسان الفارس.. على مرسل الحق والحقيقة.. صورة لذلك المرسل
الذي سلم الرسالة.. صورة للعصفور الذي نشر النار نورا في كل
مكان.. استبدل بريشه ريشا لا يخرج نارا.. يشع بنور الحق.. إنها
شعرية عكاشة البديعة.. إننا حيال نص أدبي بامتياز.

وينطلق ركب الثورة.. يحملون الفارس على الأعناق.. روحه ترفرف
حول المكان.. يدخل الخفر القلعة لتحصينها بينما يظل صقر جالسا
أمام نافذته.. ويظهر السنباطي ممسكا ببندقته.. وتظهر قوات الشرطة
وهي تستعد للحدث.. الكل ينطلق إلى الميدان.. ويصل الثائرون إلى
القلعة.. ينادون العمدة.. يظهر محاطا بخفره.. ماذا يريدون؟ وترد
حورية بأنها أتت له بالأمانة التي كان يحملها الحسيني.. أتت إليه
بالأوراق التي كان يبحث عنها.. يأمرها بأن تضعها عندها.. وترفض
حورية.. لن تضعها قبل أن يعرف أهل البلد كل ما فيها.. وتبدأ
بقراءة الأوراق.. تكشف السر.. الخطاب الذي يقول فيه صادق إن
أخاه سيقته.. وقد قتله.. فهل ينكر؟ ينفي العمدة.. لم يقتله.. قتله
السنباطي.. يتبرأ من دم أخيه وهو من أمر بالقتل.. يكذب صقر،
وهو من أَلَف الكذب.. ولكن حورية تؤكد أنهم لم يأتوا من أجل
الدم، فحساب الدم كبير، والدماء التي سالت كثيرة.. لم تكن فقط

دماء صادق.

ويظهر صوت ميلم مرددا كلمة السر التي سمعناها مرارا وتكرارا على مدار حلقتنا الأخيرة.. "الفرنواني".. يسأل ميلم: "مين يسامح في دم سيد الفرنواني؟ سيد الفرنواني يا عمدة.. الغريب الي حط في البلد من خمسة وعشرين سنة.. فتح دكان وبنى دار.. ماقدرش يشتري نسبكم بالفلوس لكن اشترى أرض.. خمسين فدان.. ودفع تمها ليلي باع له.. والي باع له خالف سلو البلد.. وخاف من الفضيحة.. قتله عشان يدفن سره معا.. لكن المنتقم العادل ماكانش رايد السر ده يندفن.. وإيد الغدر ما طالتش مرارة الفرنواني وابنه.. أنا يا عمدة.. أنا ابن الفرنواني.. عشت في الحلوانية السنين دي كلها وماحدش يعرف أنا ابن مين وجاي منين.. عملت ميلم واستنيت يوم الحساب.. كان هذا المونولوج هو الكاشف لحقيقة شخصية ميلم.. تلك الشخصية التي بدت أسطورية قادمة من عالم الحكايات والحواديت.. يجيب عكاشة على كل الأسئلة التي طرحناها.. كل الأسئلة اليوم مجابة.. ولى زمن الأسئلة وأتى زمن الإجابات.. إنها لحظة الكشف وفك العقد.. كل عقدة يجب أن تفك ونحن نكتب النهاية.

وتكمل حورية الإجابات.. ترك الفرنواني العقد مع أبيها صادق حتى لا يقع في يد من باع.. وكان من باع هو صقر.. صقر عوف الحلواني.. وتضيء الحقيقة القلوب والعقول.. طالب الناس بالحق فعرفوا الحقيقة.. أصبحت الحقيقة ملكا لهم جميعا.

وتواصل حورية.. لقد مرت السنون على الحلوانية ولا أحد يمكنه التفريط في أرضه.. من يفكر في البيع يجد جبلا عاليا أمامه هو صقر الحلواني.. يمنعه من التصرف في أرضه.. يرفع صوته في الجميع: "أرض الحلوانية ماتتفتش".. ومن يبيع الأرض لغريب فعليه أن يرحل.. كان هذا حكم صقر، وقد أتى الوقت لكي ينفذه على نفسه، فهو الوحيد الذي باع وعليه أن يرحل.

ويبدأ الكبار في الحديث.. يتكلمون بلسان واحد.. كل يكمل جملة الآخر.. على صقر أن يرحل.. لم يعد العمدة من الآن.. ساحوه في كل شيء.. في الظلم والجبروت والطغيان.. ساحوه في كل ما مضى ولكنهم لن يتركوا المستقبل بين يديه.. عليه أن يرحل.

ويتكلم ميلم العارف.. يسأل العمدة.. لماذا يخاف من هذه اللحظة وهو يراها في منامه منذ سنوات؟ ما هذا يا ميلم.. تعرف حتى ما يراه صقر في منامه؟

وبعد زمن طويل من الصمت.. كان صقر يسمع فقط دون أن يتكلم.. جاء دوره للحديث.. ولكنه لم يتحدث إلا بكلمة واحدة.. إنه ينتظر كلام مروان هو الآخر.. ويرد مروان.. إنه ثار أمه.. إنه مسامح في دمه، ولكن الحلوانية لا يوجد فيها مروان آخر ليسامح.. هو فقط من يستطيع أن يفعل ذلك.. أما بيوت القرية كلها فلا.. كل بيت في القرية له ثار عند صقر.. لا يقتصر الأمر على صادق والفرنواني وأمنة.. القائمة تطول.. ويطلب منه صقر أن يقول.. هل هذه رصاصة الرحمة التي يريدها وأشار مروان إليها؟ ويكمل مروان.. إنه لم ير ولكنه عرف.. كان للدمرداش دور بالطبع في كشف الحقائق كلها.. قال كل شيء.

ويلتفت العمدة لغياب الدمرداش.. يعرف أنه انضم إلى سفينة الفارين من الطوفان.. ويكمل مروان: كان الدمرداش حافظ أسرار العمدة كما كان السنباطي ذراعه.. وها هو يكشف الأسرار جميعا.. ومع ذكر اسم السنباطي نجده أمانا.. إنه الاستدعاء ثانية.. يقتحم السنباطي المكان دون أن يشعر أحد.. ويبدأ مروان في سرد القائمة.. قائمة طويلة من الأسماء.. تضم القائمة شقيق صالح الحناوي وابن العفي الوحيد.. كلهم ماتوا بسبب وزه شيطان من الدمرداش وأمر من العمدة، وكان السنباطي اليد التي تضرب.. ومن جديد ومع ذكر السنباطي نراه أمانا ممسكا ببندقيته مصوباً إياها.. ولكن إلى صدر من

هذه المرة؟ لا نعرف بالطبع.. وتراه سسبان.. تتحرك في اتجاهه، بينما يكمل مروان القائمة وكيفية صدور الحكم من العمدة على كل اسم فيها.. ومع كل ضحية جديدة تُترك أرض دون صاحب يبيعها العمدة لنفسه بالتوكيل الذي يحمله.

ويحاول صقر نفي التهمة عن نفسه وقد ضاقت الحلقة عليه.. ينفي التهمة بسؤال: "وإنت مصدق الحواديت دي؟".. ويرد مروان بأنه كان يرى ذلك مستحيلا، ولكن الدمرداش أعطاه الدليل.. إنها عقود أراضي الضحايا.. كلهم ماتوا في حوادث مختلفة.. وكلهم باعوا الأرض لصقر. ويسأل صقر الجميع: أهنأك من له دم عنده غير هؤلاء؟ فيرد الجميع: "كلنا".. وترد حورية: "دم صادق الحلواني عمدتهم الحقيقي يبقى دم البلد بحالها".

وينتهي حديث الشوار ليأتي دور السلطة.. ماذا سيقول؟ يردد تلك الكلمات التي قالها مرارا وتكرارا.. إنه من صنع هذه القرية.. هو من صنع الحلوانية.. هو الحلوانية.. هو من أنشأها ورعاها وأمنها.. الكل كان يأكل ويشرب ويلبس وهو وحده الذي يحمل الحمل.. ويأتون الآن لحسابه.

ويرد الشوار ثانية.. الأكل لا يصنع رجالا.. لقد ألبسهم صقر الطرح، وكمم أفواه الكل وجردهم من الكرامة.. وقد آن الأوان لأخذ الحق وإخراج الصوت المحبوس.

ولا يجد صقر إلا اتهامهم بالجنون.. لقد تكلموا جميعا ومن ثم فقد فقدوا عقولهم.. يطلب منهم النظر إلى بيوتهم.. إنه من صنعها.. كل ركن فيها مبتل بعرقه. ويرد رشاد: أي بيوت تلك؟ البيوت التي حرقها؟ ويصرخ صقر: لا.. الحسيني وحورية هم من فعلا.. وترد حورية.. لم يفعل ذلك.. الكل يعرف من فعل ورأى من فعل.. إنهم هؤلاء الخفر الذين يحيطون به الآن.. أخذوا أوامرهم من السنباطي،

والسنباطي أخذ أوامره من العمدة.

وينفي صقر التهمة مجددا.. لا يمكن لأحد أن يتصور أن يقوم صقر بحرق الحلوانية.. إنها بلده فكيف له أن يفعل ذلك؟ ويلصق العمدة التهمة بالسنباطي.. كل التهم تلصق به اليوم.. يطلب من الخفر إحضاره ليأخذ أهل الحلوانية حقهم منه.. صاحب السلطة يتبرأ من الاتهامات ويلصقها بأياديه التي لم تكن تتحرك إلا بأمره.. صورة مألوفة من كل صاحب سلطة فاسد عند سقوطه.

وثانية يظهر السنباطي مصوبا بندقيته.. هل سيقتل العمدة كما قتل أخاه؟ تقترب منه سسبان.. تمسك بسكين وتهم بضربه.. تدخل الشرطة لتمنعها من ذلك وسط هتافها: "مش هاسيك تقتل أخويا الثاني يا سنباطي".. وتقبض الشرطة على السنباطي أيضا، بينما يحاول العمدة إسكات الثوار دون جدوى.. ويعلو صوت حورية: "مش انت يا عمدة.. مش انت الي تتمسح في السنباطي".. إنه من اختارهم.. هو من جمع حوله هؤلاء جميعا، وهو من سيتحمل المسؤولية، وعليه تنفيذ الحكم.. عليه مغادرة الحلوانية.. تطلب حورية من الثوار دخول البيت وفتح الخزانة والمكتب والحصول على ما بهما وإعادة الحقوق لأصحابها.. ويوقفهم العمدة.. يطلب من الخفر إطلاق النار.. كان هذا آخر أمر له.. ولكن الأمر لم ينفذ.. ينضم عزب إلى الفارين.. كل الفارين انضموا إلى سفينة الجبناء.. وتطلق رصاصة من بندقية غير معلومة.. ويسقط العمدة.. سقط الحاكم وسقط مركز الحكم.. سقط برصاصة من بندقية غير معلومة، أم برصاصة أطلقها الكل؟

ومع سقوط العمدة يعلو صراخ مروان على أبيه وحورية على عمها.. وينتهي المشهد لننتقل إلى مشهد تال.. الطبيب يحاول إسعاف العمدة بينما ضابط الشرطة يسأله: هل يقومون بنقله إلى المستشفى؟ ويؤكد الطبيب أن هذا لا فائدة منه.. إنه فقط مازال متشبثا بالحياة.. كان مروان بجانبه، وها هو يطلب حورية.

وبالخارج كان كبار القرية يمنعون حورية من الدخول.. دخولها يعني الصفح والغفران.. سيسامحه الكل.. لا يستحق أن يسامحه أحد.. ولكن حورية ترد: "أنا مش داخله للعمدة.. أنا داخله لأبويا صقر".. ما زال في صدرها قلب ينبض بحبه.. وتدخل حورية لأبيها صقر.. يحتضن يديها.. يقولها لها.. سينفذ كلامها وسيرحل.. سيرحل بلا رجعة.. تناديه بـ"آبا صقر".. إنها الكلمة التي أحبها.. يتذكر يوم الفرح يوم أن انفض السامر.. لم يكن فرحها هي الذي انفض.. فرحها لم يأت بعد.. ولكنه سيأتي.. صقر هو من سيرحل.. وقبل الرحيل ينطق بالحق لأول مرة.. لم يؤذ الحسيني.. لقد أحبه.. لكنه لم يستطع.. أما هي فقد أحبها واستطاع.. استطاع أن يمنع نفسه عنها.. وترد حورية بأنها أحبته أيضا، فيكملها لها.. ولكنها لم تستطع.. وتؤكد حورية ذلك.. إنه استطاع أن يمنع نفسه عنها، وكان قادرا على التخلص منها.. استطاع أن يتحكم في نفسه.. ولكنها لم تستطع لأن الحق لم يكن حقها وحدها.. لو سكنت لتحول الحب إلى كره.. والآن: "مساحاني يا حورية.. دمي أهو غسلني".. وتقولها: "مساحاك يا آبا صقر".. ويرحل الصقر.. يرحل إلى اللا عودة.. وينتهي الحريق.. ولا شك أن سمات عكاشة التي رصدناها على طول الحلقات تبدو واضحة في هذه الحلقة الأخيرة، لكننا سنركز على أكثر من سمة برزت بقوة هنا.. الأولى هي تقسيم عدد من المشاهد الطويلة إلى عدد من المونولوجات تنطق بها الشخصيات، بحيث تأخذ كل شخصية دورها.. حدث ذلك مثلا في المشهد الذي ضم حورية ومروان وصقر.. كانت البداية من حورية، ثم تلاها مروان، وأنهى صقر المشهد بمونولوجه.. إنها النهاية التي انتظرها الكل.. ما الذي سيقوله العمدة بعد كل ما سمعه؟ كان هذا هو سبب التقسيم.. أن تنتظر الرد على كل تلك الاتهامات.. يحتاج صقر وهو في الأزمة أن

يسمع كثيرا ليجد ردا على كل ما يقال.

الأمر نفسه يتكرر تقريبا في مشهد مقتل صقر.. قسم المشهد إلى أجزاء.. هذا نصيب ميلم، وهذا نصيب حورية، ثم ذلك نصيب مروان، وأخيرا يأتي دور صقر الذي لم يطل هذه المرة، فقد تلقى رصاصة الرحمة.

أما السمة الثانية فكانت الدخول مباشرة إلى ذروة الأحداث في هذه الحلقة.. كانت الذروة من البداية، من خلال المشهد الذي جمع العمدة وميلم.. كانت المواجهة عنيفة.. تبعها مواجهة لا تقل عنفا مع حورية.. لقد وجدت نفسك داخل ذروة الصراع منذ اللحظة الأولى.

ورغم أننا في الحلقة الأخيرة التي تقدّم فيها كل الحلول وكل إجابات الأسئلة، فإن عكاشة لم يخل علينا بأسئلة جديدة كان أبرزها كلمة السر التي ظهرت مع بداية الحلقة.. إنها الفرنواني.

وأخيرا فإننا رأينا حرصا من عكاشة على جمع كل شخصيات عمله في الميدان.. لا شك أن هذا تطلب جهدا كبيرا منه، وهو ما انعكس على طول هذه الحلقة.. كانت أطول الحلقات.. لكن طولها لم يكن باعثا للملل.. كان المشاهد دوما راغبا في الاستزادة. ورغم ذلك فإن عكاشة - في رأيي - قد سقط في عيبين فقط فيما يخص هذا الأمر.. لقد غاب عن حلقتنا شخصيتان من أهم شخصيات المسلسل.. كانتا من أهم الشخصيات التي حركت الأحداث ودفعت بها إلى الأمام.. إنها وطنية وعزازي.. اختفيا فجأة ولم نعرف مصيرهما.. أكان هذا مقصودا من عكاشة في إشارة منه إلى أن مثل هذه الشخصيات المهمشة تسقط من الذاكرة دوما وفي كل الظروف؟ هل كانا من الذين طمس الله أسماءهم؟

العيب الثاني كان متعلقا بالدور الذي لعبه حشاد في إسقاط العمدة

والسنباطي.. لم نعرف من كان صاحب الخطة.. أكانت الشرطة كما
استنتاجنا؟ وما الدافع وراء اختيار حشاد للقيام بهذه المهمة؟ وكيف
قبل ذلك؟ ما نقطة التحول التي جعلته يقدم على ذلك الأمر؟ إنه
يكاد يكون الخيط الوحيد الذي أفلت من عكاشة.. عكاشة الذي
صنع لنا دراما تليفزيونية مصرية تستحق أن تضعه على رأس قائمة
مؤسسي أدب الدراما التليفزيونية في العالم العربي.